سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

- ٢ -

السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي

تأليف

أ.د/ أحمد أحمد غلوش

عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق

جامعة الأزهر

بسم الله الرحمن الرحيم

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ شارع الجمهورية
عابدين - القاهرة

تليفون / ٣٩٠٦٧٢٧
فاكس / ٣٩٥٦٨٠٤
ص ب / ٦٣٢ القاهرة
الرقم البريدى / ١١٥١١

Resalah Publishers

Tel.: 3906727

Fax : 3956804

P.O.Box : 632

Cairo - Egypt

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

— ٢ —

السيرة النبوية والدعوة في العهد المكي



بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمـــد لله رب العـــالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . وبعـــــد ،،،

فـــإن دين الله واحد ، ورسله جميعاً يتحركون بعقيدة واحدة ، يعلنون كلمة الله ، ويعملون لنقل الناس من الضلال إلى الهدى ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور يقول تعالى : ﴿ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [1] ، ويقول تعالى ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [2] ، ويقول تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [3] .

والآيات واضحة الدلالة في إثبات وحدة الدين ، الذي جاء به الرسل أجمعين وهـــذه الوحدة بادية في أركان العقيدة ، فهي عقيدة واحدة معلومة من لدن آدم " عليه السلام " ، إلى محمـــد " ﷺ " ، تناســـب الفطرة البشرية ، وتتسم بالصدق ، والحق ، والواقعية .

ولو كان الإنسان واحداً ، والواقع البشرى ثابتاً ، لجاء للناس رسول واحدٌ ، صالح للناس أجمعين .

---

[1] سورة الشورى الآية (١٣) .

[2] سورة آل عمران الآية (١٩) .

[3] سورة آل عمران الآيات (٨٤ ، ٨٥) .

لكـــن الإنسان ليس واحداً ، وإنما هو متعدد النزعات ، متنوع الفكر ، يتأثر واقعـــه دائمـــاً بعوامـــل جغرافية ، وبيئية ، واقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية .. إلخ ولذلك قضـــى الله بحكمسته أن يبـــعث رسولاً لكل أمة يبلغهـــا بالعقـــيدة الدينية الواحـــدة ، وبأســـلوب يتلاءم معها ، وبمنهج يقربها من دعوته ، مع تكليف الناس بأعمـــال ، وتطبيقات ، تطهر حياتهم ، وتقوى عقيدتهم ، وتساعد في القضاء على مواريث الجهل والضلال ، وبناء الحياة على الحق والصواب .

وقـــد رأينا في الكتاب الأول الخاص بدعوة الرسل " عليهم السلام " أن كل رسول دعا قومه بمنهج خاص ، وبطريقة خاصة ، مع اتحادهم في العقيدة الواحدة .

ورأينا ـــ كذلك ـــ أن كل رسول بعث لقوم معينين سواء تتابعوا زمنياً ، أو بعثوا في وقت واحد كإبراهيم ولوط " عليهما السلام " .

ورأيـــنا ـــ أيضاً ـــ أن كل رسالة كانت تراعي أحوال المدعوين ، وتلاحظ مستواهم العقلي ، والحضاري في التوجه ، والمناقشة .

إن هـــذا الموكـــب الطويل من الرسل جاءوا للناس بصورة واحدة للاعتقاد الصحيح ، القائم على التوحيد الخالص ، التوحيد المطلق ، الناصع ، القاطع ، توحيد الألوهية التي يجب أن يتوجه إليها البشر جميعاً ، كما يتوجه إليها سائر الخلائق بالتسليم والخضوع ، والعبودية .

إن هذا التوحيد يعني أن القوامة المطلقة لله لازمة على خلقه جميعاً ، فلا يقوم شئ إلا لله ، ولا سيادة على الخلق إلا من الله ، ومن ثم فإن الاستسلام كله من البشر يجب أن يكون لله ، صاحب الحول والطول ، ورب العالمين .

وقد علم الله رسله أن يتلاءم كل منهم مع واقعه في الشريعة ، وإن اختلفت عن الشرائع الأخرى ، يقول تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [1]

---

[1] سورة المائدة الآية (٤٨) .

وقد رأينا لكل رسول شريعته ، المناسبة لقومه ؛ فيها الحلال ، وفيها الحرام ، وفيها التكاليف العملية المتنوعة ، وهي مع اختلافها مع كل رسول فهي منزلة من الله ، ولذلك انسقت مع العقيدة الربانية الواحدة ؛ التي تلزم المعتقد بضرورة التلقي من الله الواحد ؛ والتحاكم إلى الوحي المنزل ، والأخذ من توجيهات النبي المبعوث ، وبذلك يتحد الضمير الخفي مع الواقع العملي ، ويعيش الناس ، كل الناس مع رسلهم مؤمنين مخلصين ؛ مطيعين لله رب العالمين .

وكما اختلف الرسل في الشريعة اختلفوا كذلك في المنهج والأسلوب ليتحقق المراد من الدعوة، يقول تعالى: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾ (١) .

إن طريقة التوجه لقوم ما لا تتناسب مع التوجه لغيرهم، لما بين الفريقين من اختلاف ، وتنوع ، وتلك دروس مستفادة من تاريخ دعوة رسل الله تعالى .

وقبيل بعثة محمد " ﷺ " ، أقترب الناس فكرياً ، وترقت عقولهم حتى وصلت إلى التصور المجرد ، والقدرة على مناقشة الدليل ؛ إلا أنهم مع ذلك كانوا مختلفين واقعاً وسلوكاً ، وعقيدة .

ووسط هذا الحال بعث محمد " ﷺ " رسولاً للعالم كله ، بالعقيدة الإلهية الواحدة ، والشريعة الملائمة للناس أجمعين ، والصالحة للتطبيق في كل زمان ، ومكان

إن الواقع البشري يلتقي مع العقيدة الإلهية لأنها نفس العقيدة التي نادى بها جميع الرسل ، وخوطب بها سائر الأقوام ، وآمن بها الكثيرون فيما مضى من الزمان .

ورسالة محمد " ﷺ " هي خاتمة الرسالات فلا دين بعده ، ولا رسول بعده ولذلك جاء الإسلام بعقيدته ، وشريعته ، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة.

وحتى تلتقي الشريعة الإسلامية الواحدة مع جميع الناس ، وعلى امتداد الزمن

---

(١) سورة إبراهيم آية (٤) .

جعلها الله على نوعين : ـــ

النوع الأول : ما يتصل بالعبادات المشروعة، والأعمال التامة، والأحكام الثابتة ، وهذه فصلها الإسلام تفصيلاً ، لا يقبل تغييراً أو تبديلاً ، وقد شرعها الله بهذه الدقــة ، والدوام لتنظيم حياة الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وهى المعروفة بالثوابت فى الإســلام ، كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وأحكام النكاح ، والطلاق ، والميراث ... وهكذا .

النوع الثانى : وهو ما يتصل بالأعمال التى تختلف من مكان إلى مكان وتــتغير من زمن لزمن آخر ، ومن جماعة لغيرها كصورة الشورى ، ومناهج العمل الــيومى ، والطبائع المرتبطة بالعادات والتقاليد، ومع هذا النوع كان وضع القواعد العامــة المنضــبطة بالأصــول الشرعية، لتكون إطاراً للمتغيرات، تأخذ الحكم منها بواســــطة اجــتهاد علماء الإسلام ... ومن أمثلة ذلك القوة فهى تختلف نوعاً ، وصورة ، فهناك القوة الخلقية،وهناك القوة الإيمانية، وهناك القوة العلمية وهناك القوة العسكرية ، من سيف ، ورمح ، ومدفع ، وصاروخ ، وطائرة ... إلخ .. وأمام هذا النوع للقوة يضع الله تعالى مبدأ كلياً حيث يقول تعالى: ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [1] وعلى مثال ذلك وضعت المبادئ الكلية للمتغيرات العملية .

وهكذا ملكت الشريعة القدرة على الالتقاء مع الناس جميعاً ، وهى تنظم لهم كافة جوانب الحياة مع اختلافهم وتنوعهم .

والعــالم كله لا يجتمع على منهج واحد ، ولذلك احتاجت الرسالة المحمدية إلى عديــد من المناهج لتتوجه إلى الناس ، أينما كانوا ، وكيفما كانوا ، وبخاصة أنها

---

[1] سورة الأنفال الآية (٦٠) .

تمتد إلى آخر الزمان ، وتشمل العالم كله ، و لم يكن المطلب عسيراً أبداً ، فقد قص الله تـــاريخ الأنبـــياء ، وســـجل حركة الدعوة الإسلامية من خلال الوحي المنزل على مـــحمد " ﷺ " ليقدم العديد من المناهج ، والوسائل ؛ للقائمين بأمر الدعوة إلى الله تعالى .

إن مـــناهج الرسل تعد طرقاً عملية ، تطبيقية للدعوة ، تحتاج إلى من يفهمها ويطبقها فى حركة الدعوة للناس .

و لم يـــبق تعـــدد اللغات ، واللهجات عائقاً أمام الدعوة ، بعدما هيأ الله من المسلمين دعاة يتقنون كافة اللغات ، ويعرفون الجوانب النفسية ، والفكرية التى تساعد فى نجاح الدعوة .

وهكذا ..

جاء الإسلام للناس صالحاً لكل زمان ومكان ..

ومحمد " ﷺ " هو الرسول المختار لتبليغ دعوة الإسلام للناس ، ولذلك أنزل الله عليه القرآن الكريم محكماً ، مفصلاً ، قيماً ، مهيمناً ، لا عوج فيه ، ولا ريب .

وقـــد استمرت البعثة المحمدية ثلاثاً وعشرين سنة ، أقام خلالها رسول الله " ﷺ " فى مكة ثلاث عشرة سنة ، والمدة الباقية عاشها فى المدينة المنورة بهجرته " ﷺ " إليها .

فى مـــدة البعثة نزل وحي الله للناس ، وكمل الدين ، وتمت النعمة ، وأصبح الإســـلام ديـــن البشرية جميعاً ، فى كافة أرجاء الأرض ، وعلى طول الزمن إلى يوم القيامة .

وقد هيأ الله محمداً " ﷺ " للدعوة، وصنعه للرسالة ، وأمده بكل ما يحتاجه لتصل الدعوة إلى الناس على وجه صحيح ، واضح ، قطعاً للأعذار ، ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ .

وقد ترك الرسول " ﷺ " لأمته رصيداً هائلاً ، يمكنهم من نشر الدين ، وتبليغه إلى العالم ، والتعامل مع كل إنسان بواقعه ولغته ، لأن هذا الرصيد كما يقدم موضوعه يقدم معه الأسلوب الأمثل ، والطريق السديد .

وقد أعانني الله تعالى فكتبت في تاريخ دعوة الرسل " عليهم السلام " وفيه حاولت إبراز منهجهم في الحركة بالدعوة ، وتوضيح أهم الركائز المستفادة من تاريخهم ، من أجل أن تكون أسساً للدعاة إلى الله من بعدهم ، وإلى يوم القيامة .

وأصبحت أمام الدعوة المحمدية لأكتب بعون الله فيها، ورأيت ضرورة إتباع المنهج الذي أتبعته مع تاريخ الرسل حيث الأسس التالية : ـــ

أولاً : التعريف بقوم الرسول ، من ناحية موطنهم ، وحضارتهم ، وأديانهم ومستواهم الفكري ، لأن هذا يساعد على اكتشاف الجوانب الفنية التي واجه بها الرسول قومه ، منهجاً ، وأسلوباً ، وحتى يتمكن دعاة العصر من الاستفادة بهذه الناحية ، كاختيار الموضوع المناسب ، والطريقة اللائقة ، والأسلوب المفيد ... وهكذا

ثانياً : التعريف بالرسول نفسه من ناحية أصله ، ونشأته ، ورحلاته ، وكافة المؤثرات في شخصيته ، وصفاته ، وكلها عوامل نجاح في تكوين الدعاة ، لأنه " ﷺ " قائدهم ورائدهم ، يقول تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾[1]

ثالثاً : تتبع حركة الرسول بالدعوة ، وإبراز كيفية مواجهته للناس على اختلافهم ، فمنهم الملأ ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم السادة ، ومنهم العبيد ، وبذلك دعا الرسول قومه جميعاً ، ووصل إلى عقولهم ، وناقش حججهم ، وهدم ضلالهم ، وبذلك ظهرت منهجية الدعوة ، والطريقة المثلى للحركة بها مع الطوائف المختلفة وأصحاب المذاهب ، والملل المحرفة .

---

[1] سورة الأحزاب الآية (٢١) .

رابعا : استنباط أهم الركائز المستفادة من دعوة الرسول " ﷺ "لتكون ركيزة يستفاد بها في الدعوة إلى الله تعالى .

خامسا : المحافظة مع الأسس المذكورة على ذكر الوقائع ورواية الأخبار وتصحيح الخطأ للمحافظة على التاريخ ، وأحداثه ، وبخاصة أنه تاريخ الدعوة .

إن إتباع هذا المنهج مع الدعوة الإسلامية دفعني إلى عدة أمور : —

الأمر الأول : التعريف بأمم العالم كله ، فإليها جاء الإسلام،ومن أجلها بعث محمد " ﷺ "، يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ [١] ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝ ﴾ [٢] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ [٣]، ويقول سبحانه قال تعالى: ﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [٤] ، ويقول النبي " ﷺ " : (**كان كل نبي يبعث لقومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة**) [٥] ..

ويقـول الرسـول " ﷺ " : (**إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة**) [٦] ..وهـذا التعريف بالعالم له أهميته ، لأنه يعرف بمدى حاجة العالم إلى الدعوة ، ويبين الحكمـة في تنوع المناهج ، والطرق ، والأساليب ؛ التي وجه الله رسوله " ﷺ " إلى

---

[١] سورة الفرقان الآية (١) .

[٢] سورة الأنبياء الآية (١٠٧) .

[٣] سورة سبأ الآية (٢٨) .

[٤] سورة الأنعام الآية (١٩) .

[٥] صحيح البخاري ــ كتاب التيمم ج ١ ص ٤٣٦ بشرح فتح الباري .

[٦] المرجع السابق ــ كتاب التفسير ــ باب سورة الفتح ج ٨ ص ٧٣٧ .

اســتخدامها فى مجـــال الدعوة ، ويشير إلى السر فى تكليف الرسول أصحابه بحمل الدعوة فى حياته ، وتحميلهم مسئولية التبليغ من بعده إلى أن تقوم الساعة .

الأمـر الـثانى : فى قضــية التعريف بالرسول وجدت نفسى أمام السيرة النــبوية ولاحظــت أن مــرحلة ما قبل البعثة حيث التنشئة ، والتربية ، والتكوين الشخصــى لرســـول الله " ﷺ " لها إرتباط وثيق بالبيئة والواقع، ولذا كان الاهتمام بدراســتها، لما لهما من تأثير فى التربية الإسلامية ، ولإظهار قيمة الحق ، والصواب ، ومكارم الأخلاق الذى عاشه رسول الله " ﷺ " وسط واقع مليئ بالفساد ، والضلال

إن مــرحلة مــا قبل البعثة المحمدية تعد دراسة للسيرة ، ولها صلة مباشرة فى الــتعريف بالرسول " ﷺ " ، ومن الممكن الاستفادة بأحداث هذه المرحلة وأثرها فى نشأة رسول الله " ﷺ " فى اختيار الدعاة ، وتربيتهم ، وتكوين شخصياتهم النفسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والقيادية ، ليتمكنوا من حمل الدعوة ، وتبليغ الإسلام على الوجه المطلوب .

أمــا مــرحلة مــا بعد البعثة ، فقد لاحظت أن تاريخ السيرة تاريخ الدعوة مــتداخلان بحيــث يصعب الفصل بينهما ، فقد كانت حياة الرسول " ﷺ " خلالها حركة دائمة للدعوة ، حيث عد نومه " ﷺ " ، ومشيه ، وصمته ، وحياته فى بيته ، ومع الناس جزءاً من حركته " ﷺ " بالدعوة ، وقد أعتبرها المسلمون ركائز يأخذون منها ، ويستفيدون من توجيهاتها ، وإيحاءاتها .

وتــبعاً لهــذه الحقــيقة سأعيش مع السيرة النبوية فى مرحلة ما قبل البعثة ، وأدرســها دراســة تفصيلية ، وآخذ منها الركائز التربوية فى مــجال التكوين ، والتنشــئة .

أمــا مرحلة ما بعد البعثة فسأوردها بجملة،مع التركيز على الأحداث المتصلة بشخصية محمد الرسول " ﷺ " تاركاً تفصيل الجانب الحركى لمبحث حركة الرسول بالدعوة ، مع أن هذه الحركة جزء من شخصيته " ﷺ " العملية ، وإظهار لرسالتــه

مع الناس .

الأمر الثالث : سأحاول مستعيناً بتوفيق الله تعالى إبراز الركائز التي فيها فائدة للدعوة والدعاة ، متصلة بكل دراسة سواء كانت الدراسة للواقع البشري، أو في السيرة قبل البعثة ، أو الحركة بالدعوة بعد البعثة على أن تكون هذه الركائز في فصل مستقل يجمعها جميعاً .. وبذلك التزم نفس المنهج الذى اتبعته مع تاريخ رسل الله تعالى .

ونظراً لطول دراسة تاريخ الدعوة خلال البعثة المحمدية فقد قسمتها إلى قسمين :

القسم الأول : ويشمل دراسة المرحلة المكية قبل الهجرة ، بحيث يتكون منه الكتاب الثاني من سلسلة تاريخ الدعوة .

القسم الثاني : ويشمل دراسة المرحلة المدنية الذى ستصدر بإذن الله تعالى في كتاب مستقل ، يمثل الكتاب الثالث في سلسلة تاريخ الدعوة .

وسيتضمن تاريخ المرحلة المكية بعون الله تعالى النقاط التالية تبعاً للمنهج الذى رجوته في دراستي لتاريخ الدعوة ، وهي كما يلي :—

الأولى : التعريف بالعالم قبيل ظهور الإسلام وسيشمل دراسة أوضاع أقاليم العالم المختلفة ، لأن موطن الدعوة الإسلامية هو العالم كله .

الثانية : التعريف بالرسول " ﷺ " من الميلاد إلى الهجرة .

الثالثة : الحركة بالدعوة في مرحلة ما قبل الهجرة .

الرابعة : إبراز الركائز المستفادة من سيرة الرسول " ﷺ " وحركته بالدعوة ، وبخاصة ما لها صلة بالدعوة والدعاة في العصر الحديث .

وسوف أورد كل نقطة من هذه النقاط في فصل مستقل، لما لكل منها من دراسة مطولة ، وعمق علمي ، وفوائد عديدة .

وهــذا التقسيم أكتب في السيرة، وهو الأمل الذى كنت أتمناه ، كما أكتب في تـاريخ الدعوة الذى أرجو له أن يصير علماً ، شامخاً بين سائر العلوم الإسلامية ، وأكتب للدعاة الذين هم أمل الأمة في النهوض ، والتقدم ، ولسوف أستفيد من سائر العلوم الإنسانية والدينية ، لأن الدعوة في الحقيقة هي غاية كل العلوم ، والحركة بهـا تحتاج لدراسات عديدة .

إن الدعــوة إلى الله تعالى من أهم علوم الإسلام في أى جانب من جوانبها ، ويكفـى شهادة على ذلك موقف القرآن الكريم معها ، فهو الذى حدد موضوعها ، ورسـم مـناهجها ، وقص تاريخها ، وأنزل العديد من أساليبها ، ووسائلها .. ومن المعلوم أن كل العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن الكريم ، وخدمة أهدافه والدعوة هـى هدفه الأول ، وغايته الأساسية ... وأملى في الله ، ودعائى له أن يهيئ العلماء المتخصصين ، وييسر لهم العمل لإبراز علوم الدعوة ، متميزة بموضوعها ومنهجها ، وغايتها ، وشرفها ، ليتتلمذ بها ومعها ، وعليها ، المؤمنون المخلصون

يقول الله تعالى : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ﴾ [١].

ويقــول سـبحانه : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝ ﴾ [٢] ويقول سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ [٣]

فالقرآن الكريم هو كتاب الدعوة ، ولا جديد في الدعوة بعد القرآن الكريم ، اللهم إلا اجتهادات عقلية في مجال التطبيق ، والملاءمة بين القضية والواقع في إطــار

---

[١] سورة الأنعام الآية (١٩) .

[٢] سورة الكهف الآيات (١ ـــ ٤) .

[٣] سورة الفرقان الآية (١) .

مفهوم القرآن الكريم .

والرسول "ﷺ" ، بعث للدعوة ، فهي مسئوليته ، ووظيفته ، يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [1]، ويقول سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ۝ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضۡلٗا كَبِيرٗا ۝ وَلَا تُطِعِ ٱلۡكَٰفِرِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَدَعۡ أَذَىٰهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾ [2]، ويقول سبحانه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [3]

هذا التزاوج الواضح بين القرآن الكريم وبين رسول الله " ﷺ " مع الدعوة ، وكذا الصلة الوثيقة بينهما ، فالقرآن الكريم دعوة تعليمية ، توجيهية ، ورسول الله " ﷺ " دعوة تطبيقية عملية ، وبهذا التلاقي تحققت المثالية الإسلامية في مجال الواقع والتقت الفطرة البشرية مع الوحي الإلهي العظيم ، وتجسدت في رسول الله " ﷺ " الذي جعل القرآن تطبيقاً عملياً في خلقه ، وسلوكه .

يروى مسلم بسنده عن سعد بن هشام قال : (**قلت لعائشة " رضي الله عنها " : يا أم المؤمنين أنبئيني عن خلق رسول الله " ﷺ " .**

قالت : ألست تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

---

[1] سورة المائدة الآية (٦٧) .

[2] سورة الأحزاب الآيات (٤٥ ــ ٤٨) .

[3] سورة المائدة الآية (٦٧) .

قالت : فإن خلق نبى الله " ﷺ " كان القرآن) [١] .

ومــن هــنا تكــون السيرة إبرازاً لشخصية الرسول " ﷺ " فى خصائصها وكمالاتها، ويكون تاريخ الدعوة إظهاراً لجهاد الرسول " ﷺ "، وتحمل مشاق الدعوة وهو يتحرك بها مع الناس .

ولى قصة مع السيرة أحب أن أذكرها هنا :

فلقــد كان شيخاى اللذان حفظت القرآن الكريم على يديهما وهمـــا الشيخ/عيسى أحمد طه،والشيخ / إبراهيم ويح[٢]، يحكيان لى ولزملائى تتفاً عن رسول الله " ﷺ " حين نقرأ على أحدهما سورة من السور التى تتحدث عن رسول الله مثل ســورة " الضــحى " و " الانشــراح "و " الفيل " وكان الشيخ يشرح لنا خواطره بأسلوب مبسط، مما حببنى فى السيرة منذ الصغر، حيث كنت مع زملائى الصغار ، نتداول كلام الشيخ،ونسعد معه بحب رسول الله " ﷺ " ونتمثله حركة معجبين بها .

ولمــا انتسبت للأزهر الشريف ، ودخلت المرحلة الابتــدائية عــلى النظام القــديم [٣] ، صــارت السيرة مقرراً دراسياً ، يعيش تاريخ رسول الله " ﷺ "، من

---

(١) فيض القدير ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) ولد الشيخ عيسى أحمد طه ونشأ بقرية " منية مسير " من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وأسس كــتاب القرية ، واهتم به مع زميل له هو الشيخ / إبراهيـــــم ويح " عليهما رحمة الله " ، وقد بــارك الله في عملهما ، وتخرج من هذا الكتاب علماء أفذاذ ، وظهر جيل من علماء القرية يدين لهمــا بالفضل ، ويكفى أن قرية ريفية صغيرة هى قرية " منية مسير " تخرج من أبنائها أكثر من ثلاثــين أستاذاً بجامعة الأزهر يدينون لكتاب القرية بالفضل ، ومن الواضح أن أبناء هذه القرية قد بارك الله لهم وحبب أبناءهم فى العلم والتعلم .

(٣) كــان الــنظام القديم فى الأزهر يقصر الدراسة قبل الجامعة على مرحلتين ، المرحلة الابتدائية ومدتهــا أربــع سنوات ، والمرحلة الثانوية ومدتها خمس سنوات ، على أن يكون التحاق الطالب بالمــرحلة الابتدائية بعد امتحان للقبول فى مستوى نهاية التعليم الأساسي ، وحفظ القرآن الكريم كله .

مولده، إلى لقائه ربه ، ونالت مقررات السيرة إهتمامى ، إذ كنت أحفظها مع بداية الدراسة ، وأذكر أن بعض زملائى كان يشيد بذلك عند الأساتذة .

ولما بدأت فى دراسة المرحلة الثانوية القديمة ، لاحظت أننا فى الدراسة كلها نعيش مع رسول الله " ﷺ " .

فالتفسير بيان لوحى الله إلى الرسول " ﷺ " .

والحديث شرح لأقوال رسول الله وأفعاله " ﷺ " .

والفقه أحكام مأخوذة عن رسول الله " ﷺ " .

وعلوم اللغة تدور كلها حول القرآن لمعرفة معانيه ، وبيان إعجازه، وإظهار سمو الوحى إلى رسول الله " ﷺ " .

وأذكر أن مدرس الخط كان يورد الآيات، والأحاديث، ويكلفنا بكتابتها (رحمه الله) ويشرح لنا معناها ، وما يستفاد بها ، وبذلك عملت المقررات كلها فى بناء الصورة الإسلامية ، وكان الأساتذة خير من يتفاعلون مع أهداف هذه المناهج ، وتحويلها إلى عنصر يتفاعل معه الطالب الأزهرى فى النظام القديم .

ومن هنا لم تعد السيرة مجرد تاريخ ، وإنما صارت الدين كله ، مما رغبني في أن أكتب فيها منذ صغرى، وأذكر هنا أنى كتبت عن محمد اليتيم ، وعن غزوة أحد ، وغزوة الحديبية .. وغير ذلك وأنا فى المرحلة الثانوية .

وكلما تقدم بى السن كبر معى الأمل ، وأخذت أتصور نفسى أمام مؤلف ضخم عن رسول الله " ﷺ " ، أتناول فيه كافة جوانب شخصيته " ﷺ " .. فأخذت أقرأ ، وأطلع ...

ومع القراءة ، وعمق النظرة ، وتكشف الحقيقة ، أخذت أستشعر ضآلة همتى أمام هامة المصطفى " ﷺ " ، وبان لى أنى كنت فى أمنية حالمة، صعبة المنال ، لكنى لم أفقد الرغبة ، ولم يملكنى اليأس والقنوط ، عشت مع أمنيتى راجياً مؤملاً فى توفيق الله

أن يسدد الخطى ، وييسر الصعب ، ويقرب البعيد والله على كل شئ قدير .

وزاد من تباعد الأمنية بروز المؤلفات الضخمة ، العديدة ، حول شخصية المصطفى " ﷺ " متناولة أهم جوانب العظمة فى السيرة النبوية ، حتى خيل إلى أن هذه المؤلفات لم تترك لى ولمن يأتى بعدى مجالاً نبرزه فى حياة رسول الله " ﷺ " .

وحمدت الله ، ولجأت للسكوت الهادئ ، واكتفيت بالقراءة ، والتعلم ، وقلت لنفسى : لأكن متعلماً ما دمت قد عجزت عن أن أكون عالماً معلماً .

ولم يطل بى الحال إذ وقع أمر قدرى أعاد لى الأمل مرة أخرى ، حين حادث حوار علمى ، حول ما هية الفروق بين السيرة النبوية ، وبين تاريخ الإسلام فى عصر النبى " ﷺ " ، أو بين فقه السيرة النبوية ، وبين الدعوة فى عصر النبوة ، ووجدت نفسى فى خضم المناقشة أؤكد أن السيرة النبوية ، لابد معها من فقه يعيش مع الحدث ويأخذ العبرة حتى لا تروى السيرة فى صورة جامدة،جامدة،لا تليق برسول الله " ﷺ " الذى أفنى حياته فى خدمة الإسلام ، وتبليغ الدعوة ، والدفاع عن دين الله تعالى ، وتلك كانت مهمته، يقول تعالى: ﴿ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴾ [1] .

إن السيرة النبوية إذا درست مع التحليل ، واستنباط العبر ، فإنها تعد تاريخاً للدعوة فى عصر رسول الله " ﷺ " .

وفى زيارة لمسجد رسول الله " ﷺ " وقفت أمام قبره " ﷺ "،وجاشت الخواطر في ضميرى،ودارت تصوراتي دورة سريعة حول حياة وجهاد المصطفى" ﷺ " ، وقلت لنفسى : إنى أقف أمام محرك البشرية كلها ، وأرى الآن التاريخ مجسداً في قوته النابضة ، وألفت ضميرى يلتصق بعالم اللاشعور الخفى ، متنقلاً بين روابى مكة ، وبادية بنى سعد ، وفى غار حراء ، وثور .. وعند بدر ، وأحد ،

---

[1] سورة العنكبوت الآية (١٨) .

والأحـــزاب ، وتـــبوك ، وأخذت أتصور المسلمين مع رسول الله " ﷺ " وهم يواجهون الطواغيت وهم يعملون للقضاء على الإسلام ، وتضليل المسلمين .

وســـرح خاطرى بعد ذلك إلى واقع المسلمين المعاصر ، ورأيت ما فيه من تباعد عن المجتمع الإسلامي الذى رباه محمد " ﷺ " ، وقلت متسائلاً :

ـــ لم كل هذا التباعد الذى ألحقه المسلمون بأنفسهم ؟ !

ـــ وما أسباب هذا التباعد ؟ !

ـــ وهل من عودة مرة أخرى إلى حيوية الإسلام، وعظمة الحياة فيه ؟ !

ـــ ألم يتأكد المسلمون من فشل كافة السبل اللا إسلامية ؟

ـــ وهل يتصور المسلمون نصرهم فى غير الإسلام، وهم مسلمون ؟ !

ـــ وهل يضع مجد الإسلام غير المسلمين ؟ !

ـــ ماهي العراقيل ؟ وكيف نتغلب عليها ؟ !

ـــ ومن للإسلام فى عالم اليوم ؟ !

وهكذا :

عشت الإسلام كله، ونظرت أمامى إلى قبر حبيبى، وسيدى المصطفى " ﷺ " ودعوت الله أن يجزيه عن الإسلام والمسلمين الجزاء الأوفى .

وعشت مع المسلمين ودعوت لهم بالفوز والفلاح ..

في هـــذه اللحظات عشت السيرة كلها ، بأحداثها ، وحركتها ، وقيمتها ، وقيمها .. وتأكدت أن أملي القديم **ضـــرورة نفسية** تســـرني ، وتسعدني .

وهو في الوقت نفسه **ضرورة إيمانية** ، لأن العصر الأول ـــ سيرة ودعوة ـــ هو منهج الإسلام وعبرة التاريخ للمؤمنين ..

كمـــا أنـــه **ضرورة اجتماعية** يحتاجها الناس في وقت تتنازع فيه المذاهب ، وتكثر المعارضات، وتشتد الحاجة إلى العلم والمعرفة بالإسلام ، لأن به وحدة النصر ،

والفوز ، والفلاح .

إن عرض السيرة بصورة حركية ، ومنهجية فنية ضرورة ليعيش الناس السيرة ، ويحيوا بها ، ويعيدوا الإسلام للحياة كما حققه النبى " ﷺ " للناس .

وزاد إقتناعى بهذا التصور بعد أن اطلعت على مناهج أقسام، وكليات الدعوة فى الجامعـــات التى قمت بالتدريس فيها [١] ورأيت أنها تهتم بدراسة تاريخ الدعوة ، وتخص عصر النبوة بالدراسة الموسعة،وشرفنى الله تعالى فقمت بتدريس مقررات تاريخ الدعوة ، لسنوات عديدة فى جامعات مختلفة الأمر الذى أحيا الأمل القديم مرة أخرى فى أن أكتـــب عن رسول الله " ﷺ " من هذه الزاوية المنهجية ، وبذلك أكتب سيرة رسول الله " ﷺ "،وأؤرخ للدعوة فى عصره"ﷺ"،وأقدم للدعوة والدعاة الفوائد والعبر المأخوذة من السيرة النبوية،وتاريخ عصر النبوة،وأوضح منهج التقدم للمجتمع كله .

إن سيرة الرسول " ﷺ " غنية بالأحداث ، مليئة بالوقائع ، متنوعة فى العطاء رائـــدة فى التربية والتوجيه ، وعلى دارسها أن يوسع اهتمامه ليشمل جوانبها جميعاً ، من شخصية ، وسياسية ، ودعوية ، واجتماعية ... إلخ .

وسأحاول بإذن الله تعالى أن أكتب فى الجوانب كلها إيفاء لحق السيرة النبوية وإبرازاً للدعوة فى إطار السيرة الكاملة ..

وســـوف أعمل على إيراد الحقائق المدعمة بالدليل ، الخالية من المبالغة ، أو التـــهويل ... ولن أقف موقف الدفاع أمام أكاذيب أعداء الإسلام ، وسأترك الحقيقة التاريخية تعلو بصدقها، وأحقيتها، فليس أقوى من الحق نصراً للحقيقة فى مجال المنازعة العلمية ، وفى كل مجال .

ولـــن أجـــرى وراء المبالغة والتهويل فى ذكر الحوادث ، والوقائع ، حتى لا أتعارض مع مسلمات العقل ، وأكون كالدبة التى قتلت صاحبها ، وهى تحبه .

---

[١] قام المؤلف بتدريس مقررات تاريخ الدعوة فى قسم الدعوة بكلية أصول الدين ـــ جامعة الأزهر ، وجامعـــة أم القرى بمكة المكرمة، وجامعة الملك سعود بالرياض ، وفى كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

لقــد كــان " ﷺ " في حركته بالدعوة واقعياً ، ربى أصحابه على الصبر ، وتحمل المشاق ، وتحمل " ﷺ " من أذى أعدائه ما لا يتصوره عاقل ، وبذلك بنى أمته على الإيمان بسنن الله في الحياة والأحياء ، وأبعدها عن الجرى وراء الخيال والأوهام .

إن الحقيقة يجب أن تعرض في ثوب يليق بها،ثوب خال من المبالغة ، والتهويل بعيد عن الإخفاء ، والصمت ، لأن كل ذلك يبعدها عن صورتها المستقيمة .

والسيرة النبوية هي شخصية رسول الله " ﷺ " الحقيقية، وتاريخ الدعوة هو الحركة الحقيقية بدين الله تعالى وتبليغه للناس .

وهاتان القضيتان ـــ السيرة وتاريخ الدعوة ـــ من أمهات الحقائق التي يجب أن يعيشها الناس ، بعقل مفتوح ، وتأمل دقيق ، وتفهم واع ، من أجل أن تظهر فترة الدعوة المكية والمدنية ـــ كما كانت ـــ بنبضها الحي ، وقوتها المتدفقة .

ومــن أفضــل السبل لعرض حقائق السيرة والدعوة أن نأخذ من المؤرخين القدامــى والمحدثين ما يفيد ، فمن القدامى نأخذ حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وحقائق الوقائع والأحداث ، .. ونأخذ من المحدثين التفحص ، والتحليل، والموازنة ، واستنباط الدروس ، والعبر .

وبذلك نعرض أحداث السيرة ، ووقائع الدعوة بوسطية حية ، محببة ، يتأسى بها ، من كان يرجو الله واليوم الآخر، وذكر الله كثيراً .

إنــي أكتب في السيرة كمؤمن محب لصاحب السيرة، سيدى محمد " ﷺ " تدفعــه عواطفــه المحبة إلى مواصلة المديح ، والإشادة ، ويدفعه إيمانه إلى التزام الدقة والصدق ، الذى دعا إليها رسول الله " ﷺ " ، والحمد لله أن رواية الصدق لا تظهر إلا عظمة رسول الله " ﷺ " .

وأكتب في الدعوة كذلك كعالم شرفه الله بالتخصص في علوم الدعوة،وقدر الله تعالى بفضــله،ومنته،عليَّ العمــل لها،ولذلك فإني أود أن آخذ من السيرة الدروس المفيدة للدعوة والدعاة ، وأحبب الدعاة في أن يعيشوا مع السيرة فهماً ، واستفادة ، وعملاً .

ولـــيس من اللائق أن يبقى رسول الله " ﷺ " بين الكتب حبيساً، أو في ثنايا الألســـنة ذكراً وفقط ، وإنما الواجب أن يصير عملاً وسلوكاً ، وقدوة ، لتحيا الأمة مرة أخرى ؛ ويعيش الإسلام حاضره العظيم .

لقد عاش أصحاب النبى " ﷺ " حياة رسول الله " ﷺ " وتمثلوها فى نومهم ، ويقظتهم ، وحركتهم ، وسكونهم .. وهو الأمل الذى أرجوه لنفسى ، وللمسلمين أجمعين ، ولذلك جعلت دراستى للسيرة والدعوة فى إطار واحد .

وبذلك أكون قد سلكت منهجاً وسطاً ، لا إفراط فيه ، ولاتفريط ، لتتحقق الفائدة ، ويبدو الإسلام بواقعيته وشموخه .

وبهذه الوسطية المنهجية أشعر أنى مع الحق والصواب ، أورده بدليله الصحيح بعـــيداً عن الشطط الذى لا أرتضيه، سواء كان مدحاً ، أو ذماً .. وبذلك التزم مع السيرة والدعوة بالصدق والأمانة ، واضعاً أمام عينى قول النبى " ﷺ " : (**من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**) (١) ..

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقنى فى مقصدى ، ويبارك لى فيه ، ويجعله ذخراً لى فى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ...

أ.د/أحمد أحمد غلوش

مدينة نصر ١١/ ٣/ ١٤٢٤هـ

١٢/ ٥ /٢٠٠٣م

---

(١) صـــحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب العلم ـــ باب إثم من كذب على النبى " ﷺ " ج ١ ص ٢٠٢ .

الفصل الأول

الواقع العالمى قبيل مجئ الإسلام

(التعريف بأمة الدعوة)

ويشمل

المبحث الأول : " واقع العرب " .

المبحث الثانى : " واقع الروم " .

المبحث الثالث : " واقع الفرس " .

المبحث الرابع : " واقع الهنود " .

المبحث الخامس : " ملاءمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام " .



تمهيد :

العـــالم هو أمة الدعوة ، فإليه بعث محمد " ﷺ " ، وأمر بتبليغ الإسلام إلى الناس أجمعين .

فمـــن أجاب ، ودخل فى دين الله تعالى صار من أمة الإجابة ، التى عرفت الحق ، وآمنت به ، واستقامت على الصراط المستقيم .

والتعريف بهذا العالم ضرورة مهمة ، لأنه يبين واقعه ، وما ساده من انحراف وضـــلال ، ويظهر المناهج التى دعا بها الرسول " ﷺ " الأمم كلها على اختلافهم ، وتـــنوعهم ، ويوضح طريقة المواجهة بين الإسلام ومعارضيه فى هذا الزمان السحيق .... وبذلك تستفيد الدعوة ، ويأخذ الدعاة الدروس ، والعبر ..

لقـــد انقسم العالم فى هذا الزمان إلى أمم كبرى هى الفرس، والروم، والعرب والهنود وكان لكل منها وضعه، ونظامه ، ودينه ، وانضوت بقية الأقاليم تحت سلطان إحدى هذه الأمم ، كولايات تابعة لها ، تعيش بنظمها ، وتتمذهب بمذهبها .. وهكذا .

وفى هـــذا الفصـــل سأتناول هذه الأمم بالدراسة ، وأعرف بواقعها ، وأهم نظمهـــا ، وأديانها ، وأخلاقها ، وسأعقد لكل أمة مبحثاً على أن أعقد مبحثاً أخيراً أبـــين فيه مدى حاجة العالم يومذاك لحمل الإسلام ، وكيف تهيأت الظروف العالمية لاستقباله ، وبذلك سيكون هذا الفصل مكوناً من خمسة مباحث هى :

- **المبحث الأول** : " واقع العرب " .
- **المبحث الثاني** : " واقع الرومان " .
- **المبحث الثالث** : واقع الفرس " .
- **المبحث الرابع** : " واقع الهنود " .
- **المبحث الخامس** : " ملاءمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام " .

وبذلك ينتهى الفصل بتوفيق الله تعالى ،،،،

المبحث الأول

" العرب "

- ١ -

جغرافية بلاد العرب

العرب هم أبناء إسماعيل " عليه السلام " ، نشأوا فى مكة أولاً ، وبعدها انتشروا فى شبه جزيرة العرب [١] ، وهاجروا إلى البلدان المجاورة .

وتنقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقاليم تبعاً لجغرافية الأرض ؛ وطبيعة المكان ذلك أن جبل السراة بدءاً من ثغر اليمن جنوباً ، وأمتد حتى بلغ أطراف الشام شمالاً ، فسمى بإقليم " الحجاز " لأنه يحجز أقليم " تهامة " الواقع فى غربه على ساحل البحر الأحمر ، عن إقليم " نجد " الواقع شرقه .. وتسمى المنطقة الواقعة جنوب جبل السراة بإقليم " اليمن " ، والمنطقة الواقعة شرق نجد بإقليم " العروض " .

وهذه الأقاليم تتمايز عن بعضها على النحو التالى :

١ - تهامة : يشمل الأرض المنخفضة ، الساحلية ، المحاذية للبحر الأحمر بدءاً من ينبع فى الشمال، إلى نجران فى جنوب السعودية ، وسميت تهامةبتهامة لشدة حرها ، وركود ريحها ، كما تسمى " الغور " لإنخفاض أرضها بالنسبة لغيرها .

٢ - الحجاز : ويتكون من عدد من الوديان التى تتخلل جبال السراة، الممتدة من الشام شمالاً إلى نجران جنوباً، وسميت بالحجاز لأنها تحجز تهامة عن نجد ؛ وفى هذا الأقليم تقع مدينتا " مكة " ، " والمدينة " ، ويرتبط هذا الأقليم بالبحر الأحمر بعدة طرق عرضية كما يرتبط بسائر الجهات .

---

(١) يسمى العرب بلادهم بـ " جزيرة العرب " على سبيل التجوز ، لأن المياة تحيط بها من ثلاث جهات فقط هى : الشرق ، والجنوب ، والغرب ، ويحدها من الشمال بلاد الشام ، والعرب يدخلون فى جزيرتهم برية سيناء ، وفلسطين ، وسوريا .

٣ ـ نجد : ويمتد من اليمن جنوباً ، وبادية السماوة والعروض والعراق شمالاً ، والخليج العربي شرقاً ، والحجاز غرباً ، وسمي " نجد " لارتفاع أرضه .

٤ـ اليمن : ويمتد من نجد شمالاً إلى المحيط الهندى جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً إلى حضرموت ، والشحر ، وعمار شرقاً ، وقد أقيم باليمن سد مأرب ، وقصر غمدان .

٥ ـ العروض : ويشمل اليمامة ، وعمان ، والبحرين، والإمارات العربية ، وقطر وسمى بـ " العروض " لاعتراضه بين اليمن ، ونجد ، والعراق .

وبلاد العرب صحراوية ، شحيحة المياه ، نادرة الزرع، إلا فى بعض المناطق كالطائف ، واليمن ، ولذلك إتجه الناس إلى الرعى ، والتنقل ، والتجارة، طلباً للرزق والمعاش ، وساعدهم على ذلك تعدد الطرق الممهدة التى تربط الشمال بالجنوب ، والشرق بالغرب ، بطرق ومسالك عديدة ، وكانت الجزيرة قبيل البعثة معبر التجارات المختلفة الآتية : من وإلى الهند ، وروما ، والحبشة ، ومصر ، وغيرها .

وتعد مدينة " مكة " ، حاضرة الجزيرة العربية ، لوجود الحرم بها ، وقد حفظ العرب لمكة حقها ، وصانوا حرمتها ، وتعارفوا على الأشهر الحرم، لينتشر السلام فى الحرم ويحج الناس إليه آمنين .

وكان العرب على إختلاف قبائلهم ، وأديانهم يؤمنون بأن دعوة إبراهيم " عليه السلام " الواردة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ ﴾ [1] قد استجيبت ، حتى صارت مكة، التى دعا لها إبراهيم " عليه السلام " بلداً ، يأمن فيه الخائف ، ويشبع الجائع ، وتأتيها الثمرات من كل الآفاق ويخيب فيها الظالم ، ويهلك المعتدى ، وقد رأووا

---

[1] سورة البقرة الآية (١٢٦) .

" أبرهة " يهلك أمامهم بجيشه، وفيله [١] ، عندما جاء لهدم الكعبة ، وصرف الحجيج عنها إلى الـ " قليس " الذى بناه فى اليمن ليقصده الناس بدل الكعبة .

وقد سمى العرب مكة بـ " ناسة " لأنها تطرد من يظلم فيها ، كما سموها " بكة " لأنها تبك أعناق الجبابرة [٢] .

يقول جصاص بن عمرو بن الحارث لقومه الجراهمة : **(لا تستخفوا بحق الحرم ، وحرمة البيت ، ولا تظلموا من دخله ، وجاء معظماً لحرمته، أو آخر جاء بايعاً لسلعته ، أو راغباً فى جواركم ، فإن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منها خروج ذل وصغار)** [٣] .

ومن أقوال سبيعة بنت الأحب بن عيلان توصى ولدها بإحترام مكة ، وبأهمية تجنب الظلم في الحرم ، تقول :

أبنى لا تظلم بمكـــة لا الصغير ولا الكبير
وأحفظ محارمها بنـــى ولا يغرنك الغـــرور
أبنى من يظلم بمكـــة يلق أطراف الشـــرور
أبنى يضرب وجهـــه ويلح بخديه السعيـــر
أبنى قد جربتـــها فوجدت ظالمها يبـــور
الله أمنها ومـــا بنيت بعرصتها قصـــور
والله آمن طيرهـــا والعصم تأمن في ثبيـــر
ولقد غزاهـــا تبـــع فكسا بنيتها الحبـــير
وأذل ربـــى ملكـــه فيها فأوفى بالنـــذور
والفيل أهلك جيشـــه يرمون فيها بالصخـــور

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١١٢ .
(٢) سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ١٢٦ .
(٣) عبقرية مكة ص ١٧ .

فاسمع إذا حدثت وافهـــــــــــم كيف عاقبة الأمـــور [1]

إن هذه المرأة العربية تشير فى نصيحتها تلك إلى مقام مكة فى ضمير أبنائها ، والعرب جميعاً منذ القديم .

وقد أعتبر العرب مكة حاضرتهم ، ومقصدهم ، ولذلك سموها بأم القرى .

وقد ازدادت أهمية " مكة " بعد الإسلام بمبعث محمد " ﷺ " فيها ، وشروق الإسلام من بين جنباتها ، وتوجه المسلمين فى كافة أنحاء الكون إليها ، قاصدين الكعبة فى صلواتهم ، وحجهم .

* * *

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ٢٦ ، بور : يهلك ، وثبير : اسم جبل بمكة ، بنيتها : الكعبة .

- ٢ -

الأوضاع السياسية والاجتماعية والأخلاقية عند العرب

اختلفت الأقاليم العربية في أنظمتها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية والأخلاقية .

ففي إقليم اليمن قامت مملكة " حمير الثانية " التي ضمت إلى سلطانها مناطق كثيرة ، وكان ملكها يسمى بملك " سبأ ، وذى ريدان ، وحضرموت ، ويمنات ، وعربهم في الجبال ، وفي تهامة)[1] .

وكان هذا الإقليم محل صراع ، وتنافس بين الفرس والروم، خلال القرن السادس الميلادى ..

حكمهم " ذونواس " الحميرى وكان يهودياً ، متعصباً ، حاول فرض يهوديته على أهل نجران النصارى ، فلما أبوا خد لهم أخدوداً ، وأحرقهم بالنار ، وأعمل فيهم السيوف ، فاستنجدوا بأمبراطور الروم، فأعانهم بجيش نصراني حبشي بقيادة " أبرهة " قوامه سبعون ألف جندى ، فقضى على دولة " حمير " الثانية [2] وسار في اليمنيين بجبروته ، وطغيانه حتى ملوا من ظلمه ، وعدوانيته وبخاصة بعدما بنى " القليس " ليصرف العرب إليها ، ويهجروا الكعبة الموجودة بمكة ، فاستعان اليمنيون بالفرس الذين أسسوا دولة لهم بقيادة " وهرز " الفارسي ، وقد استمرت هذه الدولة حتى ظهور الإسلام .

وقد سار ملوك اليمن التابعين للفرس أو للروم ،على نظام سياسي واحد ، قائم على وراثة الحكم بين الأبناء والإخوة ، وكان يساعد الملك مجلس من شيوخ

---

(١) عصر ما قبل الإسلام ص ٧٩ .

(٢) سيرة النبى " ﷺ " لابن هشام ج١ ص ٣٦ .

القبائل ، يتولون شئون الأقاليم، حيث يرأس كل قبيلة شيخها على أن يقدم الأموال التي يكلف بجمعها إلى حاكم اليمن .

وكان المجتمع في اليمن ينقسم إلى طبقات أربع هي : —

١ ـ **طبقة الجند** : وتتكون في أغلبها من جنود الفرس أو الروم .

٢ ـ **طبقة الفلاحين** : وهم الذين يقومون بالزراعة والرعي .

٣ ـ **طبقة الصناع** : وهؤلاء يقومون بالصناعات المطلوبة التي يحتاجها الناس .

٤ ـ **طبقة التجار** : وهم جماعات في المدن والقبائل كثيرو السفر والتنقل .

وقد أدى الثراء المادى فى إقليم اليمن إلى تعاون الناس ، وإلى قيام حضارة مزدهرة ،وإلى بعدهم عن الشحناء والتحارب ، كما ساعدهم على الحركة وركوب البحر ، والانتقال إلى أقاليم العالم المختلفة ، وكانوا دائماً حلقة وصل بين العرب وسائر الأمم فى الشرق ،أو الغرب، أو الشمال، أو الجنوب ، وكان لهم نشاطهم الواسع مع أقاليم الجزيرة العربية ، وقبيل ظهور الإسلام تأثر اليمنيون بحادثة محاولة أبرهة هدم الكعبة ، وبناء القليس ، وشعروا بأن هذا يتعارض مع مشاعرهم القومية ، ويتناقض مع توجه عرب الجزيرة جميعاً إلى الكعبة بيت الله تعالى الذى بناه إبراهيم وإسماعيل " عليهم السلام " .

وقد تبدلت أوضاعهم الاقتصادية بهدم سد مأرب، بسبب بغيهم ، وظلمهم ، وإعراضهم عن الحق ، والصواب، يقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝ ﴾ [1] وهكذا انقلبت أوضاعهم ، وعاشوا فى اضطراب ، وضجر حتى جاء الإسلام .

---

[1] سورة سبأ الآية (١٦ ، ١٧) .

وفى **شمال الجزيرة العربية** ، حيث قرب قبائلها من الفرس والروم ، تأسست مملكـــتان ، همـــا مملكـــة الحيرة فى الشرق تابعة للفرس ، ويحكمها المناذرة ، ومملكة الغساسنة فى الغرب تابعة للروم .

وقـــد اتخذ الفرس والروم هاتين المملكتين حائلاً بشرياً لكل منهما، يتقى به هجوم الدولة الأخرى .

وقـــد تشبه ملوك العرب في كل دولة بأسيادهم ، وساند كلاً منهم جيش كبير مدعوم من الفرس أو من الروم .

وكـــثيراً ما قامت الحروب بين الغساسنة ، والمناذرة ، وبذلك تحقق للدول الكـــبرى مـــا أرادت ، حيث كان الصدام بين العرب والعرب ، ولم يقع صدام بين الفرس والروم بصورة مباشرة .

إلا أن هـــذا الحال أدى فى الوقت نفسه إلى عدم العدوان على داخل الجزيرة العربية،حيـــث لا مطمع لأحد من الفرس ، أو من الروم فيها، لأنها بدت في نظرهم أمـــاكن صـــحراوية، متباعدة ، خالية من الخير والنفع ، وتحتاج لجهد كبير من أجل السيطرة عليها .

وأما أقاليم **نجد** ، **والعروض** ، **والحجاز** ، **وتهامة** ، فقد عاشت حياة بدوية ، تعـــتمد عـــلى الرحلة ، والتنقل ، ماعدا أهل مكة والمدينة ، والطائف ، فقد سكنها أهـــلها وعاشـــوا حياقم بين الحضارة والبداوة ، فقد أخذو الحضارة من الحجاج ، والزوار ، والتجار ، وتمسكوا ببداوقم التى ورثوها ، وعاشوا نظامهم عليها .

ومـــن هنا كان لهم شئ من الحضارة ، **ففى مكة** أنشأ " قصى بن كلاب " نظامـــاً سياسياً ، فأسس داراً سماها " دار الندوة " ، وجعل بابها يؤدى إلى الكعبة ، وخصصها لاجتماع كل من بلغ أربعين سنة ، متمتعاً بالحكمة ، والفصاحة ، وتدبر الأمور من أهل مكة، ولا يستثنى من شرط السن فقط إلا أبناء قصى [١] .

---

[١] أخبار مكة ج١ ص ٦١ .

حمل قصي قومه على دفع ضريبة سنوية تسمى بـــ " الرفادة " ، ينفق منها على الحجيج ، ضيوف الله ، فهم أحق الناس بالكرم .

وقـــد أتفـــق القرشيون فيما بينهم ، منذ عهد قصي ، على توزيع مناصب المسئولية العامة ، على مختلف القبائل ، مع استقلال كل قبيلة بشئونها [١] .

استمر هذا النظام إلى ظهور الإسلام حيث كانت توزع المناصب على النحو التالي :

١ ـ **الحجابة والسدانة** : والمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة ، وكانت في بيت " عبد الدار " .

٢ ـ **السقاية** : وهي الإشراف على بئر زمزم ، وكانت في بيت هاشم .

٣ ـ **الديات** : وتسمى الأشناق ، وكانت في بيت " تيم " .

٤ ـ **السفارة** : وتختص بالبت في الصلح ، وكانت في بيت " الخطاب " .

٥ ـ **اللواء** : وحامله هو كبير القواد إذا هُوجمت مكة ، وكان في بني أمية .

٦ ـ **الرفادة** : وهي الإشراف على جمـــع الأمـــوال ، وكـــانـــت لــــ " عبد المطلب " .

٧ ـ **الندوة** : وهي الإشراف على دار الندوة ، وكانت لأبناء عبد العزى .

٨ ـ **الخيمة** : وهي حراسة دار الندوة وتولاها بنو مخزوم .

٩ ـ **الخازنة** : وهي إدارة أموال الكعبة وكانت لبني كعب .

١٠ ـ **الأزلام** : وهي الاستخارة لمعرفة رأى الآلهة في القضايا العامة ، وكانت في بني أمية [٢] .

وقـــد أرضـــى هـــذا التقسيم قبائل مكة ، فعاشوا في استقرار ، وتعاون ، واستقلت كل قبيلة بشئونها ، ونشاطها ، وحركتها .

---

[١] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ١٣٨ .

[٢] عصر ما قبل الإسلام ص ١٧٨ .

وظهرت في الجزيرة طبقات اجتماعية متعددة أهمها : ـــ

١- **الصرحاء** : وهـــؤلاء يتكونون من أبناء القبائل المعروفين بانتسابهم إلى آبائهم الموالين لهم ، ولقبيلتهم .

٢ - **العبيد والموالي** : وهـــم الأسرى الذين ملكتهم القبائل، أو الرقيق المشترون ، أو الموالي الذين لجأوا إلى القبيلة ، أو المحرر من العبيد .

٣ - **الصعاليك** : وهـــم الأحـــرار الذين فروا من قبائلهم ، واجتمعوا في الصحارى ، وكونوا مجتمعات جديدة معارضة لقبائلهم الأولى وتعتمد على السلب ، والنهب [١] .

وأغلـــب نشاط العرب قائم على الرعي ، والتجارة ، وبخاصة بعد أن نظم هاشم بن عبد مناف رحلتي الشتاء ، والصيف ، وعقد محالفات عدة ، ضمنت الأمن للتجار ؛ كمـــا أخـــذ الأمن (الإيلاف) من القبائل المنتشرة على الطرق في مختلف أرجـــاء الجزيرة .

وقد استفاد أهل مكة من الحركة التجارية كثيراً ، لأن التجارة مدرسة تعلم السياســـة ، والكياســـة، وحســـن الجوار ، وعمق الفهم، فتعلموا من الحيرة القراءة والكتابة ، وأخذوا من الروم السياسة ، ونقلوا من الفرس ما للسلطة من سيادة وطاعة

وفي ـــ يـــثرب ـــ كثرت الآبار ، والأشجار ، واعتدل ريحها عن مكة ، سكنها اليهود منذ القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزل عليهم الأوس والخزرج ، وكان لكـــل من اليهود، والأوس ، والخزرج ، وضع خاص، ونظام معين ، فاليهود انطووا عـــلى أنفسهم واهتموا بالزراعة ، والتجارة ، وتحصين المساكن ، خاصة وأنهم رأوا قبيلتي الأوس والخزرج ، في قتال دائم جعلهما يقدمان شبابهما ، وأموالهما ، للحروب الطويلة المستمرة بينهما ، وأغلب أيام العرب كانت في يثرب .

---

[١] الشعراء الصعاليك من ١٠٣ ـــ ١٠٦ بتصرف .

وقد أدت هذه الحروب إلى اضطراب الحياة في المدينة ، فاقتصادهم مهلهل ، وأفراد القبائل كلهم محاربون ، ورؤساء القبائل لا يعدون إلا للحرب ، وطالت الأيام بين الأوس والخزرج مما جعلهم ينتظرون الخلاص من هذا التنافس ، وقد حاولوا أن يتوجوا " عبد الله بن أبي الخزرجي " ملكاً عليهم يخضع له الجميع، لكنهم فوجئوا بالبعثة المحمدية في مكة فوجهوا أملهم إليها .

وأما ــ الطائف ــ فإنها تتمتع بخصوبة التربة، وجودة المناخ، وحسن الثمر[١] وجمال الموقع ، حيث يمر بها الطريق التجارى القادم من الجنوب، وترتبط بمكة ، وبالمدينة بأكثر من طريق، وقد نشأت بها صناعات عديدة وإن كانت بدائية، كل هذا جعل أبناء الطائف يتمتعون بما فيها ، فعاشوا في رغد ، ورفاهية، مع تمسكهم ببداوتهم فكانوا يرعون الإبل ، والغنم ، ويهتمون بالزراعة ، وكانت القبيلة هي النظام السائد فيها، حيث يدير شئونها رؤساء القبائل بالتشاور فيما بينهم ، وقد قام بالطائف نظام يشبه المزارعة في العصر الحديث إذ تنازل " بنو عامر " وهم البدو المجاورون للطائف عن أرضهم ، وسلموها لمن يعمرها ، ويحييها ، بالغرس والزراعة ، على أن تقسم الثمار بينهم نصفين[٢] وقد اكتسبت الطائف شهرة عظيمة عند ظهور الإسلام .

وأما سكان المناطق الصحراوية في وسط الجزيرة، فهم مجموعة من القبائل الرحل يتولى شئونهم مشايخهم بلا دولة ، أو جند ، أو حصون[٣] .

وعاشت هذه المناطق الجدب ، والحر ، وقلة المطر ، وكان أهلها دائماً في تنقل وراء رعيهم، ومعايشهم[٤] .

وعاش أهل هذه البوادى حياة فقيرة، لبعدهم عن رحلات التجارة ، وخلو

---

(١) مراصد الاطلاع ــ ص ٢٦٥ .

(٢) معجم ما استعجم ــ البكرى ــ ج٤ ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) العرب قبل الإسلام ــ ص ٢٤٠ .

(٤) الشعراء الصعاليك ــ ص ٦٢ .

مواطنهم من المياه ، وقد أدى الفقر الشنيع بهم إلى قتل أولادهم، أو بيعهم ، ليستعينوا بأثمانهم على مطالب الحياة [١] .

وكـــان مجـــال العمل أمام البدو ضيقاً جداً ، لأن الخير فوق رمال الصحراء القاحلـــة نادر ، ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا للأغنياء في رعي الإبل، أو في خدمتهم ، فإن أبت ذلك نفوسهم تحولوا للغزو والإغارة [٢] .

وقـــد وقعـــت بين قبائل البدو المتناثرة في الجزيرة حروب، ومنازعات، هي أيامهم ، ورغم كثرتها فإن الدم لم يرق فيها كثيراً ، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء بلا مبرر [٣] ، وكثيراً ما كانت هذه المنازعات بسبب دفاع البدوى عن خلق كريم ، أو رد لظـــلم واضـــح ، وتعتبر " حرب البسوس " وهي أطول حروبهم صورة رائعة لاحـــترام البدوى لواجب الضيافة المقدس [٤] عند العرب ودفاعه عن الأضياف، وقد اشـــتهر البدوى بالشجاعة، والكبرياء منذ القديم، وقد اكسبتهم الصحراء بما فيها من مخاطر ، صفات جعلتهم أشجع من الحضر [٥] ، وعودتهم الاعتماد على أنفسهم.

وكان لعرب الجزيرة تصرفات أخلاقية راقية ، فالوفاء بالوعـــد صـــفة بارزة لا تـــنقض ، حيث يرون أن الغدر من كبائر الأمور ، ذكروا أن الحارث بن عباد مر على عدى بن ربيعة، وهو قاتل أبيه في يوم " قضه " وكان يبحث عنه ليثأر منه لأبيه فلما لقيه وهو لا يعرفه قال له : (**دلني على عدى بن ربيعة .**

فأجابه عدى : إن دللتك عليه أتؤمنني ؟ !

قال الحارث : نعم .

---

[١] الكامل — للمبرد — ج ٢ ص ٢٧٨، ٢٧٩ .

[٢] الشعراء الصعاليك — ص ١٤٧ .

[٣] الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم — ص ١٨ .

[٤] سيرة النبي " ﷺ " — لابن هشام — ج١ ص ٢٠٠ .

[٥] ابن خلدون — المقدمة — ج١ ص ١٢٥ .

فقال له عدى : أنا عدى بن ربيعة فخلاد) [١] ، احتراماً لكلمته ، ووفاء بوعده .

وكانوا **أهل حلم ولين** ، ويكفيهم عند الغضب كلمة يقولونها فتهدأ ثائرهم وهـــي " **إذا ملكـــت فاسجح** " وما حروهم إلا لحماية المنزلة ، والمحافظة على المجد والشرف، وكانوا يتحرزون عن سفك الدم بقدر إمكانهم ، ولذلك ندر عدد القتلى في معـــاركهم ؛ ففى يوم " شمطة " ، وهو أول أيام الفجار لم يقتل أحد من قريش ، كذلـــك لم يقتل أحد من بنى بكر بن عبد مناف ، وفى يوم " الشعب " وكان أهله ثلاثـــين ألفاً ، وكان أعداؤهم أضعاف ذلك ، في هذا اليوم لم يقتل إلا رجل من كل طرف [٢] ، ولم تكن الحرب تقوم، أو تتوقف، إلا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد من القبائل ليقرروا ما يستقر عليه الأمر [٣] .

وأمـــا **سخاؤهم وكرمهم** فهو مضرب الأمثال ، ويكفى أنهم كانوا يوقدون ناراً تسمى " نار القرى " توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل، وكانوا يوقدونها عـــلى الأمـــاكن المرتفعة لتكون أشهر ، وكثيراً ما أوقدوا معها عطراً يطير مع الريح ليهتدى إليها العميان [٤] .

وقد اشتملت أخلاقهم على صرامة وجدية ، والناظر لأسباب حرب الفجار وقيام حلف الفضول ، يدرك ذلك .

إن سبب حرب الفجار كان قتل رجل في الحرم [٥] الأمر الذى أدى إلى ثورة القبائل وتجمعها فى مواجهة من فجر فى الأشهر الحرم ، لتنتقم للقتيل ، ولتبقى درساً بعدها لكل من يفكر فى هتك حرمة مكة أو التعدى فى الأشهر الحرم ، وحتى لا يفجر

---

[١] بلوغ الأرب ـــ ج١ ص ١٣٦ .

[٢] بلوغ الأرب ـــ ج١ ص٧٠ ، ٢٦٨ .

[٣] بلوغ الأرب ـــ ج١ ص ٢٧١ .

[٤] سيرة النبى " ﷺ " ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ١٩٩ .

[٥] سيرة النبى " ﷺ " ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ١٩٩ .

أحد بعد ذلك فى الحرم ، ويظلم غيره .

وأيضـــاً فـــإن قيام حلف الفضول كان لصيانة حقوق المظلومين الضعفاء وضـــرورة الانتصار لمن وقع عليه عدوان من أهل مكة ، أو من يقصدها من العمار والزوار .

إن حلف الفضول يتميز بنبل الهدف ، وروعة الطريقة ، والتجرد الكريم من الأنانية ، والذاتية ، ولذلك مدحه النبي " ﷺ " بعد ذلك، وقال عنه " **لو دعيت إليه في الإسلام لأجبت**[١] لأنه يلتقى مع غايات الإسلام ، ومراميه .

***

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " ــ لابن هشام ــ ج١ ص ١٤٤ .

- ٣ -

أوضاع العرب الدينية

يشير ذلك الحشد الهائل للأصنام التي شيدها العرب ، وأقاموها حول الكعبة وفي جوفها إلى وجود عقيدة دينية ، وانتشار أفكار مقدسه عند العرب جميعاً . فلقد وجد يوم فتح مكة حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً [١] .

يمثل هـــذا العدد بكثرته ؛ آلهة القرشيين الثابتة عند الكعبة، وفي جوفها ، حيث كان يأتيها أصحابها للطواف حولها بين الحين والحين ، وكانت كل قبيلة تعرف صنمها الذي تعبده عند الكعبة ، أما ما وراء هذا العدد فهو كثير بعضه أقيم في البيت وبعضـــه في مكان العمل ، والبعض الآخر ينتقل مع قوافل السفر ، وكان لأهل كل بيـــت صـــنم يعبدونه [٢] وينحتون على صورته أصناماً صغيرة يصطحبونها معهم في الرحلة والسفر ، ويلازمونها حتى يعودوا إلى مكة [٣] .

وقد اشتهر العرب بتقديسهم لما اتخذ من حجر ، أياً كان شكله ، فمنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن كان يعجز منهم عن بناء البيت، واتخاذ الصنم ينصـــب حجراً في مكان يستحسنه ، ثم يطوف به ويسميه النصب [٤] .ومن بيوت العرب المقدسة " يرئام " وكان بيتاً لأهل اليمن يعظمونه وينحرون عنده [٥] ، ومنها " رضاء " وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب [٦] .

ومن أصنامهم " هبل " وهو أول صنم أقيم في الكعبة بعد أن أحضره عمرو

---

[١] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٧٠ .

[٢] الأصنام ص ٣٣ .

[٣] الأصنام ص ٦ .

[٤] الأصنام ص ٧ .

[٥] ابن هشام ـــ ج١ ص ٢٤.

[٦] ابن هشام ـــ ج١ ص ٩٢ .

ابـن لحـي من " مآب " ونصبه على البئر الذى حفره إبراهيم " عليه السلام " في جوف الكعـبة، وأمر الناس بعبادته فعبدوه، وكانوا ينادونه " يا إلهنا " [١] وكان من تقديس أهل مكة لـ " هبل " أن أظهروه في المشاكل الكبرى، حتى أنهم هتفوا باسمه لما رأوا أنفسهم انتصروا على المسلمين في يوم أحد [٢] .

ومع أن " هبل " هو أقدم الأصنام فإن قريشاً ومن سكن مكة كانت تعظم " العزى " أكثر من " هبل " وبعدهما " مناة "

وقد أشار الكلبى إلى أن " مناة " أقدم الثلاثة، وهى المنصوبة ناحية البحر عند المشـلل والمتمـتعة بتعظـيم العـرب جميعاً، وكان الأوس والخزرج أكثر تعظيماً له واختصاصاً به .

وذكر الكلبى أيضاً أن " اللات " أحدث من مناة، وكان تعظيمه عند أهل الطائف أكثر ، و " العزى " أحدث الثلاثة، وهى شجرة بوادى نخلة قرب مكة، ولها منزلـة خاصـة، وفريدة عند أهلها فهى أعظم الأصنام عند قريش جميعاً، يزورونها، ويهدون إليها، ويذبحون عندها [٣].

وقد تقسمت القبائل أصناماً عدة، واختصت كل قبيلة بصنم ، وعلى سبيل المثال نرى أن هذيلاً اتخذت سواعاً ، وكلباً اتخذت وداً ، وأنعم وأهل جرش اتخذت يغـوث ، وخـيوان اتخذت يعوق ، وحمير اتخذت نسراً ، وطئ اتـخذت الفـلس وبنو الحارث اتخذت ذا الشرى [٤] .

وهكذا توزعت الأصنام على القبائل ؛ وليس المجال هنا لحصرها فما هى إلا نماذج نعرف منها دين العرب ، ومعتقدها قبل الإسلام .

---

(١) أخبار مكة ـــ ج١ ص ٦٨ .

(٢) سيرة ابن هشام ـــ ج٢ ص٣٧ .

(٣) الأصنام ـــ ص ١٣ ـــ ٢٧ .

(٤) سيرة النبى ـــ ج١ ص ٨٣ ـــ ٩١ ، الملل والنحل ـــ ج٢ ص ٢٤٧ .

وقد عظم العرب أصنامهم بأشكال متعددة ، فكانوا يسمون أولادهم باسمها فباسم " مناة " سمي تميم بن مر ابنه، "زيد مناة بن تميم" ، وباسم اللات سمي ثعلبة بن عكابة ابنه"تيم اللات"، وباسم العزى سمى كعب بن سعد ابنه " عبد العزى " وحمل عوف بن عذرة " وداً " معه إلى دومـــة الجندول وسمى ابنه "عبد ود" .

وكـــانوا يذبحـــون ذبائحهم عندها، ويهدون لحومها من حضر عند الصنم ويأتونها بالهدية والزيارة [١] .

وكانوا يهتمون بالتمسح بها فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزلـــه أن يتمســـح بالصنم ، وإذا رجع كان تمسحه بالصنم أول ما يفعله ، وكانت الحائض لا تقربه،ولا تتمسح به،بل تقف بعيداً عنه حتى ينتهي حيضها [٢]

وكانوا يحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون حوله شعرهم ، ومعه كمية من دقيق .

وكانوا يحلفون به ، يقول عبد العزى بن وديعة المزني :

إني حلفت يمين صدق برة　　　　بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها　　وبالله إن الله منهن أكبر [٣]

وكانوا يصطحبون أصنامهم معهم في الحروب ، فنرى العربي في يوم " أحد " يستغيث ويستنصـــر بـــ " هبل " [٤]، وكان أبو سفيان في هذه الغزوة يحمل اللات والعزى ؛ وكـــانوا يستهمون عند الصنم ، ويضربون الأقداح لديه في شئون كثيرة كالعقل إذا اخـــتلفوا فيمن يتحمله ، ولعمل ما، أيفعل أم يترك ، يقول ابن هشام [٥] : كانوا إذا

---

[١] الأصنام ـــ ١٨ ، ٥٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٥٩ .

[٢] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٦٦ .

[٣] الأصنام ـــ ص ٤٨ ، ١٤ ، ١٧ .

[٤] تاريخ الرسل والملوك ـــ ج١ ص ١٣٩٥ .

[٥] سيرة النبي ـــ لابن هشام ـــ ج١ ص ١٦٥ .

أرادو أن أن يختنوا غلاماً ، أو ينكحوا منكحاً، أو يدفنوا ميتاً، أو شكوا في نسب أحدهم ذهبوا به إلى هبل، وأجروا القداح ، ونفذوا المراد .

ولقد أشار الأزرقي إلى أن عبادة الحجر نشأت في بني إسماعيل بسبب تعلقهم الشديد بالحرم، وبمكة ؛ لدرجة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وصبابة بمكة ، وبالكعبة ، وحيث ما حلوا وضعوا هذا الحجر أمامهم، ليبقى رمزاً لبيت الله في غيبتهم عن مكة، ويطوفون به ؛ كطوافهم بالكعبة، وظلوا على ذلك حتى عبدوا ما استحسنوا من الحجارة [١].

ولعل هذه البداية سهلت للعرب تقدير الرمز نيابة عن أصله ، وجعلوا ذلك مبدأ ينطبق على كل الأصنام مهما كانت بدايتها ، وهو الذي جعلهم يتقبلون ما أتى به عمرو بن لحى من أصنام ، حين أحضرها من بلاد الشام لقومه ، ونصبها عند الكعبة ، وذكر لهم أنها تنزل المطر ، وتنصر في الحروب ؛ وأمرهم بعبادتها فعبدوها [٢] ، وهو الذي أمرهم كذلك بعبادة أساف ونائلة ، هذين الصنمين اللذين كانا في الأصل رجلاً وامرأة فجرا في الكعبة فمسخا حجرين للازدجار والعظة ، ولكنهما بتقادم العهد صارا صنمين فلما أمر " عمرو بن لحى " بعبادتهما عبدا [٣] .

وقد كان العرب لهذا المبدأ يستحسون بعض أصنامهم مع علمهم أنها في الأصل صورة لقوم صالحين، معظمين من قومهم السابقين ، لكنهم مع طول العهد تأولوا وقالوا : ما عظم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله، فعبدوا صورهم، وعظموا أمرهم، واشتد كفرهم [٤] وما عبدوا الصورة إلا لاعتقادهم أنها رمز يستشفعون به نيابة عن صاحبه .

---

[١] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٦٧ .

[٢] الأصنام ـــ ص٨ ؛ أخبار مكة ـــ ج١ ص ١٢٥ .

[٣] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٤٤ ؛ ٦٦ .

[٤] الأصنام ـــ ص ٥١ ، ٥٢ .

وكان تعلق العربي الشديد بصنمه يشير إلى ارتباط عجيب معه، وتحمس من أجـل دوام عبادته ، فلقد دخل أبو لهب على أبي أحيحة (وهو سعيد بن العاص بن عـبد شمس)، وهو في مرضه الذي مات فيه فوجده يبكى فقال له : ما يبكيك أمن الموت تبكى ولابد منه .

قال : لا ، ولكنى أخاف أن لاتعبد العزى بعدى .

فقـال أبـو لهب : والله ما عبدت حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك .

فقال أبو أحيحه : الآن علمت أن لى خليفة [1] .

ويـبدو أن العـرب كانت تعتقد أن لهذه الأصنام أثراً جعلهم يتمسحون بها ويطلـبون نصرتها ، ويرحلون بها، ويرون أن الأصنام احتوت روحها التى صورت في الأصل على شاكلتها ، ولولا الروح التى احتوت ما كانت تستحق شيئاً [2] .

من ذلك ما عرف عن " اللات " فإنها كانت في الأصل صخرة يجلس عليها رجل يلت السويق ؛ فلما مات اعتقدوا أن روحه تقمصت الحجر ، وسكنته فاتخذوه إلهـاً هو اللات ، ومنه ما عرف عن " العزى " فإنها ثلاث شجرات أعتقد العرب أن الجن سكنتها ، وأن التأثير فيها للجن الساكن فيها [3].

وعـلى الجملة كانت العرب تعتقد أن لكل صنم شيطاناً ، فمن عبد الصنم قضى الشيطان حوائجه ، بأمر الله الأكبر وإلا أصابه الشيطان بنكبة عظيمة [4] وأكد لهـم هذا الاعتقاد ما كانت تصدره بيوتهم المقدسة بفعل الريح ، أو بفعل الكهنة من أصوات خفية ، جعلتهم يصدقون أن الأرواح والشياطين تكلمهم [5] .

---

[1] الأصنام ـــ ص ٢٣ .

[2] أخبار مكة ـــ ج١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

[3] تاريخ العرب قبل الإسلام ـــ ج٥ ص ٣٤ .

[4] بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

[5] الأصنام ـــ ص ١٢ .

ورغـــم صور تعظيم الأصنام السابقة ، وعقيدة العرب فيها ، رغم ذلك لم تنشأ طبقة كهنوتية لها مميزاتها، وخصائصها، كما حدث في البلاد الأخرى ، بل بقى كهنة العرب بين الناس كأحدهم ، يقومون بسائر الأعمال، ويشتركون في الحروب .

كذلك لم يحدث صراع من أجل الأصنام رغم تعددها ، ولم تحاول قبيلة ما ضــم أخـــرى لتعبد صنمها ، بل وجدنا العكس، فالقبيلة تقدس صنمها ،وفى نفس الوقت تحترم أصنام الآخرين ، ولكنها لا تتقرب إلا إلى صنمها .

كذلـــك لم تنشأ لدى العرب عاطفة دينية تربطهم بالأصنام ربطاً نفسياً، فيه الحمـــاس والاندفـــاع، ومعه الغيرة والانفعال ، ولذلك نراهم يتركون أصنامهم في الكعبة يوم قدوم أبرهة، ولا يفكرون إلا في البيت وحده دون معبوداتهم .

ولعل تفسير ذلك هو اعتقادهم أن كل هذه المقدسات من بيوت ، وأصنام ، ونصب ما هى إلا آلهة صغرى فوقها إله أكبر هو الخالق للجميع ، وما عبادة المظاهر الطبيـــعة المادية إلا لتكون قربى لله الأكبر، لأنه هو المالك لكل الآلهة الصغرى ، وهو رب الحـــرم، وحامـــيه ، وكانـــت التلبية السائدة عندهم تشير إلى أن الله هو المالك للأصنام فهم يقولون فيها " **لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك** " ، وهكذا كانوا يوحدون الله في التلبية، ويدخنون معه آلهتهم ، ويجعلون ملكها بيده [١] .

وأيضاً فإنهم يوم قدوم " أبرهة " تركوا مكة، ورحلوا عنها إلى شعاب الجبل المحـــيطه بهـــا ، على أمل أن ينقذ رب الحرم حرمه ، ولم ينتظروا معونة من هبل، أو الـــلات، أو غيرهـــا ، ولم يفكروا في انقاذها هي نفسها من الهـــدم، والتكســـير، يـــروى ابـــن هشام أن عبد المطلب لما أمر قريشاً بالخروج من مكة أخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول :

---

[١] الأصنام ـــ ص ٧ .

لاهم إن العبـــد يمنــــع رحله فامنع حلاً لك

لا يغلبـــن صـــــليبهـــم ومحالهم عدواً محالك

إن كنت تاركهم وقبلـــ ـــتنا فأمر ما بدا لك

ولمـا حدثـــت المناقشـــات بين أبرهة وعبد المطلب وقال ابرهة متسائلاً:تسألني عن الإبل،وتترك البيت الذى هو دينك، ودين آبائك،أجاب عبد المطلب:أما الإبل فهى لى وأما البيت فله رب يحميه [١] ، ولم يرد ذكر للأصنام في حوار عبد المطلب وأبرهة .

وقد كان العرب يذبحون ، وينحرون ، ويتقربون إلى الأصنام، وهم مع ذلك عارفون بفضل الكعبة، ورب الكعبة ، يقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دونها وبالله إن الله منهن أكبر [٢]

يرى " ورنركاس " أن الله هو الإله الذى كان فوق آلهة القبائل جميعاً، ولهذا ذكره شعراء مختلف القبائل لأنه لا يختص بقبيلة واحدة [٣] فهذا امرؤ القيس في معلقته يقسم بالله فيقول :

فقالت يمين الله مالك حيلة وما أن أرى عنك الغواية تنجلى

ونراه يذكر الله بالحمد فيقول :

أرى إبلى والحمد لله أصبحت ثقالاً إذا ما استلهمتها صعودها

ويقول عبيد بن الأبرص :

حلفت بالله أن الله ذو نعـــم لمن يشاء وذو عفو وتصفاح [٤]

ويقول زهير بن أبي سلمى :

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

---

(١) سيرة النبى ـــ ج١ ص ٥١ .

(٢) الأصنام ـــ ص ١٧ .

(٣) الشعراء الصعاليك ـــ ص ٣٠٥ .

(٤) نفس المرجع ص ١٩٧ ، ٢٩٨ .

وهكذا نراهم يعرفون الله بأنه الخالق،القادر،المدبر،الحكيم، المسخر لكل شئ في الوجود،وقد سجل القرآن الكريم هم هذه المعرفة بقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [١] وبقوله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [٢]،وبقوله: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝ ﴾ [٣]وبقوله: ﴿ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝ ﴾ [٤] ، وبقوله: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ [٥]، فهم يعرفون أن الخالق هو الله،ومسخر الفلك هو الله، ومنزل المطر ، و محيي الأرض هو الله، وهو المالك لكل شئ .

وهذه النظرة إلى الله بما فيها من قداسة، وسمو، لم تصل إلى التوحيد الخالص بسبب إنعدام التعاليم الثابتة ، الأمر الذى جعلهم يبحثون عن واسطة تربطهم بهذا الإله الأعلى ، ويبدو أن " ابن لحى " كان يتمتع بعقلية فذه استغل بها الوضع القائم فقدم للعرب الأصنام كرمز على شئ آخر عظيم، ولتكون واسطتهم إلى الله فعبدوها وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾، لدرجة أن بعض الجاهلين كانت أصنامهم على صورة تخيلوها للملائكة، لاعتقادهم أن الملائكة ذو منزلة عند الله، فهم أولى أن يكونوا واسطتهم إليه [٦] .

---

[١] سورة العنكبوت آية (٦١) .

[٢] سورة العنكبوت آية (٦٣) .

[٣] سورة المؤمنون آية (٨٤ ، ٨٥) .

[٤] سورة المؤمنون آية (٨٦ ، ٨٧) .

[٥] سورة لقمان آية (٢٥) .

[٦] بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ١٩٧ .

ومما زاد من ضلال نظرة العرب في الواسطة ما كانوا يسمعون من أصوات تصدر من الأصنام ، والبيوت ، ومن رؤيتهم لخيالات الجن قرب معبوداتهم، وبذلك تأكدت فكرتهم عن الواسطة ، وبمرور الأيام أصبحت هذه الفكرة عقيدة أساسية وما استبعدوا أن يكون الرسول بشراً إلا لاستحالة اتصال البشر بالله من غير واسطة في نظرهم، وكأنهم كانوا يريدون واسطة بين الرسول والله، من نوع معبوداتهم الموضوعة عند الكعبة وحولها، رغم صغر مساحتها لتكون في رعاية الله الأكبر، وعلى مقربة منه .

وكانت هذه العقيدة، وذاك الخلط يعيشان عادة عند العرب، فهم يحجون الكعبة، ويطوفون بها، وبعدها يختمون حجهم بالتقرب للصنم، فيحلقون رؤوسهم عنده، ويذبحون عتائرهم أمامه [١] ، ويبدو أن سبب ذلك هو بقايا بقيت من مناسك دين إبراهيم " عليه السلام " تقادم بها الزمن فشابتها بعضُ العبادات المبتدعة ، هذه البقايا جعلتهم يعظمون البيت، ويطوفون به، ويحجون، ويعتمرون، ويقفون بعرفه، ويهلون بالحج والعمرة [٢] .

ولعل في تسمية مكة " أم القرى " على الرغم من وقوعها في واد غير ذى زرع إشارة إلى اهتمام العرب بقداسة الكعبة، أول بيت وضع للناس، وأحد مواريث إبراهيم " عليه السلام " .

وقد سخر بعض عقلاء العرب من هذا الخلط فنظروا إلى مسلك أقوامهم مع الأصنام فوجدوه لهواً لا يفيد، وعبثاً من غير فكر دقيق، وعندئذ أخذوا يلتمسون الصواب في الدين .

ولقد حكى ابن هشام عن أربعة منهم هم **ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش**، وعثمان بن الحويرث، **وزيد بن عمرو بن نفيل** ، وأنهم اجتمعوا في عيد لهم

---

[١] أخبار مكة ــ ج١ ص ٧٣ .

[٢] الأصنام ــ ص ٦ .

عند صنم من أصنامهم ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شئ، لقد أخطـأوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع، ولا يبصر، ولا يضر، ولا ينفع، ياقوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شئ [١] .

وقد وقف" **قس بن ساعدة الأيادى** " قبيل البعثة بسوق عكاظ، وقـال **أيها الناس اسمعوا وعوا، فإذا وعيتم فانتفعوا، إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً ، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لن تغور ، ليل داج، وسماء ذات أبراج ، أقسم قسـماً، حقاً حتماً، لئن كان في الأرض ليكونن بعده سخطاً، وأن لله عزت قدرته ديناً أحب إليه من دينكم الذى أنتم عليه** " [٢] .

وهكذا وصل فكر هؤلاء النفر إلى أن ما عليه قومهم ليس شيئاً يذكر، وأن ديـن الله الحق هو من نوع ما جاء به إبراهيم فبحثوا عنه، وانتظروا في الوقت نفسه رسـولاً يبعثه الله إليهم ، وقد انتشر هذا الفكر بين عدد من العرب [٣] مع اختلاف طرقهم التي سلكوها بعد ذلك،فمنهم من لم يهتد إلى شئ محدد حتى مات كـ" زيد بن نفيل " ومنهم من تنصر وقرأ كتب النصرانية كـ " ورقة بن نوفل " ، ومنهم من بقـى على فكره حتى جاء الإسلام وأسلم كـ " عبيد الله بن جحش " [٤] .. ومن هـؤلاء المفكـرين **كانـت طائفة " الحنفاء " التي عبدت الله** على ما بقى من دين إبراهـيم، وبحثوا عن كل ما غاب عنها ، وهكذا لم يقتصر نشاط العرب الديني على الأصنام، والأوثان فقط ، بل اتجه مفكروهم إلى الإله الحق كما بدا من الحنفاء .

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " ـــ ج١ ص ٢٤٢ .

[٢] بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ٢٤٥ .

[٣] الملل والنحل ـــ ج٢ ص ٢٥٠ ـــ ٢٥٣ .

[٤] ابن هشام ـــ ج١ ص ٢٤٣ ـ ٢٥٠ .

وكذلك ظهر في العرب عدد من " **الحكماء** " الذين امتازوا بالخبرة، والتجربة وكانوا مرجع القوم فيما يعرض لهم من مشاكل، يقضون لهم فيها ، وقد تنوقلت عنهم كلمات قصيرة موجزة ، لكنها تحمل المعنى الكبير مما جعلها تخلد بين الناس ومن أمثالهم : —

" **مقتل الرجل بين فكيه** " .

" **إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى** " .

يقول الشهرستاني عنهم : (ومنهم الحكماء وهم شرذمة قليلون، لأن أكثر حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر)[1] .

وقد اتجه الحكماء أيضاً إلى فكرة ضرورة الخالق ، وربط المعلول بعلته ، ورأوا استحالة وجود هذا الكون بلا موجد له ، قدير ، يقول عامر بن الطرب الحكيم مفكراً في سبب الخلق : (**إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه، ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء**)[2] .

ومن حكماء العرب كذلك " عبد المطلب " جد النبي " ﷺ " الذى وصلت به الحكمة إلى سنن أمور أقرها الإسلام بعد ، فقد منع نكاح المحارم ، وقطع يد السارق ، ونهى عن قتل الموءوده، وجعل دية القتيل مائة من الإبل، إلا أن الحكمة مهما دقت ، فإنها لا تصل إلى الحقيقة بكمالها ، وأصولها ، ولذلك كانت حاجة الحكماء، وغيرهم إلى وحي يقنعهم ، ويأخذهم إلى دين الله تعالى ، ضرورة لابد منها

ويبدو أن الفرق بين الحنفاء والحكماء أن الحنفاء بذلوا الجهد كله لمعرفة الدين الحق ، الذي كان عليه إبراهيم " عليه السلام " وأهملوا عبادة الأصنام ، أما الحكماء فكان تفكيرهم في الخلق والخالق عارضاً ، وكانوا بمثابة قضاة مجتمعهم ،ومع ذلك عبد بعضهم الأصنام مثل أقوامهم ..

---

[1] الملل والنحل — ج٢ ص ٦٤ .

[2] تمهيد لتاريخ الفلسفة — ص ١١٠ .

وقـــد وصل الاضطراب الديني عند بعضهم إلى ابتداع رأى الحمس ، وهو اتجـــاه مبـــتدع، سببه حماسة العرب تجاه حرمة البيت، ووجوب إبراز هذه الحرمة في منهج عملي ، وكان هذا المنهج شديداً ، ويحتاج إلى مال كثير ، فلقد كانوا يلتزمون بإطعـــام الحجيج ، وكسائهم، فلا يأكل الحاج إلا من طعام الحمس ، ولا يلبس إلا أثوابهـــم ، فإذا لم يجد من ثيابهم طاف عرياناً، ولو طاف بثوبه فإنه يخلعه مباشرة ولا يســـتعمله أبـــداً ، وذلك لظنهم أن الحجيج عصوا الله في أثوابهم ، ولذلك لا يتسح الطواف بها .

هذا وقد وجدت عند العرب عقائد أخرى وردت إليهم من أقاليم العالم التي اتصلوا بها خلال التجارة ، أو الهجرة ، ومن هذه العقائد : ـــ

المجوسية :

أخـــذ العـــرب المجوسية من بلاد فارس،فجعلوا النور والظلمة آلهة تعبد ، وكانوا يتخذون لهما رموزاً تقدس ، يقول الألوسى : كانت المجوسية في تميم، ومنهم الأقرع بن حابس، وكان مجوسياً ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً [١] ويقول في مكان آخر : كانت الزندقة في قريش أخذوها عن الحيرة [٢] .

وقـــد ثبت أن النبي " ﷺ " أخذ الجزية من مجوس هجر [٣] ويذكر أبو عبيدة أن النبي " ﷺ " قبل الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً [٤] .

ومنها أيضا " عـبادة الكواكـب " وكانـــت موجودة في العالم على ندرة أصحابها وهم الصابئة ، وقد نقلها بعض العرب عنهم فعبدت " طي " الثريا [٥] وعبد لخم وجذام " المشترى " وعبد أسد " عطارد " وعبد كنانة " القمر " [٦] .

---

(١) بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ٢٢٥ .

(٢) المصدر السابق ـــ ج٢ ص ٢٢٨ .

(٣) نيل الأوطار ـــ ج ٨ ص ٦٣ .

(٤) الأموال ـــ ص ٣٣ .

(٥) بلوغ الأرب ـــ ج٢ ص ٢٣٩ .

(٦) التاريخ الإسلامي العام ـــ ص ١٧٧ .

ومنها عبادة الحيوان والطيور : وهذه العبادة أتت من قبل الهند ، وقد اتخذ بعض العرب أصنامهم على صورة الحيوان ، والطير .

فصنمهم " نسر " كان على صورة النسر .

وصنمهم " يغوث " كان على صورة الأسد .

ويعوق كان على هيئة الفرس [١] .

ومن عبادات العرب عبادة الشجر ، فلقد روى أن النبي " ﷺ " خرج إلى حنين وقومه حديثو عهد بجاهلية ، فلما رأى بعض أصحابه شجرة في الطريق ، يقال لها ذات أنواط ، كانت العرب تقدسها ، فنادوا وقالوا : يا رسول الله أجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله " ﷺ " : سبحان الله هذا كما قال قوم موسى لموسى " عليه السلام " إجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم [٢] .

ومن العرب ظهر بعض الدهريين الذين أنكروا الخالق، ويوم القيامة،وقالوا بالطبع المحيي، والدهر المفني [٣] وقد أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى:﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [٤] وقد أشارت الآية إلى عقيدة هؤلاء الأفراد الذين جعلوا الدهر إلها ، يحيي ، ويميت .

ولقد أدت المحاولات التبشيرية للفرس والروم إلى وجود عدد ليس بالكثير تابعاً لإحدى الدولتين ، على منهج الولاء السياسي ، أو الديني ، ومن هنا وجدت

---

[١] تفسير الزمخشري — ج٤ ص ١٦٤.

[٢] سنن الترمذي — كتاب الفتن — باب لتركبن سنن من كان قبلكم — ج ٤ ص ٤٧٥ .

[٣] الملل والنحل — ج٢ ص ٢٤٥ .

[٤] سورة الجاثية آية (٢٤) .

المسيحية في شمال الجزيرة ، وجنوبها ، وشرقها .

كمـــا أن اليهودية وجدت في جنوب الجزيرة ووسطها، وسكنت " يثرب " بهجـــرة بعض اليهود إليها ، و لم تكن اليهودية دين أمة، وإنما دين جماعة متعصبة من الرجال المغامرين .

وكـــان الـــيهود يسكنون عند الميلاد في فلسطين ، فلما تعرضوا لاضطهاد الرومان وخاصة على يد " تيطس " الذى دمر لهم " أورشليم " في المرة الثانية، رحلوا إلى الـــبلاد المجاورة كالعراق ، ومصر، والجزيرة العربية [١] ، فسكنوا أولاً بلاد اليمن حيث الازدهار والغنى ، إلا أنهم وقعوا في صراع مع المسيحية، كاد يودى عليهم لولا أن ســـاعدهم الفرس ضد الروم ، فلما اشتد اضطهادهم في اليمن، وانهدم سد مأرب مصـــدر الغـــنى، هاجروا إلى يثرب، وأسسوا فيها لأنفسهم المزارع والحصون ، وفي يثرب باشروا مناسك دينهم في حرية ، ونشطوا في أعمال التجارة والصناعة وغيرها .

وقـــد أشـــار ابن قتيبة إلى تهود عدد قليل من العرب ، حيث وجد أفراد من اليهود العرب في حمير ، وبنى كنانة ، وبنى الحارث بن كعب ، وكنده [٢] .

ويـــبدو أن السبب في عدم انتشار اليهودية هو عنصرية اليهود القائمة على فكرهم الديني، وإيمانهم بأنهم شعب مختار من الله على الخصوص، حسب ما تعلموا من نصوص كتابهم المقدس ، فلقد ايقنوا أنهم أعلى من سائر الشعوب ، وأن دينهم وقف علـــيهم كما جاء في سفر التثنية : (**أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار الرب إلهك، لتكون له شعباً أخص من جميع الشعوب،الذين على وجه الأرض**) [٣]

وهـــذا مـــا جعلهم يعيشون مستقلين،ومنطوين على أنفسهم ، ودفعهم كذلك إلى التفوق في كافة الشئون،وخاصة الشئون الاقتصادية،كماأسسوا القرى المحصنة ضمانا

---

(١) التاريخ الإسلامي العام ص ١٥٨ .

(٢) المعارف ص ٣٠٥ .

(٣) سفر التثنيه ـــ الإصحاح السابع فقرة .

لمصالحهم، وحفاظاً على هذه العنصرية ، التي آمنوا بها ، وأيضاً فإن من طبيعة العربي الاستعلاء ، والثقة ، والرضي ، رغم ما فيه من نقص ، وحاجة ، ولذلك أبى أن يكون تابعاً لهؤلاء المتعصبين .

وقد انقسم اليهود إلى طوائف متعددة ، أشهرها **الفريسيون** الذين ينادون بالتمسك بنص التوراة من غير تأويل ويسمون أنفسهم بالأصوليين، **والصدوقيون** وهم الذين ينكرون الآخرة .

وتؤكد آيات القرآن الكريم وجود اليهود في الجزيرة العربية ، حيث خاطبتهم الآيات المنزلة، وتحدثت كثيراً عنهم ؛ ويفهم من دلالة الآيات أن اليهود في الجزيرة كانوا من بني إسرائيل لا من العرب ، حيث كان النداء لهم ببني إسرائيل ، يقول تعالى : ﴿ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ [1]، ﴿ سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ﴾ [2] ، ويذكر الأستاذ دروزة أن اليهودية لم يعتنقها أحد من العرب في يثرب، ويبدوا أن من تهود من العرب كانوا أعداداً قليلة لاتذكر لقلتها ، وعدم تأثيرها في الناس ، كما أنها لا تستحق نداء باسمها على الخصوص ؛ ولذلك فهي مندرجة في نداء الله لبني إسرائيل [3].

هذا ..

والمطلع على هذا التنوع في أديان العرب يدرك حكمة الله تعالى في جعل الإسلام ينبع أولاً في العرب ، حيث يمكن مناقشة سائر المذاهب والأديان ، ومناقشة أصحابها بسهولة ممكنة ، وشمول تام و ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [4]

---

[1] سورة البقرة آية (٤٠) .

[2] سورة البقرة آية (٢١١) .

[3] سيرة الرسول ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

[4] سورة الأنعام الآية (١٢٤) .

المبحث الثاني

الروم

- ١ -

جغرافية الدولة الرومانية

سكنت – الروم – غرب أوربا، واتخذت روما [١] حاضرة لها ، ومدت سلطانها على مساحات شاسعة ، شملت سائر البلاد المطلة على البحر الأبيض من جميع جوانبه، وكان الشمال الأفريقي ابتداء من مصر حتى المحيط الأطلسي تحت السيطرة الرومانية ، وكانت مصر تمد الإمبراطورية الرومانية بالحبوب، والغذاء [٢] .

أدى الاتساع الكبير للإمبراطورية إلى أخطار كثيرة، قابلت الدولة من جيرانها في عدد من النواحي [٣]، فمن أطرافها الشرقية عند نهر الفرات أتاها خطر الفرس، ومن حدودها الشمالية الشرقية والشمالية، كان خطر القبائل الجرمانية، ومن حدودها الجنوبية الشرقية على حدود الشام كان خطر القبائل العربية الغازية [٤]، ولم يسلم من حدودها إلا الجنوبي في أفريقيا، حيث كان الأحباش قوة تحمي هذا الجانب .

وأصبح لهذه الأخطار المتعددة أثر كبير في تفكك الدولة الرومانية، وانقسامها إلى شطريها الشرقي، والغربي، ذلك أن تجمع هذه الأخطار جعلت الإمبراطور " قسطنطين " سنة ٣٢٣م " والإمبراطور دقلديانوس " سنة ٢٨٤م يشعران بأن روما " لم تعد تصلح لأن تكون مركزاً لإدارة الإمبراطورية، ومنذ عهدهما بدأ الاتجاه نحو الشرق ، وصار غرب البحر الأبيض المتوسط في المرتبة الثانوية [٥] .

---

(١) مراصد الاطلاع ص ١٩٦ .

(٢) المسلمون والجرمان ص ١٢ ، ١٣ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية ص ١ ، ٢ .

(٤) الدولة الجرمانية الشرقية ص ٣٦ .

(٥) المسلمون والجرمان ص ١٣ .

وبــالفعل فلقد عين " دقلديانوس " قسيساً له مقره " رافنا " بشمالى إيطاليا يشرف على إدارة القسم الغربى .

وتعتبر سنة ٣٩٥م هى بداية الانفصال العملى بين الشطر الشرقى، والشطر الغـربى هـذه الإمبراطورية الكبرى ؛ إذ صار إمبراطور كل قسم يعمل على حماية ممتلكاته دون اعتـبار لوحـدة الإمـبراطورية [١] ، وأصـبح لهـا عاصمتان هما "القسـطنطينية" عاصمة القسم الشرقى و " روما :" عاصمة القسم الغربى ، وأخذ الانفصال في تزايد بينهما حتى القرن السابع الميلادى [٢] .

الأحباش :

الأحباش أمة تابعة للدولة الرومانية ؛ مع شئ من الاستقلال، سكنت شرق أفريقـيا وأصـبحت حارسة لحدود الدولة الرومانية الجنوبية في القطاع الأفريقي ؛ واشـتهرت بقوتهـا العسكرية التي مكنتها من شن حملات على جيرانها، وسعت بها حدودهـا التي وصلت شمالاً إلى الحدود المتاخمة لجنوب مصر، التي كانت مستعمرة رومانية، وأخضعت لحكمها منطقة نهر "تكازه" (المجرى الأعلى لنهر عطبرة) وقبائل " البـجة " ووصلت حدودها الجنوبية إلى الصومال ، أما حدها الشرقي فهو البحر الأحمر [٣] وحدها الغربى فينتهى عند النيل وسط أفريقيا [٤] .

وكانـت حاضـرة الأحباش هى " أكسوم " الواقعة في شمال الحبشة، وقد عرفت دولة الأحباش بالدولة الأكسومية ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادى [٥] .

---

[١] المصدر السابق ص ١٩ .

[٢] الدولة الرومانية الشرقية ص ٣٦ .

[٣] بين الحبشة والعرب ص ٢٧ ، ٢٨ .

[٤] سيرة النبى " ﷺ " ص ٣٦١ .

[٥] بين الحبشة والعرب ص ١٣ ، ١٥ .

وقـــد كـــان لدولـــة الروم نفوذ واسع على الحبشة نظراً لاعتناق الأخيرة المســـيحية،إذ مـــن المفهوم أن المسيحية كانت تربط الدولة المتنصرة بالدولة الرومانية ربطـــاً قوياً،وكانت المسيحية هي الوسيلة المـــثلى في بسط النفـــوذ الروماني في أي مكان [١] .

***

---

[١] نفس المصدر السابق ص ٤٤ .

- ٢ -

أوضاع الرومان الاجتماعية والسياسية والأخلاقية

كان لكل إقليم فى الدولة الرومانية بشطريها أوضاع اجتماعية مغايرة لسواها ونظم سياسية تختلف عن غيرها .

فالرومان في دولتهم الشرقية أو الغربية كانوا يعرفون منهج الدولة المنظمة إلا أنهم عاشوا تحت وطأة ظلم بغيض ، وطبقية باغية ، وكان عامة الشعب عبيداً، وخدماً للطبقة العليا المتمتعة بكل شئ .

ففي الدولة الرومانية الغربية : قامت دويلات عدة ، تكونت من القبائل الجرمانية التى نزلت من الشمال في موجات غازية ، وكونوا طبقة السلطة ، ففى أسبانيا قامت دولة القوط الغربيين التى أسسها الملك " واليا " .

وفى أفريقيا قامت دولة " الوندال " بعد انتزاعها من الرومان بالقوة ، وتمكن القوط الغربيون من تأسيس مملكة لهم في إيطاليا ، وتدعمت في غاليا (فرنسا) مملكة يحكمها الفرنجة البحريون ، وبقيام الممالك المذكورة تصدعت الدولة الرومانية الغربية عملياً [1] ومع بداية القرن السادس الميلادى تم استقرار هذه الممالك الجديدة في مواطنها من المدة ما بين سنة ٤١٥م إلى سنة ٥٠٧م .

وكان حكم هذه الممالك وراثياً في القبائل الجرمانية ، وقد تشبه أمراء هذه الدول بأباطرة الشرق ، وحولوا المجتمع إلى طبقات ، وكانت طبقة الحكم هم الجرمان والعسكريون ، حيث تتمتع بكل شئ في الدولة ، ولا يقرب منها إلا طبقة صغار الملاك ، والحرفيين ، والتجار ، أما عامة الشعب فهم الطبقة الدنيا حيث العبيد ، والأجراء ، والفلاحين ، والخدم .

---

[1] المسلمون والجرمان ص ٢٢ ــ ٣٨ بتصرف .

عــاش أفــراد الشعب يكرهون حكامهم ، وكثيراً ما قامت صراعات بين الحكام والمحكومين في هذا العصر ، الذى عرف بـــ " عصر الظلام " في أوربا .

وقـــد زاد الملــوك البلاء ، فكانوا يسفكون الدم ، ويلحقون بالشعـــب العـــذاب ، لأتفــه الأسباب ، أو من غير سبب أصلاً، ويكفي تدليلاً على ذلك أن القــوط ، والبرجنديين أبادوا سنة ٥٣٩ م جميع الذكور من سكان " ميلان " ، وقد قدر " بروكوبيوس " عددهم بثلاثمائة ألف طفل [١] .

ورغــم أن غالبية المجتمع زراع ، فقد شمل الدمار والتخريب صغار الملاك [٢] فســلبت الأرض مــنهم، وتحولوا إلى عبيد، يرتبطون بالأرض التي يقومون بزراعتها لســادتهم بــلا مقابل، وبسبب الحاجة والفقر، اضطروا إلى أكل لحوم البشر، وثمار الحشائش ، وورق الشجر .

وقـــد تدهورت الحالة الاقتصادية تدهوراً تاماً ، وزاد من تدهورها أن الدولة الرومانـــية الشـــرقية قاطعت التجارة مع دول الجرمان ، فضلاً عن أن دول الجرمان نفســـها كانـــت فيما بينها متقطعة الأوصال ، وكل منها ينطوي على نفسه ، ولا يتعاون مع جيرانه ؛ بل وصلت الفرقة إلى قيام عديد من الحروب بينهم ، أما الشمال الأفريقي الذى كان مكاناً لمملكة الوندال ، فقد اضطرب اقتصادياً هو الآخر، وعجز عن انتاج القمح كعادته ، ولم يستطع أن يقف ولو قليلاً أمام هجوم " جستنيان " لما كان فيه من ضعف وانهيار .

ولم يسجل تاريخ الجرمان في هذه الدويلات أى نظرة إصلاحية ، بل سادها نظام الإقطاع البغيض الذى مزق غرب أوربا تمزيقاً كاملاً [٣] .

وفي الدولة الرومانية الشرقية التي اتخذت " القسطنطينية " عاصمة لها ، وهي

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٤٨ .

[٢] الإمبراطورية البيزنطيه " بينز " ص ٦ .

[٣] المسلمون والجرمان ص ٢٠ ــ ٥٢ بتصرف .

المدينة التي ابتناها"قسطنطين" في موقع ممتاز [(١)] ، واتخذ لها هذا الاسم الديني، المنسوب إليه ، لتكون في الحقيقة رمزاً على مجتمع هذه الدولة ، ونظمها الأوتوقراطية [(٢)] حيث كانــت الهوايات ، والنزعات ، وكافة الأمور من سياسية ، واجتماعية ، تلبس ثوباً دينيا [(٣)] فإذا ما تعرضت الدولة لهجمات بربرية فإنها في دستورهم أحكام من السماء نزلت على عالم فاسد يستحقها [(٤)] وصار الفرد يعيش بمجموعة من الأوهام، فإذا نزل بــه مــرض فــإن ذهابه إلى الطبيب كفر ، وكانت جماهير المرضى من جميع أنحاء الإمبراطورية تهرع إلى القسطنطينية ، لتعالج في كنيسة يوحنا المعمداني [(٥)] .

ولقــد مزقت الطبقية أوصال هذا المجتمع ؛ ذلك أن طبقته العليا المكونة من الإمبراطور ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، كانت تقرب طبقة ثانية تقل عنها، وتتكون من المــلاك، وأغنياء التجار، وأصحاب الحوانيت، ليمثلوا وجهة نظرهم ويقبضوا لهم على زمام الأمور،ويسخروا الشعب المتمثل في مجموعات"العبيد،والأجراء، ورعاع المدن [(٦)] وكثيراً ما صدرت قرارات إمبراطورية تجعل من المستأجر رفيقاً تابعاً ، هو وأولاده ، وزوجــته ، لــلمالك يرتــبط بالأرض مملوكاً لسيده [(٧)] وكان هذ النظام مطبقاً في الولايات التابعة للإمبراطورية الشرقية [(٨)] .

واتصــف البيزنطــيون بالخدعة ، والخيانة الصريحة ، والوحشية ، والعنف ، نتــيجة لقلة عددهم أمام عدوهم ، ولما رأوه أمام أعينهم من ساستهم ، الذين كانوا

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية (بيتز) ص ٨ .

(٢) مصر البيزنطية ص ٢

(٣) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ١٧ .

(٤) الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٦ .

(٥) الإمبراطورية البيزنطية " بيتز " ص ٢١٠ .

(٦) تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٧) المصدر السابق ص ٦٣١ .

(٨) مصر البيزنطية ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

يقـــترفون التحريق ، والقتل ، وقطع الأيدى ، وسمل العيون ، وجدع الأنوف ، بكل سهولة، ولأتفه الأسباب [١] .

وقـــد شـــاعت في أبناء القسطنطينية على الأخص صفات الجبن، والفسق والخسيانة، يقـــول بعض المؤرخين إنها لقصة مزعجة من مكايد القسس،والخصيان والنساء، من دس السم، والمؤامرات، ونكران الجميل، وقتل الإخوة بشكل مستمر [٢] ورغم أن تولية الإمبراطور كانت تتم وفق انتخاب يقوم على نظام معين ، لكن النظرة المقدسة إليه من الناس ، جعلته أكثر رسوخـــاً ، فهـــو صفي الإله ، وخليلــه ، وإذن فالمرشـــح الناجح هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر .

إن نجاح الإمبراطور يلزم الناس دينياً بطاعته ، وعلى ذلك فالإمبراطور رجل ديـــن ، وملكيـــته أوتوقراطية [٣] وقد شهد القرنان الخامس والسادس الميلادى تحول الإمـــبراطور من رجل مدني إلى رجل يعتمد على الدين ، في تأييد نفوذه ، ويمثل هذا الاتجاه بوضوح الإمبراطور " جستنيان " سنة ٥١٨م إلى سنة ٥٦٥م .

ومـــع كـــل هـــذا الفســـاد الإمبراطورى فقد تم إلغاء الانتخاب ، وصار الإمبراطور يعين من يخلفه في حياته ، ويدعى أنه اختيار الله .

ويكفـــى تصـــويراً للقســـوة التي عامل الأباطرة شعوبهم بها ، أن نعرف أن الإمـــبراطور " جســـنيان " لما قامت ثورة الزرق (أنصار جستنيوس الأرثوذكسي) والخضر (أتباع انستاسيوس اليعقوبي) وطلبوا إقصاء وزير المالية أخمدها بالقوة، وقتل من الثوار خمسة وثلاثين ألفاً في ستة أيام وذلك في يناير سنة ٥٣٢م [٤] .

---

(١) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٢٩ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٧ .

(٣) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٨٠ ، ٨١ .

(٤) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٢٥ ، ٦٣ بتصرف .

وهكذا كثرت الفتن في الإمبراطورية، وكثرت الاضطرابات، وقد لخص أحد الكتاب الإنجليز أسبابها ، وذكر أنها تنحصر في الابتداع الديني ، واستحداث الضرائب وتغيير القوانين ، والعادات ، مما أدى إلى الظلم العام ، وانتشار المجاعات [١] .

وكانـــت العلاقة بين الإمبراطوريتين الرومانيتين سيئة ، وزادت انهياراً بقيام الحـــروب بيـــنهما ، وقد وجه " جستنيان " أولى ضرباته القاصمة إلى دولة الوندال بأفريقيا ، واستولى على المدن الكبرى [٢] وأخذ بعدها يسلك مسلكاً معيناً فأكثر من فرض الضرائب ، واستعمل القسوة في جمعها ، فهجر الأهالي مزارعهم ، ومتاجرهم ، واحـــترفوا اللصوصية وقطع الطرق ، وشن الغارات على الحاميات البيزنطية [٣] فلجأ الإمـــبراطور إلى قوة أكبر لحكمهم بالأسلوب العسكرى، حتى صارت أفريقيا ولاية يديرها قائد عسكرى؛ وله مساعدون عسكريون ، وكانت هذه خطوة انتجت ضرراً ضد الدولة ، فعندما شعر القائد العسكرى بقوته، وبإمكان استغنائه عن الإمبراطورية أعلن استقلال ولايته .

وهكذا أعلن " جوريجوريوس " استقلاله بأفريقيا قبيل الفتح الإسلامى بقليل [٤] .

أما ـــ **الأحباش ـــ فهم** أمة عاشت هدوءاً نسبياً ، وسادها نظام ملكى مثلته الدولة الأكسومية، التي قامت مزدهرة، قوية منذ القرن الأول قبل الميلاد [٥] .

وقـــد ساعدت قوة هذه الدولة على الاستقرار الاجتماعي ، وبسط سيطرتها علي جيرانها بعدما قامت بحملات حربية عديدة ، وعبرت البحر؛ وكونت مستعمرات حبشـــية [٦] في الـــيمن ، تدر عليهم الأموال والخيرات ، وتضمن لهم تجارة آمنة ،

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٥٦ .

[٢] الإمبراطورية البيزنطية " بينز " ص ٣١ .

[٣] المسلمون والجرمان ص ٦٠ .

[٤] المسلمون والجرمان ص٦١

[٥] بين الحبشة والعرب ص ١٧ .

[٦] المصدر السابق ص ٢٦ .

ومتـــبادلة مـــع الجزيــرة العربية ، والشرق الأقصى ، وكان لفتح الأحباش اليمن أن صـــارت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يجدون فيها رغداً من الرزق ، وأمنا ومتجراً حسناً [١] ، بل وصلت قوة الدولة الأكسومية غرباً حيث النيل [٢] تستفيد من مياهه وخيراتـــه ، ولقد كان ساحل أرتيريا موطناً هاماً للتجارة ، ففي موانيه ترسو السفن التجارية لعديد من الجاليات الأجنبية ، وقد دلت الآثار على وصول تجار من اليونان ومصر إلى هذه البلاد .

وقد اشتهر ملوك هذه الدولة قبيل الإسلام بالعدل، وبكراهية الظلم، وكان هذا سبباً في اختيار المسلمين للحبشة بالذات للهجرة إليها ، وقد قال الرسول " ﷺ " لأصحابه : (**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد**) [٣] .

وخضـــعت الدولـــة الحبشية للنفوذ الروماني، وبخاصة بعد اعتناقها المسيحية خـــلال القرن الرابع الميلادي [٤] ، حيث كان اعتناق المسيحية هو السبيل الفعال إلى بســـط الـــنفوذ الروماني ، ويمكن ملاحظة هذا النفوذ عندما تعرض مسيحيو اليمن للاضطهاد وذهاب " دوس ذو ثعلبان " إلى قيصر الروم يستنصره ، فأرسله القيصر إلى ملك الحبشة الذي أعانه بجيش من عنده ، قوامه سبعون ألف رجل [٥] .

***

---

[١] تاريخ الطبري ج١ ص٣٧ .

[٢] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ٣٦١ .

[٣] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ٣٤٣ .

[٤] بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

[٥] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ٣٦ .

- ٣ -

الأوضاع الدينية للرومان

كانت المسيحية هي دين الدولة الرومانية بقسميها الشرقي والغربي ، ودين الولايات التابعة لها كمصر والحبشة وغيرهما ، وكانت الأحداث الدينية تتردد سريعاً في كل أرجاء الدولة من أقصاها إلى أقصاها .

وقد وضعت الكنيسة لنفسها نظاماً معيناً، تسير عليه ، فأقامت رئاساتها في العواصم الثلاث الكبرى لعالم البحر الأبيض حيث توجد كنائس **روما والإسكندرية وانطاكية** ، على أن يكون لبقية المدن أساقفة ورؤساء تابعون لأحد الكنائس الرئيسية الثلاث [1] .

وظل الأمر على هذا الوضع حتى تأسست القسطنطينية وأصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فتحولت كنيستها إلى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، تليها في المرتبة الثالثة كنيسة الإسكندرية وإنطاكية [2] .

ولم يكن هذا الوضع الجديد بمحل رضي من رؤساء الكنائس الأخرى ، فحل التنافس بينهم، وقد ظهرت أفكار جديدة في الفكر المسيحي، شغلت بال العالم المسيحي ، وقسمته إلى فرق متنازعة [3] .

ذلك أن أفكار " أريوس " الداعية إلى إنكار ألوهية المسيح ، وتأسيس فكرة دينية، تعتمد على التوحيد ، لاقت خلال القرن الرابع الميلادى نجاحاً في عديد من الأماكن،حيث كانت الكنيسة في " أسيوط " على رأيه، وكثر أنصاره في الإسكندرية وفلسطين ومقدونية [4] وكانت الكنائس الجرمانية التى نشأت في الدولة

---

[1] الحضارة البيزنطية ص ١٢٤ .

[2] الدول الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٣٦ .

[3] الحضارة البيزنطية ص ١٢٥ .

[4] محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

الرومانية الغربية على رأيه كذلك [١] .

وقد عرف أتباع مذهب " أريوس " بالموحدين ، وقد نشط هؤلاء الموحدون في نشر عقيدتهم، حتى أنهم في الإسكندرية وثبوا على " اثناسيوس " بطريرك الإسكندرية ، ورأس معارضي " أريوس " والمنادي بألوهية المسيح، وثبوا عليه ليقتلوه فهرب منهم واختفي ، وكذلك فعلوا في بيت المقدس مع بطريركها [٢] .

وفي قرطاجنة تعرض " الاثناسيوسيون " للاضطهاد، ولقي كثير منهم حتفهم، وتحول بعضهم إلى عبيد، وصارت كنائسهم أماكن عبادة للموحدين ، وفي بلاد الغال وأسبانيا، لجأ الموحدون إلى القسوة في تبشيرهم، معتمدين على سلطان " القوط " [٣] .

ورغم سيادة أفكار التوحيد فقد استطاع " قسطنطين "، بقوته أن يقضي عليها فجمع القسس من جميع الكنائس، وعقد مجمعاً في " نيقية سنة ٣٢٥م " ضم ألفين وثمانية وأربعين من الأساقفة المختلفين في آرائهم وعقائدهم ، وكان من بينهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً يقولون بألوهية المسيح ، فأخذ الإمبراطور برأيهم ، وجعله عقيدة عامة قررها على الناس بقوة الدولة [٤] وجعل مخالفته زندقة،موجهة ضد الدين يعاقب عليها بالهرطقة [٥] .

وهكذا انتصرت " الاثناسيوسية " على الأريوسية مما آذن بعلو شأن كنيسة الإسكندرية [٦] واختفاء مذهب التوحيد ، ولم يظهر في عالم المسيحية بعد ذلك إلا ألوهية المسيح .

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٤١ : ٤٢ .

[٢] محاضرات في النصرانية ص ١٣١ .

[٣] محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

[٤] محاضرات في النصرانية ص ١٢٤ : ١٢٥ .

[٥] الحضارة البيزنطية ص ١٣١ .

[٦] الإمبراطورية البيزنطية " بينز " ص ١٠٠ .

ولم يكــن هــذا النصر بداية استقرار في الفكر المسيحي، بل نشأت مسألة أخرى مع بداية القرن الخامس الميلادي، كانت هى السر في الانقسام الكامل للكنائس المسيحية بصورة واضحة.

ذلــك أن مجمع " أفسوس " الأول سنة ٤٣١م الذى اجتمع ليقرر رأيه في أفكار " نسطور " القائلة بأن المسيح ليس إلهاً، ولكنه إنسان ملهم معصوم؛ لا كسائر الــناس [١] ،أيــد رأى أســقف القسطنطينية، في تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى، والناسوتى ، وأنهما امتزجا ، وصارا كائناً واحداً .

وكــان هــذا القــرار مبغضــاً عند كنيسة الإسكندرية، وروما، وشعب القسطنطينية، لأنه يهدد بعزل " مريم " العذراء من أمومتها للقسم اللاهوتى، ويحرمها مــن لقــب" أم الرب " ولذلك نجد هذه الكنائس تتحد ضد هذا القرار، **وتجتمع في أفســوس ثانية**، وتقرر أن للمسيح طبيعة واحدة ، وتسرع في نشر هذا المذهــب في أطــراف الــدولــة ، وتقوم كنيسة الإسكندرية بإرسال تسعة رهبان إلى الحبشة، يدعــون لمذهب الطبيعة الواحدة [٢] مما جعل كنيسة القسطنطينية تثأر لنفسها بقرار مضــاد في مجمع " خلقدونية " سنة ٤٥١م وذلك بمساعدة كنيسة روما ، وقد أعتبر هــذا المجمــع القائلين بالطبيعة الواحدة هراطقة، وقرر وجوب تعذيبهم ، ومع الأيام تطور هذا الخلاف إلى منافسة حادة، نشط فيها كل طرف لتقوية مذهبه، واتهام غيره بالهــرطقة ، الأمر الذى حوله إلى خلاف قومى ، نادى كل وطن فيه بالانفصال عن الإمبراطورية [٣] .

فشــلت كــل محاولات التوفيــق بين الطرفين المتنازعين، كما اعترف بذلك " يوستنياتوس " في مجمع " القسطنطينية الخامس سنة ٥٥٣م " .

---

[١] محاضرات في النصرانية ص١٣٥ .

[٢] بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

[٣] الحضارة البيزنطية ص ١٣٣ .

وقـــد حاول " هرقل " بعد انتهائه من الحروب الفارسية أن يضع حداً هذا الخـــلاف، فـــألف **مذهباً جديداً** تخيل من ورائه أنه يرضي الأطراف المتنازعة، سماه **مذهـــب التوحـــيد في الإرادة**، وهـــو ينادي بعدم التفاني في طبيعة المسيح، حيث الاختلاف والتنازع ، مع الإيمان بأن له إرادة واحدة ، غير أن هذا المذهب جاء بنتيجة مضـــاده لأن " هرقل " استعمل القوة في فرضه، وأملي علـــى أمراء الولايات أن يفعلـــوا ذلـــك، فأخذ " المقوقس " في مصر يستعمل العنف والتعذيب في فرض هذا المذهـــب، واتهـــم القوم " هرقل " وولاته بمحاولة إضلال الشعب المسيحي، وقاموا بحـــركة مقاومة سرية ؛ وقاد " بنيامين " هذه الحركة في مصر حتى أصبح المصريون يتمنون زوال الإمبراطورية [١] .

ومع الأيام انتشر هذا النزاع في كل الدولة الرومانية بأجزائها، وولاياتها، وقد انتشر مذهب الطبيعة الواحدة في مصر، والحبشة، واعتنقه بعض الغساسنة وتعصبوا له وانتشـــر مذهب الطبيعتين في " القسطنطينية " وروما، وبلاد الحيرة ، وعن طريق الحيرة امتد إلى بعض أطراف الجزيرة العربية الجنوبية [٢] .

و يجب ملاحظة أن هذه المنازعات لم تقف حائلاً دون نشر المسيحية، بل إنها أدت إلى قيام منافسة، وتسابق، بين الكنائس المختلفة، لتـــفوق كل على زميلتها في نشـــر المسيحية بمذهبها، في بلاد جديدة وبذلك يتحقق تفوق سياسي واقتصادي يمكن الدولة من مجابهة الصراع الفارسي، والانتصار عليه .

والمســـيحية بعد المسيح " عليه السلام " تعتبر ديناً توسعياً ، ولذلك نشط معتنقوها قبل الإسلام في توسيع دائرتها في البلاد الخارجية .

ففي الولايات التابعة للفرس ظهر لها أتباع من الغساسنة، كما أن امتدادها إلى الحبشـــة تم في القرن الرابع، ووصولها إلى اليمن تم قريباً من هذا التاريخ ، وكان

---

[١] الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٠ .

[٢] تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ٧٥ ، ٧٩ ، ٨٢ .

لانتشـــارها طـــرق مـستعددة لاقت تشجيعاً من جميع المسيحيين، وخاصة من الدولة الرومانية الشرقية، وكنائسها المتعددة ، ولا غرو فهي دولة " أوتوقراطية " أسست من بدايتها على الدين .

ولم تمنع المنازعات المذهبية تعاون المختلفين في المذهب إذا لزم الأمر ، حيث نرى " النجاشي " ملك الحبشة يتعاون مع إمبراطور القسطنطينية، ويرسل جيشاً إلى الـــيمن لـــلمحافظة على المسيحية بها، رغم اختلاف الإمبراطور والنجاشي في طبيعة المسيح ، ورغم أن نصارى اليمن أنفسهم كانوا على القول بالأريوسية المخالفة لكل من النجاشي والإمبراطور .

وكان لموقع الجزيرة العربية بين الحبشة والدولة الرومانية الشرقية أن تعرضت لمحـــاولات تبشيرية متعددة ، أدت إلى اعتناق بعض العرب للمسيحية ، وقد وجدت المســـيحية بنجران (**جنوب الجزيرة**) على يد رجل من الشام هو " فيمين " حيث تمكن هو وتلميذه " عبد الله بن الثامر " من نشر المسيحية بهذه المنطقة [1] ، وقد كان فيمين وتلميذه صورتين لمبشري المسيحية الذين انتشروا في الجزيرة يتاجرون، ويدعون للمسيحية ، وكانوا يعتبرون التجارة مع التبشير كسباً مضاعفاً [2] .

ويمكـــن اعتبار حملة " أبرهة " على مكة حملة عسكرية للتبشير بالمسيحية، تمت بعد فشل الوسائل السلمية ، وبخاصة بعدما ثبت أن الدولة البيزنطية كانت ترسل تجارها إلى مكة لتتجسس على العرب [3] ، ومما يساعد على هذا الاعتـــبار سرعـــة بنـــاء أبرهة " للقليس " ومضاعفة تحسينها، وتجميلها؛ قاصـــداً بذلك صرف العرب عـــن كعبـــتهم وتوجههم إلى القليس للحج والزيارة ، التي بناها على هيئة الكعبة ؛

---

[1] التاريخ الإسلامي العام ص ٥٠ .

[2] أخبار مكة ج١ ص ٨٣ .

[3] تاريخ العرب قبل الإسلام ج٦ ص ٥٨ .

وصـــورها، وقد كتب أبرهة إلى النجاشي بعد بناء القليس قائلاً : (**ولن أنتهي حتى أصرف حج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم**) [١] .

ولمـــا تبين استحالة تحقيق هذا الأمل جرد حملته إلى الحجاز، لهدم الكعبة، وبذلــك لا يجـــد العرب إلا " القليس " ، فيذهبون إليها مضطرين ، وبذلك يسهل تنصير أبناء الجزيرة العربية كلها .

وقـــد بذلت الدولة الرومانية الأموال الضخمة في تأسيس عديد من الكنائس والأديرة داخل الجزيرة العربية، وكانت تجلب الإعانات ، والأموال لهذه الكنائس من بـــلاد العـــراق والشام، والروم [٢] ، ومع كل هذه المحاولات التبشيرية فإنه لم يعتنق المسيحية إلا نفر ضئيل من العرب، ويبدوا أن السبب ما كان فيها من قصور فكري، وتناقض واضطراب لا يتفق مع الفطرة العقلية .

***

---

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

(٢) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

المبحث الثالث

الفرس

ـ ١ ـ

الموطن الجغرافى

ــ **والفـــرس** ــ أمـــة سكنت شرق الجزيرة العربية ، واشتركت معها في الحدود الشرقية ، ويعتبر الخليج العربي حاجزاً طبيعياً بين العرب والفرس .

ــ والفرس ــ امتداد للشعب الإيرانى القديم الذى نشأ في الوديان الخصبة بين جـــبال الهـــندكوش ، وسلســـلة جبال يغمان ، وانتشر هذا الشعب في منطقة آسيا الوســـطى ، وانقســـم إلى شطرين : شطر سكن في منطقة ما وراء نهر جيحون وهم الإيرانيون الشرقيون ، وشطر سكن غرب النهر وهم الإيرانيون الغربيون [١] .

وقد قامت دولة الفرس في المنطقة الواقعة بين الجزيرة العربية، وبلاد الشام ، ونهـــر الفرات غرباً ، وبين نهر جيحون، والسند شرقاً ، وبين بلاد أرمينيا، وصحراء سيبريا شمالاً ، وبين المحيط الهندى جنوباً [٢] .

وكانت عاصمة الفرس " المدائن " وهى مدينة كبيرة أقيمت على شاطئ نهر دجلـــة ، فـــتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب " ﷺ " ، في واقعة مشهورة ، عرفـــت باسمها، وقد عرف جزؤها الشرقى بـــ " المدائن القصوى " وجزؤها الغربي عرف بالمدائن الدنيا [٣] .

وقبـــيل الإســـلام وحـــد الساسانيون فارس تحت حكمهم ، وانهوا إمارات الطوائـــف التي تقاسمت الدولة ، وجعلوا لدولتهم قوة تناوئ دولة الروم الموجودة في شمالى غرب الدولة .

---

(١) تاريخ بخارى ص ٤٤ .

(٢) العرب قبل الإسلام ــ زيادة ــ ص ٥٥٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٣٤ .

- ٢ -

الأوضاع السياسية
والاجتماعية والأخلاقية للفرس

كـــان الحكم في الفرس مطلقاً قائماً على أساس تقديس بيت معين يستمد حقه من الله ، فلقد كان (آل ساسان) يعتقدون أن حقهم في الملك مستمد من الله ونشـــروا ذلك في الناس، حتى أن العامة اعتقدوا هذا، وصار جزءاً من تدينهم ، ومن هنا كان الملك يتوارث للأولاد، والحفدة ، فإذا لم يجدوا من الأبناء رجلاً كبيراً جعلوه لطفل لا يعي ، فإن لم يوجد الطفل جعلوه لامرأة ، ولقد ملكوا بعد شيرويه أردشير طفــلاً عمـــره سبع سنوات، وملكـــوا بوران بنت كســـرى ، وملكوا أخـــرى اسمهـــا (أزرهـــي دفت) [١] ووفقاً لهذه النظرية المقدسة تمتع الأكاسرة، وهم ملوك فـــارس بمزايا لا حد لها، فهم كالآلهة تماماً، وفوق القانون، وفوق البشر، ولهم تنشد الأناشـــيد المقدســـة ، وعندهم تكفر الذنوب، وإشاراتهم أمر لا يستحق إلا السمع والطاعة ، وكان لكل واحد منهم حاشية خاصة لها تقاليدها، ومظاهرها .

وقـــد استغل الملوك منزلتهم عند القوم في الإثراء الفاحش الكبير،واعتادوا أن يكنزوا النقود، ويدخروا الطرائف من الأشياء الغالية، حتى أن "خسرو الثاني" حينما نقـــل أمواله إلى بناء جديد سنة ٦٠٨م بلغ ما نقله ٤٦٨ مليون مثقال ذهب، وبعد ثلاثـــة عشـــر عامـــاً من ملكه بلغت ماليته ٨٠٠ مليون مثقال [٢]، يقول شاهين مكاريوس:(لم يرد في التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة، الذين كانت تأتيهم الهدايا، والجزيات، من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى) [٣]

وكانت الولايات العديدة تخضع لكسرى يوجهها كما يريد رغم تباعدها ،

---

[١] تاريخ الطبري ج٢ ص ٤٥ ـــ ٥٥ بتصرف .

[٢] إيران في عهد الساسانية ص ١٦٣ وما بعدها .

[٣] تاريخ إيران لشاهين مكاريوس ص ٢١١ .

ولعل في طلب (باذان) من عامله في اليمن أن يحضر النبي " ﷺ " إلى المدائن حياً، أو ميتاً توضيحاً لنوع سطوة كسرى، وخضوع الولاة له .

وقـــد امتاز الفرس بالنشاط وكلفوا بالمدنية، وطلبوا الاستقرار ما وسعتهم الأرض، ومـــالوا إلى الاشتغال بالفـــنون والحرف، وأقبلوا على تجارة الحرير في غيرة وجـــد، وكـــانوا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسيرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الإمبراطورية الساسانية إلى شرق بلاد الإمبراطورية الرومانية [١] وبسبب ذلك انتشر النشاط الصناعي، والزراعي، في أنحاء الإمبراطورية، وحقق رخاءً ورفاهية في أنحاء الدولة.

وكـــان المقتضى أن ينتشر العدل بين الرعية تبعاً لذلك، إلا أن الوضع أخذ شـــكلاً رهيباً من الطبقية البغيضة، القائمة على النسب، والحرف ، يصوره صاحب كتاب إيران في عهد الساسانية في إيجاز فيقول : (كان المجتمع الإيراني مؤسساً على أساس النسب، والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة، لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة ، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشترى أحد منهم عقاراً لأمير، أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذى مـــنحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها ، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفة من وظائفهم ، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً ، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع) [٢] .

ولم تقـــف إهانـــة الطبقات الدنيا عند حد إبعادها عن الوظائف العامة، بل فرضت عليها الضرائب الباهظة بلا حساب وضبط، حيث كانت تختلف من سنة إلى أخـــرى ، ومـــن مكـــان إلى آخر، كما، ونوعاً ، الأمر الذى ألحق أفدح الأضرار

---

[١] تاريخ بخارى ص ٤٥ — ٤٦ .

[٢] إيران في عهد الساسانية ص ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

بالضعفاء وأصحاب الحرف الصغيرة، مما أدى أخيراً بالمزارعين إلى أن يتركوا أعمالهم، ويلجأوا إلى الأديرة يلتمسون فيها المأوى والاستقرار ، وكان أسعد المزارعين حظاً ذلك الذي سمح له بأن يعمل لسيده بأجر زهيد .

ولم تقف هذه الإهانات الواقعة على الطبقات السافلة في حياتهم المدنية، بل كانت تلازمهم وهم في الجيش، وفي ميدان القتال،يقول المؤرخ" أميان مارسيلينوس ": (إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسيرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب عليهم الرق الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة، أو تشجيعاً، من راتب، أو أجرة، وكانت علاقة الفلاحين بالملاك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة)[1] .

وقد أدى هذا الوضع الطبقي إلى نتائج بالغة السوء ، فانتشر الحقد والبغضاء بين الضعفاء، والكبر والاستعلاء بين الكبراء، وهدد المجتمع بانقسامات خطيرة، سكنت ملامحها نفوس الناس وقلوبهم .

ولعل في هذا الوضع بعض أسباب إنتشار واستقرار الإسلام السريع في ربوع الدولة الفارسية،حين أتاها، لأن مبادئ الإسلام السامية صادفت وضعاً ظالماً فمحته، وطبقت تعاليمها مكانه ، فاستقرت، وما ظهر في فارس من قوة وغنى ، فقد كان خاصاً بالطبقات الأعلى ، والحاكمة وحدها ، وكل ما دونها ، فقد عاش في فقر وهوان .

---

[1] المرجع السابق ص ٣٢٤ .

ـ ٣ ـ

أوضاع الفرس الدينية

كانت المجوسية وهي ديانة الفرس ، مركبه من عناصر مذاهبهم المتعددة ، التى بـــدأت قبل الميلاد بكثير ، واستمرت في تطورها ، وتشكلها ، حتى جاء الإسلام ، وهـــى ديانة في الجملة تهتم ببيان أصل المخلوقات وعدد الآلهة ، فمنذ القدم والملوك يقدسون إلهين من بين الآلهة الكثيرة، التى يعبدها عامة الشعب، على أساس أن أحدهما أصـــل الخير ، والثانى أصل الشر [١] وبعد تطور المجوسية على يد زرادشت نراه يرجع جمـــيع الآلهـــة الموجودة إلى إلهين اثنين ، إله الخير ويسمى " أهورامزدا " ، وإله الشر ويسمى " أهريمان " وهما متضادان، فلقد ورد في كتبهم المقدسة أن " مزدا" قال لـــ " أهريمان " ما معناه : (**ليس علمنا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ، ولا حياتنا ، أنا وأنت متفقه في شئ ، ولذا فنحن اضداد**) [٢] .

والفرس يعتبرون أن أقوال زرادشت،وتعاليـــمه قـــد أودعـــت في كتـــاب " زند أفيستا " ، الذى تم جمعه في القرن السادس الميلادى [٣] ، وفى هذا الكتاب سمو خاص، ومواعظ طيبة، مما جعل الفرس يرفعون زرادشت بعد وفاته إلى مرتبة عالية ، فزعموا أن وجوده في الدنيا مر بمراحل خيالية خاصة ، وأنه بعث رسولاً إلى الخلق ، ونبياً لكشتاسب الملك وغيره ، هذا مع إثباته للأصلين المتضادين ، النور والظلمة [٤] ويظهر من كلام الشهرستانى أن نبوة " زرادشت " صحيحة لأنه يقول : إن زرادشت يدعـــو إلى أن البارى هو الخالق للظلام والنور ، ومبدعهما ، وهو واحد ، لا شريك له، ولا ضد، ولا ند له ، ويدعى كذلك أن كتاباً نزل عليه وهو " زندوفيستا" ومن

---

[١] الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

[٢] وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

[٣] الفلسفة الشرقية ص ١٨٧ .

[٤] الملل والنحل ج١ ص ٢١٧ .

تعاليمه ضرورة الإيمان بالروح والجسم ، والتكليف القائم على الاعتقاد ، والقول ، والعمل ، وأيضاً فأتباع زرادشت يثبتون له معجزات ، منها دخول قوائم الفرس في بطنه ، وقد بشر " زرادشت " بظهور " الرجل العالم " في آخر الزمان،ليزين الكون بالدين والعدل [١] وهو يدعو الناس إلى الإيمان باليوم الآخر، والبعث، والجزاء .

وليس لدينا دليل ، يمنع أن يكون نبياً ما دامت تعاليمه موحدة في العقيدة ومؤمنة بالبعث ، وداعية إلى الخلق الطيب ، والعمل النافع ، وغير ذلك ، والدراجه تحت الرسل المذكورين في قوله : ﴿ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾جائز .

ويمكن تفسير ما ينسب إليه من دعوته لإلهين ، أحدهما للنور ، والآخر للظلام ، أنه من وضع أتباعه الذين حرفوا دعوته .

لكن الذى نذكره بعد ذلك أن ديانة الفرس بعد " زرادشت " داخلها فساد كبير، أضاع أغلب معالمها ، فلقد جاء "**ماني**" في القرن الثالث الميلادى، وعمق الأصلين في الوجود ، وجعلهما إلهين ، مستقلين ، أزليين ، قديمين .

وقد حكى " **محمد بن هارون** " المعروف بـ " أبي عيسى الوراق " أن الحكيم "**ماني**" زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور ، والآخر ظلمة ، وأنهما أزليان لم يزالا ، ولن يزالا [٢] .

وفي نهاية القرن الخامس الميلادى جاء "**مزدك** "فأضاف إلى فساد العقيدة على يد " **ماني** " فساداً أخلاقياً آخر، حين قال بالشيوعية المتطرفة، المنادية بالمساواة في المال، والنساء، لأنهما في نظره سبب الحرب ، والقتال ، وبإلغائهما تتطهر القلوب من الأحقاد ويعيش الناس في سلام [٣] ، وجاءت المانوية فأوصلت الأصول إلى ثلاثة هي النار والأرض، والماء [٤] .

---

[١] الملل والنحل ج١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ .

[٢] الملل والنحل ج١ ص ٢٢٤ .

[٣] الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

[٤] وحدة الدين ص ١١١ .

ولقـــد كانت المجوسية في عصر ظهور الإسلام خليطاً من كل هذه الآراء ، فلقد تناسي الفرس وحدانية زرادشت ، وتمسكوا بثنائية المانوية ، بل كان العامة منهم يؤلهـــون بعـــض القوى الطبيعية ، ويقدسون بعض الحيوانات ، ويؤمنون أن روح الإنســـان بعد الموت تنتظر ثلاثة أيام ، وفي فجر اليوم الرابع تهب ريح إما معطره إن كان صاحب الروح خيراً ، أو نتنه إن كان صاحبها شريراً ، وبعد ذلك تذهب الروح مع فتاة ، أو عجوز لتحاكم وتأخذ جزاءها [١] .

وكـــان الفرس قبيل ظهور الإسلام يعبدون النار ويقدسونها ، مؤمنين بقوتها وشرفها ، حتى لا يعذبوا بها في الآخرة ، وقد بنوا لها بيوتاً للعبادة في كثير من نواحي الدولة ، ففي طوس، وبخارى، وغيرهما أقيمت البيوت ، ومن المعلوم أن عبادة النار مع طـــول الـــزمن تغيب فلسفتها، وأسباب وجودها، وتبقى هي بقداستها أمام العامة والجمـــاهير الغفيرة، بعقولها المغيبة، وبذلك يزداد الفساد والضلال كما حصل لعبدة الأوثان من العرب، فإنهم بدأوها تقديراً لأشخاص، ثم تصوروها آلهة ، وتناســـوا كل ما يتصل بوجودها .

وقد أطلق مسمي " المجوسية " على هذا الخليط الموروث من الأقدمين ، ومن زرادشـــت ، ومـــانى ، وغيرهـــم ، وصار للمجوسية دولة كبرى تدافع عنها، هي الإمبراطورية الفارسية المنافسة لدولة الروم قبل ظهور الإسلام ، وكان الفرس يعظمون ملوكهـــم ، ويقدسونهم ، ويزعمون أن الله اختار هؤلاء الملوك ، وأعطاهم ملكه ، لـــيكونوا ظله بين الناس ، فلهم الطاعة، وليس لأحد قبلهم حق ، وبلغ هذا الاعتقاد أشده أيام الأسرة الساسانية [٢] ، التي وجدت قبيل ظهور الإسلام .

---

[١] الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

[٢] وحدة الدين ص ١١١ .

المبحث الرابع

الهنود

ـ ١ ـ

الموطن الجغرافي

و ــ **الهــنود** ــ أمة سكنت الجزء الجنوبي من قارة آسيا، وسط مجموعة من الحواجز الطبيعية التي هيأت لها لوناً معيناً من الحياة المستقرة، وطبعت حضارتها بطابع فريد ، وهي أمة تشغل حيزاً كبيراً من الأرض، حيث أن مساحتها تعادل مساحة دول أوربا مجتمعة باستثناء روسيا [١] .

ويذكــر السـبيروني أن الهند يحيط بها من الجنوب البحر المعروف باسمها وهو المحيط الهندي ، وفي جهاتها الثلاث الأخرى توجد سلسلة جبال مرتفعة [٢] .

ولمعرفة ما وراء هذه المرتفعات تتطلع على سطحها،فنراه يأخذ شكلاً رباعي الأضلاع،ضلعاه الجنوبي الشرقي،والجنوبي الغربي يطلان على البحر،ويكونان سواحل الهند وموانيها،أما الضلعان الشمالي الغربي،والشمالي الشرقي فيريان يسيران مع الحافة الجنوبـيـة الغربية لمرتفعات وسط آسيا [٣]،وهذان الضلعان مجموعة من المرتفعات التي تتكون من جبال آسام،وسلسلة جبال الهملايا،وجبال هندكوش وجبال سليمان [٤]، وهذان الضلعان يكونان حدود الهند مع بلوخستان،والتركستان والصين، وبورما [٥] .

قامــت هذه الحدود الطبيعية المنيعة بدور عازل هام، ساعــد على ازدهار

---

[١] أديان الهند الكبرى ص ١٩ .

[٢] تحقيق ما للهند من مقولة ص١٥٧ .

[٣] ملامح الهند والباكستان ص ١١ .

[٤] تاريخ الإسلام في الهند ص ٢ .

[٥] أديان الهند الكبرى ص ٢١ .

الحضـــارة الهـــندية، وبروزها في طراز فريد، جعل تأثرها بغيرها محدوداً، وخاصة في داخل البلاد ، أما في الأطراف الشمالية عند الأبواب فكان التأثير أوضح [١] .

ونظراً لتغاير السطح الطبيعي للهند فلقد انقسمت البلاد إلى ولايات عديدة واشتهرت بها مدن كثيرة [٢] .

وأبـــناء الهند نشيطون منذ القديم، حيث انتشرت مجموعات منهم في البلدان حولهم، ووصلوا إلى أقصى شرق آسيا، وأسسوا لأنفسهم مستعمرات لها طابع هندي خاص ، وكان من هؤلاء الرجال تجار كبار ، ورجال ذوو ثقافات عالية تمكنوا بها من نقل ثقافات الهند إلى المستعمرات التي أسسوها [٣] .

واستمر هذا النشاط لأبناء الهند حيث توقف في القرن الثامن الميلادي [٤] .

***

---

[١] ملامح الهند والباكستان ص ٥ .

[٢] تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ٣٣ .

[٣] ملامح الهند والباكستان ص ١٥٤ .

[٤] يلاحظ أن الحديث هنا عن الهند يشمل شبه القارة الهندية كلها التي تتكون حالياً من دول ثلاث هي : الهند ، والباكستان ، وباكستان الشرقية .

■ ٢ ■

الأوضاع السياسية
والاجتماعية والأخلاقية للهنود

والهـــنود أمـــة سادت فيها الطبقات الاجتماعية بكل وضوح، وقد تنوسى دواعي هذا التقسيم الطبقي بسبب البعد الزمني لوجوده، إلا أن الراجح أنه قام بسبب اختلاف العناصر الهندية،فإن الآريين، والتورانيين، وفدوا على الهند، واختلطوا بسكانها الأصليين ، يؤيد ذلك أن الآريين قوم بيضو اللون، طويلو القامة، والسكان الأصليون سودو اللون، قصيرو القامة ، وكلمة طبقة باللغة الهندية هي " فارنا " ومعناها لون [١].

وعند استقرار الآريين في البلاد خافوا مغبة الاختلاط بغيرهم، فوضعوا نظام الطبقات، وجعلوا أنفسهم طبقة **برهمية عالية** .

تلـــيها **طبقة الكشترية**،فالجيش تقوده الكشترية، والبراهمة يؤيدونه بالدين الذى لا يتم النصر إلا به .

وإلى جانـــب هـــاتين الطبقتين الآريتين وضع التورانيون في طبقـــة ثالـــثة **هي طبقة الويشية** .

وتأتى بعدهم الطبقة الرابعة والأخيرة وهى **طبقة الشودرا** التى تنتظم أصحاب المهن الحقيرة والخدم [٢] .

وكـــان الهنود يمثلون الطبقات الأربع بجسم إنسان،**فالبراهمة يمثلون الرأس ، والكشتريا يمثلون المنكب واليدين ، والويشية تمثل الفخذ ، والشودرا تمثل القدم** .

ويعـــتقد الهنود أن الطبقات خلقت من جسم براهما، ومن العضو الذى يمثله كل طبقة [٣] حيث يقول متو وهو يعدد خلق برهما للكائنات : (**تم خلق البرهمى من**

---

[١] ملامح الهند والباكستان ص ١٤٧ .

[٢] تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج١ ص ٩ .

فمه ، والكاشتريا من ذراعه ، والويشيا من فخذه ، والشودرا من رجله)[١] .

وقد وردت نصوص دينيه تحدد وظيفة كل طبقة ، فلقد جاء في الفقه الهندوسي الأكبر وذكره الأستاذ / أحمد شلبي في " أديان الهند الكبرى " : (على البرهمي أن يشتغل بالتعليم، والتعلم، وإرشاد الناس في دينهم ، فكان هو المعلم والكاهن، والقاضي ، أما كشتريا فعليه أن يقدم القرابين، ويحمل السلاح للدفاع عن وطنه ، وشعبه، أما ويشيا فعليه أن يزرع، ويتجر، ويجمع المال ، أما شودرا فعليه أن يخدم الطوائف الثلاث الشريفة)[٢] .

والمنبوذون هم طبقة " الشودرا " وهم سلالة العنصر الأصلي من السكان القدامي، ولا يجري في عروقهم الدم الآري، أو التوراني ويسمون بـ " زنوج الهند " وقد حرمهم المجتمع حقوق الإنسان العادي، فليس لهم حقوق كطبقة، ولا منزلة لهم يشتغلون برذالات الأعمال، وهم منفيون، منحطونَ[٣] لدرجة أنه إذا استمع أحدهم خلسة لرجل برهمي وهو يتلو " الفيدا " صب في أذنيه الآنك ، وإذا رؤي جالساً معه كوي بالنار، ولا يجوز له أن يتزوج من الطبقات الثلاث الأخرى[٤].

يقول مانو " أن الخالق قد ذرأهم " الشودرا " عبيداً ، وكل من انتمى إلى هذه الطبقة فمن المحال أن يكون حراً حتى ولو أعتقه سيده ، ومن الذي يستطيع أن يحرره من الرق إذا كان الرق طبيعة فيه[٥] .

ومع هذه المنزلة الوضيعة للشودرا ، فقد وجد فى المجتمع من هو أدنى منزلة منهم ، وهم الوافدون إلى البلاد ، الذين ولدوا بعيداً عن براهما ، وهؤلاء لا حقوق

---

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٧ .

(٥) روح الإسلام ص ١٥ .

لهم مطلقاً .

وكـــان النظام السياسي في الهند ملكياً حيث يرأس الملك الدولة، ويساعده الوزراء، ورجال التشريع [١] ، ومع ذلك فالملكية تعتمد على نظام مقدس ، فالملك إله في صـــورة إنســـان ، وعليه أن يكون عادلاً، وخادماً لشعبه، ومحافظاً على حقوق الطبقات بكل دقة [٢] .

وقد ازدهرت الهند بهذا النظام السياسي، فنمت حضارتها وفلسفتها، وكثرت المدن المليئة بالحركة والناس، وانتشرت المستشفيات ، والمدارس ، وعم الرخاء والعدل وخاصة مع بداية القرن الرابع الميلادي ، حيث ظهرت أسرة " كبتا " في الهند .

وقد نعم البراهمة مع هذا النظام المقدس، ونالوا كل حقوقهم وصاروا سادة المجتمع ، لهم ما يريدون [٣] وهم ملجأ الجميع في كل الحالات .

أما بقية الطبقات فإنها تتمتع بالحقوق التي يسمح بها البراهمة ، وليس عليهم إلا الطاعة ، والخضوع .

وقد أدى تمسك المجتمع بالتعاليم المقدسة في أنظمته الاجتماعية والسياسية إلى ازدهار اجتماعي، تمتع به أهل الطبقات الشريفة، وما عداهم فلا شئ لهم من حقوق كمـــا أدى هذا النظام الطبقي في الهند إلى إذلال طبقة المنبوذين ، وحرمهم من كافة حقوقهـــم ، وقد وصل مستواهم أحياناً إلى أقل من مستوى الحيوان ، وعاشوا حياة بدائية متخلفة ، ولم يتقنوا إلا السخرة ، والطاعة ، في إطار القداسة الوثنية .

***

---

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٢ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٧٢ .

(٣) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٣ .

- ٣ -

أوضاع الهند الدينية

يرجع ظهور الهندوكية إلى أقدم العصور، وهى ديانة معقدة ، لا تعرف البساطة في تعاليمها ، أو السهولة في مناسكها ، أخذت كثيراً من معتقدات الوافدين إلى الهند من أقدم العصور [١] .

وللهندوكية كتب عدة أهمها " الويدا " وأهميته ترجع إلى تصويره لحياة الآريين ، ومعيشتهم ، ونظمهم ، وعقائدهم .

وقد مرت هذه الديانة بأطوار مختلفة،جعلت تطبيقاتها تأخذ أشكالاً متعددة فمن أشكالها تأليه قوى الطبيعة والكون،حيث يتصور مؤلهوها أن للطبيعة روحاً، وقوة، تنفع وتضر،ومع تعدد آلهة الهنود إلا أنهم إذا اتجهوا لإله من هذه الآلهة سموه بـ " رب الأرباب " و " إله الآلهة " وهو إحساس منهم بالوحدانية غير مركز [٢] .

وللهندوكية سلوك أخلاقى ، يقوم على فكرة الجزاء على العمل في الحياة الأولى للروح ، أو بعد الحياة الأولى ، لأن الروح عندهم لا تفنى،بل إنها تنتقل بعد فناء جسد صاحبها إلى جسد آخر ، لتأخذ جزاءها، ولتتمتع بشهوات المادة التى لم تنلها من قبل ، وتستمر هكذا في تنقلها من جسد إلى جسد ، حتى تتغلب على شهواتها وتقنع بما حصلت عليه [٣] وحينئذ تمتزج بـ " براهما " في مرحلة تعرف عندهم بـ " الانطلاق " ذلك أنهم يؤمنون أن روح الفرد جاءت من روح العالم، ومآلها إليه [٤] فإذا ما وصلت إلى الانطلاق فقد اتحدت مع أصلها الأول ، وهذه أشكال صوفية قائمة على إحساس بوحدة الوجود .

---

[١] ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

[٢] أديان الهند الكبرى ص ٤٢ ، ٤٨ .

[٣] ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

[٤] ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

وهكـــذا نـــرى أن عبادة الهندوكيه انتقلت من البساطه إلى التعقيد ، ومن البدائـــية إلى التفلسف ، وكان من أثر هذا التنقل تعدد طوائف الهنادكة تعدداً يجاوز العد ، وفي الجملة فإن عقائد الخاصة تختلف عن عقائد العامـــة، حيث اتجه الخاصة إلى لون من التوحيد الغامض،المشوش،بينما عاش العامةمع التعددوالتجسيد [1] إلا أن العقائد كلها كانت تلتقي عند فكرة الجزاء،وتناسخ الأرواح،والروح الواحـــدة للهندوكية [2]

وتقـــوم العقيدة الدينية عند الهنود على أساس النظام الطبقي السابق ذكره ، لأن المنـــبوذين لا يسمح لهم باعتناق الهندوكية ، ولهم أن يختاروا ديناً آخر ، مما أدى إلى حـــدوث ثـــورات عدة ضد هذه النظم ، وخاصة نظام الطبقات ، وأشهر هذه الثورات ثورتان قام بهما الزعيمان " مهاويرا " و " بوذا " وهما من طبقة " الكشتريا " التي ضجت من ظلم البراهمة، واضطهاد الهندوسية ، وقد قاما بثورتيهما ضد الهندوسية ، وأدخلوا بعض التعاليم الجديدة عليها ، وأعلنوا ديانتين جديدتين هما : الجينية والبوذية

فالجينـــية وهـــي مذهب " مهاويرا " تنكر الإله ، وتنادي بالمسالمة ، ولا تعترف بالطبقات ، إلا أن مبدأ المسالمة أدى بأتباع مهاويرا إلى الإقرار بآلهة الهندوس للهندوس، واحترام عبادة البراهمة .

وعـــلى العموم فالجينية دين يؤمن بالزهد ، والتقشف ، والفناء ، والسلوك الســـوي، حتى تصل الروح إلى مرتبة " النجاة " التي تشبه مرتبة " الانطلاق " وكل تعاليمهم المقدسة أتت من خطب " مهاويرا " ومريديه [3] وكان انتشار هذا المذهب ضئيلاً في العدد ، انحصر في طبقة الكشتريا، والمنبوذين .

والبـــوذية هـــي دعوة " بوذا " تلغي نظام الطبقات ، وتدعو إلى الصبر وتحمل الألم ، ودعم قوة الذات ، لتقهر سيطرة الشهوة والهوى وترفع النفس عن عالم

---

[1] تحقيق ما للهند من مقولة ص ٣٩ .

[2] أديان الهند الكبرى ص ٥٢ .

[3] أديان الهند الكبرى ص ١١٣ وما بعدها .

المادة ، وكانت تنادى بالسلوك القويم حتى يمتزج الهندوسى مع " النرفانا " وهى تؤمن بتناسخ الأرواح ، وإمكانية الوصول إلى " النرفانا " [١] والاندماج معها كما حدث في الانطلاق ، والنجاة .

أما فكرة البوذية عن الإله فقد تجاهلته تماماً ، ولم تتكلم عنه ، ولم يشر بوذا إلى ذلك لا نفياً ولا إثباتاً ، بل كان يدعو إلى اكتشاف الألم ، والبحث عن مصدره من أجل إعدامه لتزول الآلام ؛ ويصل الإنسان إلى السعادة [٢] .

وكان صمت البوذية عن أفكار الألوهية الهندوسية، وقصرها إلغاء نظام الطبقات على من دخل البوذية ، وتبسيطها العقائد سبباً في إقبال الناس عليها ، وتمسكهم بأخلاقها ، مع ولائهم لآلهة الهندوس ، وكان هذا الوضع سبباً في أن مظاهر البوذية لم تكن خالصة لها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، الأمر الذى جعلها محل تقبل في المجتمع الهندى، وسرعان ما اكتسبت تعاليم الهندوسية ، وذابت فيها وقبلت من الناحية العملية لا النظرية نظام الطبقات الهندوسى .

وأتى القرن السادس الميلادى على الهند والبوذية تنتشر بثقافاتها ، وأخلاقها ، وحضارتها، إلى عديد من الأماكن خارج الهند، فوصلت إلى البنغال، والصين، شرقاً وكشمير، وكوريا شمالاً [٣] ، وكان لاعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح أن عبدوا الحيوان، على أساس أن روحاً قديمة تقمصته، فعبدوه على أساس أنه جد حقيقي، أو رمزي للأسرة ؛ وأنه معطيهم الخير بلا مقابل [٤] .

وقد اتخذ العامة منهم الأصنام وجعلوها آلهة لهم [٥] يتعبدون لها، ويتقربون إليها بالقرابين ، وهى عندهم تجسيد لشئ قوى وهام، وكانوا يسمون الصنم باسم

---

[١] أديان الهند الكبرى ص ١٥٦ وما بعدها .

[٢] الله ص ٦٥ .

[٣] أديان الهند الكبرى ص ٨٤ .

[٤] الله ص ٦١ .

[٥] الملل والنحل — للشهرستانى — ج ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

القـوة الغائـبة عنهم ، فصنعوا للشمس صنماً ، وللقمر آخر ، وللنار مثل ذلك وهكذا .

وقد أقاموا في بعض الأحيان بيوتاً للأصنام يطوفون حولها ، ويسجدون فيها ويبدو أن هذه الأصنام هى من بقايا آلهة الهندوسية في بدائيتها ، وقد بقيت عند الجماعة وفى عدد قليل من الشعب الهندى .

***

المبحث الخامس

ملاءمة الواقع العالمي

للحركة بالإسلام

بالنظر إلى أوضاع العالم قبيل مجئ الإسلام كما ظهرت في المباحث السابقة نلمس مدى حاجته إلى دين ، ينقذه من ضلاله ، وهوانه ، وقد تجلت رحمة الله تعالى بالناس فجاء الإسلام بدعوته ، وعمل عمله في العقول والقلوب ، وأخذ في صناعة العالم بمنهج الله تعالى .

ويمكن إجمال أوضاع العالم التي جعلته ملائماً لدعوة الإسلام في النقاط التالية : ـــ

أولاً : شيوع الضلال الديني : ـ

يرحم الله عباده ، وينزل عليهم كتبه ، ويرسل فيهم رسله ليخرجهم من ظلمات الشرك والكفر ، إلى أنوار الحق والإيمان .

وجاءت الرسالات تترى ، فكلما احتاج الناس إلى الحق أتاهم رسول من قبل الله تعالى بالهداية والخير .

ودائماً تأتي الرسالة في إحدى الحالات التالية : ـــ

١. أن تكون الرسالة السابقة خاصة بقوم معينين ، وحينئذ يحتاج غيرهم إلى رسالة أخرى .

٢. وإما أن يتطور أتباع الرسالة فكرياً ، أو اجتماعياً ، مما يجعل الرسالة السابقة فيهم قاصرة بتعاليمها عن ملاءمة التطور الجديد .

٣. وإما أن تختفي معالم الرسالة السابقة ، أو أغلبها لطول الزمن ، مما يجعل أتباعها يعجزون عن معرفتها لتطبيقها .

٤. وإما أن يقوم نفر من الناس بتحريف الرسالة الموجودة لغاية في أنفسهم ، وحينئذ يحتاج الناس إلى رسالة صحيحة خالية من التحريف .

وللـــناس في كل حالة من الحالات المذكورة عذر في عدم الاتباع ، وترك ما عندهم من رسالة لأنها تكون قاصرة عن الحق ، لا تمثل هدى الله للناس .

فدين إبراهيم " عليه السلام " قبيل ظهور الإسلام لم يبق منه إلا بعض رموز لا تمثل شيئاً من الحقيقة ، وقد رأينا كيف امتلأت الكعبـــة بالأصنام ، وكيف اخترع العرب ألوان الشرك ، وابتدعوا صوراً عديدة للعبادات ، وزعموا أن ذلك من ديـــن إبراهيم " عليه السلام " .

ورأينا أهل الكتاب وقد أدخلوا في دين عيسى " ﷺ " ما ليس منه ، وحرفوه وبدلـــوه وشغلوا أنفسهم بالمجادلات ، والمحاورات حول الألوهية ، والمسيح ، ونحوه بمالا يفيد .

ورأينا ما كان عند الهند ، وفارس من ضلال ، وفساد جعلهم يعبدون النار والحيوان ، وكافة مظاهر الطبيعة المخلوقة .

كـــل هذا يؤكد الضلال الديني في العالم كله ، ويؤكد حاجة الناس إلى دين ينقذهم من هذا الضياع الذى هم فيه ، وفى رواية سلمان الفارسى عن قصة إسلامه دلالة واضحة على هذا الضلال الذى ساد العالم كله لأنه عايش المجوسية،والنصرانية، واليهودية، فى هذا الزمان، قبيل ظهور الإسلام .

يـــروى ابن عباس عن سلمان الفارسي أنه قال : (كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها : (جى) ، وكان أبي دهقان قريته ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياى حتى حبسنى في بيت كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذى يوقدها، لا أتركها تخبو ساعة .

وكان لأبي ضيعة عظيمة .

شغل في بنيان له يوماً ، فقال لى : يا بنى إنى قد شغلت في بنيانى هذا اليوم عن ضيعتى فاذهب فاطلع عليها ، ودبر شئونها ، وأمرنى فيها ببعض ما يريد .

ثم قـــال لي : لا تحتبس علي، ولا تغب عني،فإنك إن احتبست علي كنت أهم من ضيعتي، وشغلتني عن كل شئ من أمري .

فخرجـــت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فـيها وهم يصلون ، وكنت لا أدرى سبب حبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم ، دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ؟ فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت: هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فو الله ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي و لم آتها .

فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟

قالوا : بالشام .

ثم رجعت إلى أبي ، وقد بعث في طلبي ، وقد شغلت عن عمله كله .

فلما جئته قال : أي بني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟

قلت : يا أبتِ مررت بناس يصلون في كنيسة لهم،فأعجبني ما رأيت من دينهم، فو الله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه .

قلت : كلا والله ، إنه لخير من ديننا .

فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته .

وبعثـــت إلى النصـــارى وقلـــت لهم : إذا قدم عليكم من الشام تجار من النصارى فأخبروني بهم، فأقبل عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني .

فقلت : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فآذنوني بهم .

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام .

فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا : الأسقف في الكنيسة .

فجئته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيستك، وأتعلم منك ، وأصلي معك .

قال : أدخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سوء، يأمرهم بالصدقة، ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا له منها شيئاً اكتنزه لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب، وورق ، وأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه .

فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جمعتموها له منها أشياء جئتموه بها اكتنزها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قالوا : وما علمك بذلك ؟

قلت : أنا أدلكم على كنزه .

قالوا : فدلنا عليه .

فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً، وورقاً .

فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم جاؤوا برجل آخر فجعلوه بمكانه .

يقول سلمان : فما رأيت رجلاً يصلي أفضل منه ، ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، فأحببته حباً لم أحبه من قبله ، فأقمت معه زماناً ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إني كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه أحداً من قبلك ، وقد حضرك ما ترى من أمر الله ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجل بالموصل ، وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه ، فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلاناً أوصاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على مثل أمره .

فقـــال : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل (على أمر صاحبه) ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصاني إليك وقد أمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما تــرى ، فإلى مـــن توصـــى بي ؟ وما تأمرني ؟

قـــال : أي بني ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب نصيبين ، فجئته فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي .

قال : أقم عندي ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فـــو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصى بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً بقي على أمرنا آمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على مثل أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية، فأخبرته خبري .

فقـــال : أقـــم عندي، فأقمت مع رجل على أمر أصحابه وهديهم، واكتسبت حتى صارت لى بقيرات وغنيمة .

قال : ثم نزل به أمر الله ـــ عز وجل ـــ .

قال : فلما حضر ، قلت له : يا فلان ، إني كنت مع فلان ، وأنه أوصى بي إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان، إلى فلان، وأوصاني بي فلان إليـــك فإلى من توصى بي ؟ وما تأمرني ؟

قـــال : يا بني ـــ والله ـــ ما أعلم أحداً على ما كنا عليه من الناس ، أمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبي ، هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة

إلى أرض بــين حرتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى : يأكل الهدية ، ولا يأ
الصدقة ، بين كتفيه خاتم النبوة ، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد ، فافعل)[1].

ونلحظ من القصة ما كان عليه الفرس ، والنصارى ، وما كان عليه الجـ
مـن ضلال جعلت سلمان " ﷺ " يترك موطنه ، ودين آبائه ،ويتنقل في العديد
الأماكن باحثاً عن الدين الحق ، حتى وجده في مبعث المصطفى " ﷺ " .

ومـن رحمـة الله بالناس أن جاءهم بالإسلام في وقت تلاقت فيه الأفهام
ونضجت العقول ، وتشابهت في التوجه والتفكير ، حتى صارت البشرية كياناً فكر
واحداً في مصاحبة دين الله الواحد ، الذي جاء مناسباً للناس أجمعين .

وقد ضمن الله دينه من التعاليم ما يجعله صالحاً على الزمن كله لا يقصر
غايـة للـناس إلى يوم القيامة ، وحفظ الله دينه بثبوت الوحي الذي نزل به ، و
الأسباب الموجبة لهذا الحفظ ، الأمر الذي يؤكد استمرار الإسلام بين الناس كما نز
من عند الله تعالى بلا تحريف ، أو غموض .

إن الحقيقة التطبيقية تؤكد كفاية الإسلام للناس وعدم حاجتهم لدين جد
وكل ما عليهم أن يعلموا دينهم ، ويعملوا بما جاء به .

ثانياً : هوان الإنسان :

سـيطر على العالم قبيل ظهور الإسلام وضع سيئ ، ضيع حقوق الإنسا
وحرمه من حريته ، وكرامته ، وسائر حقوقه .

ففـي كل مجتمع وجد العبيد ، والمنبوذون ، والضعفاء الذين يعيشون لخد
السـادة ، والرؤساء، لدرجة أن الإنسان الضعيف كان يعد جزءاً من الأرض يملك

---

[1] رواه أحمد في المسند ــ الفتح الرباني ــ باب المناقب ــ باب ما جاء في سلمان ج٢٢ ص ٢٦١ ، والحاكم
مستدركه ، والطبراني في الكبير بنحوه ، يقول الهيثمي : رجال هذه الرواية رجال الصحيح ، وقد صرح محمد
إسـحاق بالسـماع فانتفت تهمة التدليس ، وذكر البخاري في الصحيح أن قصة إسلام سلمان تداولها بضعة عش
سيداً .

غيره كما يملك الحيوان ، والمتاع ، والعقار .. وانقسمت المجتمعات جميعاً إلى طبقات عديدة يتمتع من خلالها فريق الطبقة العليا بكل شئ ، ويحرم الآخرون من أي شئ ، ولذلك انتشرت الأحقاد ، والكراهية بين أبناء الشعب الواحد .

ومـــن العجيب أن استغلال الإنسان لغيره ، واستعباده لغاياته ، وأمانيه لبس ثوبـــاً دينياً ، فالطبقات العليا في فارس والهند هي آلهة الناس ؛ وليس على الطبقات الدنـــيا إلا السمع والطاعة .... وفى الدولة الرومانية بقسميها شغل القياصره الناس بأمور جدليه حول طبيعة المسيح ، وأمه ، وحول الألوهية، وصلة المسيح بالله ... ومع كـــل هذا الجدل كانت طبقة الكنيسة ، تملك كل شئ ، فهي ظل الله في الأرض ، وعليها المحافظة على ما للمسيح من قداسة ، وتقدير .

وكـــان الـــولاة في كافة الأقاليم يرهقون الناس بدفع الضرائب ؛ وتحصيل الإتـــاوات المختلفة بمسميات كثيرة ، ويجبروهم على ذلك ، وإن كان فيما يدفعون معاشهم و حياتهم ، وحياة أبنائهم .

وهكذا عاش إنسان هذا الزمان مقهوراً ، مظلوماً ، مستعبداً باسم دين العلية الحاكمة

وقـــد تذكر بعض الصور الأخلاقية الكريمة هنا ، أو هناك ، إلا إنها لا تدل عـــلى طبيعة العلاقات الاجتماعية بصورة عامة، لأنها صور وجدت في حياة الرؤساء والقادة ، والطبقات العليا ، ولم ير العامة منها شيئاً .

وهذا الوضع يفسر سر مسارعة الضعفاء إلى اعتناق الإسلام ، والدخول في دين الله تعالى، لما رأوا فيه من عقيدة كاملة ، ترضى العقل ، وتشبع النفس ، وتحقق للجميع الحرية ، والمساواة ، في إطار الأخوة الدينية التي تؤكد على أن الناس سواسية لا يفضل أحدهم أخاه إلا بالتقوى ، وجزاء الجميع عند الله تعالى .

ثالثا :سهولة التواصل : .

لم تستمر البشرية على بداوتها الأولى،ولكنها تقدمت تقدماً هائلاً في المدنية ، والتحضر المادي .

وقـــد بـــرز ذلك بوضوح في اكتشاف طرق الاتصال العديدة ، التي ربط العالم كله ، وأصبح التجار يرحلون ببضائعهم إلى كل مكان في المعمورة ، ويركبو البحر عـــلى اتساعه وعمقه ، وصار شرق أفريقيا ، وبلاد الحبشة ، مرتبطاً بال والجزيـــرة العربـــية ، وتمكن تجار مكة من الرحلة بقوافلهم شرقاً ، وغرباً ، وشما وجنوباً في يسر وأمان .

ولم تعد المحيطات حاجزاً يمنع من التنقل ، وإنما ساهمت الصناعات العديد تحقيق التواصل ، وسهولة الانتقال من مكان إلى مكان .

صـــحيح أن التواصل لم يكن سلاماً كله ، فلقد نشأت الحروب ، و الأقويـــاء على الضعفاء ، وتحولت البلاد الصغيرة إلى ولايات تابعة للفرس أو للروم تستغل خيرها ، وتسخر أصحابها لخدمتهم ، ومصالحهم .

ومـــع ذلك ففي التواصل كسب مادي ، وارتقاء عقلي ، ومعرفة بعادات وفكر الآخرين .

وكثيراً ما انتقلت العادات ، والأفكار ، والمذاهب مع هؤلاء المسافرين .

وقد حـــاول القســـس ، والأباطرة ، الاستفادة بهذه التطورات المدنية فعقد المؤتمرات ، والمجامع العالمية ، التي كان يحضرها الآلاف منهم ، في كنائس مصر ، في بيت المقدس ، أو في الشام ، أو في أوربا ، بسهولة وأمان .

وهاجر المسلمون إلى الحبشة وكأنها بلد مجاور لمكة ..

وظهـــر في كـــل إقليم من يتقن المعرفة بالطرق ، وقيادة القوافل في الرح والحركة .

ولما جاء الإسلام ساهمت هذه الخاصية في نشر الدعوة وتبليغها للناس في مكـــان ، حيـــث تمكن الدعاة من الوصول إلى كل مكان قصدوا التبليغ فيه ، الطـــريق معـــروف لهـــم ، ومخاطبة أهل البلاد أمر عادي لسابق إحاطتهم بلغتهم وعاداتهم .

وقد ساعد هذا التواصل على سرعة انتقال الأفكار ، والأخبار ، ولذلك كان كـل فـريق يعرف أخبار الآخرين ، وكانت العقائد، والأديان، والمذاهب الخاصة بجماعة ما معلومه لغيرهم من الناس .

فـلما بعث محمد " ﷺ " انتشر خبره في الجزيرة العربية ، وفى العالم كله ، ولذلـك جاءت الوفود إلى مكة لاكتشاف أخبار الدعوة الجديدة ، فلما رأوا موقف أهل مكة انتظروا نتائج صراعهم مع الدعوة ، فلما فتحت مكة دخلت الجزيرة كلها في دين الله تعالى ..

رابعاً : تعدد الصراع :■

سـاد العالم في هذا الزمان صراع عام ، فلم تخل أمة، أو منطقة منه ، سواء كـان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها ، وأهم ما تميز به هذا العصـر هو تكرار الصراع تكرراً متلاحقاً فمنهزم اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك من غير توقف ، وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات ففي البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة خاصة بعد أن وزع (**قصي**) الأعمال بين القبائل وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان .

وفى البيئة الرومانية كان سبب الصرع ينحصر في الدين والسياسة .

وفى الفرس والحبشة كان السبب في الدين .

وفى الهند كان السبب في نظام الطبقات المعروف فيهم .

وقد ساد الصراع الداخلي سائر الأمم ، ففي الدولة الرومانية الشرقية قامت ثـورات عـدة أشهرها ثورة الزرق والخضر أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م التي طالبـت بإقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى جستنيان على هذه الثورة بإراقة دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً [١] .

---

[١] الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٠ ـــ ٦٣ .

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة ، و
كثيرة من أشهرها في بلاد الغال " فرنسا " حيث ظهر الصراع بين كلو
وسيجاريوس ، والثورنجيين ، والبرجنديين ، واللأليمان [١] وكان هناك صر
إيطاليا [٢] وبين البربر في شمال أفريقيا [٣] .

وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس الذي استمر مدة طويلة ، وك
حرب حاطب ، ويوم بعاث بين الأوس والخزرج وقد استمرت إلى قبيل الإسلا

وفي فارس كان الصراع مستحكماً بين أفراد البيت الواحد ، بين الأب
الابن ، ومما ساعد على ازدهار الصراع في الفرس ظهور مذهب " مانى " القائ
الشيوعية المطلقة .

ومع الصراع الأقليمى وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ ك
الحرب مستعرة بينهما على الدوام في أطراف الجزيرة العربية جنوباً في اليمن ، و
بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدى حتماً إلى تغيرات اجتماعية ، س
كانت هذه التغييرات متجهة إلى التقدم ، أو إلى التأخر ، وقد سلم علماء الاج
بضرورة هذه التغييرات [٤] ، إلا أنها تتجه عندهم في النهاية إلى التطور والتق
يقول إيمانويل كانت : إن القوة التي تدفع التاريخ إلى التطور هى الصراع ، وه
يرى أن التعارض هو أهم مؤثر فى العلاقات الإنسانية ، وأن حركة التطور الاجت
ما هي إلا النماء المستمر للأضداد ثم اندماجها في النهاية لإيجاد مرحلة من التطور

---

[١] المسلمون والجرمان ص ٣٧ .

[٢] نفس المرجع ص ٣٠ .

[٣] نفس المرجع ص ٢٥ .

[٤] أصول علم الاجتماع ص ٢٢٠ .

[٥] أصول علم الاجتماع ص ٨٥ .

ومـــن التغـــييرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ظهور قوى جديدة، وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة ؛ كما أن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصـــبون لشيء معين ، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، فإن الطبقة المستضعفة تتمنى الخلاص والهروب مما هي فيه .

وقـــد اســـتفادت الدعـــوة الإسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التي ظهرت كانت ركيزة لانطلاق الدعوة ونشرها ، وكان أتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التي لا تتعصب لمواريث قديمة .

وأيضاً فإن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة في كثير فالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وبذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغيض يقف في طريقها .

إن فكـــرة البحـــث عن قيمة راقية ، وخلاص للضعفاء ، وجدا في الدعوة بغيـــتهما ، فكـــان الضـــعفاء هم أتباع الدعوة في العرب وفى كل مكان، لأنهم بها يتخلصون من مهانة الرق ، وذل الطبقية ، وضعة المنبوذين ، وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما ، لا ينالهم منه سوى الظلم ، والجبروت ، والتعالي وإنما يتجهون إلى الله الخالق ، صاحب النعم كلها ، الذي يملك الخلق كله ، ويحيط به علماً ، وإرادة ، وقدرة ، ويوزع رحمته على جميع الناس ، ويأمـــر في الدعوة بالقيم الراقية ، والسلوك الممتاز ، ويحث على إقامة أخوة صادقة ، ومساواة حقيقية ، وعدل في الكسب والعمل .

إن وضـــعية الضـــعفاء تـــتفق لأول وهلـــة مع روح الدعوة ومبادئها ، والمتصـــارعون يجدون بغيتهم في الدعوة ، لأنها تهدم سبب صراعهم ، وتؤاخي بينهم بالحسنى، وتعودهم على الألفة والخير .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول، والعمق، حيث انتشرت في العالم كله، بشكل مستمر، ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس

وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا الشمول ، وهذا العمق ، فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذري في المجتمع ، وإزالة الصراع والآلام من حياة الناس ، وتحرير العبيد ، والمنبوذين والأجراء من وضعهم اليائس ، ووضعهم في الإطار النظيف الذي وضعته للناس أجمعين بما فيه من كرامة ، وحرية ، ومساواة ، لما جاءت هكذا أمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

خامسا : النضج الفكري :

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية ، إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده ، كما يقول الشيخ / محمد عبده [١] ولعل المراد من النضج العقلي المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير الكلي، المنظم، الذي يستنتج من المحسوس، ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضي القائم على التحليل ، والنقد ، أو السخط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم .

إن طفولة الإنسان كانت تقوم على المحسوس فقط ، تبهر بالعجائب ، وتندهش بالظواهر الخارقة كعهدها مع الرسالات السابقة ؛ لأن الخوارق إليهم كانت حسية ، وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين ، كما حدث لما أحيا المسيح شاباً في مدينة " نايين " فقد أخذ الجميع خوف ومجدوا الله قائلين : **قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه** [٢] .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافقه عصر نضج عقلي واضح ساد العالم كله ، وقد تجلى هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان، متجهاً إلى العقيدة

---

[١] رسالة التوحيد ص ١٥٥ .

[٢] انجيل لوقا — الأصحاح السابع فقرات ١٤ — ١٦

الدينـية ، وأوهامهـا ، ولم يجد العلماء مشقة أمام الخوض فيما كان ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين ، وعقائدهم على اختلاف أممهم وأديانهم .

ففي العالم المسيحي الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية، من أمثال المناداة بألوهية المسيح ، وتركبه من طبيعتين، مع إصرار هذه الأصـوات عـلى مذهب الفطرة القائل ببشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ، وقد اختاره الله ليكون رسولاً نبياً من قبل الإله الواحد، وأحاطه بالخوارق الـتي لا توجـد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأى إلا عقـلهم الـذى أبى التصـديق بما هو وهم وخيال ، ولأن تصور أصحاب مذهب الطبيعـتين تصور ينهار أمام النظرة الفاحصة ، وقد حدثت لهذه المعارضات أحداث خطيرة في كل العالم المسيحي انعقدت لها مجامع عدة، على النحو الذى سبق ذكره .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلاً ، يقول ان البطريق (**إن الذنب ليس على " أريوس " ، وهو رأس المنادين بالتوحيد ـ بل على فئات أخرى سبقته فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير " أريوس " الـذى جعـل الكثيرين ينكرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا الرأى وعم**)[1] ، وهذا دليل على نضج عقلي وجد بين المسيحيين، جعلهم يحاولون إصلاح معتقداتهم .

ومـن الملاحظ أن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا أيضاً بعقلهم وحاولوا التدليل على صدق معتقدهم بأدلة جدلية في صورة تشبيه عقلى ، وهذه إن دلت فإنها تدل على تقدم ذهني، وفهم إدراكي، فيه نوع من التجريد، والعقل ، يقول الشهرستاني ـ عنهم : (**ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشـرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبع فيه الطـباع النقش في الشمع ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني ،**

---

[1] محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت ، ومنهم من قال : مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن الماء ، والماء اللبن) [١] .

فهذه الأدلة مع ما فيها تدل على تقدم فكري معين ، ويكفي أنها من آثار التعصب المسيحي الذين آمنوا بألوهية المسيح ، وحاولوا جعل هذه الألوهية مستساغة أمام العقل ، فأتوا بهذه التشبيهات ليقربوا فكرة اتحاد الألوهية مع الإنسانية .

ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم لوجدنا أن الهنود قد أبدوا ثورة على الهندوكية في بعض تعاليمها ، ومحاولتها تبسيط العقائد ، والاهتمام بالأخلاق والعودة إلى الفطرة ، كما إن الهنود قبيل مجئ الدعوة الإسلامية كانوا يخصون الواحد من الآلهة ويخصونه باسم (رب الأرباب) و (إله الآلهة) [٢] وهذا نوع من التوحيد لم يعهده الهنود من قبل ، فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة ويقدسون كثيراً من مظاهر الطبيعة بلا التفات إلى حقيقتها ، أو فهم لمعنى عبادتهم لها ، إلا أنهم في هذا العصر بسبب النضوج تمكنوا من تخطي الردة العقلية ، والقرب من توحيد الآلهة .

وفي الجزيرة العربية وعلى الرغم من تعمق القوم في تقديس الأصنام ، وتعظيم الحجر ، فإن النضج الذي اتسم به العصر بدأ يظهر في العرب ، إذ اتجهوا بعقولهم إلى حياتهم ينظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام ، ويقلل النزاع والشرور ، ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة فأحاطوا بفصولها ، ونظموا التجارة على وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة ، وفي جميع أنحاء الجزيرة ، وحتى يحققوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للكسب المادي ، وتقوية للشعور القومي ، وللتسابق اللغوي والأدبي ، وكأنها مؤتمرات تمهد لوحدة عربية .

وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق في اختيار الأمكنة والأزمنة . فمن الأمكنة وزعوها في ملتقى جميع أبناء الجزيرة ، وعن الأزمنة جعلوها في الأشهر الحرم ، ...

---

(١) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ .

(٢) ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة، والقول الجرئ، والنقد الحر، وكل هذه أسباب تجعل العقل ينمو باطراد ، وخصوا الأسواق الهامة بشهرى ذى القعدة وذى الحجة إذ جعلـوا سوق " عكاظ " في أول شهر ذى القعدة، و " المجنة " في آخره، وذى المجاز وعرفه في شهر ذى الحجة [١] ربطاً للدنيا بالدين، إذ يقدم الحجاج في هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة، والكعبة، فيعيشون هذه الأسواق، ويكتسبون مع شعورهم الديني بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلى عند العرب ظاهرة الحنفاء، الذين أخذوا يحللـون بعمـق وفهم فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف بالخالق ، ويكشـفون الطـريق إليه، مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، وليل داج ، ونهار ساج ، وقد وصلت هذه الجماعة برجاحة عقلها إلى بعض شريعة إبراهيم " عليه السلام " .

وفي الحق لقد وصل النضج الفكرى إلى مستوى ممتاز ، ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التى جعلها الله تعالى في قرآنه الكريم، الذى نزل للناس، يؤمن بالكلمة ويخاطب العقول ، ويهتم بالمعاني والأفكار ، وينقل الإنسان من عالم الحس إلى عالم الغيـب، والإيمـان به ، مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر ، تؤكد وتجادل ، وتقـرب وتيسـر ، قاصـدة الإقناع العقلي ، واليقين النفسي ، والثبات مع الروح والوجدان، أكثر من تباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقـول الشيخ/رشيد رضا:إن الله جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم، والعقل في ثبوتها،وفى موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاسـتقلال الـنوعى،الذى لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر منهم أمور مخالفـة للـنظام الكونى،وإنمـا جعل الله تعالى حجة نبيه كتابه المعجز للبشر، بهدايته

---

[١] أخبار مكة جـ١ ص ١٢١ ، ١٢٢ بتصرف .

وعلومه ، وبإعجازه اللفظي والمعنوي ، ليرقى البشر على الترقي في هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال [١] .

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية ، ودائماً يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيهم هذه المعجزة، حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول في دعواه ، وينظروا إلى ما جاءهم به، ويعلموا أنه وحي من الله ، ودليلهم المعجزة التي يعرفونها يقيناً، حيث تفوقوا في جنسها ونوعها كما ظهرت لهم .

إن معجزة موسى " عليه السلام " في قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً، وإخراج اليد بيضاء من تحت الجناح ، ومعجزة عيسى " عليه السلام " إلى قوم اشتهروا بالطب هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، فكان لزاماً أن تأتي معجزة الإسلام على هذه السنة ، ما دام العالم كُله على وجه العموم في موجة رشيدة من النضج الفكري .

وكان العرب على الخصوص أكثر اهتماماً بصناعة اللسان، وعلوم البلاغة والفصاحة [٢] ولهذا كانت المعجزة هي القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج، ومراعاة للبلاغة والفصاحة، ليؤمن العرب سراعاً بها وينطلقوا حاملين الدعوة إلى كل العالم مقدرين نضجه الذى ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة .

ومع ما في القرآن الكريم من إعجاز لغوي ناسب العرب الذى نزل بلغتهم فإنه يشتمل على وجوه عدة للإعجاز تناسب كافة الأمم لأن الرسول بعث للعالم كله ، ففي القرآن من وجوه الأعجاز الكثير منها : ــ

ــ الإعجاز التاريخي بما فيه من بيان لتاريخ السابقين وآثارهم ، ومللهم ، ونحلهم ليناسب أهل الحضارات ، المهتمين بالتاريخ .

---

[١] الوحي المحمدي ص ٦١ .

[٢] توضيح العقائد ص ١٧٢ .

ـ الإعجاز العلمى ، مثل إيراد بعض الإشارات عن الحديد ، وألوان الصناعات .

ـ الإعجاز الفلكى ، مثل الحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار .

ـ الإعجاز البيئى ، مثل الحديث عن الزراعة ، والحيوان ، والنهر ، والبحر .

ـ الإعجاز الطبى .

ـ الإعجاز النفسى والاجتماعى .

سادساً : انتظار رسول جديد :ـ

كان للنضج الذى ساد العالم، وكثرة الصراع، وتنوعه، وسهولة الاتصال ؛ وتلاقى الأفكار قبيل مجئ الدعوة الإسلامية أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يومذاك.

إن النقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة في العقائد التى يتوجه النقد إليها ، ومن هنا صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبى من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة، والسلوك، وكل ما يعتقده الناس في الأصنام، ويطلبونه منها .

وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد لدرجة أن اليهود في المدينة "يثرب" كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبى" ﷺ " فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم، والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ (٨٩) ﴾[1]

---

[1] سورة البقرة آية (٨٩) .

فهم كانوا يعرفون مبعث النبي "ﷺ"، ويعلمون أن زمانه قد حان، فعن محمد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أشياخه أن اليهود في المدينة كانت تقول للأوس والخزرج: قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم [1].

يقول ابن عباس إن اليهود في المدينة كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله "ﷺ" قبل مبعثه [2].

ورأى اليهود له قيمته عند جيرانهم قبل البعثة، لأنه قد اشتهر عنهم معرفتهم بعض أسرار الوحي، وعلاماته، فلقد رووا أن مشركي مكة لما بعث محمد "ﷺ" فيهم أرسلوا وفداً منهم، يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم، ودعاهم لدعوته، وكان الوفد مكوناً من النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معيط [3] ولم تكن هذه المعرفة خاصة بيهود المدينة وحدهم، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة، ووصلت إلى أقصى الشمال، لدرجة أن سلمان الفارسي حينما أراد أن يترك النصرانية، ويبحث عن الدين الحق، قال له كاهن عمورية: إنه قد أظل زمان نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم "عليه السلام" يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، وبه علامات لا تخفى، يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة [4].

وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى لأنهم: ﴿يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾ [5]

جاء في تفسير ابن كثير لهذه الآية أن صفة النبي محمد "ﷺ" وجدت في التوراة والإنجيل، ولم تزل صفاته موجودة يعرفها العلماء والأحبار [6] من أهل الكتاب.

---

(1) الكشاف جـ١ ص٢٩٦

(2) تفسير ابن كثير جـ١ ص٢١٣ هامش فتح البيان.

(3) سيرة النبي "ﷺ" جـ١ ص٣٢١.

(4) نفس المرجع جـ١ ص٢٣٧.

(5) سورة الأعراف من آية (١٥٧).

(6) تفسير ابن كثير جـ٤ ص٢٤٨ هامش فتح البيان.

وكمـــا وصـــل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فلقد روى الأزرقي أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذي يـزن لعبد المطلب بما علمه من كتبه، من أن نبياً سوف يظهر في العرب يضمن الزعامة لقريش إلى يوم القيامة [١] .

وهكذا ظهرت ملامح النبوة المحمدية في عقول الناس، وفى كثير من الأماكن وهـذه الملامح في حد ذاتها تمهد للدعوة، وتدعو إلى استماعها بشوق، خاصة وقد وقعت أحداث كثيرة، جعلت الناس يرجون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر الذى كـاد أن يلمس في طفولته، لوضوح صفته في الكتب السابقة ، بل أن بحيرى الراهب عـرفه وهو صغير ، يروى ابن هشام قاصاً ما حدث من بحيرى فيذكر أنه أعد طعاماً لقافلـة قريش، وفيها أبو طالب، ومحمد (وهو صغير) ودعاهم فحضروا جميعاً إلا محمداً، لصغر سنه، لكن بحيرى أصر على حضوره ، فلما حضر أخذ يسأله عن أشياء كـثيرة، وأخـيراً قال لعمه أبي طالب : إرجع بابن أخيك إلى بلده ، وأحـذر عليه يهود فو الله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظـيم فأسرع به إلى بلاده [٢] ، ولا غرابة في تحديد بحيرى للنبي " ﷺ " في طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة في التوراة والإنجيل .

إن عديداً من الرهبان في أديرتهم ، والقسس في كنائسهم كانوا يدركون هذه الحقيقة ، ويتحدثون بها لمن يمر بهم ، وفى مكة نفسها كان كعب بن لؤى بن غالب يذكر بالنبوة ويبشر بها أهل مكة ويقول لهم : (**زينوا حرمكم وعظموه فسيأتي له نبأ عظيم وسيخرج منـــه نبي كريم**) [٣] .

إن تجمـــع انـــتظار رســـول جديد، مع موجة النقد السائدة ضد العقائد، والمذاهب على يد الحنفاء، وأتباع أريوس " والبوذية " ،مع وجود الصراع ، والتنافس

---

[١] أخبار مكة ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

[٢] سيرة النبي ج ١ ص ١٩٤ — ١٩٦ بتصرف .

[٣] بلوغ الأرب ج١ ص ٢٧١ .

وسرعة الحركة والاتصال ، أدى فائدة عظمى للدعوة الإسلامية ساعدت على انتشارها، وما لاحظناه من معارضات للدعوة بعد ظهورها فمنشأة التعصب، وتحاول المحافظة على القديم الموروث، وبقايا صراعات قبلية قديمة كما حدث من الأمويين فإنهم تأخروا عن الدخول في الإسلام بسبب كون النبي من بني هاشم، للدرجة أن أبا سفيان الأموى حمل المعارضة للنبي في مكة بلا سبب غير التنافس بين الهاشميين والأمويين، وكانت " أم جميلة بنت حرب زوجة أبي لهب تحمل الحطب، وتضعه أمام بيت النبي " ﷺ " وفى طريقه، وكانت تقول عنه " ﷺ " :

مذمماً عصينا وأمره أبينا ودينه قلينا[1]

كانت مدفوعة بالعصبية بسبب كونها أختاً لأبي سفيان الأموى[2] فدفعها التعصب إلى هذه الحملة على رسول الله" ﷺ "وما المانع إذاً أن يكون موقف زوجها أبي لهب عم النبي " ﷺ " من تأثيرها فيه .

وكذلك فإن أصحاب المصلحة في مكة عارضوا الدعوة حفاظاً على وضعهم

لكن ...

وهل تتحدى الحيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التي قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذى تميز بالصراع، والنضج، وانتظار الرسالة، لكي تنتشر الدعوة وتظهر على الأديان كلها بقدرة الله وعلى سنن البشر .

وهل تمحو الحيل الشيطانية من واقع الحياة ، وأفكار الناس ما قدره الله في كافة الشئون ، والأحوال ، والأعمال .

إن قدر الله غالب ، وقضاءه نافذ ، وإرادته شاءت أن تجيء الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان بما فيه من خصائص وصفات .

---

(١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٣٧٩ .

(٢) تفسير أبي السعود ج٩ ص ٢٠٦ .

الفصل الثانى

السيرة النبوية

(التعريف بالرسول)

" ﷺ "

من الميلاد حتى الهجرة



تمهيد

محمد "ﷺ" هو رسول الإسلام، وهو المبعوث نبي الله الخاتم إلى الناس أجمعين.

ولد بمكة، ونشأ، وتربى في بادية العرب، وجاءه الوحي من الله على رأس الأربعين، وبلغ رسالته داعياً إلى الله تعالى بمكة قبل الهجرة، وبالمدينة بعدها، وبلغ ما كلف به إلى العالم كله، ولم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن أدى الأمانة، وبلغ الرسالة، وأكمل الدين، وتمت نعمة الله للعالمين.

وتعد سيرته "ﷺ" دراسة لنموذج الإنسان الكامل الذي يجب أن يحتذى، وأن يكون أسوة، وقدوة لمن أراد النور، والفلاح.

وإتماما للمنهج الذي رسمته في دراسة تاريخ الدعوة، فإني أعقد هذا الفصل في التعريف بالرسول "ﷺ" بعد أن جعلت الفصل الأول في التعريف بالعالم الذي بعث له رسول الله "ﷺ".

إن الرسالة اختيار إلهي محض، لا دخل فيه لأمنيات بشر، ولا لطلب مخلوق ويوم أن تمنى كفار مكة النبوة لبعضهم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [1] متمنين بذلك أن تكون الرسالة في أحد رجال القريتين مكة أو الطائف ليقوم بها رجل عظيم مشهور فيهم بعناده أو بماله، أو بغير ذلك يريدونه الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن مخزوم من مكة، وهو ابن عم أبي جهل، وكان يعرف بريحانة قريش، أو أبو مسعود عروة بن مسعود الثقفي من الطائف [2].

---

(١) سورة الزخرف آية ٣١.

(٢) قال قتادة، وروي عن مجاهد أن الرجلين هما عتبة بن ربيعة من مكة، وعمير بن عبد ياليل الثقفي من الطائف، وروي عن ابن عباس أن عظيم الطائف هو حبيب بن عمرو الثقفي، وذكر السدي أن عظيم مكة هو الوليد بن المغيرة (تفسير القرطبي ج١٦ ص ٨٣).

يوم طلب كفار مكة ذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1]

وبذلك أبطل الله أمنيات هؤلاء القوم وأمثالهم، ووضح لهم أن الرسالة والنبوة ليست لمن شاءه الناس ، وإنما لمن أراده الله، واختاره، ولا دخل لبشر في هذا الاختيار .

وبين سبحانه في هذه الآية أيضاً أن أوضاع الناس المعيشية قسمة إلهية وفق إرادة الله ، وقدرته، لأسباب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى، وليس لها صلة بالعظمة أو بالحقارة، وليست نتاجاً لمجرد العمل ، وعلى الناس أن يعلموا أن النبوة خير ما يعطاه إنسان في الدنيا، بل هي أعظم من كل الخير إذا اجتمع، فإذا ما أوتيها إنسانا فإنه يعظم، ويعلو باختيار الله إياه، وقد اختار الله لرسالته الخاتمة العالمية محمداً " ﷺ " وهو سبحانه: ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾[2] والذي قال تبارك وتعالى: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾[3] وبين سبحانه ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾[4] وعلى ذلك فالرسول ﷺ " أعظم العرب قاطبة ، وأعظم البشر أجمعين .

وإن المؤمن بأن حكمة الله في اختيار رسوله محمد " ﷺ " للرسالة لا يمكن لبشر أن يدركها إدراكاً كلياً ، ويرى في نفس الوقت أن في مقدور البشر أن يعرفوا شيئاً من هذه الحكمة ، وبخاصة بعد انكشاف شيء من أسرارها خلال الالتزام بالرسالة ، والإسلام.

---

[1] سورة الزخرف آية (٣٢) .

[2] سورة الأنعام آية (١٢٤) .

[3] سورة القصص آية (٦٨) .

[4] سورة الحج آية (٧٥) .

إن الخصـــائص التي تميز بها رسول الله محمد " ﷺ " ، وظهرت خلال قيامه بـــالدعوة عديدة ، وشاملة لكافة جوانب شخصيته ، ومتأصلة في أصوله وجذوره ، وملازمة له في تربيته ونشأته ، وملموسة في سائر أعماله ، وأقواله ، وأمانيه ، وأماناته وسلوكه مع نفسه ، ومع أسرته، ومع الناس أجمعين .

ولـــولا أن الرسالة والنبوة اصطفاء وإحسان من الله لقلنا : إن محمداً " ﷺ " اكتســبها بخصائصه ، ونالها بأعماله وجهاده ، لكن جمهور علماء المسلمين ـــ ونحن معهـــم ـــ يجمعون على أن الرسالة لا تكتسب ، وإنما يخلق الله الناس ، ويختار منهم رسوله ، ويهبه من لدنه استعداداً خاصاً ، يجعله أهلاً لهذا الاختيار ، قادراً على تحمل أمانة التبليغ والدعوة .

والاختـــيار بهذه الكيفية رحمة من الله بالناس ، إذ به جرت الأمور بين الخلق عـــلى وفق سننه في الكون ، فلم يفاجئهم بشخص سيء ، ولم يدعهم إلى أمر شاذ لا يتصور ، ولا يعقل .

ومتابعة خصائص الشخصية المحمدية تبدأ من الأصول والجذور،لنرى كيف أودع الله فيه ما يجعلنا نؤمن بحكمة الله في هذا الاختيار ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [١]

وفي هـــذا الفصل سأتناول الحديث عن سيرته " ﷺ " من مولده ، ومروراً بنشـــأته ، وزواجه ، ومبعثه، وتكريم الله له ، ومعونته إياه ، في مباحث متتابعة حتى نصل إلى الهجرة إلى المدينة المنورة نهاية المرحلة المكية .

وســـوف أعـــتمد بإذن الله تعالى على ما رواه المؤرخون ، وعلماء السير ، وبخاصة ما صح منها .

وســـوف تكون الأحداث ممثلة للسيرة النبوية بكمالها في عدد من المباحث وذلك فيما يلي ..

---

[١] سورة الأنعام آية (١٢٤) .

المبحث الأول

النسب الشريف

رسول الله " ﷺ " هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم
ابن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب .

وأم رسول الله "ﷺ" هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب
فنسب أبيه وأمه " ﷺ " يلتقيان في كلاب ..

وكلاب هو ابن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك
ابن النضر ، بن كنانة ، بن خزيمة ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزار بن
مضر ، بن عدنان .

ونسبه " ﷺ " من جهة أبيه ، ومن جهة أمه مجمع عليه إلى عدنان ، وما فوق
ذلك فمختلف فيه ، والكل يجمع على أنه "ﷺ" من ولد إسماعيل بن إبراهيم "عليهم
السلام " .

ونسبه " ﷺ " كريم ، جامع لسائر أسباب الفضل والرفعة .

فأبوه " **عبد الله** " أصغر أبناء عبد المطلب وأقربهم إلى نفسه ، يكنى بأبي قثم
وأبي محمد ، وأبي أحمد ، ويلقب بالذبيح .

وسبب هذا اللقب أن عدي بن نوفل بن عبد مناف ، والد المطعم قال له :
يا عبد المطلب أتستطيل علينا وأنت فذ لا ولد لك ؟ ....

فقال عبد المطلب : أبا لقلة تعيرني ؟ فو الله لئن آتاني الله عشرة من الولد ذكورا
لأنحرن أحدهم عند الكعبة (١) .

فلما توافى بنوه عشرة، وعرف أنهم سيمنعونه ، جمعهم ثم أخبرهم بنذره
ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : أوف بنذرك، وافعل ما شئت

---

(١) طبقات ابن سعد جـ١ ص ٥٣ .

قال لهم : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم ائتوني ففعلوا.

فقال عبد المطلب لصاحب القداح ، اضرب على بني هؤلاء بقداحهم هذه ، وأخبره بنذره الذي نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذي فيه اسمه ، فخرج السهم على عبد الله. فأخذه عبد المطلب بيده وحد الشفرة ليذبحه ، فقامت إليه قريش من أنديتها وقالوا : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه بمال فديناه ، فذهبوا إلى عرافة خيبر فقالت لهم : كم الدية فيكم ؟

قالوا : عشرة من الإبل .

قالت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل ثم اضربوا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها عنه فقد رضي ربكم، ونجا صاحبكم. ففعلوا ذلك حتى بلغت الإبل مائة .

فقالت قريش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل ، ثم عادوا الثانية والثالثة ، وعبد المطلب قائم يدعو الله فخرج القدح في كلتيهما على الإبل فنحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان، ولا يمنع [1] .

(١) روى ابن كثير بسنده أن أعرابياً قال للنبي ﷺ : يا ابن الذبيحين ، فتبسم [illegible] ولم ينكر عليه ... فقيل لمعاوية : من الذبيحان ؟

[illegible]

تميز عبد الله بالعفة والطهر ، وحسن الخلق ، ويروى أن كاهنة تدعى [illegible] فاطمة بنت مر الخثعمية مر بها عبد المطلب ، ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه من بنت وهب ، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله ، فقالت : هل لك أن تقع علي وتأخذ مائة من الإبل ، فعصمه الله تعالى من إجابتها وقال لها :

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه

فكيف بالأمر الذي تبغينه يحمي الكريم عرضه ودينه

فلما تزوجت آمنة عبد الله ، وحملت برسول الله ﷺ ، مر عبد الله على الكاهنة مرة أخرى ، وقال لها : هل لك فيما قلت ؟ .

فنظرت إليه ، ولم تر ذلك النور في وجهه فقالت له : قد كان ذلك مرة ، فاليوم لا ، ماذا صنعت ؟

فقال : زوجني أبي آمنة بنت وهب الزهرية .

فقالت : قد أخذت النور الذي كان في وجهك وأنشأت تقول :

الآن قد ضيعت ما كان ظاهرا عليك وفارقت الضياء المباركا

غدوت علي خاليا فبذلته لغيري فالحق بشأنك ذلكا

ولا تحسبن اليوم أمس وليتني رزقت غلاما منك في مثل حالكا

وداخلها الأسف على ما فاتها ، والحسرة على ما تولى عنها (١)

وكان عبد الله بارا بأبيه ، مطيعا له ، يروي ابن إسحاق أن عبد الله [illegible] مع أبيه بعد الذبح مر على امرأة من بني أسد ، وهي [illegible] فنظرت إلى وجهه ، وقالت له : أين تذهب يا عبد الله ؟

قال لها : مع أبي .

قالت له : لك مثل الإبل التي نحرت عنك ، وقع علي الآن .

---

(١) أعلام النبوة للماوردي ص [illegible]

قال لها : أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه [١] .

فأخذه أبوه عبد المطلب ، وذهب به إلى وهب بن عبد مناف وزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، .

ورسول الله هو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة ، وقد مات أبوه قبل مولده ، وماتت أمه وهو ابن ست سنوات .

وعبد المطلب ، والد عبد الله اسمه شيبة الحمد ، واشتهر بعبد المطلب ، لأن عمه المطلب أحضره من المدينة ، حيث نشأ عند أخواله ، فلما سأله أهل مكة : من هذا ؟

قال لهم : هذا عبدي ، فثبت معه اسمه هذا ، وترك شيبة .

وكـــان عبد المطلب شديد الوفاء بوعده ، وقد رأينا ما فعل مع نذره بذبح أحد أبنائه ، إذا بلغوا عشراً ،

ومـــن وفائه أنه أجار يهودياً يدعى " أذينة " فتآمر حرب بن أمية على قتله ، وقتله ، فلم يزل عبد المطلب يسعى في دمه حتى أخذ ديته ، وسلمها لأهله [٢] .

وهو شيخ مكة ، وزعيمها يوم قدوم أبرهة ..

وكـــان عبد المطلب جسيماً أبيض ، وسيماً " طوالاً ، فصيحاً ، ما رآه أحد قط إلا قدره ، وقد صارت إليه السقاية والرفادة ، وشرف في قومه ، وعظم شأنه ، وكان يعرف فيه قوة الحق ، وهيبة الملك .

ومكارمه أكثر من أن تحصى ، فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفساً ، وأباً ، وبيتاً ، وجمالاً ، وبهاء ، وفعالاً .

وكـــان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وأول من جعل دية القتيل مائة مـــن الإبل بعد فداء عبد الله . . .

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٣١٠ .

وقد أقام لأهل مكة ما كان يقيمه أباؤه لهم ، فشرف فيها شرفاً لم يبلغ قبله ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيئان : ــ

الأول : حفر بئر زمزم بعدما أمر به في المنام ، ووصف له موضعها ، كانت السقاية معه ، ولما حاولت قريش منازعته في زمزم، والسقاية، أراهم الله على تخصيص عبد المطلب بـ " زمزم " [1] .

الثاني : لما قدم أبرهة بجيشه يريد هدم الكعبة خافت قريش ، وتفرقت في الشعاب ، وتركت إبلها وغنمها ، فاستولى عليها أبرهة ، فذهب إليه عبد المطلب

واستقبله أبرهة وسأله : ماذا جاء بك ؟

قال عبد المطلب : جئت أسألك الإبل والغنم .

فقــال أبرهة له : أكبرتك حين رأيتك ، وزهدتني فيك حين كلمتني ، تسألني الإبل، وتترك البيت الذى هو دينك ودين أبائك ؟ ! .

فقال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه .

وقد كان حيث هلك أبرهة،وجيشه بالطير الأبابيل،واستردعبدالمطلب الإبل والغنم [2]

وهــو أول مــن طلى الكعبة بالذهب ، وسمي الفياض لجوده ، وكان يأمر أولاده بــترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويقول : **لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة** ، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ونهى عن قتل الموءودة ، ونكاح المحارم ، وأمر أن لا يطوف بالبيت عريان [3] .

و " **هاشم** " واسمه عمرو العلا والد عبد المطلب .

---

(1) سيرة ابن هشام جـ١ ص ١٤٣ بتصرف .

(2) منتقى النقول ص ٢٠ ، ٢١ .

(3) منتقى النقول ص ٢١ .

ولقـب هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه بمكة، وأطعمهم ، وذلك أن أهل مكة أصابهم جهد، وشدة ، فرحل هاشم إلى فلسطين، فاشترى منها دقيقاً كثيراً وكعكاً ، وقدم بذلك إلى مكة فأمر به، فخبز، ثم نحر جزوراً ، وجعلها ثريداً ، عم به أهل مكة ولا زال يفعل ذلك معهم حتى استكفوا .

وهو أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام [1]

ومن قبله كان تجار مكة لا يغادرون بلدهم ، فركب هاشم إلى الشام ، ونزل بقيصر ، فلما علم به ملك الروم سأل عنه ، وكلمه ، وأعجب به ، وجعل يرسل إليه ويدخله عليه .

فلما رأى هاشم مكانه منه قال له : أيها الملك إن لى قوماً وهم تجار العرب، فـإن رأيت أن تكتب لى كتباً تؤمنهم، وتؤمن تجارتهم، فيقدمون عليك بما يستظرف مـن أدم الحجاز، وثيابه، ليتمكنوا من بيعه عندكم، فهوَ أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم، فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مر بحى من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشرافهم إيلافاً .

والإيـلاف أن يأمنوا وهم عندهم، وفى طريقهم، وفى أرضهم بغير حلف ، إنمـا هو أمان الطريق ، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بين مكة والشام، حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب ، فكان ذلك أعظم بركة ، ثم خرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهـم يجوزهم، ويوفيهم إيلافهم، الذى أخذ لهم من العرب ، فلم يبرح يجمع بينهم وبين العرب حتى ورد الشام [2].

واشتهر هاشم بالدقة ، والحكمة ، ومكارم الأخلاق ، ومن وصاياه الحكيمة لقومه وهو يخطب فيهم : ـــ

---

[1] سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٦ .

[2] المرجع السابق ج ١ ص ٣١٦ .

أيها الناس نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل ، وبنو النضر بن كنانة ، وبنو قصي بن كـلاب ، وأرباب مكة ، وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب ، ومعدن المجد ، ولنا في كـل حلـف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوق عشيرة وقطع رحم .

يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه ، والسيف لا يصـان إلا بغمده ، ورامي العشيرة يصيبه سهمه ، ومن أمحكه اللجاج أخرجه إلى البغي .

أيها الناس الحلم شرف ، والصبر ظفر ، والمعروف كنز ، والجود سؤدد ، والجهـل سـفه، والأيام دول ، والدهر غير ، والمرء منسوب إلى فعله ، ومأخوذ بعملـه ، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد ، ودعوا الفضول يجانبكم السفهاء ، وأكرموا الجليس يعمر ناديكم ، وحاموا الخليط يرغب في جواركم ، وأنصفوا من أنفسـكم يوثـق بكم ، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة ، وإياكم والأخلاق الدنيئة ، فإنها تضع الشرف ، وتهدم المجد ألا وإن نهنهة الجاهل أهون من جزيرته ، ورأس العشيرة يحمل أثقالها ، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به [١] .

وكـان من أجمل الناس ، وأحسنهم صورة ، يتلألأ النور في وجهه كاد يتوقد ، لم يره أحد إلا أحبه ، وأقبل عليه .

و " **عبد مناف** " والـد هاشم اشتهر بأفعال الخير ، وأماجد الأعمال ، وسمي **بالمغيرة** لقوته، وإغارته على الأعداء ، وسمي **بالقمر** لحسنه وجماله .

وقد ساد في حياة أبيه ، وبرز بآرائه في دار الندوة ، وسر به والده " قصي " وهو الذي سماه (**عبد مناف**) واستبدله بـ " **عبد مناة** " كما سمته أمه .

قام بعد أبيه قصي بالسقاية ، والرفادة ، واشتهر بالحكمة ، وحسن السياسة

---

[١] أعلام النبوة للماوردي ص ١٣٩ .

أحاطت قريش عبد مناف بالتفضيل ، والتكريم ، ومن أشعارهم :

كانت قريش بيضة فتفلقت فالمح خالصة لعبد مناف

والمح : صفرة البيض ، يشيرون بذلك إلى أن قريشاً إذا إنقسمت كالبيضة ، فعبد مناف صفرتها ، وهي أصل البيضة ، وأكثرها منفعة .

يروى البلاذرى أن النبي " ﷺ " سمع جارية تنشد هذا البيت وتقول :

فالمح خالصة لعبد الدار .

فقال الرسول " ﷺ " لأبي بكر " ﷺ " : كذا قال الشاعر ؟

قال أبو بكر : لا ، إنما قال : لعبد مناف

فقال النبي " ﷺ " : كذلك [١] .

وهذا تأكيد لمترلة عبد مناف ، وقدرته في قومه .

و " **قصي** " والد عبد مناف اسم مصغر من " قصى " أى بعد ، لأنه بعد عن قومه في بلاد " قضاعة " مع أمه حين تزوجت بعد أبيه في بني عزرة ... وقد عاد قصي إلى مكة بعد أن عير بغربته ... وعمل بعد أن شب على أن يكون أمر مكة لأهلها ، فأبت خزاعة وبنو بكر ، فقاتلهم قصى ومن معه .. حتى تصالحوا بعد ذلك على أن يكون الأمر لقصى وبنيه ، لأنهم الأحق والأولى .

فلما جمع قصى قريشاً قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم (أى أنتم وبيوتكم) في الحرم حول البيت ؟ فو الله لا يستحل العرب قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم منه ، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً .

فقالوا : أنت سيدنا ، ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة [٢] وبنوا بيوتهم مجاورة للكعبة ، وكانوا من قبل يبنونها بعيداً في الشعاب .

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢١ .

[٢] المرجع السابق ج١ ص ٣٢٤ .

وأمــرهم قصى أن يجعلوا أبواب بيوقم جهة الكعبة، علىأن يتركوا [illegible]
بيتين طريقاً يؤدى إلى الكعبة ، وفى نهاية هذه الطرق تأسست أبواب الحرم [illegible]

وقـد جمع " قصى " لنفسه أمر الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، و[illegible]
واللواء ، وبذلك حاز الشرف في مكة كلها .

وبـنى داراً سماها " **دار الندوة** " ، وجعلها مكاناً للاجتماع ، وال[illegible]
كافة أمورهم الشخصية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وغيرها .

وقـد فرض قصى على قريش مالاً يدفعونه إليه ، وهو الذى يعرف بالرفادة ، [illegible]
عـلى حجاج بيت الله تعالى ، قال لهم : (يا معشر قريش : إنكم جيران الله وأهل البيـت، وأصحاب الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق [illegible] بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا

يقـول ابـن هشـام : فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم [illegible]
فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية على
قومه حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا ، فهو الطعام الذى [illegible]
الولاة كل عام ، ويقدمونه للحجيج بمنى حتى ينقضى الحج [1] .

وقـد قسـم قصى المهام الرئيسية في أولاده .. فأعطى عبد مناف [illegible]
والندوة ، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ، وأعطى عبد العزى الرفادة والضيافة أيام
منى .. وهكذا .

ومن أقوال قصى الحكيمة التى علمها أولاده :

" من عظم لئيماً شركه في لؤمه " .

" ومن استحسن مستقبحاً كان معه " .

" ومن لم تصلحه كرامتكم فداووه بهوانه ، فذلك دواء يحسم الداء " .

---

[1] سيرة النبى ج١ ص ١٣٠ .

" العي عيان : عي إفحام ، وعي المنطق بغير سداد " .

" من سأل فوق قدره استحق الحرمان " .

و " **كلاب** " والد قصي جمع كلب ، وهو مجمع نسب عبد الله ، وآمنة ، أبوي النبي " ﷺ " ، سمي بذلك من المكالبة، وهو المسارعة في التجمع على الكسب ، أو جرياً على عادة العرب في تسمية أبنائهم بأسماء موحشة كذئب ، وأسد ، وضبع ...

قيل لأعرابي : لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء كـ " كلب "، وذئب ، وتسمون عبيدكم بأحسن الأسماء كـ " رباح " و " مرزوق " ؟ ...

فقال : إنا نسمي أبناءنا لأعدائنا ، ونسمي عبيدنا لأنفسنا ... يريد أن الأبناء هم عدة مواجهة الأعداء ، والسهام المصوبة إليهم .

وقيل : سمي بذلك لدفع السوء والحسد عنه [١] .

ومن أسماء " كلاب " الحكيم ، والمهذب، وعروة ، ويكنى بـ " **أبي زهرة** " وزهرة هو جد النبي " ﷺ " من قبل أمه .

و " **مرة** " والد كلاب اسم منقول من وصف الحنظلة ، والغلقمة ، وقيل منقول من وصف الرجل بالمرارة .

وقيل مأخوذ من القوة ومنه قوله تعالى : ﴿ **ذُو مِرَّةٍ** ﴾أي قوة، وكنيته أبو يقظه [٢] .

وهذه المعاني تفيد ما كان له من قوة في الحق ، وشدة وقسوة على أهل الباطل .

و " **كعب** " والد مرة ومعناه العلو في الشرف ، والسؤدد ، والثبات والمنزلة وكنيته أبو هصيص .

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ٨ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٣٢٩ .

وهو أول من جمع الناس، وخطبهم في يوم معين، هو يوم " **العروبة** " اليوم المسمى في الإسلام بيوم الجمعة ، ومن خطبه في قومه : ـــ

أمـــا بعد ، فاسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض مهاد والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً فتضربوا عن صفحاً ، الآخرون كالأولين ، والذكر كالأنثى ، والزوج والفرد إلى بلى ، فصلوا أرحـــامكم ، وأوفوا بعهودكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فإنها قوام مـــروءتكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشر ، الدار أمامكم ، واليقين غـــير مـــا تظنون ، حرمكم زينوه وعظموه ، وتمسكوا به ، فسيأتي له نبأ عظيم وســـيخرج منه نبي كريم بذلك جاء موسى وعيسى " صلى الله عليهما وسلم " والله لو كنا ذا سمع وبصر ، ويد ورجلٍ ، لتنصبت فيها تنصب الجمل ، ولأرقلت فيها إرقال الفحل [١] .

و " **لـؤي** " يكنى باسم ابنه كعب ، اشتهر بالحكمة ، والحلم منذ صغره وكان مطاعاً ، محبوباً في قومه .

و " **غالب** " من الغلبة والفوز ، وكنيته أبو تيم .

و " **فهـر** " كان رئيس أهل مكة ، وقيل إنه سمي بـــ " قريش " يقول ابن شهبا : من جاوز فهراً فليس من قريش [٢] .

و " **مـالك** " يكـــنى باسم ولده " فهر " ولم ينجب سواه ، تميز بالحكمة وحسن الخلق .

و " **النضر** " ابن كنانة ، وكنيته (أبو يخلد) .

---

(١) المرجع السابق جـ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ٣٣٤ .

و " **كنانة** " هـــي ســـتر السيف ، سمى بذلك لأنه كان ستراً على قومه ، ويكـــنى بـــأبي النضر ، يقول عامر العدواني لابنه في وصيته : يابني أدركت كنانة بن خزيمة وكان شيخاً مسناً، عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله ، ومن أقوالـــه لهـــم : إنه قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد ، يدعو إلى الله،وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق ، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم .

قال أبو الربيع رحمه الله تعالى : إن كنانة رئي وهو نائم في الحجر فقيل له : تخـــير يـــا أبا النضر بين الصهيل والهدر ، وعمارة الجدر، وعز الدهر ، فقال : كل يارب فصار هذا كله في قريش [١] .

و " **خزيمة** " يكـــنى بأبي أسد ، يروى ابن عباس أن خزيمة مات على دين إبراهيم " عليه السلام " ، وهو أول من أهدى البدن للبيت .

و " **مدركة** " اسمه عمرو على الصحيح ، وكنيته أبو هزيل ، وأبو خزيمة .

و " **إلياس** " كـــان عاقلاً ، أريباً ، يقول ابن الزبير : لما أدرك إلياس وبلغ أنكـــر عـــلى بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم ، وسيرهم ، وبان فضله عليهم ، وجمعهـــم رأيه ، ورضوا به ، فردهم إلى سنن آبائهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم أهل الحكمة .

وهو وصى أبيه ، تميز بجمال الخلق والخلقه ، ويذكر عن النبي " ﷺ " أنه قال : (**لاتسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً**) [٢].

ويذكر أنه كان يبشر بنبي من صلبه ، يصلح الله به شئون الناس .

و " **مضر** " اسمه عمرو ، وكنيته أبو إلياس ، كان على دين إبراهيم " عليه السلام " أشتهر بالحكمة ، وسداد الرأى ، ومن أقواله :ـــ

---

[١] سبل الهدى ج١ ص ٣٣٨ .

[٢] الروض الأنف ج١ ص ١٠ .

" خير الخير أعجله " .

" احملـــوا أنفسكم على مكروهها فيما يصلحكم ، واصرفوها عن فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق "[1].

و " **نـزار** " سماه أبوه بهذا الاسم لما نظر في وجهه ، ورأى نور النبي كان يتنقل في الأصلاب، لما رأي ذلك فرح،ونحر، وأطعم، وقال : هذا نذر فســـمى بـــ " **نزار** " وكنيته " **أبو إياد** " .

و " **معد** " يضرب به المثل في الخلق ، يقـــول عمر بن الخطاب " اخشوشنوا وتعددوا " أى كونوا على خلق معد .

و " **عدنـان** " أول من كسا الكعبة ، وكان الناس يعرفون أن نبيا من صلبه ، ويكنى بأبي معد .

وقـــد ســـبق الإشارة إلى إجماع النسابين على معرفة نسب النبى " ﷺ " عدنان ، وأن عدنان من نسل إسماعيل " عليه السلام " ، **إلا** أنهم يختلفون في عدد آبائه إلى إسماعـــيل " عليه السلام " ، ولذلك اكتفى هنا بذكر نسبه " ﷺ " إلى عدنان مع أن عدنان من ولد إسماعيل " عليه السلام "، **فلقد روى ابن سعد أن النبي " ﷺ " كان إذا انتســـب لم يجـــاوز في نسبه عدنان ، ثم يمسك ، ثم يقول : كذب النسابون ويرى السهيلى أن هذا الحديث من قول ابن مسعود ، ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه " : إنما ننتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا ندرى ما هو**[3] .

ومـــن هذا الإيجاز نرى شرف النسب ، وعلو المحتد، فجميعهـــم كـ ذوو شـــأن حيث نلمح في سيرتهم كل خير ، فهم حماة البيت ، والمقربون من والمؤسسون لأهل مكة " دار الندوة " ، وقد نظموا للقبائل سائر المهام ، وعرفوا

---

[1] سبل الهدى ج١ ص ٣٤٤ ، والفواق : المدة بين حلبتين للناقة .

[2] الطبقات الكبرى ج١ ص٥٦ .

[3] المرجع السابق ج١ ص ٥٨ .

يوم العروبة ، وجمعوهم فيه كل أسبوع ؛ لسماع الخطب ، وتداول الأمور .

وفي أسمائهم تلمح صفاتهم ، ففي كعب العلو والثبات ، وفي لؤي الهدوء والأناة ، وفي غالب القوة القاهرة للأعداء [1] وفي فهر الطول والعون ، سمي قريشاً لأنه كان يقرش أي يفتش عن حاجة المحتاج ليغنيه بماله ونفسه [2] ، وفي مالك السيادة والملك العرب [3] ، وفي النضر الحسن والجمال [4] ، وفي كنانة ستر قومه ، ومرجعهم بعلمه وفضله [5] ، وفي خزيمة إصلاح قومه ، وأخذهم على الحق [6] وهكذا إلى عدنان الذي عاش زمن موسى " عليه السلام " [7] .

هذا نسبه " ﷺ " من جهة أبيه ..

وأما نسبه من جهة أمه فهو إلى كلاب ، وعند كلاب يلتقي نسبها مع أبيه فنسبه من جهة أمه عال هو الآخر ؛ يصفه ابن هشام ويقول : (إن آباء آمنة من فضلاء قريش ، وسادة بني زهرة) [8] .

ولم يكن للنبي " ﷺ " أخ ولا أخت من أمه وأبيه ، يقول الماوردي : (لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ، ولا أخت ؛ لانتهاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده بها آية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ويماثل به) [9] .

---

(١) [illegible] ص ٦ ، ٧ .

(٢) نور الظلام ص ٣٠ .

(٣) المرجع السابق ص ٣٠ .

(٤) [illegible] ج٣ ص ٣٧ .

(٥) المرجع السابق ج٣ ص ٣٧ .

(٦) سيرة ابن كثير ج١ ص ١٨٨ .

(٧) الروض الأنف ج١ ص ١١ .

(٨) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٦٩ .

(٩) أعلام النبوة ص ١٤٧ .

ولقد تميز آباؤه بعديد من المزايا العامة التي اشتركوا فيها جميعاً ، معهم تكريماً لرسول الله " ﷺ " .

وسأبين أهم هذه المزايا لما لها من مردود إيجابي على شخصية النبي ﷺ وتهيئة النفوس للاستماع له ، والإجابة لدعوته ، وبخاصة أن الناس جبلوا على السريعة لمن علا نسبه ، وسمت أخلاقه ، وكان لهم به صلة وقربى .

وسأوضح بإذن الله تعالى أهم هذه المزايا في عدد من المسائل لتتضمن مسألة مزية ، وهي كما يلي : —

المسألة الأولى : أصالة النسب .

المسألة الثانية : بعدهم عن عبادة الأصنام .

المسألة الثالثة : صلتهم بسائر بطون العرب .

وسوف أفصل هذه المسائل فيما يأتي ...

***

المسألة الأولى

أصالة النسب

اشتهر آباؤه " ﷺ " جميعاً ، بعلو الأصل ، وشرف النسب ، ومكارم الخلق ، فكـانوا مـن أحسن الخلق وأماجدهم ، وقد رأيناهم سادة الناس ، ورواد القبائل ، حملوا مهام البيت ، وقاموا بواجب ضيوف الله .

ولعل أهم ما تميزوا به هو طهارتهم ، وعفتهم ، وبعدهم عن سفاح الجاهلية ، وضلالات الشرك والهوى ، والأحاديث الصحيحة تؤكد هذه الحقيقـــة ، فعن علي " ﷺ " أن النـبي " ﷺ " قال : (**خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لـدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي**) [١] ، وعن ابن عباس " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**مـا ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، وما ولـدني إلا نكاح كنكاح الإسلام**) [٢] .

ويروى ابن سعد في طبقاته عن محمد الكلبي قال : (**كتبت لنبي الله " ﷺ " خمسمائة أم ، فما وجدت فيهن سفاحاً ، ولا شيئاً مما كان عليه أمر الجاهلية**) [٣] .

وهكذا وضع الله رسوله " ﷺ " في موضع يحمل معه شرف سلسلة طاهرة ، كريمة الخلق والسلوك ، طيبة الشأن والذكر ، وهو اصطفاء من الله تعالى .

فعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : (**إن الله اصطفى كنانة مـن ولد إسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم**) [٤] .

---

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ـ باب علامات النبوة ـ باب كرامة أصله " ﷺ " ج ٨ ص ٣١٥ .

(٢) المرجع السابق ـ باب علامات النبوة ـ باب كرامة أصله " ﷺ " ج٨ ص ٣٩٥ .

(٣) سيرة ابن كثير ج ١ ص ١٩١ .

(٤) صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل ـ باب فضل النبي " ﷺ " ج٧ ص ٥٨ .

وعـــن أبي هريرة " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : (بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً حتى كنت من القرن الذى كنت منه) [١] .

وأخـــرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس أن رسول الله " ﷺ " قال : (ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوى ، فلم يصبني شئ من عهد الجاهلية ، وخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً) [٢] .

وعـــن ابـــن عباس قال : قال رسول الله " ﷺ " : (لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفي مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما) [٣] .

وعن أنس أن رسول الله " ﷺ " قال : (ما افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهمـــا ، فأخرجت من بين أبوى ، لم يصبني شئ من عهد الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي) [٤] .

وعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : (إن الله اصطفى من ولـــد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة ، واصطفى من بني كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم) [٥] .

أخـــرجه الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في فضائل العباس من حديث واثلـــة بلفظ : (إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً ، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل ، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً ، ثم اصطفى من ولد

---

[١] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ــ كتاب المناقب ــ باب صفة النبي " ﷺ " ج٦ ص ٥٦٦ .

[٢] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ــ كتاب علامات النبوة ج٨ ص ٣٩٥ .

[٣] سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٢٧٦ .

[٤] تهذيب تاريخ دمشق ج١ ص ٢٧٩ .

[٥] صحيح مسلم بشرح النووي ـ كتاب الفضائل ــ فضل نسب النبي ج١٥ ص ٣٦ .

مضـــر ، ثم اصطفى من مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشاً ، ثم اصطفى من قريش بني هاشم ، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ، ثم اصطفاني من بني عبد المطلب)[١] والاصطفاء أخذ الأحسن من جماعة فيها غيره ليسوا مثله .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله " ﷺ " : (خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بني مناف بنو هاشم ، وخير بني هاشم بنو عبد المطلب والله ما افترقت فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما)[٢] .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله " ﷺ " : (إن الله خلق الخلق فاختار من الخلـــق بـــني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار)[٣] .

وعـــن ابن عباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله " ﷺ " : (إن الله حـــين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير فريق ، ثم حـــين خلـــق القـــبائل جعلني من خير قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفســـهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً، وخيرهم نسباً)[٤] .

وعن ابن عباس قال:قال رسول الله" ﷺ ":(إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً،ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً،ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة،ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً)[٥] .

---

[١] الحاوي ج٢ ص ٣٦٦ .

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد ج١ ص٢٠ .

[٣] دلائل النبوة للبيهقي ج١ ص ١٦٨ .

[٤] سنن الترمذي ـــ كتاب المناقب ج٥ ص ٥٨٤ .

[٥] الطبقات الكبري ج١ ص ٢٠ .

وعن ابن عباس قال : (دخل ناس من قريش على صفية بنت عبد المطلب فجعلـــوا يتفاخرون، ويذكرون الجاهلية ، فقالت صفية : منا رسول الله " ﷺ " فقالوا : تنبت النخلة أو الشجرة في الأرض الكبا .

فذكرت ذلك صفية لرسول الله " ﷺ " فغضب وأمر بلالاً فنادى في الناس ، فقام على المنبر فقال : أيها الناس من أنا ؟

قالوا : أنت رسول الله .

قال : انسبوني .

قالوا : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قـــال : أجـــــل ، أنا محمد بن عبد الله، وأنا رسول الله، فما بال أقوام يبتذلون أصلي ؟! ! فو الله إني لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً)[١] .

وعن ربيعة بن الحارث قال : بلغ النبي " ﷺ " أن قوماً نالوا منه ، فقالوا : إن مـــثل محمد كمثل نخلة نبتت في كناس ، فغضب النبي " ﷺ " وقال : (إن الله خلق خلقـــه فجعـــلهم فرقتين ، فجعلني في خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهـــم قبيلاً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، ثم قال : أنا خيركم قبيلاً وخيركم بيتاً)[٢] .

وعن عائشة " رضي الله عنها " قالت : (قال لي رسول الله " ﷺ " : قال لي جبريل " عليه السلام " : قلبت الأرض مشارقها ، ومغاربها ، فلم أجد أفضل من محمد وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد أفضل من بني هاشم)[٣] .

هـــذه النصوص الكثيرة التي أوردتها تطمئن النفس على صدق ما تضمنته وهو ما نريد إبرازه في إثبات علو نسبه"ﷺ"،وتمتع آبائه،وأجداده بكرم الطبع، وسمو

---

[١] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ـــ باب علامات النبوة ج٨ ص ٣٩٩ .

[٢] سبـ الهدي والرشاد ج٥ ص ٢٧٦ .

[٣] دلائل النبوة ج١ ص ١٥١ .

الأصل ، والبعد عن الدنايا ، وصغائر الأمور .

كان " ﷺ " نتاج هذه السلسلة الكريمة التى يفتخر بها ، وتذكرها العرب له وقد أقر خصومه في مكة هذه الحقيقة ، وهم في أشد حالات العداء معه .

يروى البخارى أن هرقل أرسل إلى أبى سفيان ومن معه ، وكانوا في تجارة بالشام ، فدعاهم إلى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعا ترجمانه .

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذى يزعم أنه نبى ؟ .

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً .

فقال هرقل : أدنوه منى ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم إنى سائل عن هذا الرجل فإن كذبنى فكذبوه .

يقول أبو سفيان : فو الله لولا الحياء من أن يأثروا على كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألنى عنه أن قال : كيف نسبه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

ثم سأله عدة أسئلة وأبو سفيان يجيبه، وأخيراً قال هرقل لترجمانه: قل لأبى سفيان سألتك عن نسبه فقلت: هو فينا ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها [1]

والمهم أن أبا سفيان يومئذ كان على الكفر ، ولم يدخل في الإيمان بعد ، ومع ذلك نطق بالحق، وشهد بعلو نسب رسول الله " ﷺ " وهو أول ما سأل عنه هرقل لمعرفته بضرورة سمو نسبه ، وطهارته إن كان رسولاً صادقاً ..

إن معرفة خصائص النسب الشريف لرسول الله " ﷺ " يؤثر في تقويم صاحبه وتقدير شأنه، وإدراك مستقره في الأمور ، فالخلق الغالب على الأصل ينزع عنه الفرع ولا يتغير بالإسلام إلا إلى الأفضل .

أخرج الشيخان وأحمد عن أبى هريرة أن رسول الله " ﷺ " قال : (**تجدون**

---

[1] صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب بدء الوحى ج١ ص ٣١ ، ٣٢ .

الناس معادن فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وتجدون من خير الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه) [1].

فأصحاب المروءات، ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا فهم خيار الناس [2].

قال ابن حجر في الفتح : وجه التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج ظهر ما اختفى منه ولا تتغير صفته، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها، بل من كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس، فإن أسلم استمر شرفه وكان أشرف ممن أسلم من المشروفين في الجاهلية [3].

ولهذا كان رسول الله "ﷺ" يقول : (أنا ابن العواتك) [4].

والعاتك هو الكرار الشجاع في القتال، والمرأة العاتك هي الشريفة الكريمة.

وعند اشتداد المواجهة بين الرسول "ﷺ" وأهل مكة لم نسمع شيئاً يمس رسول الله وأصله، ولا نقداً لخلقه وسلوكه ولا غمزاً حول شيء يتصل به ... ولو وجد شيء من هذا لتحدثوا عنه، وأظهروه ...

❋ ❋ ❋

---

(1) صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى ﴾ ج ٦ ص ٥٢٥.

(2) شرح النووي على مسلم ج ٥ ص ٢٣٠.

(3) فتح الباري ج ٦ ص ٥٢٩.

(4) الطبراني، قال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد ــ كتاب علامات النبوة ــ باب في كرم أصله "ﷺ" ج ٨ ص ٢١٥.

المسألة الثانية

بعد أبائه " ﷺ " عن الشرك

وعبادة الأصنام

ثبـــت بالأدلة والبراهين العديدة أن أصول النبى " ﷺ " وأباءه من لـــــدن ادم " عليه السلام " إلى والده المباشر عبد الله بن عبد المطلب ، كانوا جميعاً بعيدين عن الشرك ، وعبادة الأصنام .

والأدلة على ذلك عديدة ، يجمعها السيوطى رحمه الله تعالى [1] في مقدمتين ليصل إلى نتيجة عقلية مسلمة .

أما المقدمــة الأولى فهـــى أن آباء النبى " ﷺ " هم من خير الناس ، كل مـــنهم أفضل معاصريه ، وأخيرهم ، فهم خيار من خيار ، اصطفاهم الله منذ وجود آدم " عليه السلام " ، واستمر هذا الاصطفاء معهم حتى جاء رسول الله محمد " ﷺ " .

أما المقدمة الثانية فإنها تظهر حقيقة دينية ، تاريخية ، وهى أن الأرض لم تخــل من عهد آدم " عليه السلام " إلى بعثة النبى " ﷺ " ، وإلى أن تقوم الساعة، من أناس عـــلى الفطرة يوحدون الله ، ويعبدونه بما بقى من دين سابق ، ويرون أن الأصنام ، والأوثان ، وما يماثلها ، ما هى إلا افتراءات لا حقيقة لها، ولذلك فهم بعيدون عنها ، لا يقتنعون بها ..

فإذا انضمت المقدمة الأولى إلى المقدمة الثانية لظهر بجلاء أن أباء النبى " ﷺ " فى كل عصر كانوا من هؤلاء الأناس الذين عاشوا بالفطرة النقية ، الموحدة ، **ذلك أن الخيرية ، والأفضلية تقوم أساساً على التوحيد والتقوى .**

ومـــن الواجب التسليم بهذا ، لأن الأفضلية إذا لم تقم على التوحيد، وقامت على المال أو الكثرة ، أو السلطان مثلاً ، فإن الشرك يعلو التوحيد ، ويفضل المشرك

---

[1] الحاوى للفتاوى ج٢ ص ٣٦٧ بتصرف .

المؤمن، وهذا غير صحيح ، فوجب بمجموع هاتين المقدمتين أن يكون أباء النبي
أفضل الخلق في زمانهم على التوحيد ، أصل التفضيل ، وأساسه ، لأن القول بغيره
يؤدى إلى أحد أمرين ، لا يسلم بهما أو بأحدهما عاقل .

الأمر الأول : أفضـــلية المشرك على المسلم ، وهذا أمر غير صحيح ...
مسلم ، ولم يقل به أحد من العقلاء .

الأمر الثاني : أن يكون هناك من هم أفضل من آباء النبي " ﷺ " ، و
معارض بما ثبت في المقدمة الأولى التي سبق ذكر أدلتها .

يقول الإمام السيوطى : (**يجب أن يكون أباء النبي موحدين ، لاشرك في**
ليكونوا من خير أهل الأرض ، كل في قرنه) [١] .

وفي الدراسة السابقة عن المقدمة الأولى أوضحت أن أباء النبي هم خيار ا...
من لدن آدم " عليه السلام " إلى محمد " ﷺ " ، وبذلك ثبتت المقدمة الأولى .

وإثبات المقدمة الثانية بعد ذلك أمر مسلم ، لأن الناس كانوا على الإ...
منذ آدم إلى نوح " عليه السلام " ، يقول الله تعالى : ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ
ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾ [٢] وفي الآية بيان أن الناس جميعاً بعد آدم " عليه السلام "
كانوا على دين واحد هو الإسلام .

فعن أبي أمامة " رضي الله عنه " أن رجلاً قال : **يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟**
قال " ﷺ " : نعم نبي مكلم .
فقال الرجل : فكم كان بينه وبين نوح " عليه السلام " ؟
قال " ﷺ " : عشرة قرون [٣] .

---

(١) الحاوى للفتاوى ج٢ ص ٣٦٨ .

(٢) سورة البقرة آية (٢١٣) .

(٣) فتح البارى شرح صحيح البخارى ج٦ ص ٣٧٢ .

وهكذا استمرت البشرية على دين الإسلام عشرة قرون ، وبعد هذه المدة بدأ الشرك في الظهور ، واختلف الناس ، فبعث الله رسله مبشرين ، ومنذرين ، بلاغاً وإرشاداً ، ولذلك بعث شيث " عليه السلام " ، وإدريس " عليه السلام " نصراً لأهل الحق ، ومحافظة على دين الله القويم .

يروى عن قتادة " رضي الله عنه " أنه قال :(**ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون ، كلهم على الهدى ، وعلى شريعة الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله** نوحاً " عليه السلام ")[١].

وعن ابن عباس : (**أنه كان بين آدم ونوح " عليهما السلام " عشرة قرون كلهم على الإسلام**)[٢] .

وهذه الآراء بيان لاستمرار الإسلام في الناس منذ آدم إلى نوح " عليهم السلام " ، فلما اختلفوا ، وانقسموا جاء رسل الله، وعلى رأسهم نوح " عليه السلام " .

والتعبير بالاختلاف في الآية بيان لتمسك فريق من الناس بالإسلام الذى كانوا جميعاً عليه ، حين أرتد فريق منهم ، وعبدوا الأصنام ، وأشركوا في الألوهية ، وبذلك وجد الاختلاف ، والتفرق بدليل أن الله توعد هؤلاء المشركين الذين أشركوا وضيعوا وحدة الأمة ـــ وتجمعها على الدين الحق ، يقول تعالى : ﴿ **وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخۡتَلَفُواْۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡ فِيمَا فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ١٩** ﴾[٣] .

ومع الاختلاف على الدين الحق قبيل نوح " عليه السلام " نرى أن والد نوح كان مؤمناً ، موحداً ، امتداداً لآبائه من قبله ، دليل ذلك أن نوحاً " عليه السلام " دعا لأبيه كما

---

[١] الحاوى ج٢ ص ٣٧٢ .

[٢] تفسير الطبرى ج٤ ص ٢٧٥ .

[٣] سورة يونس آية (١٩) ودلالة الآية أن الله توعد المختلفين ، والله لا يتوعد إلا بسبب كفر أو معصية .

في قوله تعالى ﴿ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ [١] والنبي " ﷺ " لا يستغفر لكافر بدليل قوله تعالي : ﴿ وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴾ [٢] وبذلك تكون الآية صريحة في إيمان والد " نوح " وهو " سام " لأنه لو لم يكن مؤمناً لما دعا له ، وأيضاً فإن دعوة نوح لأبيه كانت بعد الطوفان ، و لم ينج من الطوفان إلا المؤمنون .

هذا عن الفترة من آدم إلى نوح " عليهم السلام " ..

أما ما بعد نوح " عليه السلام " ، فقد روى ابن عباس أن نوحاً " عليه السلام " لما أهبط ومن معه من السفينة هبطوا إلى قرية ، فبنى كل رجل منهم بيتاً ، فسميت القرية سوق الثمانين نسبة لعدد الناجين فلما ضاقت بهم القرية تحولوا إلى بابل فبنوها و لم يزالوا على الإسلام وهم ببابل، أما من كفر فقد غرق وهلك، يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴾ [٣] ومفهوم الآية يوضح أن ذرية من كفروا غرقوا بغرق أبائهم ، و لم يبق إلا المؤمنون ، الموحدون كما يفيده ضمير الفصل الموجود في الآية .

وقيل إن المؤمنين مع نوح كانت لهم ذرية مؤمنة نجت مع الناجين إلا أنها ماتت بأجلها ، و لم يبق إلا أبناء نوح .

وقيل : إن المؤمنين من ذرية الآخرين تلحق بذرية نوح في البقاء بسبب إيمانهم [٤] .

---

[١] سورة نوح آية (٢٨) .

[٢] سورة التوبة آية (١١٤) .

[٣] سورة الصافات آية (٧٧) .

[٤] فتح القدير ج٤ ص ٤٠٠ .

واستمر إيمان آباء النبي " ﷺ " من نوح إلى إبراهيم " عليهم السلام " ، غير أن ما ورد عن والد نبي الله إبراهيم " عليه السلام " (**آزر**) يتعارض مع هذا حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [١] ويقول سبحانه: ﴿ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾[٢] ، وفي هذه الآيات تصريح واضح بكفر أب إبراهيم " عليه السلام " وقد رد العلماء هذا التعارض بأن إبراهيم " عليه السلام " كان يخاطب عمه (**آزر**) أما والده فهو (**تارح**)، واللغة العربية تطلق اسم الأب على العم ؛ ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ﴾ [٣] فأطلق سبحانه على إسماعيل اسم الأب ليعقوب " عليه السلام " مع أنه كان عمه .

وبعد نجاة إبراهيم " عليه السلام " من النار أمره الله تعالى بأن يهاجر إلى بلاد الشام فهاجر حيث أمره الله تعالي ، وأخذ معه المؤمنين ، وكانوا ثلاثة ، هم زوجته ساره وابن خالته لوط ، وأبوه تارح [٤] ولو كان أبوه مشركاً ما اصطحبه معه في رحلة الهجرة من موطنه إلى بلاد الشام ... وأيضاً فلقد دعا إبراهيم " عليه السلام " لأبيه بعد هلاك عمه بمدة طويلة،ولو كان مشركاً ما دعا له، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم" عليه السلام ": ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴾ [٥]

---

[١] سورة الأنعام آية (٧٤) .

[٢] سورة مريم آية (٤٢) .

[٣] سورة البقرة آية (١٣٣) .

[٤] الكامل لابن الأثير ج١ ص ٩٦

[٥] سورة إبراهيم آية (٤١) .

أما آباء النبي محمد " ﷺ " بعد إبراهيم فهم على النحو المذكور لسائر الأنا[illegible]

يقــول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ ﴾ [1] .

فقــد أخبر الله تعالى بأنه بقدرته سبحانه وتعالى جعل كلمة الهدي والتوحيد باقـية ، متـنقلة في عقب إبراهيم " عليه السلام " تنتقل من واحد إلى من بعده في عقبه ، والعقب أبناء الرجل الذكور ، دون الإناث .

يقول المفسرون : الكلمة هي شهادة التوحيد ، جعلها الله مستمرة في ذرية إبراهيم " عليه السلام " يعقب كل جيل ما سبقه ، بحيث لايزال في ذريته من ينطق، ويؤمن بها .

ويقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝ ﴾ [2] وقد دعا إبراهيم " عليه السلام " في الآية بدعوتين:

أحدهما أن يجعل مكة بلداً آمناً، في المقام، والمعاش .

والثانية أن يجنبه ، وبنيه ، وذريته عبادة الأصنام ، وقد استجاب الله له ، فأكرم مكة بجعلها حرماً آمناً، ورزق أهلها ثمرات كل شئ ، كما استجاب الله سبحانه الدعوة الثانية لإبراهيم في أولاده فنجاهم من عبادة الأصنام وجعل النبوة والكتاب فيهم خاصة .

وقد جاءت أحاديث مسندة تفصل ما جاء في الآيات : ـــ

يقول النبي " ﷺ " : **(لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم)** [3] .

ويقول النبي " ﷺ " : **(لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين)** [4]

---

[1] سورة الزخرف الآيات (٢٦ ـــ ٢٩) .

[2] سورة إبراهيم آية (٣٥) .

[3] طبقات بن سعد ج١ ص ٥٨ .

[4] الروض الأنف ج١ ص ١٠ .

ويقول النبى " ﷺ " : (**لا تسبوا قسا فإنه كان مسلماً**) [1] .

ويقول النبى " ﷺ " : (**لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً**) [2] .

وقد رأينا من كلمات آباء النبى " ﷺ " ووقفنا على معانيها الدالة على العقل والحكمة ، وروح الإيمان ..

يقــول الســهيلى : (**وكعب بن لؤى أول من جمع يوم العروبة ، فكانت قـريش تجـتمع إليه في هذا اليوم ، فيخطبهم ، ويذكرهم بمبعث النبى " ﷺ " ، ويعلمهم أنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، والإيمان به**) .

وعبد المطلب هو الذى قابل أبرهة وقال له : للبيت رب يحميه ..

أمـــا آباء النبى " ﷺ " القريبون إليه فهم : كلاب ، وقصى ، وعبد مناف ، وهاشم ، وعبد المطلب ، وعبد الله ، فإنهم شيوخ مكة ، وحماة الكعبة ، وإليهم يرجع الفضل في تنظيم أمور البيت الحرام ، والانفاق على الحجيج ، وفى حياتهم إشارات إلى عقيدتهم الدينية .

يقول عبد الله : أما الحرام فالممات دونه .

ويقول عبد المطلب : للبيت رب يحميه .

وقـــد تمـــيز هاشم ، وعبد مناف بالحكمة ، وكرم الأخلاق ، ودور قصى وكلاب مع الكعبة وأهل مكة لا يخفى ، ولذلك كان " ﷺ " يفتخر بآبائه ويقـــول " ﷺ " : (**أنا ابن الذبيحين**) يريد بهما عبد الله وإسماعيل " عليهما السلام " ، وفى يوم حنين قال : ـــ

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ويقول " ﷺ " : أنا خيار من خيار من خيار .

---

[1] الحاوى ج٢ ص ٣٨٠ .

[2] الروض الأنف ج١ ص ١٠ .

وحديث النبي " ﷺ " عن آبائه لتعريف منازلهم ، وبيان مراتبهم ، والإشارة إلى نعم الله تعالى التي أحاطه ، وأحاطهم بها .

يقول أبو الحسن الماوردي : (أنبياء الله صفوة عباده، وخيرة خلقه، لما كلفهم من القيام بحقه، والإرشاد لخلقه، استخلصهم من أكرم العناصر ، واجتباهم بمحكم الأواصر ، فلم يكن لنسبهم من قدح ، ولمنصبهم من جرح ، لتكون القلوب لهم أصفى ، والنفوس لهم أوطأ ، والناس إلى إجابتهم أسرع ، ولأوامرهم أطوع ، وإن الله استخلص رسوله " ﷺ " من أطيب المناكح ، وحماه من دنس الفواحش ، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام منزهة ، وقد قال ابن عباس في تأويل قول الله : ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ﴾ أي تقلبك من أصلاب طاهرة، من أب بعد أب إلى أن جعلك نبياً ، فكان نور النبوة ظاهراً في آبائه ، ثم لم يشركه في ولادته من أبويه أخ ولا أخت لانتهاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده نهاية ، فيزول عنه أن يشارك فيه، ويماثل فيه ، فلذلك مات عنه أبواه في صغره ، فأما أبوه فمات وهو حمل ، وأما أمه فماتت وهو ابن ست سنين . وإذا خبرت حال نسبه، وعرفت طهارة مولده، علمت أنه من سلالة آباء كرام ، ليس في آبائه مسترذل ، ولا مغموز مستبذل ، بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة) [١] .

ويقول الشهرستاني : (ظهر نور النبي " ﷺ " في أسارير عبد المطلب بعض الظهـــور ، وببركة ذلك النور ألهم النذر في ذبح ولده ، وببركته كان يأمر ولده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، وينهاهم عن دنيات الأمور ، وببركة ذلـــك الـــنور كان يقول في وصاياه : إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبه عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم لم تصبه عقوبة ، فقيل لعبد المطلب في ذلك

---

(١) الحاوي ج٢ ص ٣٨٥ .

فتفكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسئ بإساءته ، وبيركة ذلك النور قال لأبرهة : إن هذا البيت ربا يحفظه)[١] .

ومع سلامة النسب النبوى وأصالته أرى توضيح أمرين : —

الأمر الأول : يتصل بتوحيد آباء النبى " ﷺ " لأن منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من كان بعيداً عنهم ، أما من كان نبياً أو عاصر نبياً ، فإنه كان على التوحيد الخالص ، الواضح الذى جاء من عند الله تعالى ، بكل ما يلزمه من اعتقاد وشريعة وأخلاق ، أما من بعد منهم عن زمن الأنبياء فإنه كان على توحيد يبعده عن تألية الصنم ، وعبادته ، مع غياب تعاليم الرسالة السابقة ، ولذلك لم يكن لهم دين واضح بمعالمه ، وتفصيلاته .

إنهم لم يتغمسوا في الشرك ، ولم يكونوا سدنة الأصنام ، ولا كهنة الآلهة ، مع ما لهذه الأعمال من أهمية في الحياة الجاهلية ، ومع منزلتهم في قبائل مكة، التى تمكنهم من الحصول على ما يريدون ، ولو كانوا من الكهنة ما منعهم أحد ، لكن الله أنقذهم منها .

إن بعدهم الزمنى عن رسالات الله أنساهم كثيراً من الحقائق الدينية ، شأنهم في ذلك شأن الحنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ورأوا ضرورة وجود إله واحد قدير ، واهتموا في البحث عن دين إبراهيم " عليه السلام " ، ولذلك لم تكن لآباء النبى " ﷺ " دعوة دينية ، ولم يقوموا بنشر عقيدتهم في الناس ، إلا أن الله أكرمهم بالتوحيد ، وخصهم بالخيرية ، وفضلهم على الناس ، ليذكر الرسول لهم ، وحتى لا تلحقه منقصة بسببهم ، يعيره بها المشركون والكافرون .

الأمر الثانى : أهل الفترة وآباء النبى : يراد بالفترة المدة الزمنية بين رسولين ، وبخاصة إذا طالت المدة ، وغابت تعاليم الرسول السابق كلياً ، أو جزئياً .

---

[١] الحلبى ج٢ ص ٣٨٢ .

ودرس العلماء ،والفقهاء أحكام أهل الفترة لأنهم بعدوا عن الرسالة السابقة وإن لم
رسالة جديدة ، وهذا حال يرفع عنهم المسئولية أمام الله تعالى عند جمهور العلماء .

والعرب من الأمم التي طالت الفترة بهم ، ولم يأتهم رسول منذ إسماعيل " عليه السلام "
يبين الله ذلك لمحمد " ﷺ ":﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾[1]

وصلة هذا المبحث بآباء النبي " ﷺ " تلمس الإنصاف لهم لأن آباءه القرشيين
ابـتداء من كلاب لم يكن لهم دور ديني واضح ، مع ثبوت عدم تألههم للأصنام
وسبب ذلك أنهم كانوا من أهل الفترة التي لا وجود فيها لدعوة دينية ... وأقصى
كانوا فيه أنهم من الحنفاء الموحدين ، الباحثين عن الحقيقة ، التي تجلت أمامهم ببعث
النبي " ﷺ " .

يذهـــب جمهور العلماء إلى أن أهل الفترة ناجون ، لأنه لا تكليف قبل البعثة
بدلالة الآيات التالية :ـــ

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾[2] والآية أساس للجمهور
الذين يرون أن وصول الرسالة إلى الناس شرط للمسئولية ، يقول قتادة : (إن الله
ليس بمعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو تأتيه من الله بينة)[3] .

ويقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[4] والآية
واضحة في ثبوت العذر لأهل الفترة على عدم إيمانهم ، ودلالتها على ضرورة نشر
الدعوة على وجهها الصحيح عن طريق رسول الله، أو بواسطة من يكلفه من العلماء

---

[1] يس آية (٦) .

[2] سورة الإسراء آية (١٥) .

[3] تفسير القرطبي ج ١ ص٢٥١ .

[4] سورة القصص آية (٤٧) .

وعلى هذا فآباء النبى " ﷺ " القريبون كانوا من الحنفاء، على أقل تقدير وليس بضرورى أن يكونوا على رسالة دينية كاملة (عقيدة وشريعة) وأما الأبوان الشريفان فهما من أهل الفترة بإجماع ، لتأخر زمانهما ، وبعد ما بينهما وبين الأنبياء السابقين [١]، فآخر نبى بعث للعرب هو إسماعيل ، وبينه وبين محمد " ﷺ " ثلاثة آلاف سنة ، و لم يعمرا طويلاً ، وكان العرب في جهل بالنسبة للرسالة لدرجة أنهم تعجبوا،حين بعث الله تعالي نبيه محمداً "ﷺ" وقالوا ما حكاه الله تعالى : ﴿ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ [٢] ، وقالوا أيضاً ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴾ [٣]وقد صور الله تعالى أحوالهم متعجباً فقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝ ﴾ [٤] .

وهذا محمد " ﷺ " لما حبب إليه الخلاء ، كان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالى ذوات العدد ، وكانت عبادته على ما بقى من دين إبراهيم وإسماعيل " عليهما السلام " ، إذ لا سبيل له إلى غير ذلك .

إن تباعد الزمان بين رسالة إسماعيل " عليه السلام " وآباء النبي القريبين غيب عنهم حقيقة رسالة الله بكمالها ، وتمامها ، ولكنهم تمسكوا بما أبقاه الله بينهم ، فلم يعبدوا غير الله ، و لم يشركوا معه إلهاً آخر .

ومن هنا نرى أن توحيد الحنفاء كاف في القول بإيمان آباء رسول الله " ﷺ "

***

---

[١] أرجح الرأى القائل بأن أبا النبى " ﷺ " من أهل الفترة على الآراء الأخرى ، هذا وقد فصل السيوطى الآراء كلها وأدلتها في كتابه الحاوى .

[٢] سورة الإسراء آية (٩٤) .

[٣] سورة فصلت آية (١٤) .

[٤] سورة المؤمنون آية (٦٩) .

المسألة الثالثة

صلة بني هاشم بسائر بطون العرب

تعــرف أسرة النبي " ﷺ " بالأسرة الهاشمية نسبة إلى هاشم بن عبد مناف وهي أسرة عربية يمتد نسبها إلى إبراهيم " عليه السلام " .

فرســول الله " ﷺ " واحد من العرب يتصل مع كل عربي بنسب، وطن لأنهم جميعاً أبناء إسماعيل ، وعروبة النبي ثابتة موطناً ، وجنساً ، ولغة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴾ [1] وفي هذا بيان لقرية النبي " ﷺ " التي أخرجته وهي مكة ، موطنه الذي أجبر على تركه ، والهجرة منه إلى يثرب ، المدينة التي هجرته " ﷺ " إليها ، يقول قتاده وابن عباس : (**لما خرج النبي " ﷺ " من مكة إلى المدينة التفت إلى مكة وقال : اللهم إنك أحب البلاد إلى الله ، وأنت أحب البلاد إلي ولولا المشركون أهلك أخرجوني ما خرجت منك**) [2].

ويقول تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾ [3] ، ويقـول : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ﴾ [4] وعلى هذا فالنبي أمي ، أي عربي ، لأن الأمية صفة ، ومسمى للعرب قبل المبعث في مقابل أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل[5]

وجاء الإسلام بلغة العرب ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [6] ، ويقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ ﴾ [7] فهذه العروبة

---

(١) سورة محمد آية (١٣) .

(٢) الحديث صحيح ، رواه الثعلبي ، تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٥ .

(٣) سورة الجمعة آية (٢) .

(٤) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

(٥) الملل والنحل ج ١ ص .

(٦) سورة يوسف آية (٢) .

(٧) سورة مريم آية (٩٧) .

الحانية لرسول الله تؤكد قرابته العامة لكل عربي ، وتؤيد التقاءه مع كل منهم في نسب بعيد أو قريب .

وقد وضح ابن حزم الأسباب النسبية التي ربطت النبي " ﷺ " بقبائل العرب جميعاً ، فقال : (وفي عبد المطلب يجتمع معه " ﷺ " : بنو علي ، وجعفر ، وعقيل — بني أبي طالب — ، وبنو العباس ، وبنو الحارث ، وبنو أبي لهب .

وفي عبد مناف يجتمع معه : بنو أمية ، وسائر بني عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل، وبنو عبد المطلب .

وفي قصي يجتمع معه : بنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار ، الذين منهم حجبة الكعبة .

وفي كـــلاب يجتمع معه : بنو زهرة ، وأمه منهم ، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة .

وفي مرة يجتمع معه : بنو تيم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة .

وفي كعب يجتمع معه : بنو عدي ، وبنو جمح ، وبنو سهم .

وفي لؤي يجتمع معه : بنو عامر بن لؤي .

وفي غالب يجتمع معه : بنو تيم الأدرم .

وفي فهر يجتمع معه : بنو الحارث ، وبنو محارب ، وفهر هذا : هو أبو قريش كـــلها ، مـــن لم يكن من ولده فلا نسب له في قريش ، ومن كان من ولد فهر فهو قرشي .

وفي كنانة يجتمع معه : كل من ينتمي إلى كنانة من بني عبد مناة ، وملك ، وملكان ، وحدال ، وعمرو بن كنانة .

وفي خزيمة يجتمع معه : بنو أسد ، والقارة ، وهم بنو الهون بن خزيمة .

وفي مدركة يجتمع معه : بنو هذيل .

وفي اليأس يجتمع معه : بنو تميم وإخوتهم ، وبنو ضبة ، ومزينة ، والرباب وخزاعة ، وأسلم ، فأما الرباب فهم : تيم ، وعدي ، وثور ، وعكل .

وفي مضر يجتمع معه : قبائل قيس كلها : سليم ، ومازن ، وفزارة ، وعـ وأشجع ، ومرة ، وسائر بني ذبيان ، وغطفان : وعقيل ، وقشير ، والحريش ، و والعجـــلان ، وكـــلاب ، والبكاء ، وهلال ، وسواءة ، وبنو جشم ، وبنو وثقـــيف ، وسعد ، وسائر هوازن ، ومحارب ، وعدوان ، وفهم ، وباهلة ، وغز والطفاوة ، وسائر قيس .

وفي نـــزار يجـــتمع معه : قبائل ربيعة ،وهم بكر، وتغلب ، وعنز بني وائل وعبد القيس وقبائلها ، وعنزة ، والنمر بن قاسط .

وفي معد يجتمع معه : إياد .

وفي عدنان يجتمع معه : بنوعك) [1] .

هذه واحدة ..

وأخرى وهي أن جميع بطون مكة قبيل البعثة كانت ترتبط ببني هاشم بقرا ورحم ، فعن بن عباس (**أن النبي " ﷺ " لم يكن بطن من بطون قريش إلا وله** **قرابة**) [2] وبسبب هذه القرابة نرى القرآن الكريم يكرر في معرض دعوته لأهل مكة أن الرسول "منكم" و"من أنفسكم"و " منهم " يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [3] ، ويقول سبحانه : ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ [4]

---

(1) جوامع السيرة ص ٢ ، ٣ ، ٤ .

(2) صحيح البخاري ـــ باب المناقب ج٤ ص ٢١٧ .

(3) سورة التوبة آية (١٢٨) .

(4) سورة آل عمران آية (١٦٤) .

ويقول : ﴿ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ [١] ، فالرسول " ﷺ " منهم ، وهم أقرباؤه ، ومع ذلك فدعوته للعالم كله ، وعليهم أن يؤمنوا به ليؤكدوا تشرفهم بحمل الرسالة ، وتبليغها للعالمين .

إن بطون قريش يرتبطون بقرابة مع رسول الله فهم أخواله وأعمامه ، وله منهم عمات، وخالات،كما يقول تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ [٢] ودلالة هذه الآية صريحة في وجود أعمام ، وأخوال ، وعمات ، وخالات له " ﷺ " في مكة ، وأنه " ﷺ " تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة ، وبالبحث في زوجات النبي " ﷺ " القرشيات نجد أنهن لسن من بني هاشم ، ولكنهن من بقية بطون مكة ..

فعائشة من بطن : تيم " ، وتلتقي برسول الله في جده مرة .

وحفصة من بطن " عدى " ، وتلتقي برسول الله في جده كعب .

وأم حبيبة من بطن " بنى أمية " ، وتلتقي برسول الله في جده عبد مناف .

وأم سلمة من بطن " بنى مخزوم " ، وتلتقي برسول الله في جده كلاب .

وسودة من بطن " بنى عامر " ، وتلتقي برسول الله في جده لؤى .

وزينب من بطن " بنى أسد " ، وتلتقي برسول الله في جده خزيمة .

وهذا يثبت القرابة القريبة لرسول الله مع بطون مكة جميعاً ، فهم أعمام وعمات وأخوال وخالات ، أقرباء لمحمد " ﷺ " .

إن قرابة النبي " ﷺ " لبطون مكة تعود لعدة أجيال قديمة ، وهي حقيقة لا شك فيها

---

[١] سورة النحل آية (٥٠) .

[٢] سورة الأحزاب آية (٥٠) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القرابة فى مجال حث أهل مكة على الإ
حيث يقول تعالى : ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [1] .

فهى تشير إلى القرابة المعروفة بين رسول الله " ﷺ " وأهل مكة ، والتى
أن تدفعهم إلى الإيمان بالإسلام أداء لحق المودة ، والقرابة مع رسول الله " ﷺ "

ويقول تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [2] ..

والآية تتضمن ــ كما هو ظاهر ــ دلالة قاطعة على أن النبى " ﷺ " كا
فى مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، مع ال
هذا البطن الخاص بوشائج القربى مع سائر بطون قريش ، والقرائن القرآنية مضا
أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة مح
و ملك جانباً عزيزاً بين الناس .

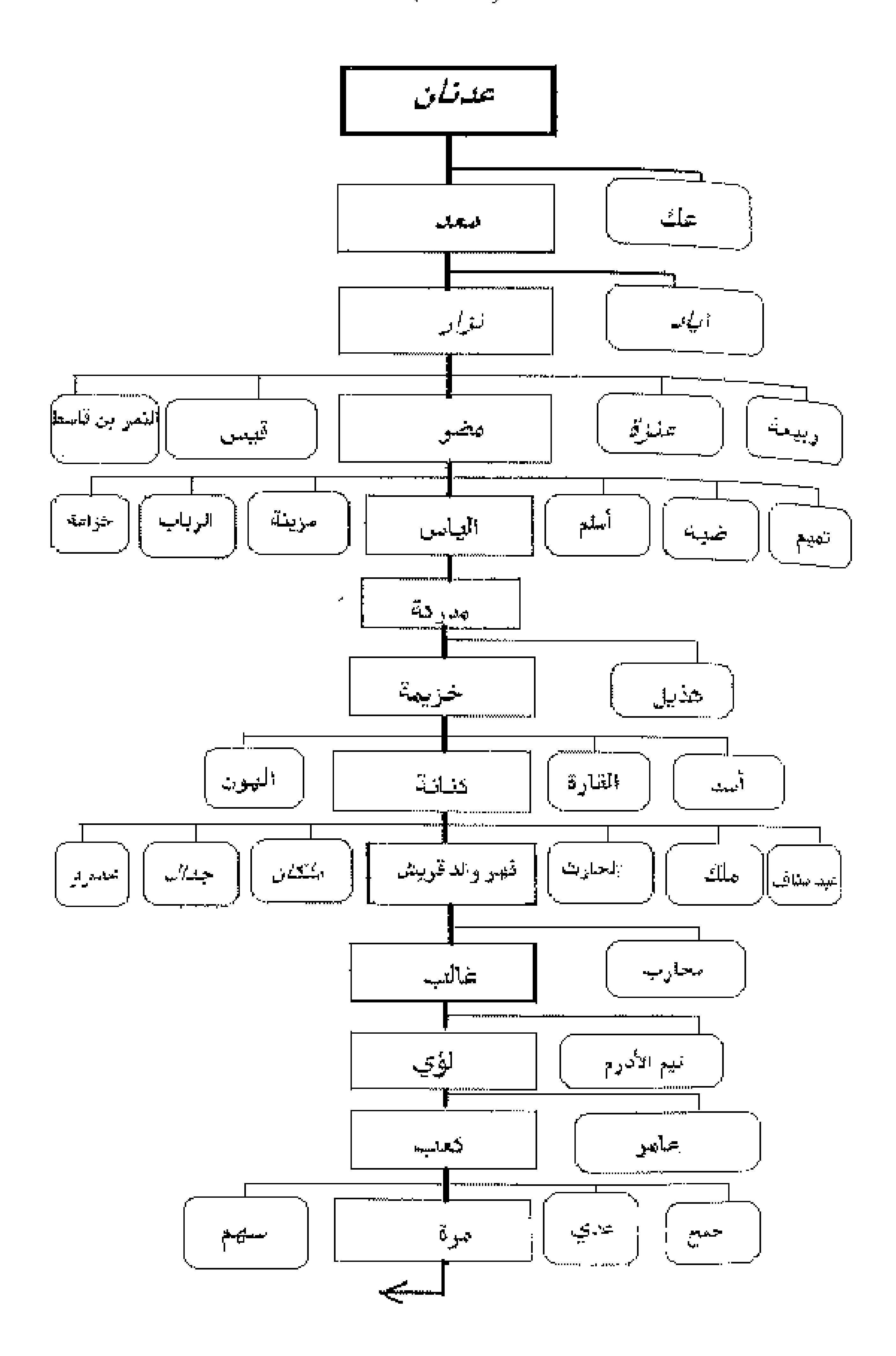
لقد أمر النبى " ﷺ " كثيراً من المسلمين بالهجرة من مكة إلى الحبشة
ما نالهم من اضطهاد قريش ، لمتابعتهم النبى " ﷺ " وعدم وجود من
وينصرهم ، فى حين أن النبى " ﷺ " ومعه غيره من رجالات المسلمين القر
يهاجروا ، وظل يقوم بدعوته قوياً صريحاً واضحاً فى الإنكار ، والتح
والإنذار بلسان القرآن ، معتمداً على الله تعالى الذى جعل له من أقربائه أنص
أنهم لم يؤمنوا بالإسلام [3] .

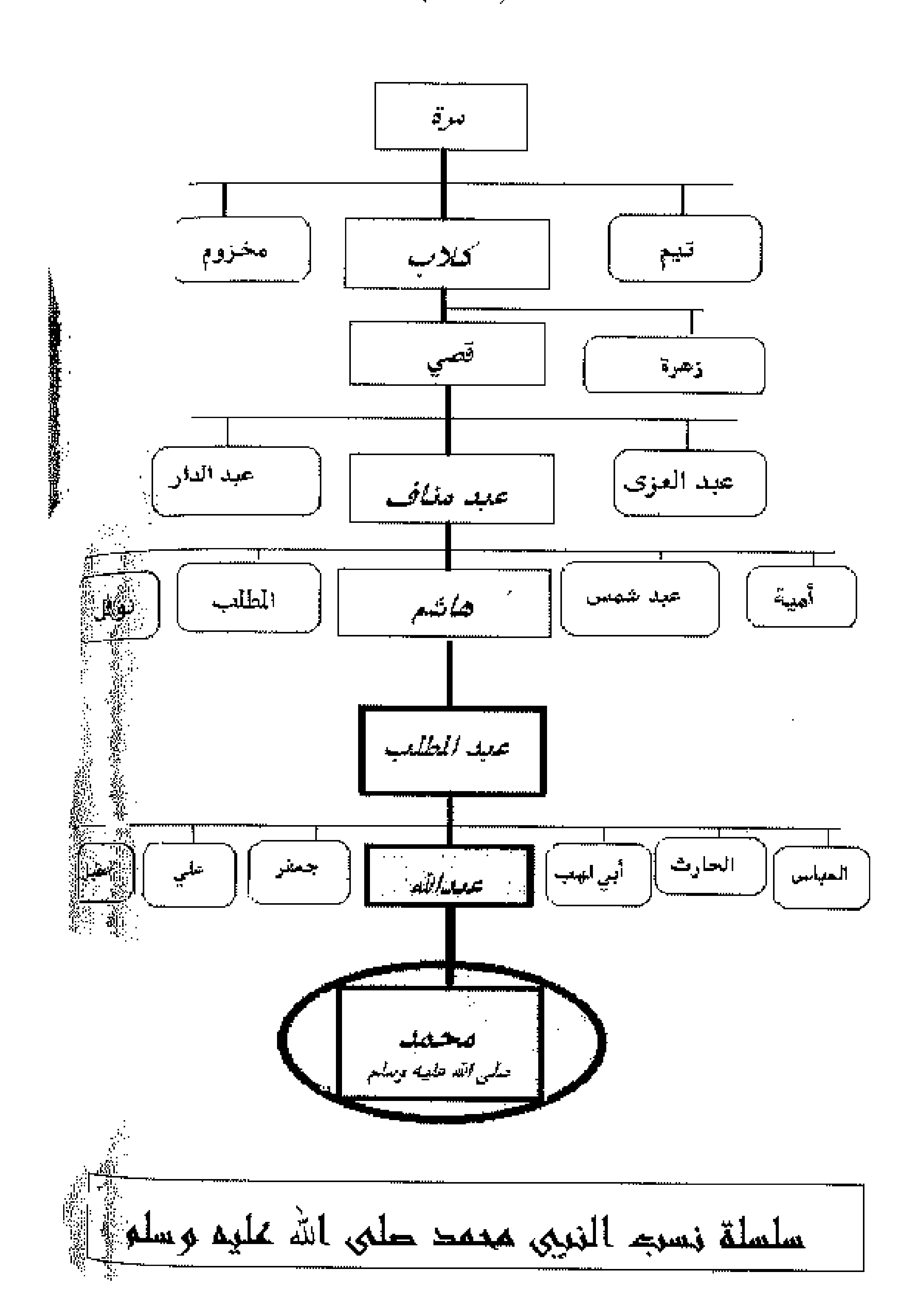
---

(١) سورة الشورى آية (٢٣) .

(٢) سورة الشعراء آية (٢١٤) .

(٣) يراجع فى هذه القضية مواقف عمه أبى طالب الذى عاش حياته مدافعاً عن محمد " ﷺ " مع أنه
وقصة إسلام حمزة التى قامت دفاعاً عن محمد " ﷺ " ، واشتراك بنى هاشم والمطلب مع المسلمين
الكفار لهم .. وكلها تدل على ما كان القرابة والعصبية من نصرة ومساندة .
ويجب أن ينظر إلى أن الهجرة إلى الحبشة كانت للمحافظة على روح وقوة الجماعة المسلمة ،
الإسلام خارج جزيرة العرب .


عدنان
عك
معد
إياد
نزار
ربيعة
عنزة
مضر
قيس
النمر بن قاسط
تميم
ضبه
أسلم
الياس
مزينة
الرباب
خزاعة
مدركة
هذيل
خزيمة
أسد
القارة
كنانة
الهون
عبد مناف
ملك
الحارث
فهر والد قريش
محارب
غالب
تيم الأدرم
لؤي
عامر
كعب
جمح
عدي
مرة
سهم



سلسلة نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم

وفي نهاية هذا المبحث أجد شبهة تستحق أن نرد عليها ، فلقد عرض الدكتور / محمود علي مراد لأحداث السيرة في المرحلة المكية في رسالته للدكتوراه ، ورأى أن أغلب مروياتها وضع تمجيداً لبني هاشم ، أجداد العباسيين ، الذين دونت السيرة في عهدهم ؛ ولذلك جاءت أحداث سيرة ابن اسحق وبخاصة في الفترة المكية تمجيداً لبني هاشم خدمة للعباسيين على حساب الأمويين أعدائهم .

ويرى أن النصوص التي تصور عبد المطلب مؤمناً غير صحيحة ، ولا تتناسب مع بعض الشواهد التي ذكرها الدكتور في مؤلفه ، فقصة حفر عبد المطلب لزمزم ، ومواجهته لأبرهة ، وإصراره على الوفاء بنذره ، بذبح أحد أبنائه العشرة .

هـذه الأحـداث يردها الدكتور ويستدل في ردها برضى عبد المطلب على وضع الأصنام حول الكعبة ، وعدم قيام عبد المطلب بدعوة دينية في قومه ، وتسميته أحد أبنائه بـ " عبد العزي " ، وجحود أبنائه الدينَ ، حيث لم يؤمن أحدهم بمحمد إلا بعد ثلاث سنوات من البعثة [1]، مما يدل على عدم توجيههم دينياً .

ونحن لا نرتضي ما ذهب إليه الدكتور لما يلي :ـــ

١. التشكيك في راوي السيرة (ابن اسحاق) غير صحيح فهو من رواة السنة ، وأحاديثه ، ورواياته مقبولة ، وقد وثقه علماء الجرح والتعديل [2] .

---

[1] سيرة رسول الله " ﷺ " ـ د / محمود علي مراد ص ٤٢ بتصرف ، وهي رسالة حصل بها المؤلف على الدكتوراه من جامعة السوربون ، وهي مترجمة من الفرنسية إلى العربية .

[2] محمد بن اسحاق صاحب السيرة التي لخصها ابن هشام من العلماء الثقات يقول عنه البخاري:روى عنه إبراهيم بن سعد سبعة عشرة ألف حديث ، ومن أشهر مشايخه عاصم بن قتادة ، والزهري ، وعبد الله بن أبي ، وهشام وعمرو ابني عروة بن الزبير ، وإبان بن سعيد .

يقول ابن هشام عنه : هذا أعلم الناس بالمغازي ، ويقول عاصم بن عمر : لا يزال في الناس علم ما بقي ابن اسحاق ، ويقول ابن معين عنه : إنه ثقة ، حسن الحديث .

وقد جرح بعض العلماء ابن اسحاق لإكثاره في الرواية ، واتهامه بالقدر ، وتتبعه لأولاد اليهود الذين رووا أحاديث الغزوات ، وهي أسباب ردها علماء الحديث ، وينحصر نقد ابن اسحق عند إمامين جليلين ---

هما الإمام مالك بن أنس ، وهشام بن عروة : بناء على أسباب وجدوها فيه ، وهي :

٢. لأجـــداد الأمويين والعباسيين أمجاد ، ومزايا ، فلم نفهم ابن إسحاق مزايا

أمجاد العباسيين مع أن إيرادهم هنا مع أحداث السيرة ضرورة علمية لما لهم

من صلة مباشرة بصاحب السيرة رسول الله " ﷺ " ؟ ! !

ولم لم نفهـــم سبب سكوته عن أمجاد الأمويين ؛ مع أن مجال الدراسة

عنهم ، ولم يشر ابن إسحاق إلى الأمويين بأي سوء .

٣. رد الأحاديـــث المروية اعتماداً على العقل وحده لا يكـــفي ، لأن إسلام

عـــبد المطلب لم يكن بصورته التامة ؛ فهو يشبه الحنفاء كما قلنا ، فكر

الدكتور بتصوره رسولاً ، وينقد على هذا الأساس .

٤. تشـــكك ابن هشام في صحة القصائد التي عزاها بن إســـحاق إلى

عبد المطلب ، وقد أبرز الدكتور هذا التشكيك ، واستشهد به ، فهل

ابن هشام صادقاً هنا .. وغير صادق في مروياته الأخرى عن عبد المطلب ؟

الأول : حرصه على الإكثار من الرواية، وهو أمر كرهه الإمام مالك في حياته ، قال عبد الرحمن بن مهدي لـــمالك : (يا أبا عبد الله سمعنا في بلدكم ـــ أي بالمدينة ـــ أربعمائة حديث في أربعين يوماً ، ونحن في يوم واحد نســـمع هذا كله ـــ أي بالعراق ـــ فقال له : يا أبا عبد الرحمن من أين لنا دار الضرب التي عندكم [illegible] تضربون بالليل ، وتنفقون بالنهار) .

الثاني : اتهامه بـــالقدر ، وهي تهمة اتهم بها كثير من المحدثين ولم تنل منهم ، وقد أخرج بسند صـــحيحة عن بعضهم .

أخرج الخطيب عن أبي زرعة الدمشقي قال : (ومحمد بن إسحاق رجل قد أجمع الكبراء من أهل العلم على الأخذ عنه منهم سفيان ، وشعبة ، وابن عيينه ، وحماد بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وابن المبارك ، و أهل الحديث فرأوا صدقاً ، وخيراً ، مع مدحة ابن شهاب له ، وقد ذاكرت دحيماً قول مالك في ابن إسحاق فرأى أن ذلك ليس للحديث ، إنما هو لأنه اتهمه بالقدر) .

وقـــال الجرجاني : الناس يشتهون حديثه، وكان يرمى بغير نوع من البدع ، وقال موسى بن هارون : سمعت محمد بن عبد الله بن نمير يقول : كان محمد بن إسحاق يرمى بالقدر وكان أبعد الناس منه .

الثالث : تتبعه لغزوات النبي " ﷺ " من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة خيبر وغيرها

(انظر : مع الرسول " ﷺ " ص ١٢٤ ـــ ١٢٥ بتصرف) .

المبحث الثاني

إرهاصات الميلاد والرأى فيها

الإرهـــاص أمر خارق للعادة يظهره الله قبيل مبعث نبي ما ، وهو يختلف عن خوارق العـــادات الأخرى ، لأن **المعجزة** تظهر على يد مدعي النبوة تصديقاً له ، **والكرامة** تظهر على يد عبد صالح تكريماً له ، **والمعونة** تظهر لعبد صالح معونة له .

وقد أورد مؤرخو السيرة المحمدية ، عدداً من الإرهاصات ذكروا أنها وقعت عند ولادته " ﷺ " .

من هذه الإرهاصات :ـــ

- مـــا رواه محمد بن إسحاق عن حسان بن ثابت ، قال : (**والله : إنى لغلام يفعـــة ، ابـــن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً يصـــرخ بأعلى صوته على أطمة بـــ (يثرب) : يا معشر يهود ! حتى إذا اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك؟ ! مالك ؟ !**
- **قال : طلع الليلة نجم أحمد الذى ولد به**)[١].
- وعـــن أسامة بن زيد قال : (**قال زيد بن عمرو بن نفيل ، قال لى حبر من أحـــبار الشام : قد خرج في بلدك نبي ، أو هو خارج ، قد خرج نجمه ، فارجع فصدقه ، واتبعه**)[٢] .
- مـــا رواه ابـــن سعد بسنده عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب **قالت : لقد علقت به ، تعني رسول الله " ﷺ " ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ، فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع عـــلى الأرض معتمداً على يديه، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها، ورفع**

---

(١) صحيح السيرة ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٦ .

رأسه إلى السماء ، وقالت أيضاً : لما ولدته خرج مني نور أضاء له قصور الشــام ، فولدتــه نظيفاً ، ولدته كما يولد السخل ما به قذر ، ووقع إلى الأرض وهو جالس على الأرض بيده [١] .

● ويــروى بن سعد أيضاً أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ ارتجــس إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وخمدت نار فارس ولم تخمــد قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى **الموبذان** إبلاً صعاباً تقود خــيلاً عــراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادهم ، فلما أصبح كسرى أفزعه ذلــك، فتصبر عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرازبته فجمعهم ولبس تاجه ، وجلس على سريره ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده .

قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ ! .

قالوا : لا إلا أن يخبرنا الملك .

فبيــنما هــم كذلك إذ ورد عليهم كتاب خمود النيران، فازداد غماً إلى غمه ، ثم أخبرهم بما رأى ، وما هاله .

فقال **الموبذان** وأنا ــ أصلح الله الملك ــ قد رأيت في هذه الليلة رؤيا، ثم قص عليه رؤياه في الإبل ، فقال أي شيء يكون هذا يا موبذان ؟

قال حدث يكون في ناحية العرب ــ وكان أعلمهم من أنفسهم ــ فكتب عند ذلك كتاباً من كسرى ملك الملوك، إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد فوجه الي برجل عالم بما أريــد أن أسأله عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن نفيلة الغساني ، فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟

فقــال : لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب ، فإن كان عندي منه علم وإلا أخبرته بمن يعلم .

---

[١] البداية والنهاية ج٢ ص ٢٦٤ .

فأخبره بالذى وجه به إليه فيه .

قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح .

قال : فأته فأسأله عما سألتك عنه ، ثم ائتنى بتفسيره ، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح، وقد أشفى على الضريح ، فسلم عليه وكلمه ؛ فلما سمع سطيح قوله، رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وخمود النيران ، ورؤيا الموبذان رأى إبلاً صعاباً ، تقود خيلاً عراباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشرت في بلادها ، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساواة ، وخمدت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته [١] .

والإرهاصات التي ذكرها مؤرخو السيرة عديدة ، وكلها تشير إلى حدوث أمر جديد يتأثر به العالم كله ، ويصل خيره ، ونفعه إلى كل مكان في أرض الله تعالى.

أدرك من شاهد هذه الإرهاصات ، أو بعضها حدوث هذا التغيير، لكنه لم يرتبط في أذهانهم بالمولود الجديد ، اللهم إلا نفر قليل من أهل الكتاب الذين كانوا يقرأون الكتاب ، ويرون صفة رسول الله ، الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ، وسار العلماء القدامى على تصديق كل أثر صح سنده ، فلم يبحثوا عن علة الأثر ، أو غايته ، لأنهم رأوا أن من الأخبار ما هو متصل بأمر خارق للعادة ، لا يصل العقل إلى كنهه ، وحقيقته ، مما جعلهم يقفون عند حد ثبوت النص ، وتصديقه والعمل به ، ورأينا العلماء القدامى يروون إرهاصات النبوة في مؤلفاتهم ، ودروسهم ، ولم يعلقوا عليها ، مما يدل على أنهم راضون عنها ، سعداء بذكرها .

---

(١) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٦٨ ، ٢٦٩ .

إلا أنـــنا في العصر الحديث وجدنا عدداً من المستشرقين ، والمسلمين
كتبوا في السيرة : يرفضون الإرهاصات باسم العلم والعقل من غير نظر إلى
أو مصدر رواية الحدث .

فمنهم من رفض هذه الإرهاصات بحجة أن الإسلام لا يحتاج إليها في
وانتشـــاره ، لأنه يحمل عوامل التصديق به في ذاته ، كما أن هذه الإرهاصات لم
إلى إسلام أحد ، و لم تكن دليلاً على صدق الرسالة يوم بعث محمد " ﷺ " أبد
فلقـــد ولد مع النبي " ﷺ " في يوم مولده غيره ، ومن الممكن أن يدعي أمل
الأبناء ، وقومهم أن هذه الإرهاصات بسبب ميلاد أبنائهم .

إن هـــذا الفريق لايصرح بكذب الإرهاصات ، ولا يقول بها، لأنه لا
أمامه فائدة تذكر للدعوة الإسلامية .

يقول عباس العقاد : علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة
وهـــي أسباب تتمهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوانها ، فإذا
هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟ ..
وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟
وقـــد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين ، وإلا فلأى شئ خلق ؟
ولأى عمـــل مـــن أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات ؟
هاتيك المناقب والصفات ؟ ..

إن المؤرخين يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة المحمدية
يسردون ما أكده الرواة منها، وما لم يؤكدوه، وما قبله الثقات منها، وما لم يقبلوه
وما أيدته الحوادث، أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة، أو عارضته ، ويتفرقون
الرأى والهوى بين تفسير الإيمان ، وتفسير العيان ، وتفسير المعرفة ، وتفسير الجهالة .

فهـــل يستـــطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت
الميلاد ، أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة ، واستفاض أمر الإسلام ؟

لا موضـــع هنا لاختلاف ، فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبي " ﷺ " بالرسالة .

ولم يكــن ثبوت الإسلام متوقفاً عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يـوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ، ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء ، أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة، وأصاخوا إلى الرسالة بعـد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها ، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصادق ما سمعوه واحتاجوا إليه .

وقد ولد مع النبي " ﷺ " أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، فإذا جـاز للمصـــدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره ، ولم تفصـل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين، إلا بعد عشرات السنين ، يوم أتت الدعوة بالآيات والبراهين، غنية عن شهادة الشاهدين، وإنكار المنكرين ، أما العلامة التي لا التباس فيها، ولا سبيل إلى إنكارها، فهي علامة الكون ، وعلامة التاريخ . قالـت حـوادث الكـــون : إن الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ محـــمد" ﷺ " هـــو صاحب تلك الرسالة ، ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون ، وعلامة التاريخ[١] ؟ ؟ .

ومنهم من رأى ضرورة عرض هذه الإرهاصات على العقل ، فهو ميزان القبول والرفض لأي قول ، في إطار الأسس العلمية ، التي أخذوها من المستشرقين ، حيث يعتمدون على العقل اعتماداً كاملاً في إدراك كل شيء .

وحتى تظهر النظرة العقلية في صورة الحياد العلمي عند أصحاب هذا الاتجاه نراهم يعرضون المرويات على القرآن الكريم أحياناً ، فما اتفق معه منها قبل ، وما لم يتفق فمصيره الرفض وعدم القبول،مع أن القرآن يتحدث عن الخوارق المعجزة وغيرها

---

[١] مطلع النور ص ١١ ــ ١٣ .

وعلى أساس فكرهم هذا رفضوا كثيراً من الإرهاصات ، كما رفضوا كثيراً من أحداث السيرة لخروجها على عادة العقل ، وسكوت القرآن عنها ، ولم يجدوا لموضعها في القرآن الكريم ، وأولوه بما يؤيد موقفهم الرافض لروايات السيرة والتاريخ ، وذلك كموقفهم من شق الصدر وغيرها .

وحين ننظر إلى هؤلاء ندرك الفرق بينهم ، فكلاهما يرفض الإرهاصات المروية ، إلا أنهما يختلفان في سبب الرفض ، حيث يذهب الفريق الأول في سبب رفضها إلى عدم فائدتها للدعوة ، بينما الفريق الثاني ينكر وجودها لعدم تسليم العقل بها .

وقبل أن نرد عليهم أشير إلى أن أحداث هذه الإرهاصات جاءت على غير ما ألفه الناس ، وأقل ما تتركه في عقولهم البحث عن فاعلها ، وعن أسبابها وقوعها بهذه الصورة الخارقة ، وهذا كاف في توجيه أنظارهم إلى التفكير ، والتدبر ، وإن لم يصلوا لشيء .

إن الفريقين على خطأ فيما ذهبا إليه لأسباب كثيرة أهمها : ـــ

أولاً : ضرورة التفريق بين الجانب العقلي ، والصورة النبوية ، لأن النبوة وحي مستمد من الله تعالى ، وقدرة الله تعالى مطلقة ، تعلو كثيرا عن نطاق العقل البشري ، وطاقته .

وإذا كانت النبوة محاطة بخوارق العادات ، فكيف تدرك حقائق هذه الخوارق بالعقل المحدود .

لقد حاول كفار مكة مواجهة النبوة بعقولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ [١] وحجتهم فيما طلبوه أن النبوة رئاسة ، وقيادة ، وجدير بها العظماء المشهورون بالغنى ، والجاه ، والسطوة ، ولهذا طلبوها لأحد عظماء مكة ، أو الطائف .

---

[١] سورة الزخرف آية (٣١) .

ولو عرضنا هذا المنطق على العقل وحده لكان منطقاً مسلماً ، فالعظيم بماله ويسود ، وبجاهه يأمر ويطاع ، وبقوته وسطوته يوجه ، ويسيطر ، ويحكم .

أما لو عرضناه على منطق النبوة والوحي فإن الأمر يختلف كما قال الله تعالى ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾[1] .

إن النبوة رحمة من الله تعالى يعطيها لمن اصطفاه ، واختاره ، ولا دخل للعقل فيها ، لأن العقل محدود التصور ، محدود الإدراك ، فكيف له أن يتدخل في رحمة الله وعطائه بالرأي ، والتوزيع ، والنقد ؟ !! ..

إن العقـــل يعجز في إدراك شأن صاحبه ، ولا يستطيع له أمراً ، فأمور الدنيا تجري بقدر الله تعالى ، ولا يمكن لإنسان أن يخرج عن هذه القدرة الإلهية .

إن الغنى ،والفقر ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والتيسير ، والتعسير .. كل ذلك وغيره قدر لا دخل للإنسان فيه ... فأين العقل إذاً في هذه الحالات ؟ ! ..

إن القدر الإلهي قد يرفع إنساناً ، ويعطيه ، وحينئذ يستخدم كثيراً من العقلاء الموهوبين ، مع أن حظه في العبقرية قليل ، مما يدل على أن الأمر بيد الله رب العالمين.

إن العقل البشري قد يتصور العظمة في الأمور الظاهرة ، كالغني ، والوظيفة والسلطان ، وتثبت الأيام والتجارب أن العظمة الحقيقة في الجوانب المعنوية ، المستورة التي يعلمها الله تعالى وحده ، ولذلك كانت النبوة قدراً إلهياً ، ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ ۗ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ .

---

[1] سورة الزخرف آية (٣٢) .

لقــد استعمل القرشيون عقلهم أيضاً أمام الوحي، والقدرة الإلهية في حادث الإسراء والمعراج ، وأنكروا على رسول الله " ﷺ " ما قاله لهم ، وقالوا له : أنضرب لها أكباد الإبل شهراً وتزعم أنك تأتيها في ليلة واحدة ؟ ! ..

لقد أملي عليهم عقلهم استحالة ما سمعوا من رسول الله ؛ لأن العقل لا يسلم أبداً بأن يسافر إنسان ما في زمان النبوة والبعثة، من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ويعود في ليلة واحدة ، ونسوا أن الذي أسرى برسول الله هو قدر الله تعالى ؛ والقدر هو الله ، يقــول تـــعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾ [١] ،والنبي " ﷺ " (يقــول أسرى بي الليلة)[٢] ولم ينسب الفعل لنفسه .

إن أصـــل الخلاف بين الرسول وأهل مكة في هذه الحادثة هو مصدر العلم والتصور ، فأهل مكة يعتمدون على عقولهم ، بينما الرسول ينطلق من الوحي والنبوة ..

لقـــد ذهب الكفار إلى أبي بكر " ﷺ " ليكون معهم في تصورهم العقلي ، وينكر معهم الإسراء والمعراج ..

لكنه " ﷺ " بمنطق الإيمان بالنبوة والرسالة يرد عليهم قائلاً : إن قال فقد صدق ، إنه يخبرني أن الوحي يأتيه من السماء في لحظة وأنا معه فأصدقه، أفلا أصدقه هنا ؟!.

إن الـــبعض قـــد يتصور أن إيمان أبي بكر في شأن حادثة الإسراء والمعراج وغيرها ـــ قد بني على غير تفكير ، أو على أساس الإيمان فقط ، وهذا تصور خاطئ إنه قد علم الجميع درساً فائقاً ؛ في كيفية استعمال العقل ، وحدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها .

---

[١] سورة الإسراء آية (١) .

[٢] صحيح مسلم بشرح النووي ـــ باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٠ .

إن فعله ﷺ أن يفكـــر في قـــول الرسول إنه رسول،فإذا ثبت لديه صدق الرسول فالنتيجة الحتمية، الموافقة لأى منهج عقلي ، أن يؤمن بكل ما صدر عن ذلك الرسول بـــدون تدخل للعقل ، لأن الرسالة ، مستمدة من الله عز وجل ، وقدرة الله صالحة لكل فعل يخالف العقل ، أو توافق معه ، وذلك هو جوهر القياس العقلي الذي أجراه أبو بكر أمام المشركين ، لقد قال لهم : إنه يقول لي إن الخبر يأتيه من السماء في لحظة وأصدقه ، فأى غرابة في منطق العقل والعلم أن يصدقه بعد ذلك في أنه قد أسرى به إلى بيت المقدس ما دامت القدرة التي أنجزت هذا الفعل هي قدرة الله عز وجل .

فليخجل أتباع المدرسة العقلية من أنفسهم وليتعلموا ذلك الدرس العظيم على يد أبي بكر في كيفية استخدام العقل [1].

يقول ابن عطاء الله السكندرى : زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد " ﷺ "

وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيدَ ؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن كان حاضراً هناك .

فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد ؟

فقال : نعم : سمعته يقول : (**من زارني لا تحرقه النار**) .

فاســتغرب السلطان ذلك الكلام ، فقال : كيف يقول أبو يزيــد ذلك ، وأبو جهل رأى النبي " ﷺ " وتحرقه النار ؟

فقـــال ذلك الشيخ للسلطان : أبو جهل لم ير النبي " ﷺ " ، إنما رأى (يتيم أبي طالب) ولو رآه " ﷺ " رسولاً لم تحرقه النار .

ففهـــم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه ، أى إنه لم يره بالتعظيم والإكـــرام، والأسوة ، واعتقاد أنه رسول الله ، ولو رآه بهذا المعني لتغير حاله ، لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه (يتيم أبي طالب) ، فلم تنفعه تلك الرؤية .

---

[1] السيرة النبوية ص ٥٧ ، ٥٨ .

ومـــا كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين في ولاء لهذه النزعة ، وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو بذلك يــتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل وهم في ذلك ليسوا تقدميين ، ولا تطوريين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرتهم إلى ما قبل خمسة عشر قرناً مضت ، يتزعمهم فيها أبو الجهل كله ، وأبو الظلمة القلبية كلها [illegible]

لـــيس هناك إذن اجتهاد، وخطأ، وصواب ، وإنما هناك تصرفات تصدر عن الكرم والرحمة ، فيتحدث الله ، مبيناً طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة [illegible] الواضحة ، ويبين في الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها ، لفساد طويتهم وسوء نواياهم .

ومن الحقائق المعروفة : أن الإنسان يميل إلى التركيز على " بشـــر " أو على " يوحـــى إلى " حســـب قوة شعوره الديني وضعفه ، فالذى لا إيمان له لا يرى إلا البشـــرية، والعقل، والمنهج الوضعي ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويخف التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على: "يوحى الى" كلما ازداد الإيمان حتى يصل الإنسان إلى مستوى ألا يرى، أو لا يكاد يرى إلا " يوحى إلى " وهناك إذن طرفان يمثلان فريقين من الناس،طرف " بشراً " أو ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾ وطرف : ﴿ يُوحَىٰ إِلَيَّ ﴾أو " رسولاً " ، وبين الطرفين يتأرجح عدد لا يحصى من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً .

إن مقـــياس الإيمان قوة وضعفاً ، ومقياس درجة الإيمان الذى لا يخطئ [illegible] هـــو ما وقر في القلب، أو غلب عليه ، من " البشرية " أو من " يوحى إلى " [illegible] يمثلان ما يوضع في كفتى ميزان .

إن النبوة اصطفاء إلهي ، واختيار رباني ، لا يدرك سرها إلا القادر العظيم ، ومن الضروري أن توضع في موضعها ، ويقف العقل عند حده ، وبذلك يتميز جانب

النبوة عن جانب البشرية في التصور الإنساني .

ثانيا : التفرقة بين الجانب الإلهي ، والجانب البشري تكريم للإنسان ، واحترام للعقل ، لأن الإنسان إن أدرك حقيقة ذاته وعرف حقوقه ، وواجباته ، وتمكن من القيام بما هو مسئول عنه،ونال ما هو محتاج إليه في كمال ودقة،كان هذا تكريماً له .

وحينما يكلف العقل بما هو ممكن، وحينما يعيش في إطار قدرته الذاتيه ينال رضى نفسه،ويحسن تفكره ، وتدبره،ويصير مصدر السعادة ، والخير لذاته ولصاحبه .

وحينما يخرج الإنسان عن طاقته،ويتمادى العقل بعيداً فوق مداركه، واستعداداته،فإنه يضل،ويزيغ عن الحق ، ويجلب على صاحبه الاضطراب ، والضياع .

من أين للإنسان أن يتصل بقدرة غيبية بعيداً عن ميزان النبوة ؟ ! ومسالكها ؟ !

ومن أين للعقل أن يدرك الغيب الخفي ، مجرداً عن أدواته ومصادره ؟ ؟ ..

إن العقل ليس هو النبوة ، ولذلك يجب أن يكون عقلاً فقط ، ويجب أن يؤمن العقل بالنبوة ليعرف ويعلم ، ويؤمن ويهتدى .

ثالثا : يتصور القائلون بالعقل أنهم تقدميون ، يسلكون منهجاً علمياً معاصراً ، وما دروا أنهم حين أعملوا العقل في مقابل النبوة ، والإرادة الإلهية ، رجعوا إلى عصور سحيقة ، وتشبهوا بمخلوقات قديمة ، اعتمدت على عقلها ، وبذلك أثبتوا رجعيتهم ، وتخلفهم .

ألم يقف إبليس بعقله أمام الوحي والنبوة ، حين أمره الله بالسجود لآدم " عليه السلام " ، حيث أبى وقال ﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ .. وتمسك برأيه ، وتصور صوابه ، مع أنه قائم على الضلال ، والهوى ..

على هؤلاء القائلين بالعقل فقط أن يروا مدى رجعيتهم، وتخلفهم، ويعلموا أنهم تشبهوا مع أمثالهم الذين وجدوا مع آدم " عليه السلام " في القول والتوجيه .

رابعاً : يرى المنكرون للإرهاصات النبوية غرابة فيها لا يستسيغها العقل ولذلك سارعوا إلى إنكارها،أو السكوت عنها، ومن عجب أن هؤلاء المنكرين أغلبهم من المستشرقين غير المؤمنين بالإسلام والذين يدينون بالمسيحية،ولذلك نسألهم :

أيها أكثر غرابة في عقولكم امرأة تحمل بلا زوج ، أم انطفاء نار ؟

وأيها أقرب للعقل اهتزاز قصر ، أم ولادة طفل بغير أب ؟ ! . .

إن المسلم يصدق بكل هذا ، لأنه يؤمن بالله ، وبنبوة عيسى " عليه السلام "

ولكـــن السؤال نوجهه لهؤلاء الذين يحاولون تفسير الإسلام تفسيراً غريباً بعيداً عن بيئته ، وطبيعته .

لو وقفنا أمام كل غريبة من الغرائب ، ولم نسلم بها ، وأخذنا نعرضها على التجربة والقواعد العقلية ، فسوف نهدم كثيراً من وقائع الحياة التي نعيشها ، فكم فيها من الغرائب والعجائب ؟ ! !

إن كـــون الله معجز كله ، وتصور إيجاده فوق مستوى العقل كسائر أسرار الله في الخلق .

كيف وجد العقل ؟ وكيف يتصور ، ويفهم ، ويحكم ؟

كيف للقلب أن يعمل ؟ ومتى ينشط ؟ ومتى يتوقف ؟

كيف تقوم الجوارح ، والأحاسيس ، والعواطف بوظائفها ؟

إن كل ذلك وغيره قدرة إلهية ، لا يدرك العقل حقيقتها ، وكنهها ثم نعود نقول لهؤلاء : متى تقفون بالعقل عند طاقته ، وحدوده ؟ ... متى ... ؟ ؟

خامساً : المنكرون للإرهاصات ، والأحاديث يحكمون القرآن الكريم حينما يتصورون تعارض الأحاديث ومرويات السيرة معه، لأنهم لا يريدون تكذيب القرآن ـــ كما يزعمون ـــ ولكنهم يردون السنة فقط ،حتى يظهروا بمظهر الإنصاف ، وحب

ألم يعلموا أن السنة الصحيحة لها حجة شرعية كحجية القرآن الكريم ؟

يقول النبي " ﷺ " : **(ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه)** .

والأمـــر المهم هنا ، هو سؤالهم لم صدقتكم بالقرآن الكريم وهو وحي صادر عن الغيب ؟ وهل دفعكم تصديق القرآن الكريم إلى الإيمان بما جاء فيه ؟ وقد جاء فيه ضرورة الإيمان بالنبوة ، والوحي ، وتسليم الأمر لله رب العالمين .

إن إنكار الوحي الغيبي إنكار للإسلام كله ، يقول الدكتور / سعيد البوطي :
إن الهمس الذي يدعو المسلمين إلى ثورة علمية إصلاحية في شئون العقيدة الإسلامية يستهدف في الحقيقة نسف الإسلام كله ، لأن تفريغ الإسلام من حقائقه الغيبية ، يعني حشـــوه بـــأمور عقلية غريبة عنه، لأن الوحي الإلهي ــ وهو ينبوع الإسلام ومصـــادره ، يعد قمة الخوارق والحقائق الغيبية كلها ، ولا ريب أن الذي يسرع إلى رفض ما جاء في السيرة النبوية من خوارق العادات بحجة اختلافها عن مقتضى سنن الطبيعة ومدارك العلم الحديث، يكون أسرع إلى رفض الوحي الإلهي كله، بما يتبعه، ويتضمنه من إخباراته عن النشور، والحساب،والجنة ، والنار بالحجة الطبيعية ذاتها .

كما غاب عنهم أن الدين الصالح في ذاته لا يحتاج إلى مصلح ، يتدارك شأنه ولا يحتاج إلى إصلاح يغير من جوهره .

غاب عن هؤلاء الناس هذا كله ، مع أن إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم لـــو كانوا يتمتعون بحقيقته ، وينسجمون مع منطقيته، ولكن أعينهم غابت في غمرة إنبهارها بالنهضة الأوربية الحديثة ، وما قد حف بها من شعارات العلم، وألفاظه، فلم تبصر من حقائق العلم والمنطق إلا عناوينها، وشعاراتها ، وقد كانوا بأمس الحاجة إلى فهم كامل لما وراء تلك العناوين، وإلى هضم صحيح لمضمون تلك الشعارات [١].

سادساً : من الحقائق المسلمة أن عديداً من الأطفال ولدوا يوم مولد محمـــد " ﷺ " لأن هذه من الضرورات المعلومة .

---

[١] فقه السيرة للبوطي ص ٣٩ .

ومــــع ذلــــك فلا تعارض بين كثرة الموالد، وهذه الإرهاصات، لأن القائلين بـ
يــستخذوها دلــــيلاً على معرفة الله ، والتصديق بالرسالة ، وإنما يتصوروها رمزاً
لإعــــلان جــزء من القدرة المتحكمة في هذا الكون ، وتهيئة العقول لاستقبال
البشرية ، ومحرر الإنسان من ظلمات الطغاة ، وعبث العابثين ، المرسل من الله العز
الحكيم .

وحـــين نقــــول ــــ والقول حق ــــ إن أيام مولد النبي " ﷺ " شهدت
فــــريداً لا يمكن للعقل تصوره، مع أنه حقيقة ثابتة، وهو هلاك جيش أبرهة
الحصــــى تــــنزل على الرءوس فتجعلها كعصف مأكول ... نعم العقل لا يتصور
حــبات الحصــــي الصغيرة تملك قوة فكرية تمكنها من اختراق الرأس، وتقتل
تتحرك كل حصاة نحو من تريد قتله ! !، بلا أدنى خطأ وهل يمكن لحصاة صغيرة
تدبر وتقتل وتفعل كل هذا ! ؟ !.

إنها حادثة فوق مستوى العقل ... ولكنها حدثت لقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ
كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْ
طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ۝
وكان حدوثها بعد ميلاد النبي " ﷺ " بخمسين يوماً على الأرجح .

وما الذي يمنع أن تكون هذه الحادثة من إرهاصات المولد النبوي ..

إن القضية في النهاية ليست منهجاً علمياً ، أو عقلياً ، بقدر ما هي قضية
إيمان وتسليم .. فالمؤمن يصدق بالخبر إذا اشتمل على صدق روايته ، ويكذبه إذا
تأته الرواية صحيحة ، مقبولة، أما غير المؤمن فإنه ابتداء لا يصدق ، وبعدها يبحث
عن مبرر يؤيد مقالته وتكذيبه .

سابعاً : الوجود كله خضع ، واستسلم لله تعالى، إلا أن الإنسان
المخلوق الوحيد الذي تمرد عن الحق، ولعب به الشيطان ، يقول تعالى : ﴿

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۩ ﴾ (١).

والآية توضح هذه الحقيقة التي يجب أن تعرف معرفة من رأى وشاهد، لقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. هذه الحقيقة تبين ما يلي : ــ

١. كل من في السموات ومن في الأرض وما بينهما، صغيراً أو كبيراً خاضع ومستسلم لله تعالى .

٢. المخلوقات الكبرى المنتظمة في عملها كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال والشجر، والدواب، خاضعة ، خاشعة لله رب العالمين .

٣. أنقسم الناس إلى قسمين ، **قسم** خشع وخضع لله ، وهو القسم الفائز الناجي أما **القسم الثاني** فهو قسم متمرد ، ضال، ولذلك حق عليه العذاب ، ووجبت له اللعنة ، ولحقه الهوان ، لأنه مطرود من رحمة الله تعالى .

إن هذه الحقيقة بعناصرها المذكورة تؤكد حاجة الكون إلى التوازن بعودة الإنسان إليه ، وائتلافه معه في حركته ، ونشاطه .

ألا يحق لهذا الكون أن يسعد يوم ميلاد رسول الله " ﷺ "الذى سيبعث لإعادة التوازن بين سائر عناصره ، وليضع الإنسان في إطار الطاعة لله رب العالمين .

يقول الشيخ / محمد متولي الشعراوى : (نقرأ في كتب السيرة أنه حدث في يوم مولده " ﷺ " : أن انشق إيوان كسرى ، وغاضت بحيرة ساوه ، وخمدت نيران فارس .. إلى آخره ، وهذه هي المعروفة بإرهاصات النبوة .

نجد بعض الناس يرددها بأسلوب التأدب مع سيرته " ﷺ " ولكنه لا يتعرض لها بالنفي، أو التأييد، وإن كان يقترب من الرفض ، وربما ذهب بعض الناس الذيــن

---

(١) سورة الحج آية (١٨) .

لا يريدون الإقرار بهذه الظواهر، أو المعجزات الكونية إلى أن الرسول " ﷺ " ليس في حاجة إلى هذه المعجزات الكونية .

أما وقد وضح أن الرسول " ﷺ " جاء ليعيد إنسجام الإنسان مع الكون الساجد ، وأن كل ما في الوجود يسجد ويسبح لله ، غير أن الجنس البشرى هو الذى يشذ بعضه عن الإجماع في الخضوع والسجود لله ، فإن هذه الظواهر الكونية المخبتة لله والعابدة له بلغتها كما أثبتها القرآن ليس مستبعداً أن تفرح، وأن تبتهج بمثل هذا المولد ؛ مولد الإنسان الأعظم " ﷺ " الذى جاء ليعيد إلى الإنسانية رشدها ...

وإذا عرضت لنا السيرة أن أشياء من الكون فرحت بمولد الرسول " ﷺ " أو حدثت منها أشياء، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسبح لله ، عارف بحق الله وأيضاً لسنا نحن المطلوبين بأن نؤمن بهذا ، ولكن الذين آمنوا بها هم الذين شاهدوها وهم الذين سمعوا عنها ، فالذين سمعوها حجة على أنفسهم ؛ ونحن نتلقى عنهم الخبر فإن كنا موثقين لهم في الخبر صدقناه ، وإن لم يتسع ظننا لتوثيقهم في خبرهم فنحن أحرار في أن نصدق أو لا نصدق ؛ ولكن منطق الوجود ، لا يمنع حدوث شئ من ذلك أبداً ، فإذا ذكر أن إيوان كسرى قد انشق ، فماذا في ذلك من الدهشة ؟، وماذا في ذلك من العجب ؟ .

أنستبعد أن يوقت شق الإيوان بالميلاد المحمدى ؟ ولم يكون هذا الاستبعاد ؟.

أننكر على الله أن يطفئ نار فارس التي تعبد من دونه، وأن يوقت ذلك بالميلاد المحمدى ؟ وما سبب الإنكار ؟

أنتصور أن لاتغيض بحيرة ساوة مع الميلاد المحمدى؟، ولماذا هذا التصور ؟ [1] .

ألم ينشق القمر نصفين معجزة لرسول الله " ﷺ " ؟

ألم يفض الماء من بين أصابعه الشريفة " ﷺ " ؟

ألم يحدثه الحجر ، والشجر ؟

---

[1] السيرة النبوية ص ٦٣ .

أم .. ؟ أم ... ؟ أم .. ؟

وقد يرد هنا سؤال :

وهل تدرك الكائنات ؟

نعم الكائنات مدركة عابدة لربها ..

لنقرأ قول الله تعالى حكاية عن سليمـــان " عليه السلام ": ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾ [1] ونقرأ قوله تعالى وهو يحكي حديث النمل والهدهد ، يقول تـعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [2] ويقول تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢١﴾ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [3] ..

ألا يدل ذلك على أن الكون يدرك ، فللطير منطقه ، وللنمل فكره وحذره ، وللهدهد تخطيط ، وفهم ، وعمل .

ثامنا : ولحن في إطار الدعوة ندرك ضرورة وجود المنبهات الموقظة قبيل عرض الشيء الهام ، لينتبه الغافلون ، ويستيقظ النائمون .. وهذه قضية علمية معاصرة.

---

(1) سورة النمل آية (١٦) .

(2) سورة النمل آية (١٨) .

(3) سورة النمل الآيات (٢٠ ــ ٢٢) .

ألا يدفعنا استيعاب هذه القضية إلى اعتبار أن هذه الإرهاصات جاءت من الله للتنبيه ، وليعلم من يعقل أن لا دوام لمخلوق ، وما يلحقه النقص ، والتغيير زاله ، وكل ما يلحقه العجز ، والهلاك ، والانتهاء ، فهو مخلوق لله رب العالمين .

***

المبحث الثالث

ميلاد اليتيم محمد " ﷺ "

ولـــد محمد " ﷺ " يوم الإثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، بمكة المكرمة، في دار أبيه التي كانت موجودة بشعب بني هاشم ، وقــيل : إنه ولد بدار عند الصفا ، كانت لمحمد بن يوسف ، أخو الحجاج ، اشترها زبيدة زوجة هارون الرشيد، وبنت مكانها مسجداً [١] وهي اليوم بناء صغير ، موجود بجوار الساحة الجنوبية للحرم الشريف ، وبها مكتبة صغيرة عامة تعرف بمكتبة الـــحرم المكـــي.

ومما يدل علي ولادته يوم الاثنين ما روي أن أعرابياً قال : يارسول الله ، ما تقول في صوم يوم الإثنين ؟

قال " ﷺ " : ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو وأنزل على فيه [٢] .

ويشـــهد لولادتـــه " ﷺ " عام الفيل حديث قيس بن مخرمة الذى قـــال فـــيه : (ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل) [٣] .

يقـــول محمد بن اسحاق : (ولد رسول الله " ﷺ " يوم الإثنين عام الفيل لاثنتى عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول) [٤] .

كما يروى الترمذى بسنده عن قيس بن مخرمة بن عبد مناف قـــــال : (ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل ، كنا لدين) [٥] .

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ١٨٤ .

[٢] صحيح مسلم بشرح النوى ـــ كتاب الصيام ـــ باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ج ٨ص ٥١.

[٣] السيرة النبوية لابن هشام ج١ ص ١٧٥ .

[٤] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ١٧١ .

[٥] سنن الترمذى ـــ كتاب المناقب ج٥ ص ٥٨٩ .

وروى عن أبي الحويرث قال : (سمعت عبد الملك بن مروان يقول لقباث بن أشيم الكناني ، ثم الليثي : يا قباث : أنت أكبر أم رسول الله " ﷺ " قال قباث : رسول الله أكبر مني ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله " ﷺ " عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل أخضر محيلاً أعقله)[1]

يقول ابن عباس " ﷺ " : (ولد نبيكم يوم الإثنين)[2] .

وجمهـور المؤرخـين ، وعلماء السيرة يجمعون على أن رسول الله " ﷺ " ولد يوم الإثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلع الفجر[3] .

وقـد مات أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكانت وفاته بالمدينة عند أخوالـه من بني النجار حيث دفن بدار عدي النابغة ، يقول ابن كثير : (خـرج عـبد الله بن عبد المطلب إلى الشام ، إلى غزة ، في عير من عيران قريش ، يحملون تجاراتهم ، فلما فرغوا من تجارتهم مروا بالمدينة ، وعبد الله يومئذ مريض .

فقـال : أتخلـف عند أخوالي بني عدى بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ، ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله .

فقالوا : خلفناه عند أخواله في المدينة وهو مريض .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفي ، ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه ، وأخبره)[4] ، وكان وقع خبر وفاته على أبيه ، وإخوته مؤلماً .

وكان عمر عبد الله يوم وفاته خمساً وعشرين سنة على الصحيح[5] .

---

(1) البداية والنهاية ج٢ ص ٢٦٢ .

(2) الفتح الرباني ج ٢٠ ص ١٨٩ .

(3) السـيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ١٩٩ ، وهناك أقوال ضعيفة تشير إلى غير هذا التاريخ لكنها معارضة لما جمهور العلماء ، ومؤلفي التاريخ والسيرة .

(4) طبقات بن سعد ج١ ص ٦١ ، وهذا رأى الجمهور .

(5) المرجع السابق ج١ ص ٦١ .

يذهب أغلب علماء التاريخ ، وكتاب السيرة ، إلى أن عبد الله والد النبي " ﷺ " مات ، والرسول حمل في بطن أمه ، يقول ابن إسحاق : (ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول الله حامل به) [1] ولم يترك عبد الله مالاً يورثه لزوجه ، وولده، اللهم إلا جاريته أم أيمن ، وخمسة جمال ، وقطعة من غنم [2] .

ولذلك ولد النبي يتيماً ، فقيراً لحكمة أرادها الله تعالى ..

إن اليتم في حد ذاته ، منقصة للوليد ، وبخاصة في مجتمع يفتخر بالأنساب ، والأحساب ، والقبيلة ، والجماعة ، إن الوليد في نشأته بعيداً عن أبيه يعيش منعزلاً ، لا يحسن معاملة الناس ، وينمو ضعيفاً في بدنه ، وسلوكه ، لا يتمكن من مواجهة مصاعب الحياة ، وإذا وجد مع اليتم الفقر ، فإن الصغير يعيش مهملاً ، لا يهتم به أحد ، وإن اهتم به أحد فلتسخيره ، واستغلاله .

فمن أين لليتيم بأبوة حانية ؟ ! .. تتعهده غلاماً ، وتربيه طفلاً ، وتوجهه شاباً يافعاً ، وتدفعه إلى غمار الحياة رجلاً مسئولاً .

وأين لليتيم من رعاية شاملة ؟ تحافظ عليه في نومه ، ويقظته ، وسكونه ، وحركته ، وراحته ، وعمله ؟ ..

ومن أين لليتيم من ينصره ، ويعينه في مواجهة الخطوب ، والحوادث ؟

فإذا ما انضم إلى اليتم الفقر ، فالنتيجة أسوأ ، وأظلم ..

إن اليتيم الفقير لا ينال التعليم الذى يريده ، ولا يتمكن من نيل الأعمال التى يرغبها ، لأن غيره أسبق إليها منه ، وله من يساعده ، أما اليتيم الفقير فإن الجميع ينصرفون عنه ، ولا يهتمون بشأنه ! ! ! .

ذلك هو منطق الواقع والحياة .

فاليتيم ضعيف ، مهمل ، منعزل ، تؤثر معيشته في خلقه ، وسلوكه ..

---

(١) سيرة النبي ج١ ص ١٥٨ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٤٠٠ .

ولهذا كله كانت وصية الله باليتامى من أجل إعداد جيل إيماني ، [illegible] يراقب الله في معاملاتهم ، ويطيع الله في حسن رعايتهم ، والإحسان إليهم .

يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴾ [1] .

ويقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴾ [2] .. ويقول الله تعالى : ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴾ [3] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝ فَكُّ رَقَبَةٍ ۝ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ۝ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴾ [4] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [5]

ويقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴾ [6]

ويقول الله تعالى : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [7]

---

(1) سورة الضحى آية (٩) .

(2) سورة الفجر الآيات (١٧ ، ١٨) .

(3) سورة الماعون الآيات (١ ، ٢) .

(4) سورة البلد الآيات (١١ - ١٦) .

(5) سورة الأنعام آية (١٥٢) .

(6) سورة الإنسان آية (٨) .

(7) سورة البقرة آية (٢٢٠) .

ويقول الله تعالى : ﴿ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ ﴾[1] ..

ويقول الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾[2] ..

والآيات كثيرة : والأحاديث معها مبينة ، وشارحة ، وكلها تدور حول الاهتمام باليتيم حتى لا يضيع في مجتمع يهمله .

إن الآيات تدعوا إلى حسن معاملة اليتيم ، وعدم القسوة معه ، وترك دعه وزجره ، وظلمه ، حتى يجد من المؤمنين من يعوضه فقدان الأب والأم ...

كما تدعو الآيات إلى ضرورة المحافظة على مال اليتيم ، وتنميته بالحق والعدل ، والابتعاد عن أكله بالباطل ، أو الاستيلاء عليه بأي وجه من الوجوه .

وتدعو الآيات إلى العمل على إصلاح اليتيم ، والعناية بتربيته ، وتوجيهه نحو الخير والفلاح .

وتدعو الآيات إلى أهمية رعاية اليتيم مالياً، إن كان في حاجة للمال ، حيث الآيات وضحت أن إعطاء اليتيم من المال له أثر كبير على المعطى ، إنه بهذا العطاء يتخلص من العقبة، ويدخل الجنة ، ويشرب السلسبيل ، ويقرب من الله تعالى .

إن الإسلام واجه واقع اليتيم بشريعته العادلة ، لنشر الخير بين الناس أجمعين .

وتعامل مع طبيعة البشر ، ومع ميولهم الفطرية ليترقى بها في رفق ولين .

هذا في الإسلام .. وبالإسلام وحده .

أما في الجاهلية حيث لا دين ، ولا شريعة ، فإن الأمر يختلف ..

---

(١) سورة النساء آية (٢) .

(٢) سورة النساء آية (١٠) .

لكن الأمر مع الأنبياء في صغرهم له وضعه الخاص ؛ لأن الله يصطفيهم [illegible]

وإرادته ، ويربيهم بقدرته ومعونته .

ومع قدرة الله تعالى تتوقف سنن الكون ، وتنعدم التأثيرات المادية [illegible]

العقل مستسلماً ، مصدقاً ، وليس له إلا أن يؤمن، ويصدق، بعدما يرى [illegible]

المصطفون الأخيار .

هنا هو موسى " عليه السلام " ، ولدته أمه وخافت عليه أن يذبحه فرعون ، [illegible]

الله تعالى أن تضعه في صندوق ، وترميه في النهر ، وتترك الأمر بعد ذلك [illegible]

وهي تتساءل عن مصيره .. وهل سيموت غريقاً ؟ وهل ستأكله الحيتان [illegible]

وكيف يحيا بلا رضاعة ؟ وكيف الطريق لإرضاعه ؟ ..

أسئلة لا يجيب عليها العقل .. لكن مسار القدر مدهش عجيب ، وقد أجاب [illegible]

إلهي حكيم ، لقد وصل الصندوق إلى بيت فرعون ، واتخذ فرعون وزوجته [illegible]

لهما ، وأعاداه لأمه فأرضعته ، ثم سلمته لفرعون يربيه تربية ملكية خاصة [illegible]

تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا

تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴾ [1]

من كان يتصور أن الإلقاء في اليم هو سبب النجاة ؟ ومن يعقل أن [illegible]

يحذره هو الذي ربي موسى " عليه السلام " ؟ وخلصه من الضعف ، واليتم ، والحاجة [illegible]

وهكذا الأنبياء جميعاً ! ! !.

— أين تربي يوسف " عليه السلام " ؟ وهل رباه أبوه مع أنه كان حياً يرزق [illegible]

— وكيف ولد عيسى " عليه السلام " ، وتربى ، وليس له أب أصلاً ؟ !

إن الأنبياء صناعة ربانية ، ولذلك يوجدهم الله في قوالب معينة [illegible]

حكمته ، ومشيئته .

---

[1] سورة القصص آية (٦) .

ومن هنا كان في يتم محمد " ﷺ " حكمة يريدها الله تعالى ، ويتفضل بها على رسوله الأمين " ﷺ " ..

يجمل الله تعالى هذا التفضل على محمد " ﷺ " بقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴾ [1] حيث يشير إلى أن محمداً " ﷺ " ولد في رعاية الله تعالى ، برغم يتمه إلا أن الله أحاطه بالإيواء الشامل ، فأحبه كل من رآه ، بدءاً بمراضعه ومروراً بمن شاركهم في طفولته، وشبابه، ورجولته .

فهو إيواء يتضمن الرعاية ، والاهتمام ، والمعاملة ، والتضحية في مودة صادقة أغنت محمداً " ﷺ " عن رعاية الوالد الحنون .

وفي ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً إشارة إلى بعض الحكم الإلهية ، التي يمكن استنباطها في العصر الحديث ، ومن أهم الحكم المستنبطة ما يلي : ـــ

١. أراد الله تعالى أن ينشأ محمد " ﷺ " محاطاً بالرعاية الإلهية التامة منذ اللحظة الأولى لوجوده في الدنيا،وحتى لا تفسر خيرات الله له بسبب أبيه ، أو أمه، أو بتأثير ماله وغناه ... ولو فكر عقلاء هذا الزمان في تميز هذا اليتيم عن أقرانه ، ولداته، لأدركوا شيئــاً عن هذه العناية الإلهية بمحمد " ﷺ " .

٢. في ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً رد لأي شبهة يمكن أن يختلقها الأفاكون الضالون كأن يقولوا : إن محمداً أخذ تعاليم النبوة من أبيه،أو من أمه ، حيث يحاول الآباء دائماً غرس قيمهم ، وعاداتهم ، واهتماماتهم في أبنائهم ، بل إن الابن يحاول بصورة تلقائية أن يقلد أباه ، ويجتهد في حمل فكره ، ومذهبه .

لقد زعم كفار مكة أن محمداً " ﷺ " يأخذ ما يقوله لهم من رجل غريب قالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ

---

(1) سورة الضحى آية (٦) .

ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ﴿٥﴾ ﴾ [1] ، وفي قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [2] .

لقد بحث كفار مكة عن شخص له صلة برسول الله " ﷺ " ليزعموا أنه مؤلف الوحي ، وأن محمداً يأخذ منه ، وقد بين الله كذبهم ، وضلالهم فيما يزعمون .

فلو كان عبد الله والد النبي حياً ، لسهل عليهم ادعاء أنه المعلم لولده ، وأن الوحي من كلامه ، وتأليفه ... لكن الله تعالى قطع عنهم هذا الطريق بوفاة عبد الله وميلاد محمد بعد وفاته .

٣ ــ في ولادته " ﷺ " يتيماً تأكيد لحقيقة غائبة عن الكثير من الناس ، وهي أن الأمور كلها بقدرة الله تعالى ، وليس للإنسان في عمله إلا الكسب والنية والله خالق كل شيء .

ولو عقل الناس لعاشوا مؤمنين حقاً ، عن اقتناع ، ورضىً ، ولسلموا بالقدر وعاشوا مؤمنين .

إن العقل سوف يتساءل أسئلة توصل إلى اليقين،والإيمان، ومن هذه الأسئلة :ــ

- من أين وجد الإنسان ؟ ومن يقدر على هذا الإيجاد ؟
- هل يمكن تصور المستقبل من ناحية الصحة ، والغنى ، والسعادة أم أن ذلك مجهول أمام الإنسان ؟
- هل تجري الأحداث وفق تقدير العقل ، أم أن أحداث الحياة تجعل العقل عاجزاً عن تفسير اتجاهاتها غالباً ؟

---

[1] سورة الفرقان آية (٤ ، ٥) .

[2] سورة النحل آية (١٠٣) .

• هل الإنسان يعلم ظواهر الأشياء ، وبواطنها ، أم ماذا ؟

إن النظر في هذه القضايا تدفع الإنسان إلى التسليم بقدرة الله تعالى ، وحين يقارن محمداً " ﷺ " بسائر الناس مع إدراك يتمه ، وفقره، نتأكد أنه صناعة قدرية ، ربانية ، والعلم بهذه الحقيقة يشير إلى بعض أسرار يتم محمد " ﷺ " .

إن الحكمة الإلهية التي أحاطت بمحمد " ﷺ " أحاطت بكافة جوانب مولده " ﷺ "

فبالنسبة للأشخاص الذين أحاطوا به ، وجرياً على أن للإنسان من اسمه نصيب، نرى أنهم مثلوا مع محمد عدة معان نبيلة : فمن أمه امنة كان الأمن والهدوء . ومن قبيلته الشفاء كانت العافية والصحة ، ومن حاضنته أم أيمن كان اليمن والبركة ، ومن مرضعته حليمه السعدية الحلم ، والسعد ، ومن جده العبودية ، ومن عمه التوجه إلى التفادى والتطلب منه ، وكأن الله تعالى أوجد في حياة محمد " ﷺ " هذه المسميات لتتحول في حياته إلى خلق وسلوك .

وبالنسبة لتسميته فلقد ألهم الله جده عبد المطلب حين أخبرته السيدة آمنة بوضع حملها أن يسميه محمداً .

يقول السهيلي : (سئل عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟

فقال : محمداً .

فقيل له : كيف سميته باسم ليس لأحد من آبائك وقومك .

فقال : إني لأرجو أن يحمده أهل الأرض كلهم .

وكـــان ذلـــك لرؤيا كان رآها في منامه، كأن سلسلة من فضة خرجت من ظهره، لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب، كأنهم يتعلقون بها ، فقصها، فعبرت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : محمداً .

وذكروا أن أمه حدثته بأنه قد قيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمـــة ، فإذا

وصعتيه فسميــــه محمداً) [1] .

وكان النبي " ﷺ " يذكر فضل تسميته محمداً ويقول : (**ألا تعجبون كيف يصرف الله عني شتم قريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمماً ، وأنا محمد**) [2] .

يقـــول القاضي عياض : (وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً، وأحمد، فمن خصائصه تعالى له أن ضمن أسماءه ثناءه ، فطوى أثناء ذكره عظيم شكره ، فأما اسمه أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مفعل مبالغة من كثرة الحمد، وتكراره فهو " ﷺ " أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمودين ، وأحمـــد الحامدين ، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ، ليتم له كمال الحمد، ويشهر في تلك العرصات بصفة الحمد ، ويبعثه ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده ، يحمده فيه الأولون والآخرون ، وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته فن آخر، هو أن الله عز وجل حمى اسمه أن يسمى بهما أحد قبل زمانه .

أما أحمد الذي أتي في الكتب،وبشرت به الأنبياء،فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمى أحد غيره،ولا يدعى به مدعو قبله حتى لا يدخل لبس على ضعيف القلب، أو شك.

وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ، ولا غيرهم إلى أن شاع قبيل وجوده " ﷺ " وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمى قوم من العرب أبناءهم بذلك، رجاء أن يكون أحدهم،وهم محمد بن أحيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن سفيان بن مجاشع ، ومحمد بن حمران الجعفي ، ومحمد بن خزاعة السلمي ، لا سابع لهم ، ثم حمى الله كل من تسمى به أن يدعي النبوة ، أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سبب يشكك أحداً في أمره ، حتى تحققت السمتان (الحمد والثناء) له " ﷺ " ولم ينازع فيهما) [3] .

---

(1) الروض الأنف ج١ ص ١٨٢ .

(2) صحيح البخاري ج٦ ص ٤٣٥ .

(3) الشفا للقاضي عياض ج١ ص ٢٢٩ — ٢٣١ .

وبالنسبة لولادته يوم الاثنين فإنه كان لارتباط هذا اليوم بعدد من الأفعال الخيرة التي قدرها الله لكونه المخلوق في هذا اليوم ، فلقد ورد الحديث من أن الله تعالى خلق الشجر يوم الاثنين ، يقول بن عباس " ﷺ " : (**ولد نبيكم يوم الاثنين ، ونبئ يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ، وفتح مكة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين**)[٢] ، وفي ذلك إشارة إلى ارتباط الحوادث العظيمة بيوم الاثنين ، ومنها مولده " ﷺ " ..

إن خلق الأقوات والأرزاق والفواكه ، والخيرات التي يمتار بها بنو آدم، ويحيون ويتداوون، وتنشرح صدورهم لرؤيتها، وتطيب بها نفوسهم، وتسكن خواطرهم ، لتحصيل ما يبقى حياتهم ، على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه وتعالى ، كل ذلك كان في يوم الاثنين ، فولادته " ﷺ " في هذا اليوم إشارة إلى ما وجد من الخير العظيم والبركة الشاملة للناس أجمعين ببعثته " ﷺ "[٣] .

وبالنسبة لولادته في شهر ربيع الأول فلم في هذا الشهر من خيرات تتوافق مع خيرات مجيئه إلى الدنيا ، حيث الازدهار ، والجدة ، والحسن ، والنفع العام .

ففي الربيع تبدو خيرات الله تعالى في الكون ، حيث ينبت الزرع ، ويفيض الضرع ، ويأتي الحب والنوى ، وتنتشر الخضرة الجميلة في ربوع الأرض كلها ، وفي السهول والجبال ..

والجو في الربيع معتدل المناخ لا حرارة فيه ، كما تقل فيه العلل والأمراض بفضل الله تعالى .

وفي مجيء محمد " ﷺ " ومبعثه تحقيق لهذه المعاني ، فلقد أتى " ﷺ " بما يسعد الناس في الدنيا والآخرة .. ورسالته " ﷺ " قائمة على الاعتدال ، والاستقامة، دائمة العطاء ، شاملة لكافة الخلق ، سهلة ، ميسرة .

---

(١) الفتح الرباني ج٢ ص ١٨٩ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج١ ص ٤٠٦ .

وبالنسبة لميلاد المصطفى في عام الفيل ، لأنه " ﷺ " ولد قبل
الحادثة بخمسين يوماً فمن أجل أن يدرك الناس أن قدرة الله الغالبة عنهم
موجود ، وكل ما في الكون قدر إلهي محض ، وإذا أراد الله شيئاً قال له كن
حتى إذا جاءهم محمد " ﷺ " علموا أنه المبعوث لهم من الله تعالى .

ومن أين للناس أن يدركوا هذه الأسرار في يوم مولده " ﷺ " ؟
إن هذه الحكم، وهذه الأسرار لم ترتبط وقتها في أذهان من رأوها ببعثة محمد "
ورسالته ، ولا يراد منها ذلك ، ويكفي أنها تحرك الأذهان نحو عدم تأليه من
ويتغير مثل النار المنطفئة، أو البيوت المكسورة ، أو الأصنام المهتزة ، ولينا
وجود قوة قاهرة تحقق أعمالاً لا يقدر عليها الناس ، ولا يمكنهم تفهم أسرار

وذلك أثر ممكن الحدوث ، وبخاصة أن أهل الكتاب ، وحكماء العرب
يؤمنون ببعث نبي بشرت به الكتب المنزلة، يقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ
يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[1]
ويقول سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَ
فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ
عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[2]

يقول ابن كثير: يخبر الله تعالى أن أهل الكتاب يعرفون محمداً كما يعرفون
أبناءهم،ويعرفون أنه صادق،وقد جاء وصفه مكتوباً مدوناً في التوراة والإنجيل
أساسيات دعوته في الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر،وتحليل الطيبات،وتحريم الخبائث

---

(1) سورة البقرة آية (١٤٦) .

(2) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

(1) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٩٤ بتصرف .

إن العالم كله قبيل بعثة النبى " ﷺ " ، وقبيل مولده كان في انتظار رسول جديد يجمع العالم على الحق ..

وعلى هذا فإن حدوث الميلاد محاطاً بهذه الحكم ، يمثل عوامل تصديق رسالة الرسول بعد مبعثه ، وتعد دوافع إيمانية للعقلاء الذين يعرفون أن النبوة صناعة ربانية ، ولا مانع من جريان الأحداث معها على نحو خارق لعادة الناس .

والله أعلم حيث يجعل رسالته .

***

المبحث الرابع

محمد " ﷺ " في

ديار بني سعد

بعدمـــا وضعت السيدة آمنة بنت وهب حملها أرسلت إلى جده عبد المطلب وأخبـــرته بولادة حفيده ، فسر به كثيراً ، وأخذه ودخل به الكعبة ، ودعا الله، وسمـــاه محمـــداً ، فلما سئل عن سبب هذه التسمية مع أنها لم توجد في آبائه أو أقربائه ، قال : أردت أن يحمد في السماء عند الله ، وفي الأرض عند الناس [1].

يذكر السهيلي أن التسمية كانت لرؤيا رآها عبد المطلب توافقت في دلالتها مع ما حدثته به أمه " ﷺ " [2].

يروى ابن عساكر أن عبد المطلب سر بولادة محمد كثيراً وعق عنه بكبش، وقد عاش الوليد في كنف أمه سبعة أيام أرضعته فيها ومعها قابلته " الشفاء "، وفرح أعمامه بميلاد ابن لأخيهم الذي فقدوه صغيراً ، لدرجة أن أبا لهب أعتق جاريته ثويبة عندما أخبرته بميلاد محمد " ﷺ " ، فذهبت إلى أمه "آمنة" ، وأرضعته معها [3].

أقبلـــت آمنة على وليدها بالحنان، والرفق، في انتظار مرضعة تستلمه لتتولى تربيته في البادية ، حيث الخلاء الواسع ، والطبيعة الجميلة ، وبساطة الحياة وفطرة النـــاس ، وكانت عادة أثرياء أهل مكة أن يسلموا أولادهم بعد ولادتهم ، لمرضعات من البادية لقاء أجر ، ورزق .

واتفق أن جاءت المراضع من بني سعد يلتمسن أبناء الأغنياء ، طمعاً في الرزق والهبة ،

---

[1] سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ١٨٢ .

[2] الروض الأنف ج١ ص ١٨٣ .

[3] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ـ كتاب ـ النكاح باب ـ ما يحرم من الرضاع ج٧ص ١٢ ، وثويبة التي أرضعت عمه حمزة ، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ليكون لهما أخ في الرضاع .

وسروا جميعاً على آمنة، فرأوا ولدها يتيما، فقيراً، فتركنه لقلة الأجر، وضآلة العطاء المنظر من يتيم فقير .

ووجــد النســوة عند أبناء الأثرياء ما يأملون، ماعدا حليمة السعدية، فإنها كانت فقيرة ضعيفة ، رأت الأمهات منها ما صرفهن عن اختيارها مرضعة لأبنائهم ، فلبنها قليل ، وجسدها نحيل ، وأتانها هزيل ، والفقر باد عليها، فانصرفوا عنها إلى غيرها .

ووجـــدت حليمة نفسها مضطرة لأخذ محمد " ﷺ " حتى لا تعود لديارها خاوية الوفــاض ، فكان في أخذها له الخيرة والبركة، وظهر ذلك فى كافة جوانب حياتها ، وأسرتها ، ونعمت بهذا الخير هى وقومها بعد ذلك .

وحليمة هى بنت أبي ذؤيب ، وهو عبد الله بن الحارث بن سعد من هوازن ، وتعرف بحليمة السعدية ، وكنيتها أم كبشة .. وزوجها هو الحارث بن عبد العزي بن رفاعة من هوازن كذلك، ويكنى بأبي كبشة .

وقد شرفها الله تعالي بإرضاع محمد " ﷺ " ، فصارت له أماً ، وصار زوجها له أباً ، وصار أبناؤها إخوته وهم ، عبد الله بن الحارث ، وحفص بن الحارث ، وأمية ابـن الحارث ، والشيماء، وهى خذامة بنت الحارث ، وقد أكرمها الله تعالي، ففاض الخـير في كـل جوانب حياتها ببركته " ﷺ " ، رغم أنها لم تكن راغبة فيه ، ولولا انصراف الوالدات عنها ما أخذته .

تحكـي حليمة قصتها مع رضاعة رسول الله " ﷺ " فتقول : خرجت في نسـوة من بني سعد بن بكر ، نلتمس الرضعاء بمكة ، على أتان لى قمراء قد أدمت بالركـب ، وخرجنا في سنة شهباء ، لم تبق لنا شيئاً ، ومعي زوجي الـحارث بن عبد العزي ، ومعنا شارف لنا، والله إن يبض علينا بقطرة من لبن ، ومعي صبي لي ما نـام ليلنا أجمع ، من بكائه من الجوع ، مافى ثديي ما يغنيه ، وما فى شارفنا من لبن

تغذوه ، ولكنا كنا نرجو الغيث والفـــرج ، فخرجت على أتاني تلك ،فشق ذلك علينا ضعفاً ، وعجفاً ، حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء .

فمـــا منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله " ﷺ " فتأباه،وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة،من والد المولود ، فكنا نقول يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه ؟وما يفعل جده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري .

فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي : والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه والله إني لأكره أن أرجع من بين صواحبي ، ولم آخذ رضيعاً .

قال : لا عليك أن تفعلي عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأخذته، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ؛ فلما أخذته رجعت إلى رحلي [١] .

وقـــد رأت حليمة فضل الله عليها عقب عودتها إلى رحلها بمحمد " ﷺ ".

تقـــول : (فلما وضعته في حجري ، أقبل عليه ثدياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي ؛ وشرب معه أخوه حتى روي .

ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجي إلى شارفنا تلك ، فإذا لبنها حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا رياً وشبعاً ، فبتنا ليلتنا تلك بخير ليلة شباعاً، رواءاً وقد نام صبيانا .

يقـــول أبوه ـــ يعني زوجها ـــ والله يا حليمة ما أراك إلا أصبت نسمة مباركة ، قد نام صبيانا ورويا .

فقلت : والله إني لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أتاني ، وحملته عليها معي ، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليه شيء من حمرهم، حتى إن صواحبي ليقلن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ، أربعي علينا أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟

---

(١) مع الرسول ص ١٨٦ .

فأقول لهن : بلى والله ، إنها لهي هي .

ويقلن : والله إن لها لشأناً .

ثم قدمنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها ، فكانت غنمي تروح عليّ حين قدمنا به معنا شباعاً لبنا ، وتروح أغنامهم جياعاً هالكة ما بها من لبن ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعيانهم : ويلكم ، اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح غنمي شباعاً لبناً .

فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب شباباً لا يشبه الغلمان ، كان " ﷺ " يشب في اليوم شباب الصبي في شهر ، ويشب في الشهر شباب الصبي في سنة فبلغ ستاً وهو غلام جفر)[1] .

إن رعاية الله تعالي مستمرة مع رسول الله تعالي،وها هي بركاته تحل بحليمة حيث أخصبت أرضها الجدباء،ودر لبن إبلها الجاف،وصارت ترى النعيم في كل شئوها .

وقد أجمع مؤرخو السيرة علي رواية ما حكته حليمة عن قصة إرضاعها محمداً " ﷺ " وهي بما روت تضيف فصلاً جديداً من تكريم الله لعبده ، ورسوله محمد " ﷺ " ..

ولما بلغ عمره " ﷺ " سنتين فصلته حليمة ، وعادت به إلى أمه في مكة ..

ويرجع السبب في عادة أثرياء مكة إرضاع أولادهم ، وتنشئتهم في البادية إلى أمور نتلمس بعضها فيما يلي : ــ

(١) تتميز البادية بالنقاء والصفاء ، حيث الخلاء الواسع ، والفضاء الرحيب ، وهذا يساعد في اتساع الأفق ، وبعد المدارك ، ويؤدى إلى هدوء الطبع ، واستقرار النفس ، فالناس في البادية يعيشون بين الخضرة اليانعة ، والطبيعة الخلابة ، مع الطمأنينة ، والهدوء ، فلا اشتغال لهم بقضايا السلطة والإدارة ،

---

(١) مع الرسول ص ١٨٩ .

ولا عناء معهم في السعي والتجارة ، ولا تعب في الترقي والمساعدة حياتهم الرتيبة تصنع الهدوء ، والاستقرار .

(٢) تصنع البادية من أبنائها رجالاً يعتمدون على أنفسهم ، فليس ثم من يحميهم ، ولا رجال أمن يحرسونهم ، وإنما يعتمد كل على نفسه ، ولذلك ينشأ البدوي على الجرأة والشجاعة ، ويتعود الإقدام ، وعدم الخوف ، ويعتمد البدو على أنفسهم في الدفاع ، والنصرة ، والحماية .

(٣) يعيش أبناء البادية في مجتمع مغلق ، لا يأتيهم غريب ولا يعيش بينهم أجنبي ، وهذا الوضع ساعدهم على المحافظة على الفطرة الطبيعية ، واللغة الفصيحة ، والنسب الصريح ، والقوة البدنية ، في ترابط الأقارب ، ومودة القربين .

إن الآباء قصدوا تربية أبنائهم في البادية لينشأوا أقوياء البنية ، فصحاء اللسان ، حسني الأخلاق ، يتميزون بهدوء الطبع ، وشجاعة السلوك ، وحب التعاون والتودد ، وتلك عوامل أرادها الله لرسوله " ﷺ " فأرضعته حليمة السعدية ونشأ في ديار بني سعد ، ليستفيد بما أراده الله له .

عادت حليمة السعدية بمحمد إلى أمه السيدة آمنة بعد تمام إرضاعه ، وفصاله وذلك على عادة سائر المراضع مع أبنائهن ، ولم تكن حليمة سعيدة بعودته لأمه لأنها تخاف توقف الخير الذي تدفق عليها ، تقول حليمة : (**فقدمنا به على أمه ، ونحن أحرص شيء على مكثه فينا ، لما كنا نرى من بركته**) [1] .

عرضت حليمة على آمنة أن تعود بمحمد " ﷺ " إلى ديارها مرة ثانية لتستمر بركته ، ولتبتعد به عن وباء كان بمكة يومذاك ، فوافقتها آمنة ، وأعادته معها مرة ثانية إلى ديار بني سعد ، وبخاصة أن مكة يومذاك كانت موبوءة ، وأملت أن يزداد عندها نضارة ، وازدهاراً ، ونمواً في بدنه وعقله ، وشخصيته ، ليشب رجلاً له قدره وعزته

---

(1) السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ .

ويقوم بدوره مع جده وأعمامه ، وقومه .

وأخذتـــه حلـــيمة وعـــادت به سعيدة مرة ثانية ، وفرحت بذلك ، إلا أنها اضطرت إلى إعادته لأمه حين بلغ عمره خمس سنوات وشهراً ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين ، **الأولى** : بعد تزويجه " ﷺ " خديجة ، **والثانية** : يوم حنين ، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت آمنة قد أوصت حليمة بمحمد ، وعرفتها بما حصل معها ، في حملها وولادته، وبينت لها ما رأت، وما شاهدت من كرامات صاحبت مولده، وقالت لها : احفظي ابني هذا ، واحذري عليه الرهبان ، والكهان ،.

تقول حليمة : مر بي بعض اليهود فقلت لهم : ألا تحدثوني عن ابني هذا ؟ ! فإني حملته كذا ، ووضعته كذا ، ورأيت كذا ! كما قالت أمه .

تريد حليمة بذلك أن تعرف شيئاً عن الأسرار المتصلة بهذا الغلام المبارك .

تقول حليمة : لما رآه اليهود ، قال بعضهم لبعض : اقتلوه .

وسألوها : أيتيم هو ؟

فقلت لهم : لا ، هذا أبوه ، وأنا أمه .

فقالوا : لو كان يتيماً لقتلناه .

فذهبت به حليمة وقالت : كدت أخرب أمانتي [١] .

يقـــول ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن الذي أهاج أمه السعدية على إعادته لأمه أن نفراً من نصاري الحبشة رأوه معها ، حين رجعت به بعد فطامه ، فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به إلى ملكـــنا ، وبلدنـــا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره .. يقول ابن إسحاق : إنها لم تكد تنفلت به منهم [٢] .

---

[١] الطبقات الكبرى ج١ ص ٧١ .

[٢] سيرة النبي ج١ ص ١٦٧ .

وعاد محمد " ﷺ " إلى أمه ليبدأ مرحلة جديدة من قومه وعشيرته ..

وفاء النبي لأيام حليمة :

عـــاش النبي " ﷺ " أيامه الأولى عند حليمة السعدية ، ونما جسده [illegible] وصفا لسانه بلغات بني سعد ، وصاحب عديداً من الناس .

وعاش محمد ، وهو في ديار حليمة ، مع قبيلة بني سعد ، حيث أحبه كل من رآه ، وأحاطوه بالرعاية الحسنة ، والتكريم الجميل .

وحفظ " ﷺ " لحليمة وأسرتها هذا الجميل ، وكان يذكره ، ويشيد به ..

يقول النبي" ﷺ ": **(أنا أعربكم، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد)** [1]

وقال محمد بن المنذر : استأذنت امرأة على النبي " ﷺ " كانت أرضعته فلما دخلت عليه ، سر بها، وقال : أمي ، أمي ، وعمد إلى ردائه فبسطه لها فقعدت عليه [2] ، وعرف أصحابه بأنها حليمة .

يروى ابن سعد بسنده أن حليمة قدمت على النبي " ﷺ " بمكة بعد زواجه خديجة " رضي الله عنها " ، وشكت إليه جدب البلاد ، وهلاك الماشية ، فكلم رســول الله " ﷺ " خديجة في شأنها ، فأعطتها أربعين شاة ، وبعيراً ، وانصرفت لأهلها[3] .

وأخــرج أبو داود بسنده عن ابن الطفيل " ﷺ " قال : **(رأيت رسول الله يقسم لحماً بالجعرانة ـــ وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور ـــ إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى رسول الله فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : هذه أمه " ﷺ " التي أرضعته)** [4] .

---

[1] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ـــ كتاب المناقب ـــ باب في حليمة ج٩ ص ٤١٥ .

[2] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٣ .

[3] المرجع السابق ج١ ص ١١٤ .

[4] سنن أبي داود ـــ كتاب الأدب ، باب في بر الوالدين ج٢ ص ٦٣٠ .

وهكذا كان تقدير النبي " ﷺ " لمرضعته حليمة ، وفاء لحقها ، وبراً بأمومتها وتكريماً لوفادتها .. لم ينسه تغير الحال ما أسدى له من جميل ..

ولم يتصور أن ما أخذته من أمه أجراً كافياً في حقها ، بل كان " ﷺ " يقدر زوجهـا، وأبناءها ، فهم أبوه، وإخوته، في الرضاعة ، أخرج أبو داود عن عمر ابن الحارث أن عمر السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله " ﷺ " ، **كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لهـا شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله فأجلسه بين يديه** [١] .

وبعد فتح مكة كانت غزوة حنين ، وأسر النبي " ﷺ " عدداً من هوازن قبيلة حليمة ، فجاء وفدهم إلى رسول الله " ﷺ " وهو بالجعرانة لفك أسراهم ، وكان رأس القوم ، والمتكلم فيهم "أبو صرد زهير بن صرد" فقال : إن في هذه الحظائر (مكـان الأسري) أخواتك، وعماتك، وخالاتك، وبنات عمك، وبنات خالاتك وأبعدهـن قريـب منك ، بأبي أنت وأمي ! إنهن حضنك في حجورهن، وأرضعنك ثديهن ، وتوركنك على أوراكهن وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله " ﷺ " : إن أحسن الحديث أصدقه، وعندى من ترون من المسلمين أفأبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم ، أم أموالكم ؟

فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا، وأموالنا ، وما كنا لنعدل بالأحساب شيئاً فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقـال النبى " ﷺ " : أما ما لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم، وأسأل لكم الناس، فإذا صليت بالنـاس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسـول الله ، فإنى سأقول لكم :ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب

---

[١] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٤.

لكـــم الـــناس فـــلما صلى رسول الله " ﷺ " ، الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي قال لـــــهم رسول الله " ﷺ " ، فرد عليهم رسول الله " ﷺ " ، وقال لهم : ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم ، وهنا تأثر المهاجرون ، والأنصار ، وقالوا مثل ما قال رســـول الله " ﷺ " ، ثم اتفقوا على قول واحد وقاموا بتسليم الوفد جميع ما أخذوا، وهـــم راضـــون ، ســـعداء ، وأطلقوا سراح ما في أيديهم من سبي هوازن إلا قوماً تمسكوا بما في أيديهم فأعطاهم الرسول " ﷺ " إبلاً عوضاً عن ذلك ، وفك أسرهم جميعاً [1] .

إن الإنســـان العظـــيم لا ينســـي جميلاً أسدي إليه، أو أسدى لأحد من صـــحابته ، ودائماً يحفظ الفضل لأهله ، وعلي رأس العظماء رسول الله " ﷺ " الـــذي أدبـــه ربه فأحسن تأديبه ، لقد تذكر جميل آل حليمة في وقت عسرهم، وضـــعفهم فمـــا خذلهم وما أهانهم ... بل أكرمهم جميعاً ، وأعادهم إلى ديارهم أحراراً .

وهكـــذا حافظ رسول الله على الخلق الكريم،فوفى لحليمة "رضي الله عنها" يوم أتت إليه، وأكرم أهلها وقومها " ﷺ "، يوم أن وقعوا أسرى عند المسلمين، وقد أسلموا بعد ذلك ، وحسن إسلامهم . .

***

---

[1] الطبقات الكبرى ج٨ ص ١١٥ .

المبحث الخامس

شق الصدر

وتتواصـــل إرهاصات النبوة مع رسول الله "ﷺ" وهو عند حليمة بعد عودته منها مرة ثانية،ومن هذه الإرهاصات حادثة شق الصدر ، الثابتة بالروايات الصحيحة .

يـروي مسلم بسنده عن أنس بن مالك " ﷺ " : (أن رسول الله " ﷺ " أتـاه جـبريل " عليه السلام " وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاسـتخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسـعون إلى أمه ــ يعني : ظئره ــ فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه، وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره)[١] .

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله " ﷺ " .

قالوا له : يارسول الله ! أخبرنا عن نفسك .

قال : نعم،أنا دعوة أبي إبراهيم،وبشرى أخي عيسى،ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام .

واسترضـــعت في بني سعد بن بكر،فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعي بهماً لنا،إذ أتاني رجلان ــ عليهما ثياب بيض ــ بطست من ذهب،مملوء ثلجاً،ثم أخذاني فشقا بطني،واستخرجا قلبي فشقاه،فاستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي،وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه،ثم قال أحدهما لصاحبه:زنه بعشرة من أمـته،فوزنني بهم فوزنتهم،ثم قال:زنه بمئة من أمته،فوزنني بهم فوزنتهم،ثم قال زنه بألف من أمته،فوزنني بهم فوزنتهم،فقال:دعه عنك ،فو الله لو وزنته بأمته لوزنها)،

---

[١] صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب الإسراء ج١ ص ٣٩٢ .

وإسناد هذا الأثر جيد قوي [١] .

ويروي أحمد وأبو نعيم في الدلائل عن عتبة بن عبد : أن رجلاً سأل النبي " ﷺ " فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟

قال : كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها في بهم لنا ، ولم نـأخذ معنا زاداً ، فقلت : يا أخي ! اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلق أخي وكنت عند البهم ، فأقبل طائران أبيضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه : أهو هو ؟

فقال : نعم ، فأقبلا يبتدراني ، فأخذاني فبطحاني للقفا ، فشقا بطني ، ثم استخرج قلـبي فشـقاه ، فأخرجا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : ائتني بماء وثلج ، فغسلا به جوفي ، ثم قال : ائتني بماء برد ، فغسلا به قلبي ، ثم قال : ائتني بالسكينة ، فذرها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : حصه ، فحاصه ، وختم على قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة ، واجعل ألفاً من أمته في كفـة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق ، أشفق أن يخر علي بعضهم ، فقال : لو أن أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا فتركاني ، وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت إلى أمـي (حليمة)فأخبرتها بالذي لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بي ، فقالت أعيذك بالله ، فرحلت بعيراً لها ، وحملتني على الرحل ، وركبت خلفي ، حتى بلغنا إلى أمـي ، فقالـت : أديت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي لقيت ، فلم يرعها وقالت : إني رأيت نوراً خرج مني أضاء قصور الشام) [٢] .

وقـد تناولـت كتب السيرة حادثة شق الصدر ، فهي في سيرة ابن هشام وطـبقات ابـن سـعد ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، والبداية والنهاية ، والخصائص

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٧٥ ورواه الحاكم وصححه .

(٢) تهذيب ابن عساكر ج١ ص ٣٩ والحاكم في المستدرك ج ٢ ص ٦١٦ — ٦١٧ ، وقال : صحيح على شرط مسلم .

الكـــبرى للسيوطي ،ودلائل النبوة للبيهقي ، وسير أعلام النبلاء ، وسائر المؤلفات الحديـــثة ، وأشارت إليه بعض كتب التفسير ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [1] ، وعند تفسير أول الإسراء .

وهذه الحادثة التي وقعت لرسول الله " ﷺ " منذ الطفولة المبكرة ، تكررت معه بعد ذلك أكثر من مرة ، فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابن عساكر ، عن أبي بن كعب أنا أبا هريرة سأل رسول الله " ﷺ ":يا رسول الله ! مـــا أول ما رأيت في أمر النبوة ؟

فقال النبي " ﷺ " : إني لفي صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ ، قال : نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا إلي يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما هامساً ، فقال أحدهما للآخر : أضجعه ، فأضجعاني بلا قسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه : افلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم، ولا وجع ، فقال له : أدخل الرأفة والرحمة،فإذا مثل الذي أدخل يشبه الفضة،ثم هز إبهام رجلي اليمنى، فقال : اغد وأسلم،فرجعت بها أغدو رقة على الصغير،ورحمة للكبير، وهذه هي المرة الثانية .

وتكررت مرة ثالثة قبيل البعثة ، يروى أنس بن مالك ويقول : لما حان أن ينبأ رسول الله " ﷺ " كان ينام حول الكعبة ، وكانت قريش تنام حولها فأتاه جبريل وميكائيل ، فقالا بأيهم أمرنا ، فقالا أمرنا بسيدهم ، ثم ذهبا وجاءا من القابلة وهم ثلاثة ، فألفوه وهو نائم فقلبوه لظهره ، وشقوا بطنه ، ثم جاءوا بماء زمزم فغسلوا ما كان في بطنه ، ثم جاءوا بطست من ذهب قد ملئت إيماناً وحكمة

---

[1] سورة الشرح آية (١) .

فملئ بطنه وجوفه إيماناً وحكمه [١] .

وتكررت مرة رابعة لما جاوز النبي " ﷺ " الخمسين من عمره ، فعن مالك ابن صعصعة أن رسول الله " ﷺ " حدثهم عن ليلة أسري به ، قال : (بينما أنا في الحطيم ــ أو قال في الحجر ــ قال : فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب مملوء إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم أحشائي ،ثم أعيد ..) [٢] .

وقصة شق الصدر هذه تشير إلى تعهد الله ــ عز وجل ــ نبيه " ﷺ " منذ صغره ، وعلى امتداد عمره " ﷺ " وإبعاده عن مزالق الطبع ، ووساوس الشيطان ، وتلك حصانة حسية للرسول الكريم أضفاها الله عليه ، ليعيش طاهر الظاهر والباطن بتوفيق الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى ــ وقد شاءت إرادته ــ منذ الأزل ــ أن يكون محمد خاتم المرسلين ، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الأعلى، للإنسان السوي، الذي يسمو نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس .

ولما شب رسول الله " ﷺ " كانت مكة تعج بمختلف أنواع اللهو، والفساد والملاذ الشهوانية الدنسة .

كانت حانات الخمر منتشرة ، وبيوت الريبة وعليها علامات تعرف بها ، ووجود المغنيات ، والماجنات ، والراقصات ، من الأمور العادية الموجودة في ذلك المجتمع تتوجها عبادة الأصنام والأوثان .

وكان المجتمع المكي يومذاك يقر ذلك ، ويعتبره جزءاً من حياة الناس ..

والله سبحانه وتعالي برأ رسوله ، واختاره من أكرم معادن الإنسانية ، ثم اختاره لحمل أكمل رسالات السماء إلى أمم الأرض ، ولذلك أحاطه بكل أنواع الرعاية والحفظ .

---

(١) حجة الله على العالمين ص ٢٧٢ .

(٢) أخرجه مسلم ، وأحمد ج٣ ص ١٢١ ، والحاكم ج٢ ص ٦١٦ .

وأحاديث شق الصدر صحيحة بالسند ، أجمعت عليها سائر مؤلفات السيرة بلا مجال للشك في سندها .

وأحاديث شق الصدر مروية عن رسول الله " ﷺ " بعد مبعثه، فهي بذلك من الوحي المنزل على رسول الله " ﷺ " الذى لا ينطق عن الهوى أبداً .

ولا يصح لمسلم أن يشكك في هذه الروايات الصحيحة ، ويدعي أن محمداً قال بها، وهو طفل صغير لا يتحمل الرواية .

إن شق صدر النبي " ﷺ " كان لإخراج حظ النفس، والشيطان من قلبه ، لقد كان بوسع القدر الإلهي أن يضع في محمد ما يشاء الله له من فضل، وخير، بصورة معنوية ، غير مدركة بالحواس ، لكن الله أراد له هذه الصورة الحسية، ليشهد الناس على هذه العجيبة الخالدة التى جعلت من محمد إنساناً قوياً ، شجاعاً ، طاهراً ، نظيف الظاهر والباطن ... ولا نستطيع القول بأن حظ الشيطان مرتبط في النفس بجزء مادي أو غدة معينة ، لأن هذا مما يستحيل تحديده .

وكل ما يمكن الإشارة إليه أن شق صدر محمد " ﷺ " من عناية الله به ليترقى في الطهر ، ويسمو في السلوك ، ويعلو في روحانيته وشفافيته ، ويقترب في نورانيته من الروح ، والملأ الأعلي .

ومن العجب أن رأينا من ينكر حادثة شق الصدر من العلماء المسلمين ، فها هو الدكتور / محمود مراد يتحدث عن طفولة النبي " ﷺ " وشق صدره وغيرها من الإرهاصات فيقول : (يغلب ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع ، في قصص ساذجة لا تشبه ما ورد في النص من أحاديث محكمة عن عبد المطلب) [1] .

فشق الصدر في رأيه كلام ساذج يتضمن أعجوبة لا يتصورها الواقع ، ولا يسلم بها ، فهي عنده قصة مردودة .

---

[1] محمد رسول الله " ﷺ " للدكتور / محمود مراد ص ٤٦ .

والدكتور / محمد حسنين هيكل يرد حادثة شق الصدر بضعف السند، وبأن
محمد رواها وهو طفل صغير ، وبأنه لا حاجة إليها في إثبات الرسالة ، وبأن الإسلام
أقام دعوته على العقل الذى يتعارض مع تصور هذه الحادثة [١] .

والمنكرون لشق الصدر فريقان ، **فريق** ينكره إنكاراً تاماً ، ويبحث عن
مبررات تؤيد إنكاره ، فإن كان مسلماً يذهب إلى ضعف سند روايات شق الصدر
وعدم تحمل الصغير للرواية ، وإن لم يكن مسلماً لجأ إلى التحليل العقلي والواقع
التجريبي ليصل الجميع إلى إنكار وقوع شق الصدر ، ويرى هذا الفريق أن شق الصدر
ليس ضرورياً ، لأن الله قادر على إنفاذ ما يرى؛ بدون هذه التصورات المزعومة
وبخاصة أن حظ الشيطان في النفس لا يسكن في عضو ما ، وإنما هو يجرى في الجسد
كله مجرى الدم .

والفريق الثاني ينظر إلى حادثة شق الصدر ، ويري صحة الأحاديث
الواردة التي يؤكدها قوله تعالي : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ ﴾ فقد نزلت هذه
الآية لتأكيــــد شق الصدر كما يقول الإمام الخازن في تفسيره [٢] ، ولذا يبحث عن
مخرج لإنكاره بعدما سلم بصحة أحاديث شق الصدر .

رأى هذا الفريق صحة الأحاديث ، وعلم أنها كانت بعد البعثة، إذ تحدث به
" ﷺ " حين سئل عنها،فذهب إلى تأويل شق الصدر،بأنه يعنى التطهير المعنوي
لرســــول الله " ﷺ " .

إن حادثة شق الصدر وقعت بصورة حسية؛وتكررت مع رسول الله" ﷺ "
والروايات الصحيحة تؤكد ذلك ، فقد جاء فى بعضها : فشق من النحر إلى مراق
البطن .

---

[١] أنظر : حياة محمد ص ١٢٨ ـــ ١٢٩ بتصرف .

[٢] تفسير الخازن ج٧ ص ٢٦٢ ، وذكر الخازن أن الشق أحد معاني شرح الصدر .

وفي بعضها : إلى أسفل بطنه .

وجاء في إحداها : فشق جبريل ما بين نحره إلى لبته .

وفوق ذلك كله فأنس بن مالك ــ" ﷺ " يقول : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط ، في صدره [١] .

يقول الدكتور / محمد سعيد البوطي في رده على كلا الفريقين : رويت هذه الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة .

وليست الحكمة من هذه الحادثة ــ والله أعلم ــ استئصال غدة الشر في جسم رسول الله " ﷺ " إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم، أو علقة في بعض أنحائه لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هي إعلاء أمر الرسول " ﷺ " وتهيئته للعصمة، والوحي، منذ صغره بوسائل مادية ، ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به، وتصديقهم برسالته .

إنها إذاً عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ، ليكون ذلك الإعلان الإلهي ظاهراً بين أسماع الناس وأبصارهم ، وعلى مستوى تصوراتهم .

وأيا كانت الحكمة ، فلا ينبغي ــ وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً ــ محاولة البحث عن مخارج لصرف الحديث عن ظاهره، وحقيقته، والذهاب إلى التأويلات المعوجة البعيدة، المتكلفة ، ولن نجد مسوغاً لمن يحاول هذا ــ رغم ثبوت الخبر وصحته ــ إلا ضعف الإيمان بالله عز وجل .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية، وصحتها، فإذا ثبت ذلك ثبوتاً بيناً فلا مناص من قبوله، موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ دلالات اللغة العربية وأحكامها ، والأصل في الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل

---

[١] السيرة النبوية في الصحيحين ص ١٢٤ .

باحث وقارئ أن يصرف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات الخوارق [illegible]
بينها ما يروق له ، لانتفت قيمة اللغة ، وفقدت دلالاتها وتاه الناس في متاهات [illegible]

إن الدكتور / محمود مراد يصف رواية الإرهاصات بالسذاجة ويصف [illegible]
عبد المطلب بالإحكام ، مع أنه لا فرق بينهما في التركيب اللغوي ، أو الدلالات اللغوية
والمعنوية .. **لكنه الغرض والمرض ! !** .

وكلام الدكتور / هيكل مردود ، لصحة السند الذي جاء بشق الصدر على نحو
ما أوردته ، وقد قال الذي أحاديث شق الصدر وهو نبي مرسل - نحن مثل عنها ، وأيضا
فإن خوارق العادات جاءت للناس ليسلموا بما جاءهم به الرسول " ﷺ " ، ومن اليسير
أن يخلق الله في عباده التسليم والإيمان من غير معجزة أو خارقة للعادة ، ولكن [illegible]

ولو فرضنا أن هذه الخوارق لم تقع لرأينا من يطالب بها لتكون دليلا
على التصديق ، كما حدث من أهل مكة ، فلقد دعاهم النبي " ﷺ " بالقرآن الكريم
وبكافة المعجز الموجودة فيه ، إلا أنهم طالبوا بخوارق العادات ، يقول الله تعالى :

﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ
مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ
عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ
تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي
هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [2] .

إن إرهاصات النبوة لم تكن ليؤمن الناس بالإسلام ، فقد ظهرت قبل [illegible]
بزمن طويل ، ولم يبرزها الله للناس بعد مبعثه ليجعلها دليلا لهم ، وإنما جاءت [illegible]

---

(1) فقه السيرة للبوطي ص ٥٣ .

(2) سورة الإسراء الآيات (٩٠ — ٩٣) .

الإرهاصات تنبيهاً للعقلاء ، ليروا عجائب القدرة ؛ وليعلموا أن الله ضبط خلقه ، وله الأمر كله ، ولتبعث في عقولهم البحث عن أسرار ما يشاهدون .

بل الأمر في النهاية عقل ونبوة . وفكر بشرى ووحى إلهي ، والفرق بينهما بكثير .. والمؤمن يعطي كل جانب حقه .. أما غيره فإنه ينادى بسيادة العقل ، وليس له في تصور النبوة والوحي نصيب .

يقول ابن حجر : (إن جميع ما ورد في شق الصدر واستخراج القلب ، وغير ذلك مما يجب التسليم له ، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحية القدرة ، فلا يستحيل شئ من ذلك) [١] .

والبشرية كلها تعلم أن النبوات قائمة على خوارق العادات ، الخارجة عن مألوف العقول ، وطبائع الأشياء ، فمن آمن بالنبوة لزمه الإيمان بالخوارق ، ومن أنكر الخوارق أنكر النبوة من أساسها .. والله أعلم .

***

---

(١) فتح الباري جـ ١ ص ٥٢ .

المبحث السادس

محمد " ﷺ "

في مرحلة الصبا

عاد محمد " ﷺ " من ديار بني سعد بعدما بلغ خمس سنوات للمرة الثانية والأخيرة، وسرت أمه بقدومه ، وأخذت في توجيهه ، وتنشئته ، تساعدها أم أيمن ويعاونها جده عبد المطلب الذي رأى في محمد صورة ابنه عبد الله .

لاحظت آمنة أن محمداً يتمتع بقوة بدنية ، وعقلية ، تفوق أقرانه من الأطفال ورأت أن تذهب به لزيارة أخوال أبيه من بني عدى بن النجار ، وليعرف قبر أبيه الذى دفن في دارهم ، وليعلم أصوله من جهة أمه كما علمها من جهة أبيه ، وأخذته " ﷺ " ورحلت به على ناقتين لها، ومعهما أم أيمن ، ومكثت في المدينة شهراً كاملاً ، ليتمكن وليدها الصغير من التعرف بالمكان ، وأهله ، ويرى ما فيه من عادات ، وأديان ، وأعمال ، من خلال لعبه مع الصغار ، أو جلوسه مع الكبار .

وعند عودة آمنة من المدينة إلى مكة ماتت في الطريق عند الأبواء [1] ودفنت بها ... ورجعت القافلة مرة أخرى إلى مكة بلا آمنة، فاستقبلها عبد المطلب وضم حفيده إليه ، فكفل محمداً " ﷺ " ومعه حاضنته " أم أيمن " تخدمه .

وبقيت ذكريات رحلة المدينة مع رسول الله " ﷺ " طوال حياته لأنه " ﷺ " هاجر في الإسلام إلى المدينة المنورة بعد سبع وأربعين سنة، نظر إلى أطم [2] بني النجار وقال : (كنت ألاعب " أنيسة " (وهي جارية من الأنصار) على هذه الأطم وكنت مع الغلمان أبناء أخوالي نطير طائراً كان يقع علينا ، وأحسنت العوم في بئر بني عدى بن النجار ،وقال : وفي دار بني عدى نزلت مع امي،وفيها قبر أبي) [3]

---

[1] الأبواء : قرية صغيرة بين مكة والمدينة ، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً

[2] الأطم : الحصون ، ومفردها أطمة .

[3] الطبقات الكبرى ج١ ص ١١٦ .

إنها ذكريات باقية بصورها ، وحقيقتها ... وكان " ﷺ " يذكر حاضنته أم أيمن ويقول : (أم يمن أمي بعد أمي)[١] .

وقد زار النبي " ﷺ " بعد البعثة أيضاً قبر أمه فبكي ، وأبكي ، فلما سئل : ما يبكيك يا رسول الله ، قال : تذكرت رحمتها فبكيت[٢] .

وبموت آمنة فقد الرسول أبويه ، ووجد نفسه وحيداً ، فريداً ، حرم من الآباء والإخوة ، ولو كان غير محمد لأصابه الكثير ، إلا أن الرعاية الإلهية كانت معه " ﷺ " حيث قام عبد المطلب بكفالته بعد رجوعه إلى مكة مباشرة ، وخصه بعنايته واهتمامه ، وكان يرعاه أكثر من أبنائه .

كما أحاطته أم أيمن " رضي الله عنها " بالرعاية والخدمة ، وكانت تخاف عليه من أي أذى يلحق به ، وبخاصة أنها رأت من يهود المدينة ما جعلها تخاف عليه منهم ، تقول " رضي الله عنها " : (وكان قوم من اليهود يختلفون إليه ، وينظرون ويتفرسون فيه ، تقول أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة ، وهذه دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم)[٣] ، وبقيت هذه الحادثة في ذاكرتها ولذلك نراها بعد عودتها إلى مكة ، تذهب به إلى جده عبد المطلب ليكفله، فكفله مرحباً به، وقربه منه ، ولما قارب أجله ، وصى ابنه " أبا طالب " ليكفله من بعده ، وهكذا عاش " ﷺ " مع جده ، ومن بعده مع عمه، مكرماً ، معززاً .

عناية عبد المطلب بحفيده :

عاد محمد " ﷺ " وحيداً إلى جده ، فضمه إليه ، وقربه من نفسه ، ورق عليه رقة لم يرقها أحد من ولده ، وكان يتفقده إذا خلا ، وإذا نام .

قال قوم من بني مدلج لعبد المطلب : احتفظ بابنك هذا فإن له شأناً ، وإنا لم

---

[١] طبقات الكبرى ج١ ص ٢٢٦ .

[٢] المرجع السابق ج١ ص ٢٢٧ .

[٣] المرجع السابق ج١ ص ٢٢٨ .

... قدماً أشبه بقدم إبراهيم الذي في المقام منه ، فسر كثيراً ، وأن بولده أبي طالب وقال له : إسمع ما يقول هؤلاء ، فسمع منهم ، واحتفظ بما سمع إقراراً بضرورة الاهتمام بمحمد " ﷺ " .

وجاء عبد المطلب لحاضنته " أم أيمن " وكان اسمها " بركة " وقال لها : يا بركة لا تغفلي عن ابني هذا ، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وأن أهل الكتاب يرون أن له شأناً .

وقد عمد عبد المطلب أن ينشئ حفيده منشأ الرجال الكبار : يقول ابن إسحاق : (وكان رسول الله " ﷺ " مع جده عبد المطلب بن هاشم ، وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، يقول ابن إسحاق : فكان رسول الله " ﷺ " يأتي ، وهو غلام جفر ، يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، ليؤخروه عنه فيقول لهم عبد المطلب حين رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فو الله إن له لشأناً ، ثم يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع)[1] .

ويبدو أن هذه الواقعة تكررت مع غير أبناء عبد المطلب ، فلقد روى ابن جريج : قال : (كنا مع عطاء ، فقال : سمعت ابن عباس يقول : سمعت أبي يقول : كان عبد المطلب أطول الناس قامة ، وأحسنهم وجهاً ، ما رآه أحد قط إلا أحبه ، وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس عليه معه أحد ، وكان الأنداد من قريش ، حرب بن أمية فمن دونه ، يجلسون حوله دون المفرش ، فجاء رسول الله " ﷺ " وهو غلام لم يبلغ ، فجلس على المفرش ، فجبذه رجل فبكى ، فقال عبد المطلب ، وذلك بعد ما كف بصره : ما لابني يبكي ؟

قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه .

---

[1] الروض الأنف جـ١ ص١٩٥ .

فقـال : دعوا ابني يجلس عليه ، فإنه يحس من نفسه شرفاً ، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده [1].

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا ناداه ليأكل معه ، ويقول لمن حوله : علي بابني ، فيؤتى إليه ، ويأكل معه .

ويروى عن كندير بن سعيد عن أبيه قال : حججت في الجاهلية ، فإذا رجل يطوف بالبيت ، ويرتجز ، ويقول : ـــ

يارب رد لي راكبي محمداً   يارب رده واصطنع عندي يدا

فقلت : من هذا .

قالوا : هذا عبد المطلب ، ذهبت إبل له ، فأرسل ابن ابنه محمد في طلبها ، ولم يرسله في حاجة قط إلا جاء بها ، وقد احتبس عليه هذه المرة ... يقول الراوي : فما برحت حتى انظر ما يحدث ، فلما جاء محمد " ﷺ " بالإبل ، قال له جده : يابني لقد حزنت عليك حزنا ، لا تفارقني أبداً [2] .

وكان هذا الاهتمام بمحمد هو شأن عبد المطلب منذ مولد رسول الله ، حتى عـرف ذلك عنه ، ولذلك حينما افتقدته حليمة السعدية مرة ، لم تجد سوى جده ، فأتت إليه ، وأخبرته بضياعه ليبحث عنه ..

يقـول ابن إسحاق : (إن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس ، وهـي مقبـلة به نحو أهله،فالتمسته فلم تجده ، فأتت عبد المطلب، فقالت له:إني قد قدمت بمحمد هذه الليلة،فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، فو الله ما أدري أين هو ؟ ! فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، يقول ابن إسحاق: وجده ورقة بن نوفـل بن أسد ، ورجل آخر من قريش، فأتيا به عبد المطلب ، فقالا له : هذا ابنك

---

(1) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٦ .

(2) سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٤ .

وجدناه بأعلى مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فحمله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوذه ، ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة)[1] .

ولمـــا شعر عبد المطلب بدنو أجله ، وصى ابنه أبا طالب بكفالته[2] فكفله عمه أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب ، **وعمر النبي " ﷺ " ثماني سنوات** ، وقد اشترك في دفن جده ، وسار خلفه وهو يبكي ، وقد دفن عبد المطلب بالحجون[3] .

يقـــول ابـــن سعد : (ومات عبد المطلب فدفن بالحجون ؛ وهو يومئذ ابن اثنتين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين .

وسئل رسول الله " ﷺ " : أتذكر موت عبد المطلب ؟

قال : نعم أنا يومئذ ابن ثماني سنين .

قالت أم أيمن : رأيت رسول الله " ﷺ " يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب)[4] .

عناية أبي طالب بابن أخيه :

عـــاش النبي " ﷺ " في كفالة عمه أبي طالب ، تحيطه رعاية الله الذي حفظه من ذل اليتم ، وضرر الفقر .

وتهيـــئة أبي طالب لكفالة محمد قدر إلهي خالص ، لأن أبا طالب كان كثير العيال ، فقير الحال ، وكان الطعام يقدم لأولاده ، فيتطاولون عليه لقلته ، وكان الفقر بـــاد عليهم ، يقول السهيلي : كانوا يصبحون غمصًا ، رمصًا ، مصفرة ألوانهم من الجوع .

ومع هذا الحال فإن أبا طالب أهتم بوصية أبيه ، وضم محمدًا لأبنائه ، وخصه بالرعاية والتوجيه ، وكان يجالسه ، ويناقشه .

...

[1] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ١٦٧.

[2] البداية والنهاية ج٢ ص ٢٨٢ .

[3] سير أعلام النبلاء ج١ ص ٥٦ .

[4] اختار عبد المطلب ولده أبا طالب ووصاه بمحمد دون بنيه ، لأن أبا طالب هو الشقيق لعبد الله من الأب والأم فأمهما فاطمة بنت عمرو بن عائذ من بني مخزوم ، وكان جميع أبناء عبد المطلب يهتمون بمحمد " ﷺ " .

ومن رعاية الله لمحمد " ﷺ " وهو في بيت أبي طالب أنه كان إذا وضع الطعام لأولاد أبي طالب سيعودون إليه ، ويتقاصر هو ، وتمتد أيديهم ، وتنقص يده تكرماً ، واستحياء ، وقناعة ، ومع ذلك يصبح صقيلاً ، دهيناً ، كأنه في أنعم عيش ، وأعز كفاية . لطفاً من الله عز وجل .

رأى محمد رغم صغره حاجة عمه أبي طالب للمال ، فأخذ على عاتقه أن يعمل ، ويكتسب شيئاً يعين به عمه .

وأراد الله لمحمد " ﷺ " أن يخرج إلى الناس ، ويختلط بهم ، ويتعامل معهم . في سنه ، وبعيداً عنها .. لينال أهلية الرسالة بصورة عملية ، تطبيقية .

إن التربية العملية لها دور رئيسي في بروز الشخصية السوية ، وكلما اختلط الصغير بالناس اكتسب خبرة ، ومعرفة .. وكلما سافر ، ورحل عرف المزيد .

لهذا نرى ـ والله أعلم ـ أن الله هيأ لحبيبه محمد " ﷺ " مجالاً رحباً لهذه التنشئة ..

لقد عاش في بادية بني سعد خمس سنوات ، اختلط بالناس وقام بالعمل والنشاط تقول حليمة : (بينما هو " ﷺ " يلعب وأخوه خلف البيوت يرعيان بهماً لنا)[1] .. ورحل إلى المدينة برفقة أمه في رحلتها التي ماتت فيها .. وأقام بالمدينة شهراً . وفي كفالة جده اختلط بحكماء مكة ، ورجالاتها ..

ومع عمه أبي طالب رأى حنان الأب ، واهتمامه ، حيث كان يصطحبه معه أينما ذهب . وكان يحبه حباً شديداً ، لا يتركه ينام إلا بجواره ، ولا يخرج إلا في معيته ، ولا يطعم أبناءه إلا وهو معهم .

وكان عمه لا يطمئن عليه إلا وهو معه ، ولذلك كانت ملازمته له دائمة ومستمرة .

---

[1] سمط النجوم العوالي ج١ ص ٢٥١ .

وهيأ الله لمحمد " ﷺ " أسباب الاتصال بالناس ، والالتقاء بهم ، مع أصحاب المذاهب ، والاتجاهات ، والعادات ، فقام بأعمال عديدة ذكرها مؤرخو السيرة ومنها ما يلي : ـــ

« أولاً »

الرحلة الأولى إلى الشام

وقصة بحيرى الراهب

أراد أبو طالب أن يسير في ركب الشام للتجارة ، فلما عزم على السفر تعلق به محمد " ﷺ " قائلاً له : أي عم إلى من تخلفني ها هنا ؟ فرق له قلب عمه ، وأخذه معه ، وأردفه خلفه على بعيره ، واتجهوا صوب الشام مع القافلة .

وكان للنصارى عدد من الأديرة في الطريق ـ يسكنها الرهبان المنقطعون للعبادة ، وهم الذين يعلمون ما بقي من دين عيسى " عليه السلام " ـ ويبدوا أن هؤلاء الرهبان كانوا على علم بأوصاف النبي المنتظر ، ﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [١] وكما يقول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [٢]

لقد وصلت هذه المعرفة لديهم أن علموا ضرورة أن يكون النبي يتيماً ، وأن يكون موسوماً بخاتم النبوة ، وأن خوارق الطبيعة تحيط به ، وكانوا يعلمون أن هذا النبي سيلقى كراهية اليهود لأنهم يرغبون في أن تكون النبوة لهم ، ومنهم .

ويبدوا أن هذه المسألة كانت معلومة لعديد من الرهبان والقسس ، لأن ركب أبي طالب ومحمد نزل أولاً في دير قريب بشمال الحجاز ، فالتقوا مع صاحبه فنظر صاحب الدير لمحمد ، وقال لأبي طالب : **ما هذا الغلام منك ؟**

---

[١] سورة الأعراف آية (١٥٧) .

[٢] سورة البقرة آية (١٤٦) .

فقال أبو طالب : هو ابني .

فقال الراهب : ما هو ابنك ، وما ينبغي أن يكون له أب حي .

قال أبو طالب : ولم ؟

قال الراهب : لأن وجهه وجه نبي ، وعينه عين نبي .

فقال أبو طالب : وما النبي ؟

فقال له الراهب : الذي يوحي إليه من السماء فينبئ أهل الأرض ، فاتق عليه من اليهود .

لقد كانت هذه الأديرة أماكن يستريح بجوارها المارة ، الذاهبون إلى الشام ، أو العائدون منها ، ففيها من أسباب الحياة ما يشجع على الراحة عندها .

وكان أبو طالب يسمع من راهب الدير الذي ينزل عنده ما سمعه من غيره ، فقال للنبي " ﷺ " : يا ابن أخي ، ألا تسمع ما يقولون ؟

فقال له محمد : أي عم لا تنكر لله قدرة ! !

وكانت الوقفة الكبرى حين بلغ الركب مدينة بصرى ، فنزل الجميع وجلسوا تحت شجرة قريبة من دير " بحيرى " .

يقول ابن إسحاق : (فلما نزل الركب أرض الشام ، وبها راهب يقال له : بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قط راهب ، إليه يصير علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كابراً عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببحيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك ، فلا يكلمهم ، ولا يعرض لهم ، حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً ، وذلك عن شيء رآه ، يذكرون أنه رأى رسول الله " ﷺ " وهو في صومعته في الركب حين أقبلوا ، وغمامة تظله من بين القوم ، تتحرك بحركته ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرة قريباً من بحيرى ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت أغصان الشجرة على رسول الله " ﷺ " حتى استظل تحتها .

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، وقد أمر بالطعام فصنع . ثم أرسل إليهم

فقال : إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش،وأحب أن تحضروا كلكم، صغيركم

وكبيركم ، وعبدكم وحركم .

فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا بنا

وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟ !

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف . وقد أحببت أن

أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله " ﷺ " من بين القوم ، لحداثة سنه ، فبقي في رحال

القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف،ويجدها عنده

فقال : يا معشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي .

قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث

القوم سناً . فتخلف في الرحال .

فقال : لا تفعلوا ، ادعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللات والعزي ، أن كان للؤم بنا أن يتخلف ابن

عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضنه ، وأحضره ،وأجلسه

مع القوم .

فلما رآه بحيرى ، جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من جسده ، وقد كان

يجدها عنده من صفته ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ،

فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزي إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنما

قال له بحيرى ذلك وحلف باللات والعزى، لأنه سمع قومه يحلفون بهما .

فقال له رسول الله " ﷺ " : لا تسألني باللات والعزي شيئاً ، فو الله ما أبغضت شيئاً

قط بغضهما .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .

فقال له : سلني عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله من قومه، وهيئته، وأموره، فجعل رسول الله " ﷺ "

يخبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم النبوة

بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ ، أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا

الغلام منك ؟

قال : ابني .

قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً .

قال : فإنه ابن أخي .

قال : فما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حبلى به .

قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فو الله لئن رأوه ،

وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ؛ فأسرع به

إلى بلاده)[1] .

وقد أورد الإمام الترمذى هذه الحادثة وزاد فيه، حين سأله أشياخ من قريش

عن سبب ما فعل قال لهم : إنكم حين أشرفتم من العقبة لم يبق شجر ولا حجر إلا

خر ساجداً، ولا يسجدان إلا لنبي ، وإني أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه

مثل التفاحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهم به وكان هو في رعي الإبل قال :

أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء

الشجرة ، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه .

---

(١) سيرة النبي " ﷺ " ج١ ص ، يقول البيهقي هذه القصة مشهورة عند أهل المغازي ، ويقول ابن حجر : رواتها ثقات .

فقال : انظروا إلى فئ الشجرة مال عليه ؛ وبينما هو قائم عليهم يناشدهم أن لا يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه ، فالتفت فإذا بسبعة قد أقبلوا من الروم فاستقبلهم فقال : ما جاء بكم ؟

قالوا : جئنا هذا النبي الذي أظلنا زمانه ، فلم يبق طريق إلا بعث إليه بأناس منا ، وإنا قد بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

قالوا : إنما اخترنا خيرتنا لك ، لطريقك هذا .

قال : أفرأيتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟

قالوا : لا .

فلما رد الرومان قال لأبي طالب ومن معه : أنشدكم الله أيكم وليه ؟

قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب) [١] .

ويبدو أنها حادثة أخرى ، لأن رواية ابن إسحاق كان التحذير من اليهود والتحذير في هذه الحادثة كان من الروم ، وأيضاً فإن الحادثة الأولى حدثت مع الراهب وهو بحيرى ، بينما هذه الحادثة لم تذكر اسماً معيناً .

وخلاصة هذه المرويات تثبت هذه الرحلة لرسول الله " ﷺ " ومضامين لعلمه ومعرفة أهل الكتاب بقرب مبعثه وكراهيتهم لعروبة هذا النبي المبعوث الذي تمنوه منهم يقول الله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [٢] .

---

[١] الجامع الصحيح سنن الترمذي ج٥ ص ٥٩٠ .

[٢] سورة البقرة آية (٨٩) .

وقد روى الهيثمي عدداً من الآثار تشهد على علم أهل الكتاب بأمر سيدنا محمد " ﷺ " ، وهذا تأكيد لما جاء في القرآن الكريم .

يروي سلمة ابن سلامة بن وقش ، وكان من أصحاب بدر ، قال : كان لنا جار من اليهود في بني عبد الأشهل،فخرج علينا يوماً من بيته، قبل مبعث النبي " ﷺ " بيسير ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً ، على بردة مضطجع فيها فناء أهلي فذكر البعث ، والقيامة ، والحساب ، والميزان ، والجنة ، والنار .

قال ذلك لقوم أهل أوثان وأصحاب شرك ، لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت .

فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم ، إلى دار فيها جنة ونار ، يجزون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذي يحلف به ، لود أن له بدل تلك النار أعظم تنور في الدنيا يحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه ، وإنه ينجو من تلك النار غداً .

قالوا : ويحك وما آية ذلك ؟

قال : نبي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن .

قالوا : ومتى نراه ؟

فنظر إلي وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفد هذا الغلام عمره يدركه .

قال سلمة : فو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى نبيه " ﷺ " وهو حي بين أظهرنا ، فآمنا به ، وكفر به بغياً وحسداً ، فقلنا له ، ويلك يا فلان ألست قلت لنا فيه ما قلت ؟

قال : بلى وليس به أؤمن)[١] .

وكان عمر رسول الله " ﷺ " يوم أن سافر مع عمه اثني عشرة سنة[٢] ...

---

(١) مصدر سابق : الهيثمي مجمع الزوائد ج٨ ص ٤٢١ .

(٢) … ج١ ص ٦٦ .

الأمر الذى مكنه من استيعاب كل ما رأى ، وما سمع ؛ مما جعل الرحلة تربية عملية واستفادة تجريبية من المعاشرة والاختلاط ، والنظر ، والتحليل ، والفهم ، والتدبر .

في هذه الرحلة وقعت عينا محمد على فسحة الصحراء الممتدة الواسعة وتعلقتا بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة ، وجعل يمر بمدين ، ووادى القرى وديار ثمود ، وتستمع أذناه إلى حديث العرب ، وأهل البادية ، وأخذ يتأمل هذه المنازل ، وأخبارها ، وماضى شئها .

وفي هذه الرحلة وقف في بلاد الشام عند الحدائق الغناء ، وعرف أخبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم ، وعن مناوأة الفرس (عباد النار) لهم ، وانتظارهم الوقيعة بهم .

لقد كان له " ﷺ "من عظمة الروح ، وذكاء القلب ، ورجحان العقل ودقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، وغير ذلك من صفات حباه القدر بها ما مكنه من معرفة الواقع الحياتى لكل من قابله؛ تمهيداً للرسالة العظيمة التي أعده الله لها ؛ الأمر الذى جعله ينظر إلى ما حوله نظرة الفاحص المحقق ، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى ، فيرجع إلى نفسه يسائلها : أين الحق من ذلك كله ؟ .

ويبدو أن أبا طالب لم يستفد من رحلته مالاً كثيراً ، فعاد إلى مكة ، ولم يرجع لمثلها بعد ذلك ، وبقى في مكة ؛ يقنع بالقليل ينفقه على أبنائه الكثيري العدد .

***

ـ ثانيا ـ

رعي الغنم

عاد النبي " ﷺ " إلى مكة ، ورأى قلة مال عمه ، وكثرة أولاده ، فرغب في مساعدته ، وهداه الله للعمل بأجرة لأهل مكة . فرعى لهم غنمهم .

عن أبي هريرة " ﷺ " أنه قال : (قال رسول الله " ﷺ " : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟

قال : نعم ، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة)[١] .

والقراريط عملة فضية تمثل جزءاً من الدينار ، أو الدرهم .. ومن قال إنها جزء من الأرض فقد وهم ، لأن قراريط الأرض لم يعرف إلا في مصر .

عن أبي سعيد الخدري قال : (افتخر أهل الإبل والشاة ، فقال رسول الله " ﷺ " : بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعثت وأنا راعي غنم ، أرعاها لأهلي بأجياد)[٢] .

وعن جابر بن عبد الله " ﷺ " قال : (كنا مع النبي " ﷺ " بمر الظهران ، ونحن نجني الكباث ، فقال النبي " ﷺ " عليكم بالأسود منه ، فإني كنت أجنيه إذ كنت أرعى الغنم ، فقلنا يا رسول الله : كأنك رعيت الغنم ، قال : نعم ، وهل من نبي إلا وقد رعاها ! !)[٣] .

ومن المعلوم أن محمداً " ﷺ " رعى الغنم لحليمة مع غلام لها . كما سبق في حديث شق الصدر ، حتى جاءه الملكان وشقا صدره .

وللمرء أن يتساءل ,وما الحكمة في رعي الغنم؟حتى يقدرها الله لأنبيائه جميعاً ؟ ..

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري ، كتاب الإجارة ــ باب رعي الغنم على قراريط ج٤ ص ٤٤١ .

(٢) [illegible] ج٣ ص ٤٢ ، وفتح الباري ج٤ ص ٤٤١ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ــ كتاب الأشربة ــ باب فضيلة الأسود من الكباث ج ٤ ص [illegible] والكباث : [illegible] النضيج .

أرى — والله أعلم — أن الحكمة في رعي الغنم هي تربية الأنبياء على ما سيكونون عليه حين تكليفهم بالنبوة ، وليتعلموا حسن التعامل مع الناس ،

وأهم هذه الفوائد ما يلي : —

١ ـ التعود على المسئولية :

إن ثقل التكليف يحتاج إلى طاقات بشرية تتحمله ـ والنبوة تكليف شاق لأنها تعني إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإنقاذ البشر من ضلالات الهوى ليسعدوا بنور الإيمان ، وبرد اليقين ، إن النبوة قمة الأمانة ، والمسئولية ، وحاجة الرسول يتحمل مشاقها ، ومصاعبها ضرورة لابد منها .

ورعي الغنم عمل شاق، يكفي في تصور مشقته أن الراعي يعيش في الفلاة ومتحركاً طوال الوقت، حيث تسرح الغنم، وتمرح، وهذه أعمال في حد ذاتها تحتاج إلى قوة ، وطاقة ، ولذلك كان رعي الغنم مقدمة للنبوة لما فيهما معاً من مشقة وتعب .

٢ ـ تعليم الصبر والتحمل :

تحتاج النبوة إلى التخلق بالخلق الكريم ، والاتصاف بالحلم والصبر ، وذلك أمر يحققه رعي الغنم، لأن القطيع يرعى وهو مطلق السراح ، فيتوزع هنا وهناك وكلما تجمعه الراعي يعود من حيث أتى ، وذلك أمر يحتاج إلى الصبر ، والتحمل وبدون ذلك لا يمكن لراعي رعي الغنم ..

ومن رعي الغنم إذاً تعلم الأنبياء الصبر والتحمل في دعوة الناس ، لأن المدعوين ليسوا على اتجاه واحد ، وإنما لكل اتجاهه ، ومذهبه ، وحاله ، والنبي مسئول عن تبليغ الدعوة للناس على الوجه الصحيح، ولذلك وجب أن يكون صابراً حليماً .

يقول ابن حجر : (إن مخالطة الغنم تحقق الحلم، والشفقة ، لأن النبي إذا صبر على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع عدوها من سبع ، وسارق وغير ذلك: ألف من ذلك الصبر على الأمة ، و

اختلاف الطبع ، وتفاوت العقول ، ويكون تحمله لمشقة ذلك أسهل بعد تدربه عليه)[1] .

٣ ـ شمول الرعاية :

راعي الغنم تحتاج إلى سعة الأفق وهو يدير أمر غنمه ، لتعدد جوانب الرعاية التي تحتاج إليها ، ففيها الصغير المحتاج للرضاعة ، وفيها الذكر ، وفيها الأنثى ـ كما أنها تحتاج دائما إلى البحث عن مصادر أكلها ، وغذائها ، ولا بد لها من حراسة تحميها من الذئاب واللصوص ، ومن الضروري المحافظة عليها من شدة الحر ، وقسوة البرد ، وكثيرا ما تمسها الآلام والأوجاع ، وعلى الراعي متابعة ذلك ، ومن مسئوليات الراعي تدبير أمر مبيتها في الخلاء ، أو في البناء .

إنها مسئوليات عديدة ، لا يصلح لها ضيق الأفق ، العاجز عن حمايتها ، وإعداد كافة الجوانب التي تحتاج إليها .

ولذلك كان رعي الغنم تدريباً عملياً على مباشرة أعمال النبوة لتعدد المسئوليات النبوية ، فعلى النبي أن يعلم حدود ما كلف به ، ويحس فهم من يدعوهم ، ولغة من سيخاطبهم ، حتى إذا سئل أجاب ، وإن عورض رد ، وإن واجه عدوا قاومه بالحسنى .. كل ذلك في قوالب عديدة ، وصور كثيرة .

إن تعدد المسئولية في رعي الغنم باب يعلم النبي ضرورة قيامه بالأمر والدعوة إليه بصورة كاملة ، تامة ، شاملة .

٤ ـ التسوية والعدل بين الناس :

تحتاج النبي إلى تبليغ الدعوة لسائر الناس على وجه يتناسب مع كل واحد منهم ، لا يقدم واحداً ، ويترك غيره ، ولا يهتم بغني على حساب فقير ، ولا يتصور أن الخير في هذا أو في ذاك فيفضله على غيره .

---

(١) فتح الباري ج٤ ص ٤٤١ .

ورعـــي الغنم يحقق هذا الخلق ، لأن الراعي عليه أن يرفق بالضعيف ويرفق بعناته ، فلو ولدت نعجة في الطريق فعليه حمل المولود بيده ، وبذلك نراه يتحرك بالقطيع ليكون في عون الضعفاء ، ويراعي الأقوياء .

٥ ـ تعليم التواضع :

إن قيام الأنبياء برعي الغنم يعودهم التواضع ، وترك الكبر . لأن رعاية الغنم والحرص عليها يحتاج إلى العمل الدءوب بعيداً عن الخيلاء ؛ حيث لا فخر بعمل كله تعـــب ، ومشـــقة تحت حر الشمس ، أو في برد الشتاء ، والنبوة في حاجة إلى هذا التواضـــع الـــذي يجعل الأنبياء يتعاملون بالخلق الكريم مع كافة الناس . مع الرجال والنســـاء ، مع الأغنياء والفقراء ، مع الكبير والصغير . مع العظيم والحقير ، وبذلك كانوا أمثلة عليا ، وقدوة سامية .

وفي ذكر النبي " ﷺ " بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله أنه رعى الغنم دليل على عظيم تواضعه ، واعترافه بفضل ما من الله عليه به .

٦ ـ التعامل مع الناس :

يقتني الغنم عديد من الناس ، ورعاتها كثيرون ، وكل راع يجد نفسه يتعامل بالضرورة مع كثير من أقرانه الرعاة ، حيث يجلسون في وقت الراحة ، ويتسامرون ويتناقشـــون ، وفي ذلك فرصة للأنبياء يتعرفون بها على الناس ، ثم دعوتهم بعد ذلك بما يناسبهم ، ويفيدهم .

٧ ـ الشجاعة :

الراعي يعمل على حماية غنمه من الذئاب واللصوص ، وغيرها ؛ وهو لذلك يحـــتاج إلى شـــجاعة تعيـــنه على هذه الحماية ليلاً ، ونهاراً ، والأنبياء وهم يقومون بـــالدعوة يتصدى لهم الأعداء من شياطين الأنس والجن ، وهم يحتاجون للشجاعة والجرأة ، حتى يمكنهم القيام بواجب الدعوة .

٨ ـ التأمل والتفكير :

وراعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار ، وفي تلألؤ النجوم إذا جن الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم ، يبتغي أن يرى ما وراءها ، ويلتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وخلقه .

أليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه لمات ! ..

أليس تحييه أشعة الشمس ، ويغمره ضياء القمر ، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعا ؟ ! ..

هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه ، متصلاً بعضها ببعض في نظام محكم ، ﴿ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ﴾ ! !

وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضي انتباهه ويقظته حتى لا يعدو الذئب على شاة منها ، وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية . فأي انتباه وأية قوة تحافظ على نظام العالم كله مع إحكامه الموجود ! ! ..

إن رعي الغنم مدرسة تحتاج إلى قوة البدن ، وقوة العزيمة ، والهدوء والأناة ، مع الصدق والإخلاص ، وقصد الاستفادة ، والتعلم .

وقـد جعـل الله رسله رعاة للغنم ليتعلموا منها الكثير ، في إطار معونة الله ورعايته لهم .

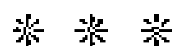
ولكن :

لم كانت الفوائد في رعي الغنم خاصة دون سائر الأنعام كالإبل ، والبقر وغيرها ؟ ..

وأرى أن السـر في اختيـار الغنم لذلك ــ والله أعلم ــ ، كثرة عددها ، وسـرعة حركـتها ، وسهولة تفرقها ، لعدم ربطها أو تقييدها ، أما الإبل ، والبقر ، والخيل ، فعددها قليل وربطها وتقييدها بالحبال أمر عادي ، وكأن الله تعالى يعلم رسله " عليهم السلام " حسن التعامل مع الناس ، وهم أحرار .

وأيضـــا فـــإن السيطرة على الغنم المتفرقة سهل ، وانقيادها للراعي لا يحتاج لجهـــد كـــبير ؛ لأنها بنداء واحد أو بإشارة بالعصا تعود لمكانها، أما البقر والخيل والإبل فلا .

ومن هنا كان اختيار الغنم يرعاها الأنبياء ليتعلموا قيادة أشتات من البشر ومخاطـــبة العديد من العقول ، والتفاهم مع كافة لغات، ولهجات المدعوين حتى يستجيبون للحق ، ويؤمنون به .

وهكذا رعى النبي "  " الغنم في مكة ..

* * *

- ثالثا -

حرب الفجار

الإجــارة عـــند العرب عهد لا يمكن الفكاك منه ، وهو وعد يعطيه العربي للضعيف يلجأ إليه ، ويلتزم بإنفاذه له ، وكان الضعفاء، أو المحتاجون يلجأون إلى من بيده قوة للحماية، والنصرة فيجيرهم ، ويعلن ذلك للناس ، وبعدها تلتزم قبيلته معه في إنفاذ ما وعد به مهما كلفهم ذلك ، وبخاصة إذا كان من المقدمين فيهم .

وقد تقع الحرب بين القبائل بسبب هذه الحماية،وكثيراً ما وقعت.

وحروب العرب هي أيامهم التي كانوا يتواعدون عليها ، وكثيرا ما حضرها قريبة من البيت مع أوقات أسواقهم وتجاراتهم .

ومــن أشهر أيام العرب التي وقعت بسبب الإجارة حرب الفجار (بكسر الفــاء وفــتح الجيم الممدودة) التي هاجت بين العرب ، واستمرت خمسة أعوام ، واشترك فيها محمد " ﷺ " وعمره خمسة عشر عاماً .

وســـبب وقوعها أن النعمان بن المنذر أتى مكة بإبل تحمل الحرير والعطر ، ويسميها العرب "لطيمة" ، أتى بها ليبعها في سوق عكاظ ، فلما نزلت عنـــد بـــئر "أوارة " أراد الـــبراض بن قيس ، وكان صعلوكاً ، خليعاً ، أن يستولي على اللطيمة لضــعف صـــاحبها المنذري ، وبعد قومه عن مكة ، فاستجار النعمان بــ " عروة الرحال بن ربيعة " ليقوي ضعفه ، ويصد عنه عدوان كنانة ، فأجار عروة اللطيمة ، وأصبح العدوان عليها عدواناً على عروة ، وقبيلته .

فجـــاء الـــبراض بن قيس أحد بني ضمرة يعاتب عروة ، ويقول له : أتجير اللطيمة على كنانة ؟ ! !

فقال عروة : نعم ، وأجيرهم على الخلق كلهم .

وأدت هـــذه المواجهـــة الساخنة بين الرجلين إلى أن خرج عروة الرحال في سيره فتبعه البراض بن قيس ، يطلب غفلته لينال منه ، حتى إذا وصلا إلى " تيمن ذي

ظـــلال " وهـــو واد بعالية نجد [1] قتل عروة ، وهو ابن ربيعة بن جعفر بن كلاب فوثـــب عليـــه البراض ، وقتله في شهر شوال، وهو من الأشهر الحرم ، وتعرف هذه الحرب بـــ " **فجار البراض** " .

أدى مقـــتل عـــروة إلى قيام حرب الفجار (بكسر الفاء ، وفتح الجيم) وسماها العرب بهذا الاسم بسبب وقوعها في الأشهر الحرم ، لأنهم لما تقاتلوا لم يأبهوا بحـــرمة الأيـــام ، ولا بحرمة المكان وقالوا : قد فجرنا وارتكبنا ذنبا عظيما ، ولذلك سميت الحرب بهذا الاسم [3] .

وقيل إنما سميت بذلك لأن كلا الطرفين استحلا من المحارم بينهم ما لم يكن يقع في أيام العرب الأخرى [4] .

وقد جاء خبر مقتل عروة إلى قريش، وهي بعكاظ فتركت السوق ، ورحلت حيث عروة،وهوازن لا تشعر،وانفض السوق و لم يقم بعكاظ سوق هذا العام .

علمـــت هوازن بعد ذلك أن قريشا ذهبت تبتغي ذي ظلال ، فاتبعتها وراءها راجعة إلى مكة ، وأدركتها قبل أن تدخل الحرم ، فاقتتلوا حتى جاء الليل .

فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن فوقفت الحرب ، ولكنهم تواعدوا على اللقاء في عكاظ من العام القادم حيث كان يوم شمطة ، وقد استمرت أيامهم بعد ذلك مدة طويلة .

وانـــتظم الفريقان خلال اقتتالهما تحت قيادة واحدة لكل فريق ، حيث كان لكل بطن من قريش، وكنانة رئيس منهم ، ولكل قبيلة من قيس رئيس منهم ، وعلى القبائل جميعاً عند كل طرف رئيس واحد ، وهذا التنظيم يلتزم كل فرد بما يوجبه عليه العرف القبلي ، حفاظاً على وضع القبيلة ، وحماية لها من الذل والهوان .

---

(1) معجم البلدان ج٣ ص ٦٨ ، وقيل ذي ظلال : اسم بلد الموجودة بين ... ، ... من ... البلد .

(2) انظر : لسان العرب ـــ مادة فجر ج٦ ص ٣٥٤ ـــ ط . الدار المصرية للتأليف .

(3) الروض الأنف ج١ ص ٢١١ .

(4) سيرة ابن هشام ج١ ص ١٨٦

ولذلك اشترك أبناء عبد المطلب محمداً " ﷺ " معهم في حرب الفجار ، وكانت هذه المشاركة تجربة عملية ، عاشها مع أعمامه ، وأقرانه من غير أن يكون منه عدوان أو ظلم ، وبخاصة إذا علمنا أن أيام العرب كانت نادرة الدم ، فهي عبارة عن تدريب ويقظة ، وحراسة مستمرة ، ومواجهة يشتغل بها أبناء القبيلة جميعاً ، حتى لا يتركوا غفلة لخصومهم ، وكانوا يحددون لحروبهم أياماً يتقابلون فيها في مكان معين ، وفي موعد معين وكأنها مباراة دورية ، ومبارزة تنتهي بانتصار طرف ، وانسحاب الفريق المنهزم ، وبعدها يحددون موعداً جديداً في مكان يتفقون عليه ، وأغلب أيام الفجار كانت في عكاظ .

يدل على ندرة الدم في أيام العرب أن هوازن حين عرض الصلح عليها ، أخذت أربعين رجلاً من قريش رهينة لديها حتى تأخذ دية قتلاها ، الذين بلغوا هذا العدد طوال أيام الفجار التي استمرت خمسة أعوام .

إن حرباً تقع بين قريش وكنانة بقبائلهما ، وبطونهما .. وبين هوازن بكل ما تشتمل عليه ، وتستمر خمسة أعوام ، ويقتل من هوازن أربعون رجلاً ويقتل من قريش عشرون رجلاً فقط ، لدليل على قلة القتلى في أيام العرب .

والجانب الضعيف هو جانب هوازن ، حيث انتصر القرشيون في يوم الشرب أكبر أيامهم ، وانتصرت هوازن في يوم الحريرة انتصاراً جزئياً لأن بني نصر من قريش ثبتوا فيها ، ولم ينسحبوا ، مع أن هذه الأيام كانت تقع قرب ديار هوازن عند عكاظ وقد دفعت قريش لهوازن دية عشرين قتيلاً وهو العدد الزائد عن قتلاهم .

وأيام حرب فجار البراض هذه [1] ستة هي : —

---

(1) [illegible] أربعة : الفجار الأول : بين كنانة وهوازن ، وكان الذي هاجه أن بدر بن معشر [illegible] من كنانة ، جعل له مجلساً بسوق عكاظ ، وكان حدثاً منيعاً في نفسه ، ثم كان أن افتخر في الشعر [illegible] الأحيمر بن مازن أحد بني دهمان ، ثم تحاور الحيان عند ذلك حتى كاد أن تكون بينهما الدماء ثم تراجعوا ورأوا أن الخطب يسير

(١) **يوم نخلة** : وهو يــوم مقتل عروة حيث دهمت قريش [illegible]

فتبعتهم هوازن ، وأدركتهم قبل دخولهم الحرم ، فاقتتلوا حتى

الليل ، فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن ، فكان كفافاً

علي هولاء ، ولا علي هؤلاء .

(٢) **يوم شمطة** : وهي الوقعة الثانية للفجار ، والمؤرخون يعتبرونها

الأولى ، لأن اليوم الأول تم بصورة تلقائية كرد فعل على قتل عروة

وأتصورهم يعدون الأيام التي يتم التواعد فيها ، وكان النصر في

شمطة لقريش ، وكنانة ، أول الأمر ثم انقلب لهوازن آخره .

(٣) **يوم العبلاء** : وهــو جبل صغير قرب عكاظ ، وصخره أبيض

وقعت فيه الواقعة ، وكان النصر لهوازن .

(٤) **يوم الشرب** : بفتح الشين مشددة وكسر الراء ، وهذا كانت وقعة

الفجار العظمى التي يقع لقرب مثلها ، وفي هذا اليوم قيد حرب بن

أمــية ، وسفيان ، وأبو سفيان أنفسهم كيلا يفروا ، ولذا سموا

بـــ (العنابس) أي الأسود لشجاعتهم ، وكان النصر في هذا اليوم

لقريش .

(٥) **يوم الحريرة** : والحريرة تصغير حرة ، واد بين الأبواء ومكة ونخلة

نخلة ، وفيه انهزمت قريش ما عدا بني النضير ، فقد ثبتت ولم تنهزم .

الفجار الثاني : وكان بين قريش وهوازن ، وكان السبب فيه أن شباباً من قريش تعرضوا لامرأة من بني

صعصعة ، فهاجت الحرب ، وكان بينهم قتال ، ودماء يسيرة ، فحملها حرب بن أمية وأصلح بينهم

الفجار الثالث : كان بين كنانة وهوازن ، وكان السبب فيه أن رجلاً من بني كنانة كان عليه دين لرجل من

بني نصر ، وأعدم الكناني ، فعير النصري بذلك قومه بسوق عكاظ ، فقام إليه كناني فضربه ، ثم تداعى الناس حتى كاد

يكون بينهم قتال ، ثم تراجعوا .

الفجار الرابع : ويعرف بفجار البراض ، وهي التي اشترك فيها رسول الله ﷺ قبل البعثة ، وهي أعظمها

لأن الفجارات الأخرى لم يحدث فيها قتال ، وربما كانت تنتهي بالصلح [illegible] الفجار الرابع

(٦) **يوم عكاظ** : وهو اليوم الذي تصالحوا فيه .

وقد استغرقت تلك الأيام خمس سنوات [١] .

قصة الصلح بعد هذه الفجار :

تواعدت هوازن وكنانة على التقابل في عكاظ، وحضروا في الموعد المحدد ، وفصل الراشق بالسهام ، وحد الصفان بينهما عتبة بن ربيعة ، وكان حرب بن أمية رئيس قريش ، وكنانة ، قد ضربه ، ومنعه من الخروج شفقة عليه ليتمه وصغره ، لأنه لم يكن قد أتم الثلاثين بعد ، إلا أنه خرج سراً ، لم يشعر به أحد ، وفوجئ به حرب على بعيره بين الصفين ينادي : **يا معشر مضر علام تفانون** ؟ .. وإنما ناداهم باسم مضر لأنه الجد الجامع لقريش وهوازن وكنانة .

فقالت هوازن : ما تدعو إليه ؟ .

قال عتبة : ادعوكم إلي الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ، وتعفوا عن دمائنا

قالوا : وكيف ذلك ؟

قال : ندفع لكم رهناً منا .

قالوا : ومن لنا بهذا ؟

قال : أنا .

قالوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

فرضوا ، ورضيت كنانة ، ودفعوا إلي هوازن أربعين رجلاً ، منهم حكيم بن حزام ، بعد أن عدوا قتلاهم وقتلى قريش وكنانة ، وجعلوا رجلاً برجل ، ثم أخذوا دية من زاد منهم ، فأخذوا دية عشرين رجلاً .

فلما رأت بنو عامر بن صعصعة الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء،وانقضت حرب الفجار [٢]

---

(١) المصدر السابق ج١ ص ٢١٢ (٢) الروض الأنف ج١ ص ٢١١ . (١) سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٢٠ .

إشتراك محمد " ﷺ " في حرب الفجار :

هاجت حرب الفجار وعمر محمد " ﷺ " خمسة عشر عاماً . وانتهت وهو في العشرين من عمره .

والروايات عن إشتراك محمد " ﷺ " في هذه الحرب كثيرة ، يذكر ابن هشام أن رسول الله " ﷺ " إشترك في هذه الحرب دفاعاً عن أعمامه، حيث يقول " ﷺ " (كنت أنبل علي أعمامي) أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها [١] .

ويقول ابن سعد : إن محمد حضر الحرب مع أعمامه . ورمي بالسهام [٢]

وأري — والله أعلم — أن إشتراك النبي " ﷺ " في حرب الفجار كان لمساعدة أعمامه بإعداد النبال لهم ، والدفاع عنهم ، من غير عدوان علي أحد من خصوم قومه ، أو محاولة النيل منهم علي غرة ، ومع ذلك كان " ﷺ " يقول : (ما أحب أني لم أكن فعلت) [٣] .

إن الله الذي صرف محمداً "ﷺ" في شبابه عن كل ما كانت الجاهلية تفعله هو سبحانه الذي أبعده عن الفجور في هذه الأيام،وإنما كان إشتراكه . والله أعلم لتحقيق بعض الفوائد ، ومن أهمها : —

(١) مخالطة قبائل العرب . بسائر أفرادها ، الكبار والصغار ، حين تجمعهم للحرب والقتال . لمعرفة أحوالهم ، وطباعهم ، وطرق تفكيرهم في مثل الظروف العصيبة .

(٢) معرفة كيفية نظم الحرب التي يباشرها العرب ، حيث سيحتاج إلى هذه المعرفة فيما بعد .

---

[٢] الطبقات الكبرى ج١ ص ١٢٨ .

[٣] الطبقات الكبرى ج١ ص ١٢٨ .

(٣) التدرب على أعمال الحرب الشاقة ، حيث الحاجة إلى جهد كبير ، في الليل والنهار ، وتحت ظروف مناخية متقلبة ، وفي ظروف قد ينعدم فيها الطعام ، ويندر الماء .

(٤) المساهمة مع قومه في أعمالهم ، وأداء حق القرابة لهم ، لأنه قريبا سيطالبهم بحق القرابة له ، والمحافظة على ما للقربى من مودة ، وتعاون ، ونصرة .

هــذا بعــض مــا يمكن تصوره في مجال الفوائد التي اكتسبها النبي " ﷺ " باشتراكه في حرب الفجار ... مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالى نحاه من العدوان والظلم فيها ، ... وقصر نشاطه على خدمة أعمامه والنبل عنهم .

***

- رابعاً -

حلف الفضول

مــن أعظم ما فعل العرب قبل الإسلام حلف الفضول (بضم الفاء) وقد شاهده النبي " ﷺ " وعمره عشرون سنة ، لأنه كان في ذي القعدة بعد إنتهاء حرب الفجـــار في شوال ، قبل المبعث بعشرين عاماً ، والحلف يعني العهد ، والبيعة ، وأخذ الميثاق بين أفراد، أو جماعات ، حول موضوع ما .

وأول من تكلم في هذا الحلف ، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله " ﷺ " ، وكـــان ســـببه أن رجلاً من زبيد ، قدم مكة ببضاعة ، فاشتراها منه العاصي بن وائل السهمي وكان ذا قدر وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعدى عليـــه الزبـــيدي الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحاً ، وسهماً ، فأبوا أن يعينوا الزبـــيدي على العاصي بن وائل ، وزبروه ، وهروه ، فلما رأى الزبيدي الشر ، رقى عـــلى جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر لمظلوم بضاعتـــــه	ببطن مكة نائي الدار والنفـــر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته	يا للرجال وبين الحجر والحجر
إن الحرام لمن تمت مكارمـــه	ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال :مالهذا مترك ؟

فاجتمعـــت بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسيد بن عبد العزى ، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، فتحالفوا في ذي القعدة في شـــهر حرام ، قياما ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، ليكونن يداً واحدة مع المظلوم على الظالم ، حتى يؤدي إليه حقه ، ما بل بحر صوفة، وما رساحراء وثبير مكانهما ، وعلى التأسي في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف " حلف الفضول " ، ثم مشوا إلـــى

ـ خامساً ـ

الرحلة الثانية إلى الشام

التجارة لخديجة

بلغ محمد " ﷺ " خمساً وعشرين سنة ، وكان يهتم بأحوال عمه أبي طالب ، وبكثرة عياله ، لما بلغ هذا السن وجد أن رعي الغنم لم يعد يناسبه ، ودخله من الرعي قليل ، لا يفي بحاجته وعمه ، فأخذ يفكر في عمل آخر يحقق له ما يتمنى .

ولم يطل به البحث إذ قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان علينا ، وألحت علينا سنون منكرة ، وليست لنا مادة ولا تجارة ، وهذه عير قومك قد حضر أوان خروجها إلى الشام ، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في عيراتها ، فيتجرون لها في مالها ، ويصيبون منافع ، فلو جئتها ، وعرضت نفسك عليها ، لأسرعت إليك ، وفضلتك على غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال الرسول " ﷺ " لعمه : فلعلها ترسل إلي في ذلك [١] .

وخديجة " رضي الله عنها " امرأة قرشية ، كثيرة المال ، عريقة الأصل ، حسيبة ، نسيبة ، كانت تتجر بمالها ، وترسل عيراتها مع القوافل برجال تستأجرهم ، أو تشاركهم بجزء من الربح ، وقد اشتهرت مكة بالتجارة حيث لا زرع فيها ، ولا صناعة ، وكل ما فيها من بضاعة فهو مستورد من الشام ، أو من اليمن ، أو من غيرهما ، وعادة التجار البحث عن الرجل الأمين ، يتعاملون معه ، صيانة للمال ، وحافظاً لهم من الضياع .. وقد رغب أبو طالب من محمد ابن أخيه أن يذهب لخديجة يتاجر لها في مالها ، لشدة ثقته في ابن أخيه ، ولما اشتهر به في مكة بالأمانة ، والصدق ، ولما عرف عن خديجة من حسن المعاملة ، والمسارعة في إعطاء الحقوق ،

---

(١) [illegible] ج ٢ ص ٢١٤ .

وكــان يــرى أن خديجة ستعطي محمداً من الأجر الكثير بعدما ترى منه الصدق والأمانــة ، وحسن المعاملة .

لكن محمداً " ﷺ " أنفت نفسه أن يذهب لخديجة باحثاً عن عمل في أموالها ولذلك قال لعمه : لعلها ترسل إلي .

لم ينتظر أبو طالب أن ترسل خديجة لمحمد مخافة أن تولي رجلاً آخر ، أو يظل لا يقبل العمل لديها ، ولذلك ذهب بنفسه إلي خديجة وقال لها : يا خديجة : هل لك أن تستأجري محمداً ؟

فقد بلغنا أنك استأجرت فلاناً ببكرين ، ولن ترضي لمحمد دون ذلك .

فقالــت خديجــة : لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا ، فكيف وقد سألــت لقريب حبيب [1] ! ! . .

عــاد أبو طالب لمحمد ، وأخبره بما جرى مع خديجة ، وقال له : هذا رزق ساقه الله إليك .

وقالت خديجة لميسرة لما تأهب ومحمد للسفر ، قالت له : لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً لعلمها بحسن إدارته وقوة شخصيته ، وإتقان ما يقوم به من عمل وأخذ عمومته يوصون أهل العير بابن أخيهم ، ولولا الحاجة ما أخرجوه [2] .

لكن الله تعالي أخرجه من مكة تاجراً هذه المرة ليجوب أرض الله مكتشفاً وليخرج من تجارته تلك بما يغنيه ، ويرضيه .

وكانت رحلة مباركة امتلأت بالعجائب التي قدرها الله لحبيبه ، ومصطفاه فقد توالت الإرهاصات ، وكان ميسرة يرى رسول الله " ﷺ " إذا اشتدت الهاجرة ، وقوي الحر ، يظله ملكان وهو على بعيره ، ولما دخل مكة في وقت الظهيرة ذهب إلي خديجة فرأت الملكين فوقه .

---

(١) الطبقات الكبرى ج١ ص ١٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج١ ص ١٣٠ .

وتقابل النبي " ﷺ " في هذه الرحلة مع عـــدد من رهبان أهـــل الكتـــاب ، وكلهم نظروا إليه ، وعلموا خبره ، وماله .

نزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهـــب يـــقـــال لـــه " نسطورا " فلما رآه الراهب قال لميسرة : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هـــذه الشجرة ؟ .

قال ميسرة : رجل من قريش .

فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، أفي عينة حمرة يا ميسرة ؟.

فقال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو ، هو[1] !! .

● أختـــلف مـــرة مع أحد التجار حول سلعة ، فقال الرجل : إحلف باللات والعزى . .

فقال رسول الله " ﷺ " : ما حلفت بهما قط .

فقال الرجل : القول قولك . . ثم نظر إلى ميسرة ، وقال له : هذا نبي هذه الأمة .

وبالنسبة للتجارة فقد ربحا ربحاً وفيراً لم تره خديجة منذ أربعين سنة ، فأحبه ميسرة وأطاعه ، كأنه عبده ، وقدرته خديجة لمهارته ، وأمانته .

ولما كانا (محمد وميسرة) عائدين بمر الظهران ، قال ميسرة للنبي " ﷺ " : هل لك أن تسبقني إلى خديجة ، فتخبرها بالذي جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكراتك ، فركب النبي " ﷺ " قعوداً أحمر ، فتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهيرة ، وخديجة في علية لها ، معها نساء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله " ﷺ " حين دخل وهو راكب على بعيره ، وملكان يظلان عليه ، فأرته نساءها فعجبن لذلك ! ! .

ودخل عليها رسول الله " ﷺ " وأخبرها بما ربحوا ، فسرت بذلك .

وقالت : أين ميسرة ؟

---

(١) سيرة الحلبي ، هشام ج١ ص ١٨٨ .

قال : خلفته في البادية .

قالت : عجل إليه ليعجل بالإقبال ، وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره فركب رسول الله " ﷺ " وصعدت خديجة تنظر، فرأته على الحالة الأولى، فاستيقنت أنه هو ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، وأخبرها بقول الراهب نسطور وبقول الآخر الذي خالفه في البيع .

يقـــول ابن إسحاق : فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمت له من البكرات .

وأخبرت ابن عمها ورقة بن نوفل بما رأت ، وبما سمعت ، فقال لها ورقة يا خديجة إن محمداً لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر.[1]

وهكـــذا مرت الرحلة ببركاتها مع محمد " ﷺ " ، وعاد بالبكرات إلى عمه سعيداً راضياً ، وقد أحبه ميسرة حباً جماً .

لقـــد أدت هـــذه الرحلة عدداً من النتائج الهامة التي أرادهـــا الله تعالى لمحمد " ﷺ ".

※※※

---

[1] السيرة النبوية ج١ ص ١٨٩ .

المبحث السابع

زواج محمد " ﷺ "

خديجة " رضي الله عنها "

سمعت خديجة " رضي الله عنها " ما وقع لمحمد " ﷺ " في رحلة التجارة ، وشاهدته بنفسها ، فعادت بذاكرتها إلى ما قاله اليهودي لنساء مكة ، يوم أن اجتمعن به في المسجد الحرام فقال لهن : يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي فأيكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل ، فحصبه النساء ، وقبحنه ، وأغلظن له ، ما عدا خديجة فإنها فكرت فيما سمعت ، ووقر في نفسها صدقه ، فلما تاجر محمد في مالها ، ورأت منه الأمانات والبركات تذكرت ما قاله اليهودي وقالت : ما ذلك إلا هذا [1] .

وخديجة امرأة قرشية ، اشتهرت بين قومها ، بالمال ، والجمال ، والحسب ، والنسب ، ومكارم الأخلاق ... وهي من المكيات القليلات اللاتي عملن بالتجارة ، حتى صارت من أثرياء مكة الكبار ، تزوجت قبل رسول الله " ﷺ " من رجلين مخزوميين هما :ـ

الأول : هو عتيق بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وولدت له عبد مناف ، وهندا .

الثاني : هو أبو هالة ، وهو زرارة بن النباش من بني عدي ، وولدت له هالة ، وهندا ، والطاهر [2] .

وبعد ترمل خديجة بوفاة زوجها الثاني رفضت الزواج [illegible] لأولادها ، وقد جاوزت الأربعين ، وأنى لها برجل يكافئها ، عقلاً ، وخلقاً ، وأصالة !! ، وقد رغبها سادات مكة فأبت .. لكنها بعدما رأت محمداً " ﷺ " ، وتذكرت ما سمعته

---

(١) [illegible] ج٢ ص ٢٢٢ .

(٢) [illegible] .

خديجة مـــن اليهودي ، ومن ابن عمها ورقة ، تمنته زوجا ، وسمعت في ذلك بحكمته وهـــدوء ، وعممت على اختبار التعامل معه ، والتأكد من المزايا التي تصورتها فيه وهيأ لها القدر ما أرادت حين أتاها أبو طالب يطلب منها أن يتاجر لها في مالها ، وقد رحبت بهذا الطلب ترحيباً كبيراً ، وقالت لعبد المطلب : لقد سألته لقريب حبيب .

وتاجر محمد " ﷺ " في مال خديجة وهو في قوة الشباب ، ورشد الرجولة إلا أنه لم يفكر في الزواج بعد بصورة مطلقة لما هو فيه من فقر ، وعدم .. إنه يعمل ليسد رمقه ، ويعين عمه ، وما لمثله أن يفكر في الزواج .

وإذا فكـــر في الـــزواج كشأن الشباب ، فلن يفكر في الزواج من خديجة لما بينهما من فروق ، ولأنها رفضت الزواج من كبار القوم ، وأغنيائهم ..

إن فـــارق السن بينهما خمسة عشر عاما ، فهي في الأربعين ، وهو في الخامسة والعشرين ، ولها أولادها من زوجيها السابقين .

والفارق المالي كبير فهي من أغنى أغنياء مكة ، ومحمد يعمل بالأجرة ليعيش وشخصيتها ، وتجارها ، وحياتها العصبية ، وسيرتها الشريفة جعلتها في مصاف كبار مكة ، وعظمائها .

إن عديـــداً من عظماء مكة حاولوا الزواج منها ، فرفضتهم جميعاً ، وليس لمحمـــد " ﷺ " أن يفكر في زواجها ، والكل يعلم موقفها من الزواج ! ! ..

لهذا لم يفكر النبي " ﷺ " في الزواج منها .. وما درى أن القدر يخبئ له ما قدره الله تعالى .

وعزمت خديجة على أن تتزوج محمداً " ﷺ " مع صغره ، وفقره ، لتنال معه الشـــرف العظيم، وتتصل به سائر الناس، فاحتالت لذلك بأكثر من طريق، وكان الذي سفر بينهما وبين محمد " ﷺ " نفيسة بنت منية، وهي ابنة أمية بن عبيدة الحنظلي، كما سفر بينهما ميسرة ، وأختها، ومولاة مولدة، وإحدى الكاهنات في قريش [1] .

---

[1] امتاع الأسماع للمقريزي ج١ ص١٠ .

* وعن معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر أن أبا مجلز حدث أن خديجـــة قالت لأختها : أنطلقي إلى محمد فاذكريني له [1] ، وأنهما تواطآ أن يتزوجها محمد " ﷺ " .
* وأرسلت مرة أخرى ابنة خالتها **نفيسة بنت منية** لتوجه محمداً نحو الزواج من خديجة ، وتزيل من أمامه العقبات التي تمنعه من الزواج منها ، ومن غيرها ..

تقول نفيسة : كانت خديجة بنت خويلد أمرأة حازمة ، جلدة ، شريفة مـــع ما أراد الله بها من الكرامة ، والخير ، وهي يومئذ من أوسط قريش نسباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها ، لو قدر على ذلك ، قد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، فأرسلتني دسيسة إلى محمد ، بعد أن رجع في عيرها من الشام .

فقلت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيدي ما أتزوج به .

قلت له : فإن كفيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاءة ، ألا تجيب ؟

قال : فمن هي ؟

قلت : خديجة .

قال : وكيف لي بذلك ؟

قلت : علي .

قال : فأنا أفعل [2] .

* يروي النبي موقفاً له مع ميسرة ، يقول " ﷺ " : قلت لصاحبـــي :

---

[1] الطبقات الكبرى ج١ ص ١٣٢ .

[2] الطبقات الكبرى ج١ ص ١٣١ .

انطلق بنا نتحدث معاً عند خديجة ، فجئناها ، فبينما نحن عندها إذ دخلت كاهنة من مولدات قريش ، فقالت : أمحمد هذا ؟ والذي تحلف به إن جاء لخاطباً ! قلت : كلا ... حياء وخجلاً ! !

فلما خرجت أنا وصاحبي ، قال لي : أمن خطبة خديجة تستحي ؟ فو الله ما من قرشية إلا تراك لها كفؤاً .

فرجعت أنا وصاحبي مرة أخرى ، فدخلت علينا تلك الكاهنة ، فقالت : أمحمد هذا ؟ والذي تحلف به إن جاء لخاطباً .

فقلت على حياء : أجل ، .. ولم تخالف خديجة ولا أختها [1].

إن المرء ليحار أمام هذا التوافق الذي وضع القدر خيوطه ، حتى التأم وتم !

وهل كانت رحلة التجارة اختباراً من خديجة ؟ أم إظهاراً لمقام محمد ؟

وهل رفض خديجة للزواج قبل ذلك جعلها تنتظر الشرف العظيم الذي ظهر لها في محمد " ﷺ " ؟ فرغبت في الاقتران به .

وما الذي جعل محمداً يرحب بالزواج من خديجة مع أنه كان لا يملك مطالب الزواج ونفقات الحياة ؟ ! !

وما الذي جعل خديجة الرافضة للزواج أن تبحث عنه في شاب يصغرها بخمسة عشر عاماً ؟

إنها أسئلة تؤكد الحكمة الإلهية التي حباها الله سبحانه وتعالى لهذين الزوجين الكريمين ..

إن القدر الذي دفع كلاً من خديجة ومحمد ليسعى كل لصاحبه لتكون خير أسرة ظهرت في حياة المسلمين .

زوجة تشهد لزوجها بالعظمة،وهي تقول :((والله لا يخزيك الله أبداً ..)) [2]

---

[1] دلائل النبوة جـ١ ص ٦٠ .

[2] السيرة النبوية جـ ١ ص ١٨٨ .

وزوج يشهد لزوجته بعد مماتها ويقول: (والله ما رزقني الله خيراً منها).
ويقول " ﷺ " عنها : (لقد رزقت حبها)[١] .

ويذهب محمد " ﷺ " إلى أعمامه يخبرهم بنبأ خطبة خديجة فيسرون جميعاً ،
ويحضر محمد " ﷺ " مع عمه أبي طالب ، وعشرة رجال من قومه ، ويخطبها عبد المطلب من عمها عمرو بن أسد ، فيقول وهو يخطبها : الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر ، وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه . وجعل لنا بيتاً محجوباً، وحرماً آمناً ، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً، ونبلاً، وفضلاً، وعقلاً وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة ، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق، حكمكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشا .
فقال عمرو بن أسد عمها : هو الفحل لا يقدع أنفه ، وأنكحها منه ..[٢]

وما روي من أن أباها هو الذي زوجها ، وهو لا يدري لسكره مردود ؛ لأن أباها خويلد ، هلك قبل حرب الفجار .

ويقال إن الذي أنكحها هو ورقة بن نوفل ، وقيل هو أخوها عمرو بن خويلد ... والأظهر أنه عمها .

يمن الله تعالى على محمد " ﷺ " بزواجه من خديجة ، حيث يقول له سبحانه بعد المبعث : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[٣] .

حين كنت فقيراً فأغناك بمال خديجة الذي تنازلت عنه لك، راضية، سعيدة .. لتتفرغ للمهام الكبرى ، وتعيش الأسرة معك راضية ، مطمئنة ، ويرزقكم الله الأبناء عدداً ..

---

(١) [illegible] ج٢ ص٢٠١
(٢) [illegible] ٢١٢ .
(٣) [illegible]

وأول من ولد لرسول الله " ﷺ " القاسم ، وبه كان يكنى " ﷺ " ولدت له " ﷺ " زينب ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، وكلهم ولدوا قبل الإسلام ، أما عبد الله فقد ولد في الإسلام ، فسمي بالطاهر ، والطيب ، وكل هؤلاء من خديجة .

وكانت خديجة تعق عن كل مولود لها ، عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة واحدة ..

وقد مات القاسم بعد ولادته بعامين ..

ومات عبد الله قبل الهجرة ..

أما رقية وأم كلثوم فخطبهما عتبة ، وعتيبة ابنا جدهما أبي لهب (شقيق عبد الله) ، لكنهما تركاهما بعد بعثة محمد " ﷺ " كفراً برسالته ، فتزوجهما عثمان بن عفان " ﷺ " الواحدة بعد الأخرى ، حيث تزوج أم كلثوم بعد وفاة رقية ، أما فاطمة فقد تزوجت علي بن أبي طالب " رضي الله عنهم أجمعين " ، وتزوج أبو العاص بن الربيع بن عبد شمس ابن خالته زينباً بنت رسول الله " ﷺ " " رضي الله عنهم " ..

وأولاده " ﷺ " كلهم من خديجة ، ما عدا إبراهيم فأمه مارية القبطية التي أهداها المقوقس للنبي " ﷺ " فأسلمت ، وتزوجها " ﷺ " .. وولدت له في المدينة المنورة بعد الهجرة .

***

المبحث الثامن

بناء الكعبة

الكعبة المشرفة هي البناء المربع المجوف المقام وسط المسجد الحرام ، وهي توسط العالم كله .

وهي أول بناء وضع في الأرض ، بنتها الملائكة بصورة بسيطة ، وكثيرا ما كانت تتأثر بالنار فتحترق ، وبالسيول فتتصدع ، وبغير ذلك من عدوان الناس .

وكانت تكرر بناؤها قبل الإسلام وبعده ، فلقد بنتها الملائكة أولاً ، فعن أبي ذر " ﷺ " قال : (**قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بينهما ؟** قال : أربعون سنة) [١] .

ثم توالي البناء فبلغ عدداً ذكرها المؤرخون على اختلاف بينهم ، إلا أنهم مجمعون على مرات ثلاث لثبوت أدلتها ، وهي بناء إبراهيم " عليه السلام " ، وبناء قريش ، وبناء عبد الله بن الزبير " رضي الله عنهم " .

وفي إطلاق عبارة البناء تجوز واضح ، فإن بعضها كان جداراً واحداً كبناء الحجاج ، وبعضها كان ترميماً وإصلاحاً .. وهكذا .

والبنايات التي ذكرها المؤرخون للكعبة كثيرة ..

منها بناء الملائكة " عليهم السلام " :

ومنها : بناء آدم " عليه السلام " .

ومنها : بناء أولاد آدم " عليه السلام " .

ومنها : بناء العمالقة .

ومنها : بناء جرهم .

ومنها : بناء قصي بن كلاب .

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب بدء الخلق ج٤ ص ١٧٧ ، ط . الشعب .

ومنها : بناء الخليل إبراهيم " عليه السلام " .

ومنها : بناء قريش .

ومنها : بناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي " رضي الله عنه " .

ومنها : بناء الحجاج بن يوسف الثقفي .

فأما بناء الملائكة للكعبة : فذكره الأزرقي في تاريخه ، وذكر أن ذلك كان قبل خلق آدم " عليه السلام " واستدل على ذلك بخبر رواه عن زين العابدين ، وخبر رواه من حديث ابن عباس " رضي الله عنهما " وكلاهما يدل على بناء الملائكة للكعبة .

وأما بناء آدم " عليه السلام " : فقد ذكره البيهقي قال : قال رسول الله " ﷺ " (بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابنيا لي بيتاً ، فخط لهما جبريل ، فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل التراب ؛ حتى أجابه الماء فنودي من تحته : حسبك يا آدم ، فلما بنياه أوحى الله إليهما أن طوفا به) [1] .

وأما بناء أولاد آدم للكعبة : فذكره الأزرقي ؛ حيث روى بسنده إلى وهب ابن منبه قال : رفعت الخيمة التي عزى الله ـــ عز وجل ـــ بها آدم " عليه السلام " من حلية الجنة ، حين وضعت له بمكة في موضع البيت ، وبعدما مات آدم " عليه السلام " بنى بنوه من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة ، فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح " عليه السلام " فنسفه الغرق ، وغير مكانه حتى بوئ لإبراهيم " عليه السلام " .

وأما بناء الخليل " عليه السلام " : فهو ثابت كما في القرآن العظيم والسنة الشريفة ، وهو أول من بنى البيت بعد نوح " عليه السلام " ، وحدد قواعده ، ورفعه ، ونقل عن ابن إسحاق " أن الخليل " عليه السلام " لما بنى البيت جعل طوله في السماء تسعة أذرع ، وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً من الركن الأسود إلى الركن الشامي الذي

---

[1] شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج١ ص١٧٦ .

عنده الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشامي إلى الركن الغربي اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن اليماني أحداً وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرض شقها اليماني من الركن الأسود إلى الركن اليماني عشرين ذراعاً ، وجعل بابها بالأرض ، وحفر جباً في بطن البيت على يمين من دخله يكون خزانة للبيت ، وكان إبراهيم "عليه السلام" يبني وإسماعيل ينقل له الحجارة على رقبته ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ (1)

وأما بناء العمالقة وجرهم للكعبة : فذكره الأزرقي ، لأنه روى بسنده عن علي بن أبي طالب " رضي الله عنه " قال في خبر بناء إبراهيم " عليه السلام " للكعبة : ثم انهدم فبنته العمالقة ، ثم انهدم فبنته قبيلة من جرهم ، ثم انهدم فبنته قريش .

وأما بناء قصي بن كلاب : فقد جزم به الماوردي في " الأحكام السلطانية " ، لأنه قال : فكان أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم " عليه السلام " قصي بن كلاب ، وسقفها بخشب الدوم وجريد النخل .

وأما بناء قريش للكعبة : فهو ثابت كما في السنة الشريفة الصحيحة عن النبي " ﷺ " ، وحضره " ﷺ " ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة ، كما جزم به ابن إسحاق وغير واحد من العلماء .

وأما بناء ابن الزبير " رضي الله عنه " للكعبة فإنه ثابت مشهور ، ويرجع سبب اهتمامه ببنائها إلى ما حدث فيها من تهدم لسببين :-

السبب الأول : توهن الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوصر ابن الزبير " رضي الله عنهما " بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة ، لمعارضته يزيد بن معاوية ، ومبايعة أهل مكة والمدينة له خليفة للمسلمين .

---

(1) سورة البقرة ، آية ١٢٧ .

السبب الثاني : احتراق الكعبة : بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب ابـــن الزبير "رضي الله عنهما" في خيمة له : حيث طارت الرياح بلهب تلك النار فأحرقت كسوة الكعبة ؛ كما أحرقت الساج الذي بني في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضـــعفت جدران الكعبة ، حتى إنها لتنقض من أعلاها إلى أسفلها ، ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها من الوهن ، والضعف .

ولما زال الحصار عن **ابن الزبير** " رضي الله عنهما " لإدبار **الحصين بن نمير** من مكة بعد أن بلغه موت **يزيد بن معاوية** ، رأى ابن الزبير"رضي الله عنهما" أن يهدم الكعبة ويبنـــيها،فوافقه على ذلك نفر منهم جابر بن عبد الله ، وكره ذلك نفر : منهم ابن عباس " رضي الله عنهما " .

وكـــان هـــدم ابن الزبير للكعبة في يوم السبت في النصف الأول من جمادى الآخرة سنة أربع وستين للهجرة .

وقـــد بناها ابن الزبير على قواعد إبراهيم " عليه السلام " وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش في الحجر ، وزاد في ارتفاعها على بناء قريش نظير ما زادته قريش على بناء الخليل " عليه السلام " وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً وهي سـبعة وعشرون مدماكا ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض ، أحدهما بابها الموجود الـــيوم ، والآخـــر المقابل له من الجهة الغربية المسدود الآن ، واعتمد في ذلك على ما أخبرته به خالته عائشة " رضي الله عنها " .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الشامي يصـــعد منها إلى سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها روازن للضوء [1] .

والبناء المقصود من هذا المبحث ، هو البناء الذي قامت ببناه قريش ، والذي

---

[1] شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٨٦ .

اشترك فيه محمد " ﷺ " يوم أن كان عمره خمساً وثلاثين سنة .

والكعـبة ليســت هي المسجد الحرام،وليس هي الحرم،لأن المراد بالمسجد الإسـاع المحيط بالكعبة،الذي يصلي فيه الناس ، والحرم هو المكان الذي يشمل مكة وما حولها من جميع الجهات إلى الأماكن المعروفة المحددة،التي تفصل بين الحل والحرم ، من كافة نواحي مكة،وهي المعروفة بالمواقيت المكانية،التي يحرم منها أهل مكة بالعمرة .

وبناية قريش للكعبة كان قبل الإسلام بخمس سنوات، وهي المرة التي اشترك فيها النبي " ﷺ " ، وعمره خمس وثلاثون سنة [١].

وسبب قيام قريش ببنائها ما أصابها من حريق نال منها بسبب شرارة صدرت من امرأة عربية ، وهي تقوم بتبخير الكعبة، ولدخول السيل فيها، وتصدع جدرانها ، ولأنهم لاحظوا أن نفراً تمكنوا من الدخول فيها ، وسرقوا حلياً وذهباً منها .

أرادت قـريش أن تتغلب على هذه المثالب فاتفقوا على بناء الكعبة سوياً ، وقـاموا بتقسـيم جدر الكعبة أجزاء ، ووزعوها على سائر القبائل، لتنال كل قبيلة شرف المساهمة في بناء الكعبة .

فكان شق الباب لبني عبد مناف ، وزهرة ، وهو الجدار الشرقي ..

وكـان مـا بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وهو الجدار الجنوبي .

وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم ، وهو الجدار الغربي .

وكـان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد بن عبد العزى بن قصي ولبني عدي بن كعب ، وهو الحطيم [٢] الواقع في الجهة الشمالية .

وقـد اشترك النبي " ﷺ " مع قومه في بناء الكعبة فكان ينقل معهم الحجارة ، وهم يضعون أزرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة ، ففعل محمد مثلهم ، فبانت عورته،

---

(١) مروج الذهب ج ١ ص ٢١١ ، وهذا أصح الأقوال .

(٢) السيرة الحلبية ج ١ ص ٢٢٥ هامش الروض الأنف .

فنودي ، عورتك ، عورتك ، فما رؤي لرسول الله عورة بعد ذلك [1] .

وجـــاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله " ﷺ " قال : (لما بنيت الكعبة ذهب النبي " ﷺ " وعمه العباس ينقلان الحجارة ، فقال العباس للنبي " ﷺ " : اجعل إزارك على رقبتك ، فخر إلى الأرض ، وطمحت عيناه إلى السماء ، فقال : أرني إزاري ، فشده عليه) [2]

وتجمع قبائل مكة في بناء الكعبة ، واشتراك الكبار والصغار دليل على منزلة الكعـــبة في قلـــوب ، وعقول سائر القبائل ، لأنهم كانوا يرون أنها بيت الله تعالى والـــذي بناها هو إبراهيم " ﷺ " ، وإسماعيل " ﷺ " ، وأنها وديعة الله في أرضه للناس ، وهم مسئولون عنها .

وإن المـــرء لـــيحار وهو يرى هذا الاهتمام بالكعبة ، ويرى في نفس الوقت الأصنام وقد وضعوها حولها ...

فهل هذا اهتمام بالأصنام حيث وضعوها في هذا المكان المقدس ؟ !

أم هو اهتمام بالكعبة آملين أن تفيض على أصنامهم ببعض ما فيها من خير وبركة؟!

لقد أدت روح العصبية في القبائل إلى أن تبحث كل منها عن تميز لها تطاول بـه عـــلى غيرها من القبائل .. فلعب الشيطان بهم ، ووجههم إلى تعدد الآلهة ، وأعمى عقولهم عن الحق ، والصواب .

لقد كادت هذه العصبية أن توقع الحرب بين القبائل يوم بناء الكعبة ..

فبرغم أنهم جزأوا جدران الكعبة ، وجعلوا لكل قبيلة جزءا ، تقوم ببنائه إلا أنهم لما ارتفعوا بالبناء إلى مستوى الحجر الأسود ، ويسمونه بالركن ، من باب تسمية الشيء باسم محله لأنهم يضعون الحجر في ركن الكعبة ، لما بلغوا هذا المستوى اختلفوا فـــيمن يرفعه بيده ، ويضعه في مكانه .. يقول ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش

---

[1] البخاري ، كتاب الحج ، باب فضل بناء الكعبة ج ٣ ص ٤٣٦ .

[2] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ـــ كتاب الحج باب فضل مكة وبنيانها ج ٣ ص ٤٤٢

جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها ، حتى بلغ البنيان موضع الحجر الأسود ، فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تحاوروا ، وتحالفوا ، وأعدوا للقتال .

ووصل الأمر بهم إلى أن بني عبد الدار أعدت جفنة ، وملأوها دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في جفنة الدم ، إيذاناً باستعدادهم للقتال حتى الموت .. ولذلك سموا " لعقة الدم " ، وكل ذلك من حمية العصبية[١].

ثم إن أهل مكة فكروا في مصير مكة إذا وقعت الحرب ، واشتركت فيها القبائل جميعاً ، وأخذوا في تدبر الأمر ، والبحث عن حل مقبول .

وتوقف العمل خمس ليال بسبب هذا التنافس، إلا أنهم في النهاية اجتمعوا في المسجد الحرام ، ورأوا تحكيم أسنهم ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة بن عبد الله المخزومي ، فتدبر في الأمر ، ثم قال لهم : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يقضي بينكم فيه ، يريد به باب "بني شيبة" ، وكان يسمى في الجاهلية "باب عبد شمس" ، وهو في الإسلام "باب السلام" ، فوافقوه على رأيه وانتظروا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله " ﷺ " . فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر قال " ﷺ " : هلموا إلي ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، وليمثلها شيخها ، ولما فعلوا كان في ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود بن المطلب ، وفي الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وفي الرابع أبو قيس بن عدي[٢].

---

(١) البداية والنهاية جـ١ ص ٣٠٣ ـ ط. دار الفكر العربي .

(٢) المرجع السابق جـ١ ص ١٩٦ ، وروى معاوية أنه العاص بن وائل

فجاء الأربعة ، وحملوا الثوب ، ورفعوه حتى إذا بلغ الحجر الأسود موضعه حمله " ﷺ " بيده ، ووضعه حيث هو الآن ، وبني عليه ، واستمروا في البناء في جهته حتى ارتفع البناء ثماني أذرع ، ثم كسوها بالقباطي والبرود (١) .

يصور الأزرقي ما حدث يوم بناء الكعبة في حوار واضح تذكر فيه بعض الصحابة ما كان يوم بناء الكعبة ، يقول الأزرقي : (اجتمع عند معاوية بن أبي سفيان وهو خليفة : نفر من قريش منهم جعدة بن هبيرة ، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن زمعة بن الأسود فتذاكروا أحاديث العرب .

فقال معاوية : من قال حين اختلفت قريش في بنيان مقدم البيت : يا معشر قريش لا تنافسوا ، ولا تباغضوا ، فيطمع فيكم غيركم ، ولكن جزءوا البيت أربعة أجزاء ، ثم ربعوا القبائل فلتكن أرباعاً ؟ .

قالوا : إنه أبو أمية بن المغيرة .

قال : هكذا كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن القائل حين اختلفت قريش في وضع الركن حكموا بينكم أول من يطلع من هذا الباب ؟

قال : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : نعم .

قال : فمن النفر الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله " ﷺ " ؟

قال : جدك عتبة ابن ربيعة أحدهم في الربع الأول .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان من الربع الثاني ؟

قالوا : أبو زمعة بن الأسود بن المطلب .

---

(١) القباطي : ثياب مصنوعة من القطن ، والبرود : الثياب المصنوعة من الصوف .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان في الربع الثالث ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان في الربع الرابع ؟

قالوا : أبو قيس بن عدي السهمي .

قال : هذه واحدة قد أخذتها عليكم ، إنما هو العاصي بن وائل .

قال : فمن قال يا معشر قريش لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : هذه أخرى قد أخذتها عليكم ، إنما القائل هذا، والمتكلم به أبو أحيحة سعيد بن العاصي .

قال : فأسكت القوم) [1] .

وهذه الحادثة تدل على ما تميز به محمد بالصدق ، والأمانة في قومه، وقد سمي فيهم بالصادق الأمين ، حتى أن هذه الأسماء إذا أطلقت بينهم تنصرف في أذهانهم تلقائياً إلى محمد " ﷺ " ، وتدل كذلك على ما قدره الله لمحمد " ﷺ " فقد نال الشرف الذي بحث عنه الجميع ، فهو الذي وضع الحجر الأسود على الثوب ، وهو الذي رفعه من فوق الثوب ، ووضعه في موضعه ، وهو الذي بنى فوقه ... وقد رضي الجميع ، واطمأنوا إلى تصرف محمد " ﷺ " فيهم ..

ولم يغب إبليس عن هذا الحدث ، فلقد حاول إفساد خطة الصلح ، فجاء في صورة رجل نجدي ، وحاول مناولة النبي " ﷺ " حجراً يشد به الركن .

فقال العباس بن عبد المطلب : لا ، ونحاه ، وناول العباس رسول " ﷺ " حجراً عنده

---

[1] أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٢ — ١٧٣ .

به الركن .

فغضب النجدي حيث نحي .

فقال النبي " ﷺ " : إنه ليس يبني معنا في البيت إلا واحد منا .

فقال النجدي : يا عجبا لقوم أهل شرف، وعقول، وسن، وأموال، عمدوا إلى أصغرهم سناً ، وأقلهم مالاً ، فرأسوه عليهم في مكرمتهم ، وحرزهم ، كأنهم خدم له ، أما والله ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وجدوداً ! [١] ..

ولما بنى القرشيون الكعبة قصرت بهم النفقة ، ولم يتمكنوا من بنائها على قواعد إبراهيم ، وأهم التغييرات في بناء قريش للكعبة ما يلي : —

(١) كان باب الكعبة على الأرض ، فلما هدمتها قريش وأعادوا بناءها ، ردموا وسط الكعبة بمخلفات الهدم ، فارتفعت أرض الكعبة ، وبالتالي ارتفع بابها ، وقد استحسنوا ذلك حتى لا يدخلها إلا من أرادوا له الدخول ، وخاصة أن بعض اللصوص كان يدخلون الكعبة لسرقة بعض الجوهرات التي أهديت إليها ، يروي الأزرقي بسنده عن أبي جعفر أنه قال : كان باب الكعبة على عهد إبراهيم وجرهم بالأرض حين بنتها الملائكة ، كما يروي أن أبا حذيفة بن المغيرة قال : يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل عليكم أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم ، ففعلت قريش ذلك وردموا الردم الأعلى ، وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها [٢] .

(٢) جعلوا للكعبة باباً واحداً ، هو الباب الشرقي ، وهو الموجود الآن وسدوا الباب الغربي .

(٣) تركوا بناء الحجر بطول ستة أذرع ونصف ، مع أنه جزء من الكعبة ، لأن النفقة الطيبة قصرت بهم ، فأبوا أن يدخلوا في بنائها مالاً خبيثاً ، وأطاعوا

---

[١] الطبقات الكبرى ج١ ص ١٤٦

[٢] أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١٧٣ .

بمنحة أبي أحيحة سعيد بن العاص حين قال لهم : لا تدخلوا في بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم [١] .

(٤) إرتفعوا بالبناء تسعة أذرع ، فصار إرتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، حيث رغبوا في إطالتها ، رمزاً لرفعتها .

(٥) قاموا بتسقيفها ، حيث كرهوا أن تكون بغير سقف ؛ ولعلهم لاحظوا أهمية السقف في حمايتها من الأتربة ، والفضلات التي تحملها الرياح إلى جوف الكعبة .

(٦) أقاموا داخل الكعبة ست دعائم في صفين يجاوران الجانب الشرقي ، والجانب الغربي لتكون أساساً يقوم عليه السقف ، وقد بنيت هذه الدعائم من الحجر والخشب .

(٧) أقاموا داخل الكعبة من ناحية شرق الحجر سلماً حلزونياً يمكن بواسطته الصعود إلى سطح الكعبة .

(٨) جعلوا سطح الكعبة مستوياً يميل نحو الحجر ، وأحاطوا السطح بسور يبلغ إرتفاعه ذراعاً ، وجعلوا فيه ميزاباً يصب ماء المطر في الحجر .

(٩) أدخلوا جميع جدران الكعبة بعيداً عن قواعد إبراهيم " ﷺ " بمقدار نصف ذراع ، حيث أقيم عليه " الشاذوران " فيما بعد وهو البناء البارز الموجود أسفل الجدر حالياً ، ويشبه الوزرة ، وهو حجارة مائلة ملتصقة بجدر الكعبة من خارجها ، والشاذوران من بناء السلطان مراد العثماني عام ١٠٤٠هـ وقد جعل إرتفاعه أحد عشر سنتيمتراً من الأرض ، وعرضه أربعين سنتيمتراً ، وهو بناء مائل على هيئة مثلث قائم الزاوية إرتفاعه ملاصق للكعبة من جهاتها الثلاث ، أما جهة الحجر فهو على هيئة درجة واحدة مسطحة .

وجمهور الفقهاء أجمعوا على أن الشاذوران من البيت خلافاً لأبي حنيفة [٢] .

---

[١] أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ١٧٣ . [٢] في رحاب البيت الحرام ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

وقد أخبر النبي " ﷺ " عائشة " رضي الله عنها " بأن قومها لم يقيموا الكعبة علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " .

ـ عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : قال رسول الله " ﷺ " ألم تري أن قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم " عليه السلام ".

قلت يا رسول الله أفلا تردها علي قواعد إبراهيم ؟

قال عبد الله بن عمر : فو الله لئن كانت عائشة سمعت ذلك من رسول الله " ﷺ " ما أري رسول الله " ﷺ " ترك الركنين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يتم علي قواعد إبراهيم " عليه السلام " إرادة أن يستوعب الناس الطواف بالبيت كله من وراء قواعد إبراهيم " عليه السلام " [١].

ـ عن عائشة "رضي الله عنه"قالت:كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه فأخذ رسول الله" ﷺ "يدي فأدخلني في الحجر فقال لي صلي في الحجر إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت [٢] .

ـ عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : إن رسول الله " ﷺ " قال لها لولا أن قومك حديث عهد بشرك أو بجاهلية لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض،وجعلت لها بابين،باباً شرقياً وباباً غربياً،وزدت فيها من الحجر ستة أذرع،فإن قريشاً اقتصرتها حين بنت الكعبة [٣].

عبد الله بن الزبير وبناء الكعبة :

قام عبد الله بن الزبير حين ولي أمر مكة والمدينة ، معارضا ليزيد بن معاوية

---

[١] الفتح الرباني ج١٢ ص ٤٩ .

[٢] الفتح الرباني ج١٢ ص ٥٠ .

[٣] الفتح الرباني ج١٢ ص ٥١ .

بناء الكعبة : وسبب بنائه لها يرجع لأمرين : —

الأول : توهن الكعبة من حجارة المنجنيق التي أصابتها حين حوصر ابن الزبير "رضي الله عنهما " بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة ، لمعاندته يزيد بن معاوية .

الثاني : ما أصابها مع ذلك من الحريق ، بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب ابن الزبير " رضي الله عنهما " في خيمة له ، فطارت الرياح بلهب تلك النار فأحرقت كسوة الكعبة ، والساج الذي بني في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضعفت جدران الكعبة ، حتى إنها لتنقض من أعلاها إلى أسفلها ، ويقع الحمام عليها فتتناثر حجارتها[1] .

ولما زال الحصار عن ابن الزبير " رضي الله عنهما " لإدبار الحصين بن نمير من مكة بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأى ابن الزبير " رضي الله عنهما " أن يهدم الكعبة ويبنيها ، فوافقه على ذلك نفر قليل ، وكره ذلك نفر كثير ، منهم ابن عباس " ﷺ " .

فلما رأى ابن الزبير هذا الخلاف بين الصحابة قال لهم : لو أن بيت أحدكم احترق لا يرضى له إلا بأكمل صلاح ، ولا يكمل صلاح الكعبة إلا بهدمها وإقامتها على قواعد إبراهيم " عليه السلام " كما بينها النبي " ﷺ " لعائشة وسمعها ابن الزبير منها " رضي الله عنها " ، فهدمها اجتهاداً منه بناء على أحاديث رسول الله " ﷺ " لأن السنة موجودة وقد بعد الناس عن الجاهلية ، وما أرى رسول الله " ﷺ " قواعد البيت لعائشة إلا لحكمة فهم ابن الزبير منها جواز بناء البيت على قواعد إبراهيم " عليه السلام " ، وقد وافقه بعض الصحابة في هذا الاجتهاد .

وكان هدم ابن الزبير " ﷺ " لها يوم السبت في النصف الأول من جمادى

---

[1] شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام جـ١ ص ١٨٥ .

الآخرة سنة أربع وستين ، وبعد هدمها تماماً بناها على قواعد إبراهيم " ﷺ " وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش في الحجر ، وزاد في ارتفاعها على بناء قريش مـا زادته قريش في ارتفاعها على بناء الخليل " ﷺ " وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعهـا سبعة وعشرين ذراعاً ، وهي سبعة وعشرون مدماكاً ، وجعل لها بابين لاصقين بالأرض ، أحدهما بابها الموجود اليوم ، والآخر المقابل له المسدود حالياً، واعتمد في ذلك، وفي إدخاله في الكعبة ما أخرجته قريش منها في الحجر على ما أخبرته به خالته عائشة رضي الله عنها " .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الشامي يصعد منها إلى سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها روازن للضوء [١].

فلما قتل ابن الزبير ، وكانت ولاية عبد الملك بن مروان أمر بإعادة البيت إلى مـا كـان عليه في بناء قريش ، ظناً منه أن ابن الزبير أخطأ في اجتهاده ، أو شك في الأحاديث التي اعتمد عليها ابن الزبير ، ولذلك قام الحجاج بأمر من الخليفة عبد الملك بإخراج الحجر من الكعبة ، وإلغاء الباب الغربي ، وأبقى على ما عدا ذلك من بناء ابن الزبير ، ولما أتم الحجاج ما أمر به عبد الملك وفد على عبد الملك الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة المخزومي ، فقال له عبد الملك : ما أظن أبا خبيب ـــ يعني ابن الزبير ـــ سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة .

فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة .

قال عبد الملك : سمعتها تقول ماذا ؟

قال الحارث : سمعتها تقول : وذكر الأحاديث .

قال عبد الملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا ، قال : نعم يا أمير المؤمنين أنا

---

[١] المرجع السابق ج١ ص ١٨٦ .

شهدت هذا منها ، قال فجعل ينكت منكساً بقضيب في يده ساعة طويلة ، ثم قال وددت والله أني تركت ابن الزبير وما تحمل من ذلك [1] .

وقد أراد أبو جعفر المنصور أن يعيد بناءها على بناء ابن الزبير فأبى عليه الإمام مالك وقال له : أنشدك الله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك بعدك يجده من يريد تغييره فتذهب هيبته من القلوب فانصرف المنصور عما أراد [2] .

الكعبة والمسجد الحرام :

جاء ذكر المسجد الحرام خمسة عشر مرة في القرآن الكريم وهي : —

(١) ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ [3] .

(٢) ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۖ ﴾ [4] .

(٣) ﴿ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ ﴾ [5] .

(٤) ﴿ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [6] .

(٥) ﴿ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [7] .

(٦) ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ ﴾ [8] .

---

(١) أخبار مكة للأزرقي ج١ ص ٢١١ .

(٢) الأزرقي الأخبار ج١ ص ٢٢٢ .

(٣) سورة البقرة آية (١٤٤) .

(٤) سورة البقرة آية (١٤٩) .

(٥) سورة البقرة آية (١٥٠) .

(٦) سورة البقرة آية (١٩١) .

(٧) سورة البقرة آية (١٩٦) .

(٨) سورة البقرة آية (٢١٧) .

(٧) ﴿ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [1].

(٨) ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [2].

(٩) ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ عَـٰهَدتُّمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [3].

(١٠) ﴿ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [4].

(١١) ﴿ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [5].

(١٢) ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [6].

(١٣) ﴿ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَـٰهُ لِلنَّاسِ ﴾ [7]

(١٤) ﴿ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ [8].

(١٥) ﴿ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ ﴾ [9].

وحين ننظر في هذه الآيات نرى أن المراد ببعضها الكعبة خاصة وهي قوله تعالى ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ﴾ ويراد ببعضها الآخر مكة، وهي قوله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ

---

[1] سورة المائدة آية (٢).

[2] سورة الأنفال آية (٣٤).

[3] سورة التوبة آية (٧).

[4] سورة التوبة آية (١٩).

[5] سورة التوبة آية (٢٨).

[6] سورة الإسراء آية (١).

[7] سورة الحج آية (٢٥).

[8] سورة الفتح آية (٢٥).

[9] سورة الفتح آية (٢٧).

الأقصا ﴾ حيث روي أن النبي " ﷺ " أسري به من بيت أم هانئ ، ويراد بها في موضع آخر الحرم كله ، وهو قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا ﴾ .

فالمسجد الحرام غير الكعبة المشرفة ولذلك يقول القائل : خرجت من المسجد الحرام ، واعتكفت به ، وهكذا ...

ولذلك كان الحديث عن بناء الكعبة خاصاً بها ، أما المسجد فلم يقع له بناء وظل عبارة عن فسحة واسعة محيطة بالكعبة ، وكان حول الكعبة خلاء كبير ، لأن القبائل كانوا يسكنون في شعاب مكة الموجودة بين الجبال ، حيث عرف كل شعب بمن كان يسكنه ، واستمر الأمر على ذلك حتى استولى قصي على مكة ، وأمر قومه أن يبنوا لأنفسهم حول الكعبة ، وقال لهم : إن سكنتم حول الكعبة هابكم الناس ، وخافوا من قتالكم ، والهجوم عليكم ، وبدأ هو أولاً بالبناء فاتبعوه .

وكانت أبواب البيوت مفتوحة تجاه الكعبة ، ومحيطة بها ، ولم يتركوا للطائفين إلا مساحة ضيقة بمقدار مطافهم ، حتى عد مكان الطواف مدخل البيوت.

وتقديرا للكعبة جعلوا بين كل دارين طريقاً إليها ، واشترطوا أن لا يعلو بناء ما عن الكعبة حتى ترى من جميع نواحيها .

واستمر حال المسجد على ذلك في زمن رسول الله " ﷺ " ، وزمن أبي بكر " ﷺ " ، فلما ولي الخلافة عمر بن الخطاب " ﷺ " رأى أن الناس قد ضيقوا على المسجد ، وألصقوا دورهم به ، مع أنه صار مقصداً للناس ، يشد المسلمون إليه الرحال من كل مكان ..

فلما رأى ذلك عمر " ﷺ " قال لأهل مكة : إن الكعبة بيت الله ، ولابد للبيت من فناء . وإنكم دخلتم عليها ، ولم تدخل عليكم ، فاشترى تلك الدور من أهلها ،

وهدمها ، وبنى سورا للمسجد وفتح في السور أبوابا في أماكن الطرق التي كانت الدور ، وسمي كل باب باسم الطريق المقابل له،وهذا تعددت الأبواب في السور .

ولما ولي عثمان " ﷺ " ، إشترى دوراً أخرى ، وأعلى في ثمنها ، وزاد في سعة المسجد [١]، وزاد في عدد الأبواب .

فلما كانت خلافة ابن الزبير " ﷺ " عمر المسجد الحرام بعد أن انتهى من عمارة الكعبة المعظمة وزاد فيه زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية واشترى دوراً كثيرة وسقف المسجد أيضاً [٢] .

وتوالت الزيادة في المسجد الحرام ، وأشهرها الزيادة العثمانية حيث تركوا مكاناً خالياً للطواف ، وأحاطوه ببناء دائرى ، مقام على أعمدة رخامية ، ومسقف بقباب فى جميع نواحيه .

وكان آخرها في العصر الحديث حيث الزيادة السعودية في عهد الملك سعود بن عبد العزيز وفى عهد أخيه الملك فهد بن عبد العزيز ، جزاهم الله خير الجزاء .

***

---

[١] الروض الأنف ج١ ص ٢٢٤ .

[٢] في رحاب البيت الحرام ص ١٩٩ .

المبحث التاسع

المقدمات العملية للبعثة النبوية

بعدما تزوج محمد " ﷺ " من خديجة " رضي الله عنها " لم يعد محتاجاً للمال يسعى لتحصيله، أو يشتغل في العمل من أجل كسبه ، فلقد أغناه الله بمال خديجة " رضي الله عنها " ، وأغناه كذلك برضى النفس ، وهدوء البال ، وأغناه بالميل نحو التأمل ، والتفكير ، أكثر من ميله للكسب المادي،وبذل الجهد والعمل .

ولذلك نراه " ﷺ " يبدأ حياة التأمل ، ويتفرغ للتحنث بعيداً عن صخب الحياة ، وضجيج العمل ، وفي فترة ما قبل البعثة عاش محمد " ﷺ " ، وعاش العالم كله مقدمات البعثة ، المتمثلة في النقاط التالية : ــ

- أولا -

كثرة المبشرات

تمتلئ كتب السيرة والتاريخ بالمبشرات الكونية والإنسانية ، التي أشارت إلى قرب ظهـور نبي في بلاد العرب ، يبعث للعالم كله ، لنشر العدل ، وتحقيق الأمن والسـلام ، وقـد أتت أغلب هذه المبشرات من أحبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وكهان العرب .

وسوف أورد هنا شيئاً منها ، لثبوتها بتصديق القرآن الكريم لها ، ولأن ثبوت صدقها إثبـات للإرهاصات العديدة التي صاحبت مولد محمد " ﷺ " ، ونشأته وحياته كلها .

إن مبشـرات أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، هي مبشرات صحيحة لشـهادة القرآن الكريم، حيث بين الله تعالى بصورة قاطعة معرفة الأحبار،والرهبان، برسالة محمد " ﷺ " ، وتحديد مواصفاته ، ومكان ظهوره ، وطبيعة رسالته العالمية .

يقول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ودلالة الآية صريحة في أن أهل الكتاب، وهم اليهود والنصارى ، يعرفون محمداً ،ورسالته معرفة تفصيلية ، ومع ذلك فقد جحد فريق منهم نبوة محمد " ﷺ " ، وكتم ما يعرفه، وأنكر ما هو صحيح لديه.

جاء في تفسير الطبري أن أحبار اليهود ، وعلماء النصارى كتموا أمر محمد " ﷺ "وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فأخبر الله نبيه محمداً " ﷺ " وأمته بكتمانهم ذلك عن علم ومعرفة ، وليس لهم ذلك [2] .

وإنما شبه معرفتهم له " ﷺ " بمعرفتهم بأبنائهم ، و لم يشبهها بمعرفتهم بأنفسهم لأن الوالد يعرف إبنه في كل وقت ، وفي كل حال ، وقد يغفل عن نفسه أحياناً وأيضاً فإن المعرفة الكاملة للنفس أمر مستحيل بينما المعرفة للولد تكون أكمل.

قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف إبنك ؟

قال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه، إلى أمينه في أرضه، بنعته، فعرفته ، وإني لا أدري ما كان من أمه [3] ! ! .

ويقول الله تعالى:﴿ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [4]

فهو " ﷺ " موجود في التوراة ، والإنجيل بوصفه ورسالته .

يروي البخاري بسنده أن عطاء ابن يسار لقي عبد الله بن عمرو بن العاص " ﷺ " وقال له : أخبرني عن صفة رسول الله " ﷺ " في التوراة .

---

(١) سورة البقرة آية (١٤٦) .

(٢) تفسير الطبري ج ٣ ص ١٢٦ ط. دار المعارف .

(٣) تفسير القرطبي ج٢ ص ١٦٣ . ط. دار الكتب .

(٤) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

فقال عطاء : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله ، ويفتح به أعيناً عمياً ، وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً [1] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [2] والآية تبين أن عيسى " عليه السلام " بشر أتباعه ، وعلى رأسهم الحواريون برسالة محمد " ﷺ " ، وحدد لهم اسمه ووصفه .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ [3] والآية صريحة في أن الله تعالى بين لأهل الكتاب رسالة محمد ووضحه لهم بالتمثيل والتشبيه الذي يقرب المعنى ، ويسهل المفاهيم الصعبة ، فمثل محمد وأصحابه في التوراة أنهم متعاونون يحب بعضهم بعضاً ، ويواجهون الكفار بقوة وشدة ، وأنهم عابدون لله ، راكعون ، ساجدون ، في وجوههم

---

(1) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب كراهية السخب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(2) سورة الصف آية (٦) .

(3) سورة الفتح آية (٢٩) .

علامات السجود ، وهم يدعون ربهم ، ويطلبون منه الخير ، والفضل دائماً ... ومثلهم في الإنجيل كزرع يانع ، بلغ غاية النمو والثمر ، بمنظر بهيج ، وفائدة واضحة نفسه وغيره .

وضرب المثال بعد التصريح لزيادة التعريف والتوضيح ، ولذلك كان عتاب الله لأهل الكتاب لكفرهم بمحمد " ﷺ " وإنكارهم آيات الله التي جاءت معه ولا عذر لهم في ذلك ...

يقول الله تعالى : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾[1] ؟ ! ! ..

ويقول سبحانه : ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[2] ؟ ! ! ..

وقد جاءت الآيتان بصيغة الاستفهام الإنكاري لإظهار خطأ أهل الكتاب فيما هم فيه من الكفر ، والعناد ، بعد ما رأوا الآيات الدالة على صدق محمد " ﷺ " وصدق دعوته ، وقد رأوها بأعينهم ، وتيقنوها بأفئدتهم .

لقد كان اليهود في المدينة المنورة يخوفون الأوس والخزرج قبل الهجرة بقرب ظهور نبي يتبعونه ، ويتقوون به ، حتى يتمكنوا من قتال العرب قتل عاد وإرم ، الأمر الذي دفع أهل المدينة إلى الإسراع في الدخول في الإسلام ، وإتباع محمد " ﷺ " حتى لا يسبقهم اليهود إلى الإيمان به .

يروي ابن إسحاق أن عاصم بن عمر بن قتادة عن رجال من قومه أنهم قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام ، مع رحمة الله تعالى وهداه لنا ، ما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك ، وأصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب ، عندهم علم ليس لنا

---

[1] سورة آل عمران آية (٧٠) .

[2] سورة آل عمران آية (٧١) .

وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم، فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله " ﷺ " أجبناه ، حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه فآمنا به ، وكفروا به ، ففينا وفيهم نزل قول الله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [1] ..

وخلاصة المبحث هو تأكيد صدق أحبار اليهود،ورهبان النصارى في البشارات المحمدية التي تحدثوا عنها ، وأكدوا ضرورة وقوعها في شخص رسول الله " ﷺ " مع أنهم لم يؤمنوا بدعوة محمد " ﷺ " حين جاءهم : حقدا ، وحسدا ..

ـــ يقول سفيان بن حرب : إن أمية بن أبي الصلت ذهب إلى عالم من علماء النصارى ، ليلتقي إليه علم الكتاب ، وسأله عن النبي المنتظر .

فقال له : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر .

فأجابه : هو رجل من العرب .

قال له : من أي العرب ؟

فأجابه : من أهل بيت يحجه العرب من إخوانكم من قريش ،

قال له : صفه لي .

فأجابه : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بدء أمره تجنب المظالم، والمحارم، ويصل الرحم، ويأمر بصلتها ، وهو محوج، كريم الطرفين، متوسط في العشيرة، أكثر جنده الملائكة [2] .

ـــ ويروي ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف ، قال : سافرت إلى اليمن

---

(1) سورة البقرة الآية ١٤٦ .

(2) ... ج٢ ص ٢٥٦ .

قبل مبعث النبي " ﷺ " بسنة ، فنزلت على عسكلان بن عواكن الحميري ، وكان شيخاً كبيراً، وكنت لا أزال إذا قدمت اليمن أنزل عليه، فيسألني عن مكة، الكعبة، وزمزم ويقول : هل ظهر فيكم رجل له ذكر ؟ هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم ؟ فأقول : لا ، حتى قدمت المرة التي بعث فيها رسول الله " ﷺ " فوافيته ضعف، وثقل سمعه، فنزلت عليه، فاجتمع عليه ولده، وولد ولده، فأخبروه بمكاني وانتسبوا له، وقد شدت عصابة على عينيه ، وأسند فقعد ، فقال لي : انتسب يا أخا قريش .

فقلت : أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عدي بن الحارث بن زهرة.

قال : حسبك يا أخا زهرة ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة ؟

قلت : بلى .

قال : أنبئك بالمعجبة،وأبشرك بالمرغبة ، إن الله تعالى بعث في الشهر الأول من قومك نبياً، ارتضاه صفياً، وأنزل عليه كتاباً، وجعل له ثواباً ، ينهى عن الأصنام، ويدعو إلى الإسلام، يأمر بالحق ويفعله، وينهى عن الباطل ويبطله .

فقلت : ممن هو ؟

قال : لا من الأزد و لا ثمالة ، ولا من سرو ولا تبالة ، هو من بني هاشم ، وأنتم أخو الله يا عبد الرحمن أحسن الوقعة، وعجل الرجعة، ثم امض وآزره ، وصدقه[1]

ـــ ويقول عروة بن مسعود الثقفي : بلغت نجران وكان أسقفها صديقاً لي فلما رآني ، قال لي : يا أبا يعفور هذا حين خروج نبي من أهل حرمكم، يهدي إلى الحق ، وحق المسيح إنه لخير الأنبياء، وآخرهم، فإن ظهر فكن أول من يؤمن به[2]

ـــ ويروى أن أبا ثور عمرو بن معدي كرب " ﷺ " قال : فزعنا إلى كاهن

---

[1] سبل الهدى ج٢ ص ٢٥٨ .

[2] سبل الهدى ج٢ ص ٢٥٩ .

لنا في أمر نزل بنا ، فقال الكاهن : أقسم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات الأدراج ، والريح ذات العجاج ، إن هذا لإمراج ، ولقاح ذي نتاج .

قالوا : وما نتاجه ؟

قال : ظهور نبي صادق ، بكتاب ناطق ، وحسام فالق .

قالوا : أين يظهر ؟ وإلام يدعو ؟

قال : يظهر بصلاح ، ويدعو إلى فلاح ، وينهى عن الراح ، والسفاح ، وعن كل أمر قباح .

قالوا : ممن هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم ، حافر زمزم ، ومطعم الطير الحوم ، والسباع الضرم .

قالوا : وما اسمه ؟

قال : محمد ، وعزه سرمد ، وخصمه مكمد [1] .

ـــ ويروي ابن هشام : أن رؤساء نجران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فكلما مات رئيس منهم وأفضت الرياسة إلى غيره ، ختم على تلك الكتب خاتماً مع الخواتم التي قبله ، ولم يكسرها ، فخرج الرئيس الذي كان على عهد النبي " ﷺ " يمشي فعثر فقال ابنه : تعس الأبعد ، يريد النبي " ﷺ " ، فقال له أبوه : لا تفعل ، فإنه نبي ، واسمه في الوضائع .. يعني الكتب ، فلما مات لم يكن همه إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد ذكر النبي " ﷺ " فأسلم وحسن إسلامه [2] .

وهكذا نري كثرة المبشرات ، وانتشارها في كل أرجاء الأرض ، وكلها تشير إلى نبوة محمد " ﷺ " .

وكان الأمل أن يسارع أهل الكتاب إلى الإيمان والتصديق برسالة محمد " ﷺ " فهم العارفون بها ، ويصدقها ، وقد بشروا الناس بها ، لكن الحقد أعمى قلوبهم ، وصرفهـــم

---

[1] سبل الهدى ج٢ ص ٢٦٠ ، وصلاح اسم من أسماء مكة .

[2] سبل الهدى ج٢ ص ٢٦٢ .

عن إتباع الحق، وكبر في نفوسهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ..

ومع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد " ﷺ " فقد أبقوا في أفهام الناس هذه [illegible]
وهيأوا العقول الصالحة للإيمان، مما جعل الكثير ينتظر هذا النبي المبعوث بدين [illegible]

وقد سبق ذكر ما قاله كاهن عمورية لسلمان الفارسي ، وما قاله بحيرى لأبي
طالب ، وما قاله نسطورا لميسرة [1].

هذا بعض ما قاله الرهبان . .

ومما قاله الأحبار ما رواه ابن سعد بسنده عن أبي بن كعب ، قال : [illegible]
تبع المدينة، ونزل بقناة، بعث إلى أحبار اليهود وقال لهم : إني مخرب هذا البلد حتى لا
تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلى دين العرب . فقال له سامول اليهودي ، وهو يومئذ
أعلمهم : أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل، مولده [illegible]
اسمه أحمد ، وهذه دار هجرته [2] .

ــ وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : كان الزبير بن باطا ، وكان
أعلم اليهود ، يقول : إني وجدت سفراً كان أبي يختمه عليّ ، فيه ذكر أحمد نبي يخرج
بأرض القرظ صفته كذا وكذا [3] .

ــ وعن ابن عباس " ﷺ " قال : كانت يهود قريظة والنضير وفدك
وخيبر يجدون صفة النبي " ﷺ " عندهم قبل أن يبعث ، ويعلمون أن دار هجرته
بالمدينة ، فلما ولد رسول الله " ﷺ " ، قالت أحبار اليهود ، ولد أحمد الليلة، هذا
الكوكب قد طلع ، فلما تنبئ قالوا ، قد تنبئ أحمد ، قد طلع الكوكب الذي يطلع
كانوا يعرفون ذلك، ويقرون به، ويصفونه لولا الحسد والبغي [4] .

---

[1] أنظر ص ٨٧ ،

[2] الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٥٩ .

[3] الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٥٩ .

[4] الطبقات الكبرى جـ١ ص ١٥٩ .

ــ وعن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراني أدركه ، وأنا أومن به وأصدقه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيته، فأقرئه مني السلام ، وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك .

قلت : هلم !

قال : هو رجل ليس بالطويل، ولا بالقصير، ولا بكثير الشعر، ولا بقليله ، وليست تفارق عينيه حمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرجه قومه منه، ويكرهون ما جاء به، حتى يهاجر إلى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه فإني طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل من اليهود والنصارى، والمجوس، يقولون : هذا الدين وراءك ، وينعتونه مثل ما نعته لك . ويقولون لم يبق نبي غيره ، يقول عامر بن ربيعة : فلما أسلمت أخبرت رســـول الله ﷺ قول زيد ابن عمرو وأقرأته منه السلام ، فرد عليه السلام ورحمة الله عليه وقال . قد رأيته في الجنة يسحب ذيولاً [١] .

❊ ❊ ❊

---

[١] الصفات للكلبي جـ٧ ص ١٦١ .

« ثانياً »

إنتشار العلم

بخاتم النبوة

من مقدمات البعثة أن محمداً " ﷺ " تمتع بعلامات عرفت بخاتم النبوة رآها أهل الكتاب وغيرهم قبل مبعثه " ﷺ " وأكثروا الحديث عنها .

وخـــاتم النـــبوة عبارة عن بضعة لحم مرتفعة عن الجسد ، وجدت في ظهره الشـــريف " ﷺ " عند أسفل عظم كتفه اليسرى ، وقد تكلم العلماء عن الحكمة في وضعه مع الخاتم خلف ظهره ، وفي هذا المكان المواجه للقلب .

يقـــول ابن دحيه ـــ رحمه الله ـــ : الحكمة في وضع الخاتم بين كتفي رسول الله " ﷺ " : إشارة إلي أنه لا نبي بعدك يأتي من ورائك [١] .

وقال في الفتح : السر في ذلك أن القلب في تلك الجهة [٢] .

وقال العلامة السهيلي في الروض الأنف : وحكمة وضعه ـــ أي الخاتم عند النغض ـــ من الكتف اليسري ـــ عصمته من وسوسة الشيطان ، ولأن ذلك الموضع منه يدخل الشيطان ، فكان ذلك حفظاً له من الشيطان [٣] .

وروي ابن عبد البر بسند قوي إلي ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز أن رجـــلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأري جسده مهي (يري داخلـــه مـــن خارجه) وأري الشيطان في صورة ضفدع ، عند كتفه حذاء قلبه له خـــرطوم كخرطوم البعوضة ، وقد أدخله في منكبه الأيسر إلي قلبه ، يوسوس إليه فإذا ذكر الله تعالي العبد خنس .

قال في الفتح : وهو مقطوع ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلي وابن

---

[١] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ـ كتاب المناقب ـ باب خاتم النبوة ج ٦ ص ٥٦١ .

[٢] فتح الباري علي صحيح البخاري ج٦ ص ٥٦٢ .

[٣] الروض الأنف ج١ ص ١٩١ .

عدي ولفظه : (إن الشيطان وضاع خطمه على قلب ابن آدم) [١] .

ميعاد ختم النبي بهذا الخاتم :

اختلف العلماء في موعد ختم النبي " ﷺ " بخاتم النبوة وذكروا أوقاتاً تتفق غالباً مع الأوقات التي ذكروها لشق صدره " ﷺ " وهي : ــ

ــ قال بعضهم : ختم حين مولده " ﷺ " .

ــ وقال آخرون : ختم يوم شق صدره عند حليمة .

ــ وقال غيرهم : ختم قبيل المبعث .

ــ وقيل : ختم ليلة الإسراء والمعراج

ولكل دليله ، وحجته .

ورجح ابن حجر أن الختم كان يوم شق صدره عند حليمة ؛ وقطع به القاضي عياض ، لأن الذين رأوه وشاهدوه ذكروا أن رؤيتهم للخاتم كانت قبل ازمنه بوقت طويل .

ولا مانع من القول بأن الله تعالى كرر الختم لرسول الله في كل هذه المرات إعمالاً للأحاديث كلها ، وزيادة في البركة والعون .

وسميت هذه العلامة بالخاتم جرياً على عادة الناس في إثبات صدق ما يكتبون بخاتم معين ، فكأن هذا الخاتم دليل على صدق محمد " ﷺ " .

والأحاديث المثبتة لخاتم النبوة كثيرة منها : ــ

ــ عن السائب بن يزيد " ﷺ " يقول : ذهبت بي خالتي إلى النبي " ﷺ " فقالت يا رسول الله : إن ابن أختي وجع، فمسح " ﷺ " رأسي، ودعا لي بالبركة، وتوضأ، فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى الخاتم بين كتفيه فإذا هو مثل زر الحجلة [٢] .

---

[١] فتح الباري ج٦ ص ٥٦٣ .

[٢] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ــ كتاب الوضوء ــ باب فضل استعمال وضوء الناس ج١ ص ٢٩٦

ــ وعن سماك قال : حدثني جابر بن سمره " ﷺ " قال : رأيت خاتماً في ظهر رسول الله " ﷺ " كأنه بيضة حمام .

ــ وفي روايـــة أخري قال : رأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة حمـــام يشبه جسده [١] .

ــ وعن ابن زيد الأنصاري " ﷺ " قال : قـــال لي رســـول الله " ﷺ " يا أبا زيد أدن مني فامسح ظهري، فمسحت ظهره ، فوقعت أصابعي علي الخاتم قلت : وما الخاتم ؟

قال : شعرات مجتمعات [٢] .

ــ عـــن عبد الله بن سرجس " ﷺ " قال : رأيت النبي " ﷺ " وأكلت معه خبزاً ولحماً أو قال ثريداً ،

فقلت له : هل استغفر لك النبي " ﷺ " ! ؟.

قال : نعم ولك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾

قال : ثم درت خلفه فنظرت إلي خاتم النبوة بين كتفيه، عند نغض كتفه اليسري جمعاً عليه خيلان كأمثال الثاليل [٣] .

ــ وعن أبي نضرة العوفي " ﷺ " قال : سألت أبا سعيد الخدري عن خاتم رسول الله " ﷺ " ، يعني : خاتم النبوة ، فقال : كان في ظهره بضعة ناشزة [٤] .

وللعلماء في وصف خاتم النبوة أقوال : ــ

ــ يصفها الحاكم في كتابه بأنها شعر مجتمع .

---

[١] صحيح مسلم بشرح النووي ــ كتاب الفضائل ــ باب غيبة النبي " ﷺ " ج ١٥ ص ٩٧ .

[٢] قال الألباني في الشمائل : رواه الترمذي والحاكم وأحمد وابن حبان بسند صحيح رقم (١٧) .

[٣] الثاليل : جمع ثؤلول : وهو حب صغير صلب مستدير يظهر علي الجلد كالحمصة فما دونها ، والحديث رواه مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب إثبات خاتم النبوة ج ١٥ ص ٩٩ .

[٤] ناشزة : مرتفعة ، والحديث قال الألباني عنه في الشمائل ، رواه الترمذي بسند حسن رقم (١٩) .

ـ وفي كتاب البيهقي : بضعة ناشزة .

ـ وفي حديث عمرو بن أخطب (كشيء يختم به) .

ـ وفي تاريخ ابن عساكر (مثل البندقة) .

ـ وفي الترمذي (كالتفاحة) .

ـ وفي الروض : كرأس الحجم الغائص على اللحم .

ـ وفي تاريخ ابن أبي خيثمة شامة خضراء محتفرة في اللحم .

ـ وفيه أيضاً شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكبات كأنها عرف الفرس .

ـ وفي تاريخ القضاعي ثلاث مجتمعات .

ـ وعن عائشة " رضي الله عنها " كتينة صغيرة تضرب إلى الدهمة [1] .

واختلاف العلماء في وصف خاتم النبوة ليس من قبيل التنافي والتضاد ؛ وإنما هي باعتبار أن كلا منهم شبه الخاتم بما سنح له ، وبما ظهر أمامه ؛ لأنه " ﷺ " كان يستره بثوبه ، ومن وصف الخاتم رآه بنظرة خاطفة ، أو أرى له فجأة ، مع وجود عوامل الهيبة والاندهاش في هذا الموقف العجيب . ومن الملاحظ أن الأقوال متقاربة في وصف الخاتم من ناحية صورته ، وحجمه ومكانه .

ووجود الخاتم النبوي مندرج في خوارق العادات التي أحاط الله بها النبوات ، ويجب التسليم بها .

***

---

(١) [illegible] جـ١ ص ٢٦٠ ، ٣٧٤ هامش ، فتح الباري جـ٦ ص ٥٦٣ .

- ثالثا -

منع الجن من الاستماع

الجن خلق لله تعالي أوجدهم من النار ، وقدر لهم أن يعيشوا علي نحو [illegible]
لهم ، فهم أجسام معنوية ، هائمة في الدنيا ، سريعة التنقل والحركة ، قوية الإدراك
يرون الناس من حيث لا يروهم .

وهـــم خلق مكلفون برسالات الله ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، وقصة
وجودهـــم تبدأ بقصة إبليس مع ادم " عليه السلام " حيث أخرجهما الله من الجنة ، وقدر
لهمـــا التناســـل والتكاثر ، وأهبطهما الأرض ليعيش كل طرف وذريته في عداوة مع
الطرف الثاني وذريته إلي يوم القيامة .

وقـــد تمكن كل طرف بالإستعانة بأفراد من الطرف الآخر ، والتعاون معهم
فيما هو عليه من اتجاه وعمل .

واستطاع كهان الإنس أن يستعينوا بأفراد من الجن فزادوهم ضلالاً ، ونحو [illegible]
، يقول تعالي : ﴿ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ
رَهَقًا ﴿٦﴾ ﴾ (١) وذلك أن الرجل من الإنس كان إذا نزل بمكان مخوف يقول : أستعيذ
بسيد هذا المكان من شر سفهائه ، فزادوهم طغياناً ، وضلالاً ، وبعداً عن الله تعالي .

وكان الجن يقومون باستماع الخبر من السماء ، وبما يسمع الكهان من الناس
، فيضيفون إليه من عندهم ، ويتحدثون به كذباً وبهتاناً، تقول السيـــدة عائشة
رضي الله عنها " : سأل أنـــاس رســـول الله " ﷺ " عن الكهان .
فقال لهم رسول الله " ﷺ " : (ليسوا بشئ) .
قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون أحياناً بالشئ يكون حقاً .
فقال رسول الله " ﷺ ": (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني ، فيقرها في أذن وليه

---

(١) سورة الجن آية (٦) .

في الزجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة)[١] .

ويروي البخاري بسنده عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : سمعت رسول الله " ﷺ " يقول : إن الملائكة تنزل في العنان ـــ السحاب ـــ فتذكر الأمر قضي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتوحيه إلى الكهان فيتحدثون به [٢]

وبهذا الطريق علم الكهان خبر مبعث محمد " ﷺ " فتحدثوا بها الناس ..

ومن أقوال الكهان ما قاله خطر بن مالك وهو أعلم كهان العرب ؛ قال :

أرى لقومي ما أرى لنفسي ... أن يتبعوا خير بني الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس ... يبعث في مكة دار الحمس

بمحكم التنزيل غير اللبس

فقيل له : يا خطر ، وممن هو ؟

فقال : والحياة والعيش ، إنه لمن قريش ، ما في حلمه طيش ، ولا في خلقه هيش .

يكون في جيش ، وأي جيش ! من آل قحطان وآل أيش .

فقيل له : بين لنا : من أي قريش هو ؟

فقال : والبيت ذي الدعائم ، والركن والأحاتم، إنه لمن نجل هاشم ، من معشر كرائم

يبعث بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو البيان ، أخبرني به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الحق وظهر ، وانقطع عن الجن الخبر ثم سكت وأغمي عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة[٣] .

ـــ يقول عبد الله بن كعب : "سمعت عمر بن الخطاب يحدث الناس ويقول : والله إني لعند وثن من أوثان الجاهلية، في نفر من قريش ، قد ذبح له رجل من العرب عجلاً ، ونحن ننتظر قسمه، ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العجل

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب الطب ـــ باب الكهانة جـ٧ ص ٢٠٨ .

[٢] صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الخلق جـ٤ ص ٧٩ .

[٣] الروض الأنف جـ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ .

صوتاً ما سمعت صوتاً قط أنفذ منه . وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شهرين ،

: يا ذريح أمر نجيح ، رجل يصيح ، يقول : لا إله إلا الله [١] .

ــــ ويقول الكاهن " سطيح " لربيعة بن نصر ملك اليمن لما سأله عن

رؤياه قال له الكاهن : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت أرض تهمة

فأكلت منها كل ذات جمجمة ، فقال الملك ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح

عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف ما بين الحرتين من حنش .. لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملكن ما

أبين إلى جرش .

فقال الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى هو كائن ؟ أفي زماني

أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين، أو سبعين ، يمضين من السنين ! .

قال : أيدوم ذلك في ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين ،

قال : ومن يلي ذلك من أمر قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم ذو يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن !

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه، أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلى !

قال : وممن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى آخر

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام جـ١ ص ٢١٠ .

الدهر .

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه

المسيئون .

قال : أحق ما تخبرني ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أنبأتك به لحق ! [١] .

ـ وسأل ربيعة بن نصر كاهناً آخر هو " شق " فأجابه بمثل ما أجاب سطيح ..

ـ ويروي النويري في نهاية الإرب أن سفيان بن مجاشع بن دارم احتمل

ديات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلى حي من تميم ، فإذا هم

مجتمعون إلى كاهنة تقول : العزيز من والاه ، والذليل من خالاه ، والموفور من مالاه ،

والموتور من عاداه ..

قال سفيان : من تذكرين .. لله أبوك ؟

فقالت : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم ، وبطش وحلم ، وحرب وسلم ، رأس

رءوس ، ورائض بسوس ، وماحي بوس ، وماهد وعوس ..

قال سفيان : من هو ؟ .. لله أبوك ؟

قالت : نبي مؤيد ، قد آن حين يوجد ، ودنا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود

بكتاب لا يفند ، اسمه محمد .

قال سفيان : لله أبوك ! أعربي هو أم عجمي ؟

قالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان ، إنه لمن معد بن عدنان ،

فحسبك يا سفيان [٢] .

---

(١) من محمد " ﷺ " ص ٢١٨ .

(٢) مرجع السابق ص ٢٢١ ـــ ٢٢٢ ، بوس أي البؤس ، والوعوس أي الصعب .

إن أخبار الكهان تشبه أنباء الأحبار والرهبان في أنها جميعاً تدخل في مجال المبهات الحسية التي تسبق الأمور الهامة ، لتتيقظ العقول لهذا الجديد القادم .

إنها ليست دعوة إلي دين الله ، وليست تكليفاً بشريعة ، ولكنها مقدمة لأمر له شأنه،ينبه الأفهام ؛ ويوقظ العقول، وقد فطر الله الناس علي أن عظائم الأمور تسبق بتمهيد يشير إليها، ويجذب الأفهام نحوها .

وقد عرفنا الله تعالي بما كانت تقوم به الجن من استماع حديث الملائكة وحديث الله عنهم حيث يقول تعالي : ﴿ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ ﴾[1] وذلك حين كان يمكن للجن أن تجلس في السماء في مكان يسمع فيه ، وفجأة تغير الحال ، وتبدل ونظرت الجن إلي السماء التي كانوا يتحركون خلالها للتصنت والاستماع ء بلا عائق؛ أو مانع، فوجدوها علي غير ما كانت عليها ، يصور الله ذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴾[2] لقد امتلأت السماء بالحرس القوي من الملائكة تمنع الجن من الإقتراب، فإذا أقترب أحدهم يرمي بالشهب الملتهبة .

وقد كان الجن يتحايل في الاستماع، حيث كانوا يجلسون واحداً فوق واحد فإذا احترق الأعلي طلع الذي تحته حتي يتمكنوا من استماع شيء ؛ فإذا ما استرقوا كلمة ألقوها إلي الكهان أشياعهم ليتحدثوا بها مع إضافة مائة كذبة إلي الكلمة الواحدة المسروقة[3].

فلما كانت بعثة محمد " ﷺ " منع الجن من الاستراق ، يقول الله تعالي عن لسان الجن : ﴿ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا ﴾ وحينئذ رأت الجن أن ذلك

---

[1] سورة الجن آية (٩) .

[2] سورة الجن آية (٨)

[3] منح الباري – كتاب التفسير – باب في الوحي إلى ج ٨ ص ٦٧١

الحدث مقدمة ضرورية لأمر ضروري سوف يقع وقالوا عن ذلك: ﴿ وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ [1] إنهم لم يحددوا ما سيحدث للناس ، ولكنهم أكدوا خطـــورته وأهميته .

ولما رأت قريش الشهب في السماء توقعوا أمراً جللاً حتى تصوروه الفناء ،

يقول أبي بن كعب : رأت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلوا يسيبون أنعامهم ، ويعتقون أرقاءهم، يظنون أنه الفناء ، وفعلت ثقيف مثل ذلك .

فبلغ عبد ياليل فقال : لا تعجلوا ، وانظروا ، فإن تكن نجوماً تعرف فهو عند فناء الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف ، فهو عند أمر قد حدث .

فنظروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال : هذا عند ظهور نبي .

فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم الطائف أبـــو سفيان بـــن حـــرب فقال : ظهر محمد بن عبد الله يدعي أنه نبي مرسل .

فقال عبد ياليل : فعند ذلك رمي بها [2] .

يروي ابن عباس أن رسول الله " ﷺ " قال لهم : ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمي به في الجاهلية ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمي بها : مات ملك ، ملك ملك ، ولد مولود ، مات مولود .

فقال رسول الله " ﷺ " : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا فسبح من تحتهم لتسبيحهم ، فسبح من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا .

ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟

فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبيحهم .

---

(١) سورة الجن آية : ١٠)

(٢) السيرة الحلبية جـ٢ ص ٢٦٧ .

فيقولون : ألا تسألون من فوقكم مم سبحوا ؟

فيقولون مثل ذلك حتى ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم : مم سبحتم ؟

فيقولون : قضى الله تعالى في خلقه كذا، وكذا، للأمر الذي كان فيهبط به الخبر سماء: إلى سماء حتى ينتهي إلى السماء الدنيا، فيتحدثون به ، فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم، واختلاف ، ثم يأتون به الكهان فيحدثونهم فيخطئون بعضاً ، ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها، فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة [1].

وهكذا ..

كثرت البشائر ، والمنبهات مقدمة لبعثة محمد " ﷺ " وإرساله بدين الله تعالى للناس أجمعين . .

***

---

[1] صحيح مسلم . كتاب السلام ــ باب تحريم الكهانة ج٤ رقم ١٧٥٠ ، ١٧٥١

« رابعاً »

تكامل شخصية

محمد " ﷺ "

منذ بلوغ محمد " ﷺ " سن الأربعين [1] ، تكاملت شخصيته في كافة جوانبها البشرية ، فوصل إلى التمام في صورته ، وخلقه ، وعقله ، وروحه ، وذلك بفضل الله ، وعنايته .

إن النبوة تكليف إلهي ، يصنع الله لها رجالاً من خلقه على نحو يريده سبحانه وتعالى ، ويوحي إليهم ، وبذلك توجد النبوة في النبي ، وتتلاقى الرسالة والرسول في انسجام ، وتناغم ، وتوازن .

إن النبي صناعة إلهية ، يقول الله عن موسى " عليه السلام " : ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴾ [2] ، ويقول سبحانه على لسان عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴾ [3] ، وهكذا الأنبياء جميعاً في تكوينهم ، وتنشئتهم ، وحياتهم ، حيث تلقاهم جميعاً محاطين بالرعاية ، والعناية ، تحفهم خوارق العادات التي تمثل جزءاً من حياتهم ونشاطهم قبل النبوة .

ويخطئ بعض الناس حيث يقفون أمام الإرهاصات ، والمبشرات موقف الإنكار والدهشة ، لأنها خوارق للعادة جرت قبل البعثة ، ويسلمون بخوارق العادات بعد النبوة لأنها معجزة تصدق الرسول في نبوته .

وبعض آخر من الناس ينكر هذه المبشرات لخروجها عن مألوف عقولهم ، ومعارضتها لتصوراتهم للكون والحياة .

---

(1) شرح النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

(2) سورة طه آية (٤١) .

(3) سورة مريم آية (٣٠) .

والواجب أن يدرك الجميع أن خوارق العادات تحيط بالرسول قبل بعثته وقبل مولده ، كما تكون معه بعد مبعثه ، لأنها جميعاً من الله ، ولكل منها توقيته ودوره .

والخـــارق للعادة مطلقاً لا دخل للعقل فيه ، فما بال فريق من الناس يؤمن بالبعض ، ويكفر بالبعض الآخر .

إن العقل عاجز لا يمكنه تغيير مسار الأمور العادية القدرية كحركة الأفلاك وتكوين الجنين ... وغيرها ، والعقل حين يعجز عليه أن يسلم بما يرى .

هذا في الأمور العادية . . .

وواجـــب أن يكون التسليم في كل قدر الله وبخاصة ما جاء خارقاً للعادة مطلقاً .

لقـــد أحاطت عناية الله محمداً " ﷺ " من كافة النواحي ، من ناحية نسبه وحمل أمه به ، وإرضاعه ، ونشاطه ، ورحلاته ، وقد سبق ذكر صور لهذه العناية التي أثرت شخصية متكاملة في واحد من الناس يريد الله له أن يكون رسولاً نبياً .

وقـــد تجـــلي هـــذا الكمال البشري في شخصية محمد " ﷺ " قبل مبعثه في الجوانب التالية : ـــ

١ ـ سمو السلوك :

عاش محمد " ﷺ " حياته كلها في أعمال فاضلة ، وسلوك سليم ، ولم تؤثر عـــنه ريبة قط ، بل كان في كل حالاته ، وأحواله رجلاً فاضلاً ، ممتازاً ، حتى عرفه في مكة بحسن العمل ، وسمو السلوك .

ومـــع خروج النبي " ﷺ " إلى مجتمع مكة ، واختلاطه بشبابها ، وتعامله مع رجالها كانت عناية الله معه ، فصار رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسنهم خلقاً ، وأكرمهم حسـبـاً ، وأحســنهم جواراً ، وأعظمهم حلماً ، وأصدقهم حديثاً ، وأكثرهم أمانة

وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال . ما رئي ملاحياً ولا ممارياً أحداً، حتى عرفه قومه بالأمين الصادق ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

صرف الله عنه كل ما يسيء ويشين ، فعن علي بن أبي طالب " ﷺ " عنه قال : (سمعت رسول الله " ﷺ " يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهمون به من الغناء إلا ليلتين ، كلتاهما عصمني الله منهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة . ونحن في رعاية غنم أهلنا، هيا بنا تسمر كما يسمر الشباب ،وقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان .

فقال : بلى، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة، سمعت عزفاً، وغرابيل، ومزامير .

قلت : ماهذا ؟

قيل : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني ، فـــــو الله ما أيقظني الا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت .

ثم قلـــت له لسيلة أخري : أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، ففعل فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر ، وضرب الله على أذني فو الله ما أيقظني إلا مس الشمس

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت .

فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

فو الله ما هممت ولا عدت بعدهما لشئ من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته)[1] .

---

[1] السيرة النبوية لابن كثير ج١ ص ٢٥١ .

وعـــن أم أيمن " رضي الله عنها " قالت : (كان بوانة صنماً تحضره قريش يومـــاً في السنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه، وكان يكلم رسول الله " ﷺ " أن يحضر ذلك معه، فيأبى حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته غضبن عليـــه وقلـــن : يا محمد ما تريد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعاً، فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً، فزعاً .

فقالت عماته : ما دهاك ؟

قال : إني أخشي أن يكون بي لمم

فقلـــن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دعوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي : وراءك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم)[١] .

وعن علي " ﷺ " قال :(قيل للنبي " ﷺ " : هل عبدت وثناقط ؟ .

قال : لا .

قالوا : فهل شربت خمراً قط ؟

قـــال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان ..)[٢] .

يقـــول ابن إسحاق : وكان رسول الله " ﷺ " ــ فيما ذكر لي ــ يحدث عمـــا كـــان يحفظه الله به في صغره، وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتني في غلمان قـــريش نـــنقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعري ، وأخذ إزاره

---

[١] الخصائص الكبرى جـ١ ص ٢٢١ .

[٢] دلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٤٦ .

فجعله على رقبته ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك، وأدبر ، إذ لكمني لاكم لكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك .

فأخذته وشددته عليّ ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي .

يقول السهيلي : ورد مثل هذا الحديث الصحيح في بنيان الكعبة ، وفيه أن رسول الله " ﷺ " كان ينقل الحجارة مع قومه ، وكانوا يحملون أزرهم على عواتقهم لتقيهم قسوة الحجارة ، وكان رسول الله " ﷺ " يحملها على عاتقه، وإزاره مشدود عليه ، فقال له العباس " ﷺ " : ياابن أخي لو جعلت إزارك على عنقك ، ففعل فسقط مغشيا عليه ، ثم قال إزاري ، إزاري،فشد عليه إزاره،وقام يحمل الحجارة [١] .

ولا مانع من تكرار هذا التوجيه القدري ليبقى محمد " ﷺ " في طهارته وسموه .

روى ابن سعد أن رسول الله " ﷺ " كان يتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام لما عرف عنه من العقل ، والحكمة ، ولذلك لما بعث ناداهم، وسألهم عن حقه ، وصدقه ، فأقروا له بما علموا منه .

يروي البخاري بسنده عن ابن عباس " رضي الله عنهما " قال : (لما نزلت ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [٢]، خرج رسول الله " ﷺ " حتى صعد الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه .

فقال : أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال أبو لهب : تباً لك ، ما جمعتنا إلا لهذا ؟) [٣] .

---

[١] سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٨٣

[٢] سورة الشعراء آية (٢١٤)   [٣] صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب التفسير — باب تبت يدا ج ٨ ص ١٣٧

ولقد اشتهر رسول الله " ﷺ " قبل مبعثه بالأخلاق الكريمة ، وتمتع بالصفات الفاضلة ، وجاء قول الله تعالى في وصف خلقه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[1] لتصف أخلاقه بالعظمة التي اتصف بها بصورة شاملة قبل البعث ، حتى سماه قومه بالأمين ، ووصفته السيدة خديجة بما كان فيه يوم أن جاءها مرتعشاً ، خائفاً ، قالت له : **والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق**[2] .

وصدقت السيدة " رضي الله عنها " في شهادتها ، ونطقت بالحق ، وكانت تعبيراً ناطقاً عن المستقبل ؛ إذ أكرم الله محمداً " ﷺ " ، واختاره رسولاً للعالم كله .

٢ - جمال الخلقة :

أضفى الله تعالى بفضله ، وكرمه على رسوله محمد " ﷺ " الحسن والجمال الذي تميز به قبل النبوة . . وحين نورد شيئاً من جمال خلقته " ﷺ " فليس أمامنا إلا مصادر السيرة ، والحديث ننقل عنها .

يروي البخاري بسنده عن أبي هريرة أنه قال : (**كان النبي " ﷺ " أحسن الناس وجهاً** ، حتى قال أنس " ﷺ " : **لم أر بعده ولا قبله مثله**)[3] .

ولما سئل " البراء " " ﷺ " : **أكان وجه النبي " ﷺ " مثل السيف ؟ قال : لا ، بل مثل القمر ،وكان مستديراً** ، وورد أنه كان " ﷺ " **مليح الوجه**[4] **وكان عظيم الفم ، طويل شق العين**[5] .

---

[1] سورة القلم آية (٤) .

[2] صحيح البخاري ـــ كتاب المناقب .

[3] البخاري ٧ / ٥٨ ـ ٥٩ كتاب المناقب ـ باب الجعد ، ومسلم ٤ / ١٨١٩ ـ كتاب الفضائل ـ باب في صفة النبي " ﷺ " وأنه كان أحسن الناس وجهاً .

[4] صحيح البخاري ـــ كتاب الفضائل ـــ باب كان النبي " ﷺ " أبيض مليح الوجه ج٦ ص ٢٨ .

[5] صحيح البخاري ـــ كتاب الفضائل ـ باب صفة فم النبي " ﷺ " وعينيه وعقبيه ج٦ ص ٢٨ .

أما شعره فليس بالجعد القطط ، ولا بالسبط، بل كان رجلاً [١] .

كـــان له جمة عظيمة تصل إلي شحمة أذنيه وأحياناً تضرب منكبيه وأحياناً ثالثة تكون بين أذنيه وعاتقه ، كما كان " ﷺ " كثير شعر اللحية [٢] .

وإذا كان البياض في شعره قد شمل العنفقة ،والصدغين،وفي الرأس نبذ،فلم يكن ذلك البياض كله يبلغ عشرين شعرة [٣] .

أما الحمرة في بعض شعره فكانت من آثار الطيب [٤] .

وكان أبيض اللون،ولكنه لم يكن بالأبيض الأمهق،ولا بالآدم،وإنما كان أزهر اللون [٥] .

ولم يكن " ﷺ " بالطويل البائن،ولا بالقصير ، بل كان مربوعاً ، وكان مقصداً [٦] .

وكـــان " ﷺ " بعيد ما بين المنكبين، وكان ضخم اليدين والقدمين،وبسط الكفين ، وكان لين الكف ، حتي قال أنس : ما مسست خـــزة ولا حريرة ألين

---

(١) صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ ، ومسلم ج١٥ ص ٩٢ ، كتاب الفضائل — باب في صفة النبي " ﷺ " ومعنى ... [illegible] (رجل) أي لم يكن شديد الجعودة ، ولا المسترسلة ، بل بينهما والنهاية ج ٢ ص ٢٠٣) .

(٢) صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ ص ١٩١ رواية البراء ، وابن عمر ، وأنس " رضي الله عنهم " ، وصحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٢ — كتاب الفضائل .

(٣) صحيح مسلم ج١٥ ص ٩٥، ٩٦ ، باب شيبه " ﷺ " ، صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب صفة النبي " ﷺ " ج ٥ ص ٢٦ — ط. الأوقاف ، العنفقة : هي ما تحت الشفة السفلى .

(٤) صحيح البخاري ج٦ ص ٢٧ — ط. الأوقاف .

(٥) صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ ص ١٩٠ .

(٦) صحيح مسلم ص ١٩٠ ، ١٩١ ، قال في النهاية : كان أبيض مقصداً : هو الذي ليس بطويل ، ولا قصير ، ولا جسيم ، كأن خلقه نحي به القصد من الأمور ، والمعتدل الذي لا يميل إلى أحد طرفي التفريط والإفراط (النهاية في غريب الحديث والأثر ج ٤ ص ٦٧) .

مـــن كف رسول الله " ﷺ " [١] ، وكان منهوس العقبين [٢] .

يروى الترمذي بسنده عن الحسن بن علي " ﷺ " أنه قال : سألت خالي هند ابن أبي هالة ، وكان وصافاً ، عن حلية رسول الله " ﷺ " فقال : كان رسول الله " ﷺ " فخماً مفخماً [٣] يتلألأ وجهه تلألؤ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع وأقصـــر من المشذب [٤] ، عظيم الهامة [٥] ، رجل الشعر [٦] ، إذا انفرقت عقيقته فرقها وإلا فلا [٧]، يجاوز شعره شحمة أذنيه إذا هو وفره [٨]، أزهر اللون [٩] واسع الجبين [١٠]، أزج الحواجب [١١]، سوابغ في غير قرن [١٢]، بينهما عـرق يـدره الغضب [١٣]، أقنى العرنين [١٤]، له نور يعلوه يحسبه من لم يتأمله أشم [١٥].

---

[١] صحيح البخاري ج ٩ ص ١٦٢ .

[٢] مسلم ج ٤ ص ١٨٢٠ ، وقد فسر أحد رواة الحديث (منهوس العقبين) فقال : قليل لحم العقب .

[٣] أي عظيماً في نفسه ، معظماً في الصدور والعيون عند كل من رآه " ﷺ "

[٤] الربعة والمربوع : هو الوسط بين التقصير والتطويل على حد سواء ، والمشذب : هو الطويل البائن الطول ، والمراد أنه ﷺ [illegible] أطول من المربوع عند إمعان النظر ، وأما في بادئ النظر فيرى ربعة .

[٥] الهامة : بتخفيف الميم هي الرأس ، وعظم الرأس المناسب مع الجسم ، دليل قوة العقل والإدراك

[٦] أي في شعره " ﷺ " شئ من الجعودة

[٧] المراد بالعقيقة هنا : شعر الرأس ، والمعنى : أن شعر رأسه الشريف " ﷺ " إن قبل أن يفرق بسهولة فرقه ، أي : جعل شعره نصفاً عن اليمين [illegible] ونصفاً عن اليسار ، وإلا بأن لم ينفرق : فلا ، أي : فلا يفرق شعره بل يتركه على حاله .

[٨] أي : إذا جعل شعره وافراً وأعفاه من الفرق " ﷺ " .

[٩] أي : هو " ﷺ " أبيض اللون بياضاً نيراً مشرباً بحمرة

[١٠] أي : واضح الجبين وممتده طولاً وعرضاً ، وهو معنى رواية : صلت الجبين ، وعظيم الجبهة

[١١] الزجج : تقوس في الحاجب مع طول في طرفيه ، ويلزم من ذلك دقة الحاجبين وسبوغهما

[١٢] القرن بالتحريك هو : اقتران الحاجبين ، والتقاء أطرافهما ، وهو ضد البلج ، والمعنى : أن حاجبيه " ﷺ " لم يتصلا ببعضهما [illegible] ، وأما ما ورد في حديث أم معبد " كان أزج أقرن " فالمراد كان كذلك فيما يبدو للناظر من بعيد ومن غير تأمل ، وأما القريب المتأمل [illegible] " ﷺ " أبلج في الواقع .

[١٣] أي بين حاجبيه " ﷺ " عرق إذا غضب تحرك وظهر جلياً

[١٤] قال العلامة المناوي في شرح الشمائل : أقنى : من القنا ، وهو ارتفاع أعلى الأنف واحديداب الوسط

[١٥] أي العرنين ـــ وهو ما صلب من عظم الأنف ـــ نور يعلوه ، يحسبه من لم يتأمله أشم من الشمم ، وهو ارتفاع قصبة الأنف مع استواء [illegible] أعلاه وإشراف الأرنبة

كث اللحية (١) ، سهل الخدين (٢) ، ضليع الفم (٣) ، مفلج الأسنان (٤)
دقيق المسربة (٥) ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة (٦)، معتدل الخلق (٧) ،
بادن ، متماسك (٨) ، سواء البطن والصدر (٩) ، عريض الصدر بعيد ما بين
المنكبين ، ضخم الكراديس (١٠) .

أنور المتجرد (١١) ، موصول ما بين اللبة والسرة بشعر يجري كالخط (١٢) ، عاري
الثديين والبطن مما سوى ذلك (١٣)، أشعر الذراعين والمنكبين وأعالي الصدر (١٤)
طويل الزندين ، رحب الراحة (١٥) ، شثن الكفين والقدمين (١٦) ، سائل الأطراف
أو قال : شائل الأطراف (١٧) .

---

(١) أي : عظيم لحيته ﷺ .

(٢) أي غير مرتفع [illegible] ، وهو أحسن وأجمل .

(٣) أي [illegible] الفم [illegible] لتعطي الفصاحة في الكلام ، [illegible] مخارج الأصوات [illegible] ذلك [illegible] كامل [illegible] الشريفة [illegible] ﷺ .

(٤) [illegible] ﷺ [illegible] ، وليست [illegible] في [illegible] .

(٥) المسربة [illegible] الشعر بين الصدر والسرة ، والمعنى : أن تلك المسربة دقيقة .

(٦) [illegible] ﷺ في استوائها واعتدالها وحسن [illegible] ، كأنه [illegible] صورة [illegible] في صفاء [illegible] الأبيض اللامع .

(٧) يعني [illegible] الشريفة ﷺ خلقها الله تعالى كاملة متناسبة مع بعضها غير متنافرة .

(٨) [illegible] ﷺ [illegible] ، ليس [illegible] ولا [illegible] ، وأن أعضاءه الشريفة متماسكة بقوتها [illegible] .

(٩) [illegible] الشريفين مستويان ، لا [illegible] أحدهما عن الآخر .

(١٠) [illegible] العظام [illegible] ، والمعنى : أنه ﷺ كان عظيم [illegible] العظام [illegible] ذلك على كمال قوته ﷺ .

(١١) [illegible] ﷺ [illegible] المتجرد عن الثوب [illegible] .

(١٢) [illegible] السرة [illegible] ما [illegible] بعد [illegible] ، وأما الذي يقطع بعد الولادة فهو [illegible] .

(١٣) أي [illegible] الثديين والبطن [illegible] .

(١٤) أي [illegible] هذه المواضع الثلاثة .

(١٥) [illegible]

(١٦) [illegible] الكفين والقدمين [illegible] كما [illegible] في رواية ، والمعنى : أنه ﷺ [illegible] الكفين والقدمين [illegible] .

(١٧) [illegible] ، والمعنى : أنه ﷺ كان [illegible] الأطراف [illegible] ولا [illegible] .

خمصان الأخمصين [١]، مسيح القدمين ينبو عنهما الماء [٢]، إذا زال زال قلعاً [٣] يخطو تكفياً [٤] ويمشي هوناً [٥]، ذريع المشية [٦]، إذا مشي كأنما ينحط من صبب [٧]، وإذا التفت التفت جميعاً [٨].

خافض الطرف [٩]، نظره إلي الأرض أطول من نظره إلي السماء [١٠]، جل نظره الملاحظة [١١].

يسوق أصحابه [١٢]، ويبدر من لقي بالسلام [١٣].

---

(١) خمصان الأخمصين: وأخمص القدم هو الموضع الذي لا يمس الأرض عند وطئها من وسط القدم، ومعنى خمصان الأخمصين [illegible] شديد تجافي الأخمصين عن الأرض، أي أن مشيه على وجه لا خروج فيه عن حد الاعتدال والحسن.

(٢) أي: أملس القدمين ومستويهما بلا تكسر، والمعنى ينبو عنهما الماء أي يتباعد عنهما الماء، يعني أنه "ﷺ" إذا صب عليهما الماء مر سريعاً لأنهما مستويتان.

(٣) معنى: أنه "ﷺ" إذا مشى رفع رجليه بقوة، كأنه يقتلع شيئاً، ولا يجرهما على الأرض، ولا يمشي مشية المختال [illegible] تبختراً.

(٤) يعني: التمايل إلى سمت المشي [illegible].

(٥) الهون: الرفق واللين، والمعنى: أنه "ﷺ" كان إذا مشى يرفع رجليه عن الأرض [illegible] وضعهما على الأرض وضعهما برفق وهوناً، وهذا معنى: يمشي هوناً [illegible] وأنه "ﷺ" يمشي بسكينة ووقار، وحلم وأناة [illegible] فإن الله تعالى [illegible] ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾.

(٦) أي: واسع الخطوة خلقة بلا تكلف.

(٧) أي: كأنما ينحط في موضع منحدر.

(٨) أي: لا يسارق النظر، ولا يلوي عنقه [illegible] ولا يسرع [illegible] كما تفعل ذلك الطائش الخفيف.

(٩) المراد بالطرف هنا: العين، والمعنى: أنه "ﷺ" إذا لم ينظر إلى شيء يخفض بصره، وهذا شأن المتأمل المفكر.

(١٠) والمعنى: أن نظره "ﷺ" إلى الأرض حال السكوت وعدم التحدث أطول من نظره إلى السماء، وأما في حال التحدث فكان ينظر إلى السماء، وكما ورد في سنن أبي داود أنه "ﷺ" كان إذا جلس يتحدث يكثر أن يرفع طرفه إلى السماء.

(١١) قال العلامة المناوي في شرحه: والمراد أن أكثر نظره "ﷺ" في غير أوقات الخلوات الملاحظة، والملاحظة هي النظر بمؤخر العين [illegible] وأما الذي يلي الأنف فالموق والماق.

(١٢) والمعنى: أنه "ﷺ" يقدم أصحابه بين يديه ويمشي خلفهم [illegible] الملائكة، كما روى الترمذي بإسناد صحيح أنه "ﷺ" قال: [illegible] ظهري للملائكة [illegible] وأخرج الإمام أحمد [illegible] أصحاب النبي "ﷺ" يمشون أمامه ويتركون ظهره للملائكة. كذا في جمع الوسائل.

قال الإمام النووي: وإنما تقدمهم [illegible] في قصة جابر يوم الخندق [illegible] النبي "ﷺ" [illegible] أصحابه [illegible] يمشي أمامهم.

(١٣) وفي رواية: ويبدأ، والمعنى: أنه "ﷺ" يبادر ويسبق من لقيه من أمته بالسلام والتحية.

٢ ـ عظمة الخلق :

كما أتصف " ﷺ " بجمال الخلقة أتصف بعظمة الخلق ، يصفه أنس بن مالك " ﷺ " ــ يقول : خدمت النبي " ﷺ " عشر سنين فما قال لي : أف قط ! ! ولا لم صنعت كذا ؟ ، ولا ألا صنعت كذا ؟ [١] .

وهــذه الخدمة والملازمة من أنس للنبي " ﷺ " لم تكن في الحضر وحده ، أو في السفر وحده ، وإنما كانت ــ كما يقول أنس ــ في الحضر والسفر [٢] .

ولم يكن هذا الخلق الحسن قصراً على خدمه ، وإنما كان هذا ديدنه مع كل من كــان يأتي إليه ، ويتعامل معه ، فكان مثالاً للصبر ، والحلم ، والرفق ، وتعليم الجاهل ، وهذه نماذج منها : ــ

عن أنس قال : كنت أمشي مع النبي " ﷺ " وعليه برد نجراني غليظ الحاشية فأدركــه أعرابي ، فجذبه بردائه جذبة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبي " ﷺ " ، قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ، ثم قال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحك ، ثم أمر له بعطاء ! ! [٣] .

وجاء أعرابي ، ورسول الله " ﷺ " وأصحابه في المسجد ، فقــام يبــول في المسجد ، فزجره الصحابة (مه مه) فنهاهم عن ذلك، وقال : (لا تزرموه ، دعوه) فتركوه حتى بال .

ثم دعاه النبي " ﷺ " ، فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ، ولا القذر ، إنما هي لذكر الله عز وجل ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، ثم دعا بدلو من ماء فشنه عليه [٤] .

---

[١] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب حسن الخلق والسخاء ج ١٥ ص ٦٩

[٢] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب حسن خلقه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٠ .

[٣] صحيح البخاري ــ كتاب فرض الخمس ــ باب ما كان النبي " ﷺ " يعطي المؤلفة قلوبهم وغيرهم من الخمس ج ٩ ص ٢٢٤

[٤] صحيح مسلم ــ كتاب الطهارة ــ باب وجوب غسل البول وغيره من النجاسات إذا حصلت في المسجد ج٣ ص ١٩٠ وما بعدها ، ومعنى لا تزرموه : أي لا تقطعوه ، وشنه أي صبه .

وجـــاء في إحدى روايات البخاري في آخرها : (.. فإنما بعثتم ميسرين ولم تبعثوا معسرين) [١] .

وعن أنس قال : كان رسول الله " ﷺ " من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوماً لحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله " ﷺ " فخرجـــت من طريق حتى أمرّ على صبيان وهم يلعبون في السوق ، فإذا رسول الله " ﷺ " قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك .

فقال : يا أنيس ! أذهبت حيث أمرتك ؟ .

قلـــت : نعم أنا أذهب يا رسول الله [٢] .

وهـــذا الصـــبر والـــرفق يزينه التواضع في خلقه ، والمزاح ـــ أحياناً ـــ مع أصحابه ؛ فالأمة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي " ﷺ " ، فتنطـــلق بـــه حيث شاءت [٣] ، والقاصد إليه في بيته لا يجد على بابه بوابين [٤] .

أمـــا مزاحه " ﷺ " : فكان تسرية لأصحابه عند همومهم أحياناً ، وملاطفة لأطفالهم أحياناً أخرى ، إلى غير ذلك من مقاصده الحميدة في هذا المزاح ، ونذكر كمثال على ذلك موقفه مع علي ـــ " رضي الله عنه " حينما غاضب زوجته فاطمة " رضي الله عنها " فخرج على " رضي الله عنه " فاضطجع إلى جدار المسجد ، فتبعه النبي " ﷺ " ، فإذا هو مضـــطجع ، وقـــد امتلأ ظهره تراباً ، فجعل النبي " ﷺ " يمسح التراب عن ظهره ، ويقول : (اجلس يا أبا تراب) [٥] .

ويقول أنس " رضي الله عنه " : إن كان النبي " ﷺ " ليخالطنا حتى يقـــول لأخ صغير

---

[١] صحيح البخاري ـــ كتاب الوضوء ـــ باب صب الماء على البول في المسجد ج ١ ص ١٦٤ .

[٢] صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ، باب حسن خلقه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٠ ، ٧١ .

[٣] صحيح البخاري ـــ كتاب الأدب ـــ باب الكبر ج٩ ص ٢٤٣ .

[٤] صحيح البخاري ـــ كتاب الأحكام ـــ باب ما ذكر أن النبي " ﷺ " لم يكن له بواب .

[٥] البخاري ـــ كتاب الأدب ـــ باب التكني بأبي تراب ، وإن كانت له كنية أخرى ج ١٠ ص ٣٨ .

إلي إذا رآه : (يا أبا عمير ، ما فعل النغير ؟ !) [١] .

وإلى جانب صفاته في الرفق ، والتواضع ، والمزاح ، فهو موصوف بالشجاعة في السلم والحرب ، وشجاعته " ﷺ " في الحرب معروفة ، أما في السلم فنذكر منها قصة الفزع الذي أصاب أهل المدينة ذات ليلة ، فخرجوا نحو الصوت فإذا رسول الله " ﷺ " قد سبقهم إليه ، وتلقاهم راجعاً ، وهو على فرس لأبي طلحة عري ، وفي عنقه السيف ، وهو يهدئ ثائرهم ويقول: (**لم تراعوا، لم تراعوا ما رأينا من شيء**) [٢]

وكان من خلقه " ﷺ " حسن التعامل ، وحسن القضاء ، فقد استقرض من رجل سناً من الإبل ، فجاءه يتقاضاه ، فقال : (أعطوه) ، فطلبوا سنه ، فلم يجدوا له إلا سناً فوقها ، فقال : (أعطوه) ، حتى قال الرجل : أوفيتني أوفى الله بك ، ثم قال " ﷺ " : (**إن خياركم أحسنكم قضاء**) [٣] .

وفي رواية : إن ذلك الرجل أغلظ للنبي " ﷺ " القول ، فهم به أصحابه فقال لهم : (**إن لصاحب الحق مقالاً**) ، ثم قال لهم : (**اشتروا له سناً ، فأعطوه إياه** فقالوا : إنا لا **نجد إلا سناً هو خير من سنه** ، قال : (**اشتروه وأعطوه إياه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء**) [٤] .

ومن صفاته : الجود ، والكرم ، فهو أجود الناس [٥] ، وما سئل رسول الله " ﷺ " شيئاً قط ، فقال لا [٦] ، ولهذا غضب الصحابة " رضوان الله عليهم " من ذلك الرجل الذي طلب من النبي " ﷺ " أن يكسوه البردة التي أهدتها إليه امرأة

---

[١] صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب الانبساط إلى الناس — وباب الكنية للصبي ، وقبل أن يولد للرجل ج[illegible] . والنغير : تصغير نغر ، وهو طائر صغير كالعصفور .

[٢] صحيح البخاري — كتاب الجهاد والسير — باب الحمائل وتعليق السيف بالعنق ، ج٥ ص ٩٩ .

[٣] صحيح البخاري — كتاب الوكالة — باب وكالة الشاهد والغائب جائزة ج٣ ص ١٤٠ .

[٤] صحيح البخاري — كتاب الاستقراض — باب لصاحب الحق مقال ج٤ ص ٢٠٠ .

[٥] صحيح البخاري — كتاب الوحي — باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله " ﷺ " ج١ ص١١ .

[٦] صحيح البخاري ج٤ ص ٢٩ .

وكانت قد نسجتها بيدها ، وكان " ﷺ " محتاجاً إليها ، ومع ذلك طلبها وأرسلها إليه،فقال له الصحابة: ما أحسنت ، سألتها إياه ، وقد علمت أنه لا يرد سائلاً ؟(١).

وهذه الجود والكرم منه " ﷺ " كان سبباً في دخول أقوام في دين الله ، ومن ذلك : قصته مع الرجل الذي جاءه يسأله ، فأعطاه غنماً بين جبلين ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر (٢).

ولهـذا قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يسلم حتى يكون الإسلام أحبَّ إليه من الدنيا وما عليها ! ! (٣).

بـل لقـد كـان هذا الجود منه " ﷺ " مثار عجب ، وسبب مودة ، حتى لأعدائه ، يقول صفوان بن أمية بعد أن أعطاه النبي " ﷺ " مائة من النعم ، ثم مائة من غنائم حنين : والله لقد أعطاني رسول الله " ﷺ " ما أعطاني ، وإنه لأبغض الناس إليَّ فما برح يعطيني ، حتى إنه لأحبّ الناس إليَّ ! ! (٤).

ولفـرط جـوده " ﷺ " ، ومعرفة الناس به علقت الأعراب ـــ منصرفه من حنين ـــ يسألونه حتى اضطروه إلى سمرة فخطفت رداءه ، فوقف وقال : (أعطوني ردائـي ، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلاً ، ولا كذوباً ، ولا جباناً) (٥).

وقال عمر " ﷺ " : قسم رسول الله " ﷺ " قسماً ، فقلت : والله يا رسول الله لغيـر هؤلاء كان أحق به منهم ، قال : (إنهم خيروني أن يسألوني بالفحش أو يبخلوني ، فلست بباخل) (٦).

---

(١) صحيح البخاري ـــ كتاب البيوع ـــ باب ذكر النساج ج٤ ص ٢٩.

(٢) صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب في سخائه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٢ .

(٣) صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٧٢ .

(٤) صحيح مسلم ـــ كتاب الفضائل ـــ باب سخائه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٣ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الجهاد ـــ باب ما كان يعطي المؤلفة ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٦) صحيح مسلم ـــ كتاب الزكاة ـــ باب إعطاء المؤلفة ج ٧ ص ١٤٦.

ولم يقتصر ذلك الجود على المؤلفة قلوبهم ، ومن يطمع في إسلامهم ، بل شمل جوده وكرمه صحابته المؤمنين ، فعبد الله بن عمر "رضي الله عنه" "كان مع النبي "ﷺ" في سفر ، وكان على بكر صعب لأبيه (عمر) ، وكان هذا البكر يغلب عبد الله ، يتقدم أمام القوم ، فيزجره عمر ، ويرده ، ثم يتقدم فيزجره عمر ، ويرده ، فقال النبي "ﷺ" لعمر : (بعنيه) ، فقال : هو لك يا رسول الله (أي هبة)، قال رسول الله "ﷺ" : بعنيه ، فباعه من رسول الله "ﷺ" ، فقال "ﷺ" : (هو لك يا عبد الله بن عمر ـ تصنع به ما شئت) ! ! [١] .

وجابر بن عبد الله "رضي الله عنه" يكون مع النبي "ﷺ" في غزاة ، ومعه جمل ثفال قد أعيا به ، وخلفه في أخريات القوم ، حتى زجره النبي "ﷺ" ، وأسرع به ، فطفق من بعد عليه ، فقال : هو لك يا رسول الله ، قال : (بعنيه) فاشتراه منه ، وقال : (لك ظهره إلى المدينة) ، فلما قدم المدينة أوصى بلالاً أن يقضيه ، ويزيد له في ثمنه ، ثم رد عليه جمله والثمن ! ! [٢] .

وفوق ما تقدم من كريم خلقه "ﷺ" : فلم يكن بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو ، ويصفح [٣] .

ولم يكن "ﷺ" سباباً ، ولا فحاشاً ، ولا لعاناً [٤] ، وهو القائل لعائشة "رضي الله عنها" : (يا عائشة ، متى عهدتني فحاشاً) ؟ ! [٥] .

وهو الموصوف بالتوراة ببعض صفته في القرآن : (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل ـ

---

(١) صحيح البخاري ـ كتاب البيوع ـ باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يتفرقا ـ ج٤ ص ٤١ ، ٤٢

(٢) صحيح البخاري ـ كتاب البيوع ـ باب شراء الدواب والحمير ج ٤ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) صحيح البخاري ـ كتاب البيوع ـ باب كراهة السخب في السوق ج٤ ص ٤٦ .

(٤) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب لم يكن النبي "ﷺ" فاحشاً ولا متفحشاً ج٩ ص ٢٢٨.

(٥) صحيح البخاري ـ كتاب الأدب ـ باب لم يكن فاحشاً ـ ج ٩ ص ٢٢٨ .

ليس بفظ ولا غليظ ..) [١] .

وكـــان الصـــدق في الحديث خلقاً من أخلاقه " ﷺ " ، عرفه بذلك العدو والصـــديق ، فأمـــية بن خلف حينما قال له سعد بن معاذ : سمعت محمداً يزعم أنه قاتلك .

قال : إياي ؟

قال : نعم .

قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث .

وكذا زوجة أمية لما أعلمها بالخبر قالت : فو الله ما يكذب محمد ! ! [٢] .

وأبو سفيان لما سأله هرقل:هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ أجاب قائلاً:لا،وعندها ردّ هرقل،لم يكن ليذر الكذب على الناس،ويكذب على الله [٣] .

ومشركو قريش كانوا يعرفون هذا الخلق للنبي " ﷺ " فحينما صعد الصفا واجتمع إليه الملأ من بطون قريش قال لهم : (أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي) ؟ قالوا : ما جربنا عليك إلا صدقا [٤] .

وفي رواية ، قالوا : ما جربنا عليك كذباً [٥] .

ولم يكن من خلقه " ﷺ " الغدر والخيانة ، بل كان من خلقه الأمانة والوفاء بالعهد ، وهذه أيضاً اعترف بها أبو سفيان للنبي " ﷺ " أمام هرقل [٦] .

---

(١) صحيح البخاري ــ كتاب البيوع ــ باب السخب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(٢) صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب علامات النبوة في الإسلام ج ٦ ص ٦٦ .

(٣) صحيح البخاري ــ كتاب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .

(٤) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير ــ باب ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ ج ٧ ص ٢٦٠ .

(٥) صحيح البخاري ــ كتاب التفسير ــ باب تبت يدا ج٨ ص٩٣ .

(٦) صحيح البخاري باب بدء الوحي ج١ ص١١ .

والتزام النبي " ﷺ " هذا الخلق جعله يرد أبا بصير ، وأبا جندل عام الحديبية ؛ مع كره والمسلمين لذلك ـــ لأنه عاهد قريشا على رد من يأتي إليه منهم [1] .

٤ ـ حلاوة المنطق :

تميز " ﷺ " بحسن اللفظ ، وجمال المنطق وحلاوة الحديث ، يقول أبو هالة : كان رسول الله " ﷺ " متواصل الأحزان [2] ، دائم الفكرة ، ليست له راحة [3] طويل السكوت ، لا يتكلم في غير حاجة [4] ، يفتتح الكلام ويختتمه باسم الله تعالى [5] ويتكلم بجوامع الكلم [6] ، كلامه فصل لا فضول ولا تقصير [7] ، ليس بالجافي ولا المهين [8] ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقا ولا يمدحه [9] ، ولا تغضبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدي الحق [10] لم يقم

---

(1) صحيح البخاري ـــ كتاب الصلح ـــ باب الصلح مع المشركين ج٤ ص٤٠١ .

(2) لم يكن حزنه " ﷺ " من أجل أمور الدنيا ، وإنما كانت تتوارد الأحزان لأسباب متعددة ، ترجع إلى دين الله حق والشفقة على خلق الله تعالى ؛ ولذا كانت الآيات تنزل في تسليته " ﷺ " وتخفيف شدة الأسى عنه .

(3) المعنى : أنه " ﷺ " كان دائم التفكر في أمور الأمة وما يصلح شؤونهم ويسعدهم في الدنيا والآخرة ؛ [illegible]

(4) يعني : أنه " ﷺ " كان طويل الصمت ، لا يتكلم إلا في حاجة دينية أو دنيوية ، فيبتعد عن الكلام الذي لا فائدة منه لقوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝ ﴾ .

(5) والمعنى : أن كلامه " ﷺ " كان محفوفاً بذكر الله تعالى بدءاً وانتهاءً .

(6) أي : الكلمات قليلة الحروف ، جامعة لمعان كثيرة .

(7) يعني أن كلامه " ﷺ " فاصل بين الحق والباطل ، ومفصل لا يتداخل في بعضه ، بحيث يتابعه السامع بوضوح [illegible] لا يكثر فيمل ، ولا يقصر فيخل .

(8) أي : ليس هو " ﷺ " بالجافي الغليظ الطبع ، السيء الخلق ، ولا بالمهين خلق الله تعالى ، ولا بالمهين أي : [illegible] من الضعيف ، [illegible] الموقر ، المعظم " ﷺ " .

(9) هو " ﷺ " يعظم نعم الله تعالى الكثيرة والصغيرة ، الظاهرة والباطنة ، ولا يذم منها شيئاً ، كما وأنه " ﷺ " [illegible] أي مذوقاً من المأكولات أو المشروبات التي أباحها الله تعالى ، لأن في ذم ذلك [illegible] النعمة ، وهو [illegible] كما وأنه " ﷺ " لا يمدح ذوقاً ، لأن ذلك شأن ذوي الشره والنهمة المذمومة .

(10) أي : إذا تعدى أحد الحق وجاوزه إلى الباطل ، غضب " ﷺ " غضباً لا يقاومه شيء ولا يدفع غضبه شيء حتى ينتصر للحق .

لغضبه شيء حتى ينتصر له ، ولا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها [١] ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى [٢] .

وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غض طرفه [٣] ، جل ضحكه التبسم يفتر عن مثل حب الغمام [٤] .

٥. كمال العقل : لما بلغ النبي " ﷺ " سن الأربعين تميز بكمال العقل ، وحسن تقدير الأمور ، واتخاذ القرار السديد ، ولعل فيما حباه الله به من عمل وترحال ، وأحداث وأعمال ، أثرا في تكامل عقله " ﷺ " .

ومما يدل على هذا الكمال قراره يوم بناء الكعبة ، إذ حكم بين الذين اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه في موضعه حكماً أرضاهم جميعاً مع بساطته ، ويسره .

ومن رجاحة عقله " ﷺ " أنه تمكن من التعامل مع كافة طبقات الناس وأنواعهم ، وأجناسهم ، في البيئات المختلفة ، فأقروا له جميعاً بكمال عقله ، ونبل خلقه .

---

[١] والمعنى : أنه " ﷺ " كان إذا أشار إلى شيء : إنسان أو غيره ، أشار بكفه كلها ، ولا يقتصر على الإشارة ببعض الأصابع ، لأنه شأن المتكبرين والمتعالين لغيرهم ، وإذا تعجب " ﷺ " من أمر ، قلب كفه ، كما هو شأن كل متعجب .

[٢] يعني أنه " ﷺ " إذا تحدث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وتقويته في النفوس ، وإذا أراد إيضاحه بإشارات الكف ، وضرب براحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، اهتماماً بذلك الحديث ، ودفعاً لما يعرض لبعض السامعين من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

[٣] أي إذا غضب من أحد أعرض عنه ، فلا يقابله بما يقتضيه الغضب امتثالاً لقوله تعالى ﴿ وأعرض عن الجاهلين ﴾ وأشاح : أي بالغ في الإعراض وعدل عنه بوجهه " ﷺ " وإذا فرح " ﷺ " من شيء غض طرفه ، ولا يطيل نظره حياء وحرصاً .

[٤] أي : معظم ضحكه " ﷺ " إنما هو التبسم ، ويفتر : أي يبتسم ضحكاً حسناً كاشفاً عن سن مثل حب الغمام في البياض والصفاء ، وحب الغمام هو البرد - بفتحتين - الذي يشبه اللؤلؤ ، فكان " ﷺ " إذا تبسم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ اللامع .

وكان " ﷺ " صاحب دين ومبدإ لم يفعل شيئاً نهى الله عنه فيما بعد أبداً ، ولم يترك شيئاً أمر به .

ولو تأملنا سائر أعماله " ﷺ " قبل النبوة وبعدها ، نرى كل واحدة منها تشهد بكمال العقل ، وحسن التقدير .

وباتصاف محمد " ﷺ " بهذه الصفات التي أكرمه الله بها ، صار مؤهلاً ليكون رسولاً للناس أجمعين ..

***

- خامسا -

تحبيب الخلاء

لمحمد " ﷺ "

لم تغب ذكريات الماضي عن فكر محمد " ﷺ " ، بل كان يختزنها في باطنه ويغفــل عنها لانشغاله بأعماله ، وأسفاره ، فلما تزوج خديجة " رضي الله عنها " ورفــع الله تعالى عن كاهله عناء الفقر ، ومسئوليات المعاش ، بدأ يعيش حياة الراحة الهادئة ، والطمأنينة السعيدة ، ويستعد للمسئوليات الجسام .

ومــن خصائص النفس أنها تكون مشغولة مع صاحبها دائما ، فهي معه في مسئولياته ، وقضاياه ... فإن استراح وسكن ، وخلا من المهام شغلته بما يحركها ويشغلها .

إن الــنفس البشــرية قــادرة على التذكر ، والتخيل ، والتفكير ، وهي في حركتها لا تعرف حدود الزمان ، والمكان ، ولا توقفها حواجز السلطة ، والطغيان ويساعدها في حركتها الدائمة السريعة ما يأتيها من عالم الشعور ، وعالم اللاشعور .

وعلماء التربية يرشدون إلى ضرورة إشغال النفس بالحق وتوجيهها نحو النافع المفيد ، وذلك بإيجاد حيز من الدوافع التي تدفع النفس نحو فكر معين مقصود .

لقــد بدأ الماضي يعاود محمداً بعد زواجه من خديجة ، وأخذت الذكريات تتحرك أمامه ، وتشغل فكره ، وتدعوه إلى التأمل فيها ، وفيما وراءها .

لقد عاش في ديار بني سعد ، وشق صدره .. ورعي الغنم ، وعاشر الرعاة وعاش الخلاء ، وسمع كلام الأحبار ، والرهبان ، والكهان ، وسافر للمدينة وللشام وباع ، واشترى .

وقــابل أشتاتاً من الناس ، وسمع ألواناً عديدة من الأفكار والــمذاهب والأديان .

ورأي في مكـــة بعض الحنفاء ينكرون علي العرب ما هم فيه من بعد حـــس ديـــن إبراهـــيم " الطّيّلا " ، لقـــد عـــاش " ﷺ " حياة عملية مملوءة بالحوادث والاتجاهات ، وقد عافت نفسه لذلك كله، وتذكره عقله " ﷺ " في تحليل نظري ، وتأمل فكري للوصول إلي شيء من أسرار ذلك كله .

والخلـوة ، والبعد عن الناس من الأمور غير المحببة في حياة البشـــر لأن الإنســان مــدني بطبعه ، يحب الأنس ، ويعشق ملاقات الآخرين ، ويحب التعامل والسمر معهم ، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لوجود هذا الطبع فيه .

والخلاء مع هذا عامل تربوي ، يعلم الصمت والسكون ، ويدفع إلي التأمل والتفكير ، ويساعد علي الطهارة والسمو ، ولذلك كانت العبادة في جوف الليل من عظـائم الأمور ، وكان قرآن الفجر مشهوداً ، وذلك لمن جعل خلوته لخدمة القيم والحق .

وقـــد حبـــب الله لمحمـــد الخلاء ، فكان يخرج من مكة بعيداً عن الصخب والضـــجيج . ويمكـــث وحيداً في غار حراء ، ومعه زاده وعدته ، مدة تضم الليالي ذوات العدد ، حيث يقضي شهر رمضان في خلوته ، وانقطاعه عن الناس .

يقول الخطابي : والخلوة يكون معها فراغ القلب : وهي معينة علي الفكر . وفاطمـــه لدعاوى الشغل الفطري، والبشر لا ينفك عن طباعه ، ولا يترك مألوفه من عاداته إلا بالرياضة البليغة ، والمعالجة الشديدة ، فلطف الله تعالي بنبيه محمد " ﷺ " في بداية أمره فحبب إليه الخلوة ، وقطعه عن مخالطة البشر ، ليتناسي المألوف من عاداتهم ويستمر علي هجران مالا يحمد من أخلاقهم ، وألزمه شعار التقوى ، وأقامه في مقام التعبـــد بين يديه ، ليخشع قلبه ، وتلين عريكته ، فيجد الوحي منه حين وروده مراداً سهلاً ، ولا يصادفه حزناً وعراً ، فجمعت هذه الأسباب مقدمات لما أرصـــد له من هذا الشأن ليرتاض بها ، ويستعد لما ندب إليه ، ثم جاءه التوفيق والتيسير ، وأخذتـــه

القوة الإلهية ، فحررت منه النقائص البشرية ، وجمعت له الفضائل النبوية [١] .

وقد كان من عادة مفكري أهل مكة أن ينقطعوا عن الناس مدة كلما جد لهم أمر يلجأون حلالها إلى آلهتهم ، وإلى عقلهم بحثاً عن حل لهذا الأمر الذي يشغلهم .

ووجد محمد " ﷺ " في هذا المسلك طريقاً يعيشه في خلوته ، يلتمس النابع إشباع مـــا يتمنى الوصول إليه، ووجد في جبل حراء شمال مكة غاراً يأتيه المكوث فأحـــبه ، وأخــذ ينقطع فيه وحيداً ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فكان إذا جاء رمضان يحمل طعامه وشرابه ، ويمكث فيه ، بعيداً عن الصخب والضوضاء ، يتفكر الحق ..

وحـــراء جبل بأعلي مكة ، على بعد ثلاثة أميال منها ، على يسار الذاهب إلى مني،ولهذا الجبل قمة مشرفة علي الكعبة،وفى قمة الجبل غار عرف بـــ ((غار حراء)) وهو على هيئة حجرة ضيقة ، مستطيلة منحوته داخل قمة الجبل ، أرضها مسطحة وسقفها مقوس ، والغار مفتوح من جهتيه الشمالية والجنوبية ، ويمكن للجالس فيه أن يري الكعبة ، وخاصة قبل وجود البنايات الحديثة العالية .

إن الخلوة في غار حراء تؤدى إلي القرب من الله،والنظر إلي الكعبة ، ولذلك كان أهل مكة يعظمون هذا الغار ، ويقصدونه بين الحين والحين ، ويربطون بينه وبين الكعبة

وكـــان " ﷺ " يطوف بالبيت قبل أن يذهب إلي الخلاء ، وكان أول ما يبدأ به إذا انصرف من خلوته أن يطوف بالبيت قبل أن يدخل بيته [٢] .

إن حياة التأمل والتفكير تعرف الإنسان بنفسه ، وترقق مشاعره ، وتبعده عن شواغل المادة ، وتجعله يلتمس القوة في غير سائر المخلوقات ، لأن كل مخلوق ضعيف ومحتاج .

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٣١٨ . [٢] لم تترك قريش محمداً في خلوته بغار حراء ، ذكر عبد الله ... أول من ... و ... [illegible]

[illegible]

إن تحبيب النبي " ﷺ " في الخلاء تدريب على تخليه عن الناس ، واتصاله بالملأ الأعلى ، وهو يتلقى وحي الله تعالى ، والذي سوف يتكرر كثيراً ، ويدوم طويلاً والخلاء يعلم الإنسان التجرد عن الماديات ، والشهوات المتصلة بها ، ويشعره بقيمة المعنويات والروحانيات الغائبة عن الحواس .

تقـول أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " : (... ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك) [1] وجاء تعبير الحديث بلفظ (حبب) المبني للمجهول إشارة إلى أن حب محمد للخلاء لم يكن من بواعثه البشرية ، وإنما كان من الوحي والإلهام [2] .

يقول ابن هشام : كان رسول الله " ﷺ " يجاور ذلك الشهر من كل سنة ، يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله " ﷺ " جواره من شهره ذلك ، كان أول ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره الذهاب إلى الكعبة ، قبل أن يدخل بيته فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته [3] .

وكـــان " ﷺ " يطيل النظر في الكون المحيط به في السماء ونجومها وقمرها وشمسها وأفلاكها ، ومجراتها ، وصورتها في الليل ، وفي النهار .

ويـــتأمل الصحراء ساعات لهيبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاءة وســاعات صفوها البديع إذ تكسوها أشعة القمر ، أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي .

وينظر في أهل مكة والحياة تشغلهم ، ويتأمل في الآتين لمكة ، وهم يطوفون بالبيت ، والأصنام أمامهم ! ! ..

كان " ﷺ " يتأمل في كل ذلك وفي غيره يلتمس معرفة هذا الـــوجود ، وما

---

(1) صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الوحي ج١ ص ٢١ .

(2) فتح الباري على صحيح البخاري ج١ ص ٢٢ .

(3) السيرة النبوية ج١ ص ٢٣٦ .

وراءه من سبب وغاية ! ! ! ..

في هذا الكون المتحرك كان يلتمس الحقيقة العليا ، وكان ابتغاء إدراكها يسمو بساعات خلوته ليتصل بهذا الكون ، وليخترق الحجب وصولاً إلى مكنون سره .

ولم يكن في حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشره قومه من شئون الحياة وما يتقربون به إلى آلهتهم ليس حقاً .

فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق ، ولا تدفع عن أحد غائلة شر تصيبه !

وما هبل، واللات، والعزى ؟ ! ! ..

وكيف تكون آلهة ، وهي مصنوعة بأيديهم ؟ ! !

وما كل هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها ، إنها لم تخلق يوماً ذبابة ، ولا جادت مكة بخير ! .

ولكن !

أين الحق إذاً ؟

أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه وسماواته ونجومه ؟

أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور والدفء ، ومن عندها ينحدر ماء المطر ، وتأتي للناس ، ولأهل الأرض كافة من خلائق ، أسباب الحياة من الماء ، والهواء ، والنور ، والدفء ؟

كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء .

أهو فيما يتصوره وراء هذه الأفلاك من أثير لا حد له ، ولا نهاية له ؟

ولكن ما الأثير؟

وما هذه الحياة التي نحيا اليوم فتنقضي غداً ، ما أصلها؟ ! وما مصدرها ؟ !

أمصادفة تلك التي أوجدت الأرض ؟ ! وأوجدتنا عليها ؟

لكن للأرض وللحياة سنناً ثابتة لا تبديل لها ، ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها .

وما يعاني الناس من خير أو شر : أفيأتونه طواعية واختياراً ؟ ! !؛ أم هو بعض سلطانهم ولا سلطان لاختيارهم عليه ؟ ! !

لقد رأى محمد " ﷺ " بثاقب فكره أن عناصر الكون خاضعة لقوة مجهـــولة هي أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تعرف ، وأعلى من أن تتصور ، واحدة هي بالضرورة لا تتعدد ، عالمية ، شاملة ..لأن الوجود كله واحد .

إن عناصر الكون تشغل فكره ، وديمومتها المستمرة تدفعه إلى النظر ، والتدبر فيسائل نفسه . ويعاود النظر : هنا تارة ، وهناك تارة أخرى .

ها هي الشمس ، ترسل أول أشعتها على الحصى المنثور هنا وهناك، فتصيره جواهر تلألأ . وأضواء ترقى ، وجمالا ينساب بين الكائنات، فيشغل بها ! ! .

ثم هـــا هي الشمس في كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل أثواب الضوء البراقة لتنشرها على الأرض في حمس ، وشمول، فيأخذه بهاؤها ! ! .

وهـــا هي ذي الأرض هامدة، ساكنة، مستسلمة، كجثة لا حياة فيها .. ثم ماذا ؟ ! ..

وها هي أمواج الذهب ترسلها الشمس على الكون عند غروبها ، في سخاء ، وهدوء، وتنسحب كأنها تريد أن توحي إليه بالأسف لمغيبها بلا استئذان..وتنتهي ! !

ثم هـــا هـــو ذا طوق القمر الباهر ، يشبه طوق الحمامة ، تتسجم فيه ألوان الطيف السبعة ، ويتألق في وسطه القمر الذي يزهو بما يصدر عنه من شرر، يتحول إلى الآلاف المؤلفة من النجوم، والكواكب، ليخلف القمر حتى الصباح ! ! .

وها هي تلك الأعمدة المختالة تتلهى بها الرمال ، عند هدوء الجو ، بإقامتها ألسنة نحـــو القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير وبعثت بالأتربة من بطون الوديـــان قادتها في هجوم عنيف، على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق ، هكذا بعد الهدوء ! ! .

وهـــا هـــي ذي قوافل الغيم ، تشبه الخراف البيض ، تطاردها الرياح حيناً

تبعدها عن قمم الجبال ، فتضطر إلى الهجرة قبل أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها

بلا خيار ، ولا قصد ، ولا معرفة ! ! ..

وها هي تلك العواصف الممطرة تتفجر شآبيبها الهطالة، فتصب على الجبال

العريانة أنهاراً من المياه ، عنيفة جارفة ، لها دوي ، ولها زئير .

أمـــام هذه العناصر الكونية الهائلة، العاتية، التي لم تجرؤ قط ، رغم جبروتها

على عدم الخضوع ، ولو شروى نقير ، للقوانين التي تسيرها والتي فرضتها عليها القوى

السامية العليا .. إن كل عنصر في فلكه يسبح ، وكل عنصر لا يملك إلا الاستسلام

والخضوع ... وهكذا رأى الكون في جملته قوياً ، شديداً ، وفي نفس الوقت وجده

خاشعاً ، ذليلاً .

لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وهوانها ! ! ..

ولكم بدا له غرور العقل ، وضلاله ! ! . .

ولكـــم رأى خـــداع الحس بالمحسوس ، وخيبة الاستدلال بالماديات ! ! .

أجـــل ، وكـــم من سخرية في أن تثق الإنسانية بالمحسوسات ، مع أنها ترى

السراب صورة براقة من موجات الأثير الغائر ليشهدها بذلك على غرورها المطلق ! .

في مـــثل هذه الأمور النفسية وغيرها كان محمد "ﷺ" يفكر أثناء انقطاعه

وتعـــبده بغار حراء ، إذ ليس أمامه إلا هذا التدبير .

وكـــان يتمنى رؤية الحق فيها ، وفي الحياة جميعاً ، وكان تفكيره يملأ نفسه

وفـــؤاده، وضـــميره، وكل ما في وجوده ، ويشغله لذلك عن هذه الحياة، وصخبها

ومســـائلها فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة، وبه من أثر التفكير ما يجعلها

تسائله ، تريد أن تطمئن إلى أنه بخير وعافية .

ولكن . .

بأي نسك كان محمد يتعبد أثناء تحنثه ذاك، وعلى أي شرع بذاته كان يعمل ؟

جدا أمر اختلف العلماء فيه ، وقد روى ابن كثير في تاريخه طرفا من آرائهم في الشرع الذي كان يتعبد عليه .

فقيل : كان " ﷺ " يتعبد بشرع نوح " عليه السلام " وقيل كان يتعبد بشرع إبراهيم " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع موسى " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع عيسى " عليه السلام " .

وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به .

ولعل هذا القول الأخير أقوم من غيره ، فهو الذي يتفق وما شغف محمد به من التأمل ، ومن التفكير ، وما عرف عن غياب الشرائع يومذاك . حتى أن كثيرا من الحنفاء لم يصلوا إلى شئ رغم ما بذلوا من جهد للوصول إلى دين حقيقي .

واستمر محمد على عادته تلك في حب الخلاء ، والانقطاع له ، ومداومة البحث عن الحقيقة حتى هداه الله إليه بنزول الوحي ، وبدء الرسالة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝ ﴾[1] .

ذهب المفسرون في بيان المعنى المراد من الضلال إلى معان كثيرة :ـ

ـ فهو بمعنى الغفلة عما يراد بك من أمر النبوة .

ـ وبمعنى عدم معرفة دين وشرع ما ، فهداك الله للإسلام وشريعته .

ـ وبمعنى في وسط ضلال قومك وكفرهم فهداهم الله بك .

ـ وبمعنى الحيرة فيما ترى ، فعرفك بالصواب والحق[2] .

وهذه المعاني تلتقي في معنى عام واحد ، وهو أن الرسول " ﷺ " كان يبحث عن طريق الحق والهدى ، وسط قومه الغافلين ، ولم يكن يتصور أن النبوة ستأتيه ،

---

(١) سورة الضحى آية ٧ .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ج٢٠ ص ٩٦ ، ٩٧ .

وكثيراً ما أضنته الحيرة ، والقلق حتى جاءه جبريل " عليه السلام " فأرشده إلى صراطه المستقيم .

والمعاني تدور مع أحوال محمد " ﷺ " قبل البعث ، ومع تحته الدعوة الحقيقة التي هداه الله إليها ، وعرفه بها ، فكانت الرسالة والبعثة .

* * *

المبحث العاشر

بدايات الوحي

وبلغ محمد " ﷺ " سن الأربعين ، وكمل في ذاته ، وأصبح مستعداً لتكميل الآخرين ، وهنا جاءه وحي الله ، كما هو الشأن مع جميع الأنبياء ، والمرسلين [١]

روى البخاري عن ابن عباس " ﷺ " أنه قال : (**أنزل الوحي على رسول الله " ﷺ " وهو ابن أربعين سنة**) [٢] .

لقد حاول محمد " ﷺ " الوصول إلى الحقيقة المتصلة بالوجود ، والحياة ، وطال تفكره وتدبره ، ولم يصل إلى ما يتمنى ، ويريد .

إنه سمع عن دين الله ، وأنبياء الله ، لكنه لا يعرف حقيقة الألوهية ، وحدوديتها ، ويجهل كل ما يتصل بالنبوة ، والرسالة ، وإدراكه للملأ الأعلى ساذج وبسيط ، والأسرار من حوله تتكاثر ، وتتعدد ، وكلما طال تأمله تشعبت مناحي الفكر ، وغابت عنه الأسرار ، والغايات .

والعقل مهما سما إدراكه ، ومهما دق فكره ، ومهما تعمقت تأملاته ، ونظراته ، لا يمكنه أن يصل إلى شيء من حقائق هذا الوجود ، ولا بد له من وحي الله يكشف له الأسرار التي يحتاج إليها .

ومحمد " ﷺ " مع صفاء نفسه ، وكمال عقله ، وسمو روحه يحتاج إلى وحي الله لهدايته للحق ، وتنقذه من الحيرة ، وتعرفه بالحقائق الدينية التي لا يمكن للعقل أن يصل إليها .

كما تحتاج لرحمة الله مراعاة لجانب البشرية فيه ، حتى لا تفاجئه روحانية الوحي ، وغرائب الملأ الأعلى .

---

[١] انظر : النووي على صحيح مسلم ج ١٥ ص ٩٩ .

[٢] صحيح البخاري — كتاب المناقب باب مبعث النبي " ﷺ " ج ٦ ص ٢٦ .

ويحتاج كذلك إلي تعلم كيفية الاتصال بخالقه، والتعامل مع الملائكة واستقبال الوحي بمختلف صوره وأشكاله .

وقد تجلت فيوضات الله تعالي علي محمد " ﷺ " بصورة رقيقة ، سلسلة عمادها الرحمة والمودة ؛ وعناصرها الترقي ببشرية محمد ليكون نبيا ورسولاً .

وكانت رحمة الله مع محمد " ﷺ " حين جاءه وحي الله تعالي ، إذ كلفه بالنبوة أولاً ، وجاءه الوحي ينبئه ، ومن المعروف أن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ؛ فلما خبر " ﷺ " الوحي ، ورأى صوره، وأنواعه، وأصبح متآلفاً مع لقائه جاءته الرسالة ؛ فصار رسولاً نبياً .

والنبوة أخص من الرسالة ، لأن النبوة تعني نزول الوحي من عند الله إلي من يختاره الله تعالي من الناس؛ ليعلم، ويعمل بما أوحي به ، وهي تعليم لمن تنبأ خاصة، أما الرسالة فإنها الوحي يأتي للشخص المختار علي أن يعلمه ويقوم بتبليغه للناس ويعمل به، فهو رسول الله إليهم .

وعلي هذا فكل رسول نبي ، وليس بلازم أن يكون النبي رسولاً ...

ولقد نبئ محمد " ﷺ " وجاءه الوحي من عند الله ؛ واستمر علي ذلك مدة تعد تمهيداً لإرساله ، أراد الله أن يهيئه خلالها للتعامل مع الملائكة ، والاتصال بالله ويعرفه كذلك بكل ما تحتاجه الرسالة من أمور لابد منها للرسول المختار .

إن الرسول بشر يتصل بالله ، وبالناس ، ولا بد له أن يتصف بصفات إلهية ترتقي به إلي درجة الكمال البشري ، والسمو الروحي ليسهل عليه الاتصال بالملأ الأعلي بجانبه الروحي ، والتعامل مع الناس بجانبه البشري في توازن ، وإنسجام .

وقد بدأت نبوة محمد بأوليات الوحي كما أرادها الله تعالي ، و لم يكلف بالرسالة إلا بعد أن أصبح مؤهلاً لها ، مستعداً للقيام بواجبها [١] .

---

[١] أنظر : أعلام النبوة للماوردي ص ١٧٥ ـ ١٨٠ ؛ ويرى الماوردي أن الوحي تدرج مع رسول الله ﷺ فجرى مبدأ بالرؤيا ثم بالصفات ، ثم بالنبوة ، ثم بالرسالة .. إلخ .

لقد كان " ﷺ " في مرحلة النبوة يخاف من الوحي يأتيه بإحدى صوره ، ولذلك كان يأتي المدينة متاكباً ، ويقول لها : " خشيت على نفسي " ويصف الرجل الذي يظهر أمامــــه (ويقول : سطاً على الرجل) وكان يجري منه محاولاً الهرب من أمامه ، أما في مرحلة الرسالة فكان يأنس بالوحي ، ويتعجله ، ويخاف أن يتركه ولا يأتيه ..

ولقـــد اختلف الوحي مع محمد " ﷺ " في فترة النبوة عن الوحي في فترة الرسالة . يقول القاضي عياض : وإنما بدأ الوحي مع رسول الله " ﷺ " بالرؤيا ، لئلا يفجـــأه الملك . ويأتيه بصريح النبوة بغتة : فلا تتحملها قواه البشرية ، فبدئ بأوائل خصـــال النبوة ، وتباشير الكرامة ، من صدق الرؤيا ، وما جاء من رؤية الضوء ، وسمـــاع الصوت ، وتسليم الحجر ، والشجر ، عليه بالنبوة ، حتى يستشرف عظيم ما يراد به ، ويستعد لما ينتظره ، فلم يأته الملك إلا بأمر عنده مقدماته [1].

يقول ابن كثير : وبدء الوحي بصورة التدرج يهدئ القلب ، ويطمئن النفس ..

ومن صور الوحي في بدايته ما يلي : ــ

١ ـ الرؤيا الصادقة :

إذا نـــام الإنسان انقطع عن عالم الناس ، وعاش مع باطنه ، وإدراكاته اللاشعورية ، وخـــلال النـــوم يهيم نفس النائم في رؤى تتضمن أفكاراً ، وأحداثاً ، لا يمكن له أن يتصـــور حدوثها في حالة اليقظة ، ولذا كانت الرؤى المنامية تدريباً للإنسان وهو في عالم اللاشعور ، على ما سوف يراه في عالم الإدراك والشعور .

إن عـــلماء النفس المعاصرين يزرعون في الإنسان مبادئهم الضارة ، وقيمهم المادية وهو نائم ، وذلك بوضع تسجيل صوتي تحت رأسه وهو نائم تحببه فيما يرغبون ، وتـــحدث عن مزايا ما يدعون إليه ، فإذا ما استيقظ الإنسان يجد عقله مشغولاً بما سمعه روحه أثناء نومه ، من غير إدراك سبب هذا الانشغال .

---

(١) الشفا ج ١ ص ٣٦٠ بتصرف .

إن هذه المقدمة بيان لأهمية الرؤى ، وإبراز لدورها في تهيئة الإنسان لأحداث عالم اليقظة ، وخاصة إذا كانت الأحداث غريبة مدهشة .

ولقد كان من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن بدأه الوحي بالرؤيا الصادقة تقـــول الســـيدة عائشة "رضي الله عنها": (**أول ما بدئ به رسول الله " ﷺ " من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم،فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح**)[1] وبذلـــك كان الوحي يعلم رسول الله وهو نائم بما يريده الله تعالى في رؤى صادقة صالحة ، خالية من الضعف ، والوهم ، وكانت رؤى الوحي في وضوحها وظهورها تشبه ضوء الصبح في بيانه ، وسطوعه .

جـــاء في فتح الباري أنه ثبت في مراسيل عبيد بن عمير أنه "ﷺ" أوحي إليه أولاً في المنام حتى أتاه الملك بعد ذلك في اليقظة على الصورة التي أتاه بها في المنام[2] وقد تعددت الرؤى المنامية لرسول الله " ﷺ " ، وكان يندهش لذلك ... ومنها[3]

ـــ رأى أن آتٍ أتاه ، ومعه صاحبان له ، فنظروا إليه فقالوا : هو ، هو ، ثم ذهبوا فهاله ذلك ، وتساءل عما رأى ، وعن حديثهم أمامه ، فقال له عمه أبو طالـــب : يا ابن أخي ليس بشيء .

ـــ وأتـــاه هذا الآتي مرة أخرى ، فجاء لعمه ، وقال له : يا عم سطا بي الرجل الذي ذكرت لك، فأدخل يده في جوفي حتى إني أجد بردها ، فخرج به عمه إلى رجل من أهل الكتاب يتطبب بمكة، فحدثه حديثه ، وقال عالجه، فصوب به، وصعد، وكشف عن قدمـــيه ، ونظر بين كتفيه ، وقال : يا ابن عبد مناف ابنك هذا طيب طيب لـــلخير فـــيه علامات ، إن ظفرت به يهود قتلته ، وليس الرائي شيطاناً ، ولكنه من النواميس الذين يتحسسون بها القلوب للنبوة ، فرجع به .

---

(1) صحيح البخاري – كتاب بدء الوحي ج١ ص ٥ .

(2) فتح الباري – كتاب الوحي ج١ ص ٢٢

(3) أنظر : سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٣١٠ – ٣١٢

رأى في منامه أن سقف بيته نزعت منه خشبة، وأدخل فيه سلم من فضة ، ثم نزل إليه رجلان ، فأراد أن يستغيث فمنع من الكلام ، فقعد أحدهما إليه ، والآخر إلى جنبه ، وأدخل أحدهما يده في جنبه فنزع ضلعين منه ، وأدخل يده في جوفه ورسول الله " ﷺ " يجد بردها، فأخرج قلبه، فوضعه على كفه، وقال لصاحبه : نعم القلب قلب رجل صالح ، فطهر قلبه وغسله ، ثم أدخل القلب مكانه، ورد الضلعين ، ثم ارتفعا، ورفعا سلمهما ، فإذا السقف كما هو ، فذكر ذلك لخديجة بنت خويلد فقالت له : أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً ، هذا خير فأبشر .

ورأى في منامه جبريل ومعه نمط من ديباج فيه كتاب فقال له : إقرأ .

فقال له : ما أقرأ .

فغته به حتى ظن رسول الله " ﷺ " أنه الموت ، ثم أرسله فقال : إقرأ .

قال "ﷺ" : ما أقرأ .

فغته به حتى ظن رسول الله " ﷺ " أنه الموت، ثم أرسله فقال له : إقرأ،

قال "ﷺ" : ماذا أقرأ ، ما قال ذلك إلا افتداء منه أن يعود إليه بمثل ما صنع .

قال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ .

فقرأها رسول الله " ﷺ " ثم انتهى فانصرف جبريل، وهب رسول الله"ﷺ" من نومه ، قال : فكأنما كتب في قلبي كتاباً فذكر ذلك لخديجة فقالت : أبشر فإن الله لا يصنع بك إلا خيراً .

وهكذا . . . .

تعددت الرؤى ، وركزت على قضية إعلام الرسول بنبوته ، وتطهيره ، وإعلامه ما ينتظره من أحوال ، وأعمال ، حتى لا يفجئه الملك على صورته الحقيقة ، فيصاب بالخوف ، والاضطراب .

٢ ـ نداءات الملائكة :

من صور الوحي الذي بدأ برسول الله " ﷺ " نداء الملائكة عليه ، وإعلامه إياه بنبوته، وهو لا يعرف المنادى ولا يمكنه تحديد مصدر النداء . .

من ذلك ما رواه ابن كثير بسنده أن رسول الله " ﷺ " قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء ، وقد خشيت والله أن يكون لهذا أمر .

قالـــت : معـــاذ الله ما كان الله ليفعل ذلك بك، فو الله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث .

فلما دخل أبو بكر ، قالت له خديجة: يا عتيق اذهب مع محمد إلى ورقة [1] .

فلما دخل رسول الله " ﷺ " أخذ أبو بكر بيده ، فقال : انطلق بنا إلى ورقة .

قال : ومن أخبرك ؟

قال : خديجة .

فانطلقا إليه ، وقال رسول الله " ﷺ " له : إني إذا خلوت وحدى سمعت نداء خلفي يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض .

فقال له : لا تفعل إذا أتاك فاثبت ، حتى تسمع ما يقول لك ، ثم ائتني فأخبرني .

فلما خلا ناداه يا محمد قل ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۞ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۞ ﴾ حتى بلـــغ ﴿ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴾ قل لا إله إلا الله ، فأتى محمد ورقة فذكر له ذلك .

فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذى بشر بك ابن مريم ، وإنك على مثل ناموس موسى ، وإنك نبي مرسل [2] .

ويقـــول النبي " ﷺ " : (خرجت مرة حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت صـــوتا من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفعت رأسي إلى

---

[1] ورقـة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة " رضي الله عنها " . آمن بمحمد يوم أن سمع به ، [illegible] الرسول " ﷺ " عنه : لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب بيض ، لأنه آمن بي وصدقني . ويقول " ﷺ " : لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين . السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٩٨ .

[2] البداية والنهاية ج٣ ص ٩ .

السماء أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، فرفعت أنظر إليه فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم، أمامي، وما أتأخر ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرفت راجعاً إلى أهلي.

حتى أتيت خديجة فجلست إليها فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فو الله لقد بعثت رسلي في طلبك، فبلغوا مكة، ورجعوا إليّ!!.

ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت: أبشر يا ابن عم واثبت، فو الذي نفسي بيده إني أرجو أن تكون نبي هذه الأمة.

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة، فأخبرته بما أخبرها به. فقال ورقة: قدوس قدوس!؛ والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى، وإنه لنبي هذه الأمة، فقولي له فليثبت.

فرجعت خديجة إلى رسول الله "ﷺ" فأخبرته بقول ورقة.

وفي مرة تالية قضى رسول الله "ﷺ" جواره، وانصرف يصنع كما كان يصنع: حيث بدأ بالكعبة فطاف، فلقيه ورقة عند الكعبة، قال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت.

فلما أخبره قال له ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبنه ولتقاتلنه ولتؤذينه، ولئن أدركت ذلك لأنصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه.

ويقول "ﷺ" لخديجة: لما قضيت جواري، هبطت فنوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً بين السماء والأرض فقلت: دثروني دثروني، وصبوا علي ماء بارداً [1]..

---

(1) صحيح البخاري — كتاب التفسير — باب سورة المدثر ج ٨ ص ٦٢، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢ - ١٣.

إن نـــداءات الملائكة لرسول الله ، وتعجبه مما يسمع دفعه إلى معرفة أسرار ما يسمع ، ولذلك كان يرجع لخديجة يقص عليها ما رأى .

وكانت خديجة " رضي الله عنها " خير معين لرسول الله " ﷺ " ، تسمع وتجتهد في معرفة أسباب ذلك ، وتسأل أهل الكتاب عن خبر ما يسمع ، وتخبر زوجها رسول الله " ﷺ " بما يسري عنه ، ويطمئنه .

وكانت تبحث عن أسرار ما يرى لتطمئن عليه ، وتطمئنه " رضى الله عنها " قالت له مرة : يا ابن عم أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟

قال : نعم .

قالت : فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل ، فقال رسول الله " ﷺ " : يا خديجة هذا جبريل قد جاءني .

فقالت : قم يا ابن عمي فأجلس على فخذي اليسرى .

فقام رسول الله " ﷺ " فجلس عليها ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالـــت : فتحول فاقعد على فخذي اليمنى ، فتحول رسول الله " ﷺ " فجلس على فخذها اليمنى ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

فحسرت فألقت خمارها ورسول الله " ﷺ " جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟

قال : لا .

قالت : يابن عم اثبت وأبشر فو الله إنه لملك، ما هذا شيطان [١] .

٢ ـ كلام الشجر والحجر :

يروى ابن سعد بسنده أن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله كرامته، وابتداءه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضى إلى الشعاب ، وبطون

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٤ . البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥ ، ١٦ .

الأودية ، فلا تمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يارسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه ، وشماله ، وخلفه ، فلا يرى أحداً [1].

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : إني أعرف حجراً كان يسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن [2] .

وقال محمد بن عمر بسنده عن برة بنت تجراة قالت : إن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله تعالى كرامته، وابتداءه بالنبوة، كان إذا خرج لحاجته أبعد، حتى تحسر عنه البيوت، ويفضي إلى شعاب مكة، وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر، ولا شجر، إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله " ﷺ " خلفه، وعن يمينه، وعن شماله فلا يرى إلا الشجر ، وما حوله من الحجارة ، وهي تحييه بتحية النبوة : السلام عليك يارسول الله [3] .

وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رحمهما الله تعالى أن رسول الله " ﷺ " قال : يا خديجة إني أرى ضوءاً ،وأسمع صوتاً ، لقد خشيت أن أكون كاهناً ، فقالت : إن الله تعالى لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتصل الرحم [4] .

٤ ـ لقاء الملائكة :

من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن أخذ يهيئه للقاء ملك الوحي ، وذلك بإرسال الملائكة إليه ، تعلمه كلمة، أو شيئاً ما ، ليستعد بذلك على ملاقاة جبريل " عليه السلام " .

---

[1] طبقات ابن سعد ١ / ١٥٧ .

[2] صحيح مسلم ـ كتاب الفضائل باب تسليم الحجر عليه ج ١٥ ص ٢٦ .

[3] طبقات ابن سعد ج١ ص ١٥٧ .

[4] المرجع السابق ج١ ص ١٩٥.

يروى ابن سعد أن رسول الله " ﷺ " لما نزلت عليه النبوة كان يأتيه " إسرافيل " واستمر معه يعلمه الكلمة ، والشئ ، و لم ينزل شئ من القرآن على لسانه [١] ، يقول أبو شامه : إن " إسرافيل " كان يأتي النبي وهو في غار حراء فكان يلقى إليه الكلمة بسرعة ، ولا يقيم معه ،تدرجاً وتمريناً ..

وأحياناً كان يأتيه جبريل بصحبة ملك آخر ، يقول ابن عباس " رضي الله عنه " كان رسول الله " ﷺ " ذات يوم وجبريل على الصفا فقال رسول الله " ﷺ " يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة دقيق، ولا كف من سويق، فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفزعته .

فقال رسول الله " ﷺ " : أ أمر الله القيامة أن تقوم ؟

فقال جبريل : لا ولكن أمر الله إسرافيل فنزل إليك، حين سمع كلامك .

فأتاه إسرافيل فقال : إن الله تعالى بعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض، وأمرني أن أعرض إليك أن أسير معك جبال تهامة زمرداً، وياقوتاً، وذهباً، وفضة، فإن شئت نبياً ملكاً، وإن شئت نبياً عبداً ؟ فأومأ إليه جبريل : أن تواضع .

فقال رسول الله " ﷺ " : بل نبياً عبداً ، ثلاثا [٢].

ويقول البراء بن عازب " رضي الله عنه " : أتاه جبريل وميكائيل : فنزل جبريل وبقي ميكائيل واقفاً بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه ، أهو هو ؟

قال : هو هو .

قال : فزنه برجل ، فوزنه به فرجحه رسول الله " ﷺ " .

قال : زنه بعشرة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنه بمائة ، فوزنه فرجحهم .

قال : زنه بألف ، فوزنه فرجحهم .

---

[١] طبقات ابن سعد ج١ ص ١٩١ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٣١٠ .

ثم جعلوا يتساقطون عليه من كفة الميزان .

فقال ميكائيل : تبعته أمته ورب الكعبة ، ثم أجلسني على بساط كهيئة الدرنوك ، فيه الياقوت واللؤلؤ ، فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه ، فشقه، فأخرج منه مغمز الشيطان وعلق الدم فطرحها ، فقال أحدهما لصاحبه : أغسل بطنه غسل الإناء ، واغسل قلبه غسل الملاء ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خط بطنه ، فخاطه ، ثم أجلساه فبشره جبريل برسالة ربه حتى اطمأن النبي " ﷺ " [1] .

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس " ﷺ " قال : بينما النبي " ﷺ " جالس ، وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً من السماء من فوق ، فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال : يا محمد هذا ملك قد نزل ، لم ينزل إلى الأرض قط .

فأتى النبي " ﷺ " فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته [2] .

مجيء جبريل بالقرآن :

استمر الوحي بمقدماته مع رسول الله " ﷺ " على النحو المبين ، وأدرك محمد " ﷺ " أن أمرا عظيما ينتظره ، وسمع من زوجته ، ومن ورقة ، ومن غيرهما أن الذي يراه ويسمعه هو الوحي الذي كان يأتي موسى ، وعيسى والأنبياء من قبله " عليهم صلوات الله وسلامه " .

وشيئا فشيئا بدأ يطمئن لما يرى، ويثق فيما يسمع حتى جاءه جبريل " ﷺ " بأول آية قرآنية أمره الله تعالى أن يقرئه بها ، تصور السيدة عائشة " رضى الله عنها " نزول جبريل بأول آية قرآنية على رسول الله " ﷺ " فتقول " رضي الله عنها " : جاءه الملك (أي جبريل) وهو في غار حراء ، فقال : إقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

---

(١) المرجع السابق ص ١٩٠ وما بعدها

(٢) مختصر النسائي وشرحه ج ٢ ص ٢١٠ .

يقول النبي " ﷺ " : فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ .

قلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ، ثم أرسلني فقال : إقرأ .

فقلت : ما أنا بقارئ .

فأخذني فغطني الثالثة ، ثم أرسلني فقال ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝ ﴾ .

فرجع بها رسول الله " ﷺ " ترجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد " رضي الله عنها " فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

ثم قال : يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي .

فقالت خديجة له : كلا ، أبشر ، فو الله لا يخزيك الله أبدا ، إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي ، وهو ابن عم خديجة لأبيها ، وكان امرءاً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العربي والعبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وقد عمي في شيخوخته .

فقالت له خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره النبي " ﷺ " خبر ما رأى .

فقال له ورقة :هذا الناموس الذي انزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعا، ليتني أكون حيا إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله " ﷺ " : أو مخرجي هم ؟

فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك أنصرك نصرا مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي [1] .

ومع أن النبي " ﷺ " كان يبحث عن الهداية التي جاءته ، ومع أنه كان على يقين بالفوز العظيم بمجئ جبريل ، ولذلك قال لخديجة : أرأيتك الذي كنت أخبرتك أني رأيته في المنام ؟ فإنه جبريل ، استعلن لي ، وأرسله إلى ربي . . . ومع كل ذلك فإنه " ﷺ " أصيب بالروع ، وخشي على نفسه .

وهذا الخوف الذي عاشه النبي " ﷺ " في لقاء جبريل " عليه السلام " جعل البعض يتساءل عن سبب هذا الخوف لأن المقام مقام سرور ورضى وليس مقام رهبة وهلع .

وقد تناول العلماء هذه المسألة ورأوا أن الخوف لم يكن من النبوة ، أو من الوحي . وإنما كان من تصوره أذى يأتي من الغط الشديد . . أو من ثقل المسئولية . أو لأن الحوار لم يكن عاديا . . فلقد أمر جبريل "عليه السلام" محمدا " ﷺ " بالقراءة ثلاث مرات وغطه بشدة ثلاث مرات أيضا والرسول يقول له : ما أنا بقارئ ويتنشر خبر ذلك عند خديجة وأبي بكر وورقة ، ويتحدث عنه أهل مكة ، ليكون حديثهم تعريفا بمحمد ، وتنبيها على منزلته عند الله والناس ، فضلا من الله ونعمة .

يقول الإسماعيلي : إن العادة جرت بأن الأمر الجليل إذا قضى الله تعالى بإيصاله إلى الخلق أن يتقدمه ترشيح وتأسيس ، وكـــان ما يـــراه النبي " ﷺ " من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك ، فلما جاءه الملك فجأة بغتة بصورة تخالف العادة والمألوف ، نفر طبعه البشري منه ، وهاله ذلك ، ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال ، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ، فلا يتعجب أن يجزع مما لم يألفه ، وينفر طبعه منه حتى إذا اندرج عليه وألفه استمر عليه ، فلذلك رجع إلى خديجة التي ألف تأنيسها له ، فأعلمها بما وقع له ، فهونت عليه خشيته ، بما عرفته من

---

(١) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٥ ، ٦ ، ٧ .

أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة ، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة، لعرفها بصدقه، ومعرفته، وقراءته الكتب القديمة ، فلما سمع كلامه أيقن بالحق، واعترف، وأشار الإسماعيلي كذلك إلى أن الحكمة في ذكره " ﷺ " ما اتفق له في هذه القصة أن يكون سبباً في انتشار خبره ؛ في بطانته ، ومن يستمع لقوله ؛ ويصغي إليه ، طريقه في معرفتهم مباينة من سواه في أحواله لينبهوا على محله [١] ويعرفوا مقامه " ﷺ "

ومع لقاء جبريل برسول الله " ﷺ " وإقرائه أول سورة العلق نلاحظ بعض الملاحظات :

الأولى : غطّ جبريل رسول الله " ﷺ " ثلاث مرات ، ليجعل التفاته، وتركيزه إليه وحده، دون الانشغال بغيره، ويعرفه بثقل الرسالة ، وضخامة المسئولية ؛ وليعوّده على التلقي من الوحي فقط .

وليكن صبوراً حين التبليغ .

وليعلم أن تكرار الطلب منهج في نشر دين الله تعالى .

وليتأكد " ﷺ " بتكرار الغط أن ما يحدث حقيقة واقعية ملموسة ، وليست خيالاً أو وهماً .

لقـــد كان جبريل " ﷺ " في أشد الاشتياق للقاء محمد " ﷺ " ولذلك ضمه إليه ، وقبله أكثر من مرة .

كان من الممكن أن يلقن جبريل " ﷺ " محمداً " ﷺ " ما يقصد شفاهة من بعـــد، ويمضـــي ، لكـــنه فعل ذلك بأمر الله تعالى، ليؤكد خطورة الأمر، وأهميته وضرورة بذل الجهد ، وتحمل المشاق في أداء الواجبات الخطيرة ، وهل هناك أخطر من مهمة الرسالة، والدعوة ؟ ! ! .

وكـــان من الممكن أن يتم اللقاء مباماً . لكن الله تعالى أراد أن يطلع رسوله الأمـــين محمـــد " ﷺ " على صورة روحه الأمين ، كما أراد له أن يعرف أهم صفاته

---

[١] فتح الباري على صحيح البخاري ج ١٢ ص ٣٦٠ .

بعد أن عاش الرؤى ، وسمع النداء ، وشاهد الجمادات تناجيه ، وعاش الخلوة بالوحي بمكره ، أراد الله له بعد ذلك أن يتعود على صورة الوحي التي ستستمر معه . وقد كان ، فجاء جبريل وأقرأه أول سورة العلق .

الثانية : في بدء الوحي بـ : " إقرأ " بيان لموقف الإسلام من القراءة ، ومن العلم كله ، فالقراءة أساس معرفة الدين ، بها يحفظ القرآن ، وتصان السنة ، وتفهم الشريعة ، وبها تكون الدعوة ، وحماية الإسلام ... وبالعلم تحيا الأمة ، وتحافظ على الضرورات الشرعية جميعاً ، وتنظم كافة جوانب الحياة .

الثالثة : قدمت خديجة " رضي الله عنها " مع رسول الله " ﷺ " صورة للزوجة العظيمة المثالية ، فلقد كانت تعيش حياة رسول الله لحظة ، بلحظة ، تتمنى له الخير ، تشاركه في كل ما يعن له ، وتهتم بكل ما يهمه .

لقد أعطته مالها فأغنته " ﷺ " به ، وأبعدته عن متاعب الفقر ، ومشاغله ، ولما بدأ الوحي مناماً ، ونداء ، وضوءاً كانت تطمئنه ، ولكنها من ورائه كانت تبحث عن حقيقة ما يرى " ﷺ " خوفاً عليه ، وحذراً .

وكان " رضي الله عنها " إذا غاب عنها ترسل في طلبه من يبحث عنه [1] ..

كما ذهبت وحدها إلى ورقة ، وأخبرته بخبر زوجها ، تريد أن تعرف شيئا عنه ، فقال لها ورقة : قدوس ، قدوس ، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتيني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة [2] .

ولم تكتف بما سمعت من ابن عمها ورقة ، بل ذهبت مرة أخرى إلى غلام لعتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، نصراني من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له : يا عداس ، أذكرك الله إلا ما أخبرتني : هل عندكم علم عن جبريل ؟

قال عداس: قدوس ، قدوس، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان .

---

[1] البداية والنهاية ج٣ ص ١٣ .

[2] أنظر ص ٣١٢ .

فقالت : أخبرني بعلمك فيه .

قــال عداس : هو أمين الله بينه وبين النبيين ، وهو صاحب موسى وعيسى " عليهما السلام " [1] .

لــقد تميزت خديجة " رضي الله عنها " بكمال الخلقة ، والخلق ، يقول عنها " ﷺ " : (**خير نسائها خديجة بنت خويلد**) [2] وقد جعلت عقلها الكامل في خدمة محمــد " ﷺ " ودعوته ، وكانت " رضي الله عنها " خير معين لمحمد " ﷺ " ولذلك بشرها الله ببيت في الجنة [3] ..

ونلحظ مدى ملاطفتها ، وتقديرها لزوجها في مناداته يا ابن عم .. ولذلك فقد استحقت التقدير من رسول الله " ﷺ " يقول " ﷺ " : " إني رزقت حبها " [4]

<u>**فتور الوحي**</u> :

واطمأن محمد " ﷺ " لصدق ما رأى ، وما سمع ، وتيقن أن الذي كان يأتيه هو وحي الله ، وتأكد أنه فاز بذلك فوزاً عظيما .

وحتى يستــوعب كل ما رأى ، ويهدأ نفسه فتر الوحي ؛ وانقطع عنه جبريل " عليه السلام " فمكث " ﷺ " أياماً لا يرى جبريل، فحزن حزناً شديداً، وأخذ يدور بنفسه بين رءوس الجبال عساه يراه ، ويحدثه ، وحاول أن يتردى من رءوس شواهق الجبال من شدة ألمه لانقطاع جبريل عنه .

وقد شق هذا الفتور على رسول الله " ﷺ " لأنه لم يكن خوطب بعد من الله بأنــه رسول الله ، ومبعوثه إلى العباد ، فخاف أن يكون ذلك أمراً بدئ به ثم لا يراد استتمامه ، فحزن لذلك ، ولذلك أتاه جبريل بعد ذلك وأخبره بأنه رسول الله ..

---

[1] البداية والنهاية ج٣ ص ١٣ .

[2] صحيح مسلم ـ كتاب فضائل خديجة ج ١٥ ص ١٩٨ .

[3] المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١

[4] المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

يقول الزهري : فكلما وافى ذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدى له جبريل فقال له : يا محمد أنت رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه فيرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى ذروة الجبل تبدى له جبريل ، فقال له مثل ذلك [١].

يسأل البعض : **كيف يجوز للنبي " ﷺ " أن يفكر في إلقاء نفسه من ذروة الجبل ؟**

والجواب : أن ذلك كان هما ، لا قراراً .

وكان يظن أن قوته عاجزة عن تحمل ما يتوقعه من أعباء النبوة .

وخوفاً مما قد يحمل له "ﷺ" حين القيام بها من مباينة الخلق جميعاً ؛ وعداوتهم .

وذلك كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل، مما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً ؛ حتى إذا تفكر فيما سيكون من العقبى المحمودة صبر ، واستقرت نفسه .

والعلماء يختلفون في تحديد مدة انقطاع الوحي ، فبعضهم يذهب إلى أن الوحي انقطع مدة قاربت السنتين ونصف ، وبعضهم يرى أنها كانت أياماً ، إلى غير ذلك من الآراء ، يرى ابن إسحاق : أنها كانت ثلاث سنوات ، ويرى ابن كثير : أنها كانت سنتين ونصف ، ويرى ابن عباس : أنها كانت أربعين يوماً ، ويذهب ابن الجوزي : إلى أنها كانت خمسة عشر يوماً ؛ ويرى مقاتل : أنها كانت ثلاثة أيام ، والرأي الأولى بالاعتبار هو في تقصير مدة الانقطاع لمناسبته مقام الرسول عند ربه، ولأنه من الأمور التي إذا طالت انتشرت ، وعرفت ، واشتهرت ، كما أن الانقطاع مدة طويلة يؤدي إلى ضياع كثير مما تم بناؤه في دنيا الناس ، وحياة رسول الله " ﷺ "

* * *

---

[١] انظر ص ٣٢٤ رقم ١ هنا .

المبحث الحادي عشر

صور الوحي

تعتبر مدة انقطاع الوحي فاصلاً بين النبوة والرسالة،فلقد نبئ "ﷺ" لثمان مضين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل،ونزل عليه القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس العام،والمدة بينهما هي فترة النبوة . وبعدها كان الرسالة.

ولقد كان الوحي إلى رسول الله " ﷺ " يأتيه بصور عديدة منها :ـــ

الأول : الرؤيا الصادقة في المنام ومثاله رؤية إبراهيم " عليه السلام " ، كما يقول تعالى : ﴿ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلۡمَنَامِ أَنِّيٓ أَذۡبَحُكَ فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُ ﴾ [١] فدل على أن الوحي كان يأتيهم في المنام كما كان يأتيهم في اليقظة، وما رأى رسول الله " ﷺ " لما بعث رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح .

يروي البخاري بسنده عن عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحي [٢] .

الثاني : أن ينفث الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال " ﷺ " : إن روح القدس نفث في روعي ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته [٣].

يقول المفسرون في قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا ﴾ [٤] هو أن ينفث في روعه بالوحي الذي يخص القلب دون السمع .

---

[١] سورة الصافات آية (١٠٢) .

[٢] صحيح البخاري ـــ كتاب الوحي ج ١ ص ١١ .

[٣] سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٣٥٢ .

[٤] سورة الشورى آية (٥١) .

الثالث : أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه ، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، وحتى إن راحلته لتبرك على الأرض .

يروى الشيخان عن عائشة " رضي الله عنها " أن الحارث بن هشام " ﷺ " سأل رسول الله " ﷺ " : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول [1] .

وروى ابن سعد بسند رجاله ثقات عن أبي سلمة الماجشون أنه بلغه أن رسول الله " ﷺ " كان يقول : (كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه علي كما يلقي الرجل على الرجل فذاك يتفلت مني ، ويأتيني في شيء مثل صلصلة الجرس حتى يخالط قلبي فذاك لا يتفلت مني) [2] .

الرابع : أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة كما في ليلة الإسراء على القول بعدم الرؤية .

الخامس : أن يكلمه الله تعالى كفاحاً بغير حجاب على القول بالرؤية ليلة الإسراء .

السادس : أن يكلمه الله تعالى في النوم ، كما في حديث معاذ عند الترمذي : أتاني ربي في أحسن صورة فقال : (فيم يختصم الملأ الأعلى) [3] : وهذا النوع يختلف عن الرؤيا المنامية ، لأن هذا كلام الله تعالى .

وذكر بعضهم أن من هذا النوع نزول سورة الكوثر لما رواه مسلم عن أنس قال : بينما رسول الله " ﷺ " بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع بصره مبتسماً

---

(1) صحيح البخاري ـــ كتاب بدء الوحي ج١ ص ٤ .

(2) طبقات ابن سعد ١ / ١٩٧ .

(3) سنن الدارمي ـــ باب رقم (١٢) .

فقرأ : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝ ﴾ وكانت قد نزلت عليه قبل ذلك، على الأصح، وهذه مرة أخرى تنزل فيها السورة لأن القرآن الكريم نزل كله في اليقظة .

السابع : مجئ الوحي كدوى النحل .

روى الإمام أحمد والحاكم ، عن عمر بن الخطاب " ﷺ " قال : كان رسول الله " ﷺ " : (**إذا أنزل عليه يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل**)[1] .

الثامن : العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه وعلى لسانه، عند الاجتهاد في الأحكام .

لأنه اتفق على أنه " ﷺ " إذا اجتهد أصاب قطعاً ، وكان معصوماً من الخطأ وهذا خرق للعادة في حقه " ﷺ " دون الأمة ، وهو يفارق النفث في الروع من حيث حصوله بالاجتهاد، والنفث بدونه .

ولقد كان الوحي ثقيلاً كقوله تعالي : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝ ﴾[2] ويرجع ثقل الوحي إلى ما يتضمنه من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق ، بحيث لا يقدر على حملها ، والعمل بها سوى العقلاء ، الذين يحكمون عقولهم ، ويسيطرون على هواهم ونفوسهم .

ومن دلالات ثقل الوحي ما كان يحدث لرسول الله " ﷺ " حين نزول الوحي عليه الآثار التي رواها أصحابه " رضوان الله عليهم " ، ومنها : —

ـــ يقول زيد بن ثابت " ﷺ " عن عائشة " رضي الله عنها " أنها قالت : **أنزل على رسول الله " ﷺ " وفخذه على فخذى فكادت فخذه ترض فخذى** .

---

[1] مسند أحمد ١ / ٣٤ .

[2] سورة المزمل آية (٥) .

ـ وقالت عائشة "رضي الله عنها ": إن كان ليوحى إلى رسول الله " ﷺ " وهو على راحلته فتضرب بجرانها فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ، وتلت الآية [1]

ـ ويقول أبو أروى الدوسي " ﷺ " : رأيت الوحي ينزل على رسول الله " ﷺ " وإنه على راحلته فترغوا، وتفتل يديها، حتى أظن أن ذراعها تنفصم ، فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان [2].

ـ ويقول عبادة بن الصامت " ﷺ " : كان رسول الله " ﷺ " إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه [3] .

ـ ويقول أبو هريرة " ﷺ " : كان رسول الله " ﷺ " إذا أوحي إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي [4] .

ـ وتقول عائشة "رضي الله عنها" : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً) [5] .

ـ وتقول أسماء بنت يزيد " ﷺ " : كنت آخذة بزمام ناقة رسول الله " ﷺ " حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد ينكسر عضدها من ثقل السورة [6] .

ـ ويقول ابن عمر " ﷺ " : أنزلت على رسول الله " ﷺ " سورة المائدة وهو راكب على راحلته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها [7] .

---

(1) المزمل : ٥ ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ۝ ﴾

(2) طبقات ابن سعد ١ / ١٩٧ .

(3) صحيح مسلم بشرح النووي ... كتاب الفضائل ... باب [illegible] ج ٢ ص ٣٢٤ .

(4) صحيح مسلم بشرح النووي . كتاب الجهاد . باب فتح مكة ج ١٢ ص ١٢٨ .

(5) صحيح البخاري . باب بدء الوحي ج ١ ص ٤ ، ومعنى يتفصد : يتفصل .

(6) تفسير ابن كثير ١ / ٤٢٤ .

(7) تفسير ابن كثير ١ / ٤٢٤

— وثبــت في الصـــحيحين نزول سورة الفتح على رسول الله " ﷺ " وهو على راحلته فكأنه يكون تارة وتارة بحسب الحال [1] .

والآيات التي بدأ الوحي بها بعد فترة الانقطاع هي أوائل سورة المدثر ، وفيها يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝ ﴾ [2] وهذه الآيات تضمنت في إجمال كل ما يتعلق بالرسالة ..

ففي الآية الأولى ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾ بيان لعظم مقام الرسول عند ربه كما يتضح من مناداته ، وتسميته بالمدثر الذي يفيد الستر ، والموانسة ، والهدوء وهي أمور ضرورية ليقوم الإنسان بالمهام التي توكل إليه .

يقول القرطبي : وفي خطابه بهذا الاسم فائدتان : —

الفائدة الأولى : الملاطفة ، فإن العرب إذا قصدت ملاطفة المخاطب ، وترك المعاتبة سموه باسم مشتق من حالته التي هو عليها ، كقول النبي " ﷺ " لعلي حين غاضب فاطمة " رضي الله عنهما " ، فأتـــاه وهو نائم وقد لصق بجنبه التراب فقال له : "**قم يا أبا تراب** " [3] إشعاراً له أنه غير عاتب عليه ، وملاطفة له ، وكذلك قوله " ﷺ " لحذيفة : " **قم يا نومان** " وكان نائماً ملاطفة له ، وإشعاراً لترك العتب والتأنيب ، فقول الله تعالى لمحمد " ﷺ " : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ ﴾ فيه تأنيس وملاطفة ، ليستشعر أنه غير عاتب عليه .

والفائدة الثانية تنبيه لكل متدثر ، خائف ، لينهض بما كلفه الله به ، فالقيام بالواجب أولى ، وأحسن من النوم والقعود ، والتوكل على الله يساعد على النشاط والعمل .

---

(١) السيرة لابن هشام ١ / ٤٢٤ .

(٢) سورة المدثر الآيات (١ — ٧) .

(٣) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب فضل علي " ﷺ " ج ٦ ص ١١٦ .

وفي الآية الثانية : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ ﴾ أمر بالقيام والنهوض ، وترك النوم ، والكسل، وصيرورة التصميم الجاد ، والسعي المستمر في الدعوة لدين الله تعالى وليكن الإنذار أول الأمر مع الناس، وهو المناسب لهم، تنبيهاً لعقولهم، وتعريفهم بالخطر الذي يترصد الغافلين، السادرين في الضلال،وهذا الإنذار رحمة من الله للناس ؛ لأنه يعطيهم الفرصة لينقذوا أنفسهم من ضلال الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وتتجلى الرحمة في هذا الإنذار بأنه يأتيهم بواسطة رسول ، يدعو ويبين ، ويكرر، ويصبر ، ويستمر طويلاً في دعوتهم ، عساهم يستجيبون ، ويتأثرون .

والرسول " ﷺ " كما هو منذر فهو مبشر إلا أن المقام أكتفى بالإنذار مراعاة لأحوال المخاطبين .

والآية الثالثة : ﴿ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ توجه رسول الله خاصة لمعرفة مقام الله وعظمته التي تصغر أمامه سائر القوى ، فهو وحده الكبير المتعال ، وبهذا التصور يعيش الرسول " ﷺ " في دعوته الناس أمناً ، لا يتأثر بمعارضاتهم، أو عداوتهم ، لأنه مع الله القوي العزيز .

يقول سيد قطب : ليواجه نذارة البشرية ، ومتاعبها، وأهوالها، وأثقالها ، بهذا التصور ، وبهذا الشعور ، فيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة . وهو يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير . وكما أن مشاق الدعوة وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور ومعايشة هذا الشعور [1].

والآية الرابعة : ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ ﴾ توجه الرسول " ﷺ " للمحافظة على طهارة الظاهر والباطن ، لأن التلقي عن الملأ الأعلى يتناسب مع هذه الطهارة .

وطهارة الثوب كناية عن طهارة القلب ، والعمل ، والسلوك .

والمحب للطهارة ، المتعود عليها، يعمل أن لا يقع في غيرها .

---

[1] في ظلال القرآن ج٦ ٢٩ص ـــ ط . دار التراث العربي .

والطهارة عموماً ضرورة لمزاولة مهام الرسالة والدعـوة وسـد الضالين المنحرفين ، وبذلك يدعوهم الرسول " ﷺ "ولا يتأثر هم ، وبخاصة أن أهل الباطل وأنصار الشيطان يحاولون التغلب على أهل الحق بأخذهم إليهم ، مستعينين بوسائل الهوى ، ومغريات الشهوات ، وبكافة ما يمكنهم من إغراء .

ولذلك كانت الطهارة ضرورة للرسل والدعاة ..

والآية الخامسة : ﴿ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴾ والرجز شامل للشرك ولسائر المعاصي،والرجز معناه العذاب، أطلق على مسبباته للإشارة إلى أن العقوبة ملازمة للمعصية ، وقد أمر الله تعالى النبي " ﷺ " بالهجر وليس بالترك فقط ، لما في الهجر من ترك ونفور ، وكراهية ، وتباعد ، والرسـول " ﷺ " كان هاجراً للشرك ولموجبات العذاب حتى قبل النبوة ، فقد عافت فطرته السليمة الانحراف، وبعدت عن أنواع المعتقدات الشائهة ، وترك الرجس من الأخلاق والعادات ، و لم يعرف عنه أنه شارك في شيء من هوس الجاهلية وأخطائها، ومع كل هذا كان هذا التوجيه الذي يعني ضرورة المفاصلة، وأهمية إعلان التميز الذي لا صلح فيه،ولا هوادة معه، فهما طريقـان مفتـرقان لا يلتقيان ، كما يعني التحرز من دنس هذا الرجز ، ودواعيه ..

والآية السادسة : ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ توجه الرسول " ﷺ " إلى عدم المن على الناس ، وعدم استكثار ما سوف يعطيه لهم ، فهو مكلف بالعطاء وسيعطي الكثير في إصلاح الحياة للناس أجمعين ، فعليه البذل ، والعطاء ، بلا من وبلا عدد ، وبذلك يعظم العطاء ، ويعظم صاحبه .

إن النبوة فضل إلهي ، وعلى الرسول أن يدوم متاكراً ، عابداً ، متحلياً بمكارم الأخلاق ، وليس المن من الخلق الكريم أبداً .

والآية السابعة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ ﴾ تشتمل على أمر كريم يحتاجه الرسول في مسيرته مع النبوة، والدعوة،وعليه أن يصبر مع نفسه وهو يقاوم شهواتها ، ومع الوحي

وهو يسمعه ويحفظه،ومع الناس وهويعلمهم،ومع الأعداء وهو يقاومهم .

إن المعركة طويلة، والصبر هو الزاد الذى يلائمها ، وهو الذى يحقق الفوز في النهاية .

وهذه الآيات السبعة الأولى في سورة المدثر نزلت في أول الوحى بالرسالة بعد فتور الوحى متضمنة الأسس الرئيسية للحركة بدين الله تعالى ، ولذلك جاءت إعلاناً واضحاً عن أساسيات القيام بالرسالة ، وأهم ما يجب أن يتحلى به الرسول والدعاة .

وأما أول سورة العلق فقد نزل في مرحلة الوحى بالنبوة التى استمرت ستة أشهر ، ليعرف النبى " ﷺ " ربه ، ويقف على كمال صفاته ، وحقائقها ، ويألف لقاء الملائكة ، وتلقى الوحى من ربه .

يذهب البعض إلى أن أول المدثر نزل أولاً استناداً إلى حديث البخاري الذى رواه بسنده عن يحيى بن أبى كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن ؟

قال : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ ﴾ ..

قلت : يقولون : ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ ﴾

فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله " ﷺ " عن ذلك ، وقلت له مثل ما قلت لى ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله " ﷺ " قال: (جاورت بحراء فلما قضيت جوارى، هبطت، فنوديت ، فنظرت عن يمينى فلم أر شيئاً ، ونظرت عن شمالى فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامى فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفى فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسى فرأيت شيئاً،فأتيت خديجة فقلت : (دثرونى وصبوا علىّ ماء بارداً) قال " ﷺ " : فدثرونى وصبوا علىّ ماء بارداً ، قال ، فنزلت : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ ﴾ (١).

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح البارى ــ كتاب التفسير ــ سورة المدثر جـ٨ ص ٦٧٦ .

ويروى مسلم حديثاً يشير كذلك إلى أن أول المدثر نزل أولاً ، فقد روى بسنده عن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحى ، فقال في حديثه : فبينما أنا أمشى سمعت صوتاً من السماء ، فرفعت رأسى قبل السماء ، فإذا الملك الذى جاءنى بحراء ، جالساً على كرسى بين السماء والأرض ، فجئثت منه حتى هويت إلى الأرض ، فجئت إلى أهلى فقلت : زملونى ،زملونى، فدثرونى ، فأنزل الله تعالي : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ﴿٥﴾ ﴾ قال أبو سلمة : والرجز الأوثان ، ثم حمى الوحى بعد ذلك وتتابع)[١]، ورواه البخارى من هذا الوجه أيضاً[٢].

يعلق ابن كثير في تفسيره على هذا الاختلاف فيقول ، والأولى القول بأن جبريل نزل بأول سورة العلق في بداية النبوة،وأن نزول أول سورة المدثر كان في بداية الرسالة ، لأن فى حديث نزول أول سورة المدثر الذى رواه مسلم وغيره إشارة إلى المجئ السابق لجبريل ، حيث يقول : (فإذا الملك الذى جاءنى بحراء) يوم أن جاءه بأول سورة العلق ؛ وهذا يفيد أن أول سورة نزلت بعد فتور الوحى هى المدثر ، وهي أول وحى الرسالة، وعلى هذا فأولية نزول أول العلق أولية مطلقة ، وأولية أول سورة المدثر مقيدة بما بعد فتور الوحى ، وبدء الرسالة[٣] .

ويذهب البعض إلى أن أول سورة المزمل نزل قبل المدثر ، لكن هذا الرأى مردود لأن أول سورة المدثر فيه أمر بالإنذار ؛ وهذا يكون في أول المبعث ، أما أول سورة المزمل ففيها الأمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن ، وهذا يقتضى تقدم تشريع

---

[١] صحيح مسلم ــ كتاب الإيمان ــ باب بدء الوحى ج٢ ص ٢٠٦ .

[٢] صحيح البخارى بشرح فتح البارى ــ كتاب التفسير ــ باب وربك فكبر ج ٨ ص ٦٧٧ ، ٦٧٨ .

[٣] تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٤٠ .

الصلاة ، ونزول كثير من آيات القرآن الكريم يتلوها النبي في الصلاة ، وفي سور الصلاة ، حسب أمر بذلك .

ويذهب البعض إلى أن سورة الضحى هي التي نزلت أولاً بعد فترة الوحي ، مستدلاً بقوله تعالى: ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ ﴾

لأن أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب ، لما تباطأ الوحي عن رسول الله " ﷺ " ليلتين أو ثلاثاً قالت للنبي " ﷺ " ودعك ربك وقلاك ، فنزلت ..

يرد الحافظ ابن حجر هذا فيقول : الحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن إلا ليلتين أو ثلاثاً ، فاختلطتا على بعض الرواة .

وقد ثبت أن الوحي كان يفتر عن النبي " ﷺ " أحياناً كما حدث قبل نزول سورة الكهف،فإن النبي لما سئل عن أصحاب الكهف،قال : سأحدثكم بها غداً ولم يستثن ففتر عنه الوحي خمسة عشر يوماً [1]،فقال الله له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ ﴾ فيدل ذلك على أن القول بالأولية فيه اختلاف كبير بين العلماء ، بسبب اختلاف اعتبار كل قول [2].

وبعد نزول أوائل سورة المدثر تتابع الوحي ، واستمر في مكة والمدينة ، حتى لقي الرسول ربه ..

* * *

---

(١) انظر : تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٤٠ ، ٥٢٢ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير ج٣ ص ٧٢ .

المبحث الثاني عشر
السيرة المحمدية
من الرسالة حتى الهجرة

بعد أن كلف رسول الله " ﷺ " بالرسالة تحول نشاطه إلى العمل بالتبليغ وسيطرت عليه جوانب الرسالة سيطرة كاملة .

فهو " ﷺ " يتلقى الوحي من الله ، ويبلغه لمن حوله ، ويدعو به كل من يلقاه ويبذل في سبيل هذا وقته ، وجهده ، ونشاطه كله .

وكانت زوجته معه خير رفيق لهذه الرحلة الكريمة الشاقة ..

وحيث أن الفصل التالي خاص بحركة الرسول " ﷺ " بالدعوة إلى الناس وهو بذلك متضمن للرسول محمد، ورسالته في الفترة المكية ، فإني أورد هنا أهم الأحداث المتصلة بالسيرة المحمدية موضوع الفصل .

وتتميما لجوانب السيرة الشخصية لمحمد " ﷺ " في الفترة المكية فإني سأورد الملامح العامة لسيرة محمد " ﷺ " خلال هذه الفترة مع التركيز على ما له صلة بالجانب الشخصي عنده " ﷺ " ، وبذلك نقدم السيرة لننتقل إلى حركته " ﷺ " بالدعوة بعد ذلك .

ولهذا سوف يتضمن هذا المبحث عدداً من المواقف التي تحدد مسار السيرة النبوية ، وهي : ـــ

ـ أولا ـ
المرحلة السرية والسابقون إلى الإسلام

عاش النبي "ﷺ" بعد الرسالة في بيئة متآلفة ، متحابة ، فلقد كان " ﷺ " يربي عليا ، وينفق عليه ، وكان معه مولاه زيد بن حارثة ، بالإضافة إلى زوجته وأولاده ، فتكونت بذلك جماعة متآلفة تجعل حركة الحياة في إطارها سهلة ، ميسرة وهذا من فضل الله على محمد " ﷺ " ليقوم بمهام الرسالة على وجهها .

فقد آمنت خديجة "رضي الله عنها" بالرسالة من لحظتها الأولى، وأخذت تطمئن محمداً " ﷺ " وتسري عنه، وتفسر له ما يرى في الأمور مما يزعجه ويرضيه، وتشاركه في متاعبه، ومسائله، يقول ابن إسحاق : وآمنت به خديجة بنت خويلد وصدقت بما جاء به من الله، وآزرته على أمره، فكانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء به، فخفف الله بذلك عن رسوله، لا يسمع بشيء يكرهه من رد عليه، وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله عنه بها، إذا رجع إليها، تثبته، وتخفف عليه، وتصدقه، وتهون عليه أمر الناس، رحمها الله تعالى [1] .

وكانت " رضي الله عنها " عاقلة، حكيمة، تكون حيث يكون، وتحب ما يحبه، وتتمنى ما يتمناه، آمنت بالدعوة، وعبدت ما كان يعبد في صدق وإخلاص .

جاء جبريل " عليه السلام " إلى رسول الله " ﷺ " يعلمه الوضوء والصلاة بطريقة عملية : ففي الخبر أن جبريل أتى محمداً " ﷺ " وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت له منه عين، فتوضأ جبريل، ورسول الله " ﷺ " ينظر إليه ليريه كيفية الطهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله " ﷺ " كما رأى جبريل يتوضأ، ثم أقام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله " ﷺ " بصلاته.

ولما انصرف جبريل جاء رسول الله " ﷺ " إلى خديجة، فتوضأ أمامها، يريها كيفية الطهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله " ﷺ " ثم صلى لها كما صلى به جبريل، فصلت بصلاته [2] .

ثم إن علي بن أبي طالب رأى رسول الله وخديجة يصليان فقال : ما هذا يا محمد ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : دين الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسله، فأدعوك إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى .

---

(١) [illegible] ج ٢ ص ٤٠٢ .

(٢) سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣٦٨ .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب ليأذن لي فيه .

وكره رسول الله " ﷺ " أن يفشي علي سره قبل أن يستعلن أمره .

فقال له : يا عليّ إذا لم تسلم فاكتم هذا .

فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع في قلب علي الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي يا محمد ؟

فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد .

ففعل علي " رضي الله عنه " وأسلم [1] .

وأما زيد بن حارثة فقد كان مع رسول الله " ﷺ " منذ صغره، مولى له لأن خديجة اشترته، ووهبته للنبي " ﷺ " وعمره ثماني سنوات ، وهو من أوائل من أسلم حتى قال بعضهم : إنه أسلم قبل علي بن أبي طالب ، وبقي في كنف رسول الله " ﷺ "،ونزل القرآن باسمه في قصة زواجه بزينب بنت جحش [2] يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ [3]

---

[1] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص٤٠٣ .

[2] انظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٤٠ ــ ١٤٢ بتصرف .

[3] سورة الأحزاب آية (٣٧) .

وإنما كانت الصلاة ، وكان الوضوء في أول المبعث على وجه الإباحة ، والسنية ، فلما فرضت الصلاة في ليلة الإسراء : جاء الأمر بالوضوء في القرآن الكريم لأداء الصلاة المفروضة .

وهكذا تآلفت هذه الجماعة بالإسلام ، وتوحد عملها، وهدفها، مما جعل السعادة ترفرف على محمد " ﷺ " في بيته الكريم .

وسارت به الحياة هادئة في مرحلة الدعوة السرية : ومدتها سنتان ونصف على الأرجح : لأن كفار مكة تصوروا محمداً واحداً من الحنفاء الذين يتكلمون من غير أن يؤثروا في غيرهم ، وبخاصة أنه لا يتكلم مع كل الناس ، وإنما كان يتخير أفراداً قليلين متميزين بلين الجانب ، والتواضع مع التروى والهدوء .

كما تصوروا أن محمداً سيفتر عن دعوته ، ويتركها بعد مدة حين ينصرف الملأ والوجهاء عنه، وصدقوا أنفسهم حينما رأوا أتباع محمد " ﷺ " من الفقراء ، والضعفاء . فلما جهر محمد " ﷺ " بالدعوة ، ودخل في الإسلام عدد يزيد كل يوم شعروا بالخطر : وبدأوا في المواجهة والمقاومة ، والعدوان .

- ثانياً -

صلته بأعمامه

أعمام النبي " ﷺ " هم أبناء عبد المطلب ، وكانوا جميعاً يحبون محمداً ويرون فيه أخاهم عبد الله : الذى استسلم للذبح فداء لهم ، ومات ، ومحمد حمل في بطن أمه حتى أن عمه أبا لهب أعتق جاريته " ثويبة " فرحاً بمولده " ﷺ " .

وقد أنزله جده منزلة خاصة،فلما مات عبد المطلب،كفله عمه الشقيق " أبو طالب "،وكان أعمامه جميعاً يهتمون بشأنه،فإذا رحل للتجارة أوصوا القافلة به .

وفي يوم زواجه من خديجة كانوا معه،وشاركوه هذا الحدث السعيد .. فلما ولد له " ﷺ " البنين والبنات خطب عمه أبو لهب لولديه عتبة وعتيبة بنتي رسول الله رقية وأم كلثوم .

وبعد أن أعلن محمد " ﷺ " رسالته ، ونادى في مكة بدين الله تعالى ظل عمه أبو طالب على دين قومه ، و لم يدخل في الإسلام،ومع ذلك بقي يدافع عن محمد ويرد من يقصده بسوء .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب أبي خذلان رسول الله " ﷺ " وأظهر وقوفه بجانبه ، مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : قد بلغنا يا أبا طالب الكثير عن ابن أخيك محمد . هذا عمارة بن الوليد ، أنهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقتله فإنما هو رجل برجل .

فقال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسومونني ! أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه ؟ ! هذا والله مالا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف بن قصي:والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك،وجهدوا على التخلص مما تكرهه، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً .

فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي ، فاصنع ما بدا لك [1].

وقد تجمع أعمامه حوله " ﷺ " حماية له ما عدا أبي لهب ، فقد أعماه الله عن الحق ، وأخذ في عداوة محمد " ﷺ " والصد عن الدعوة حتى أنه أمر ولديه بتطليق بنات النبي " ﷺ " ، وأخذت امرأته في وضع الشوك ، والحطب ، والقذر أمام محمد " ﷺ " .

ولما عزمت قريش على قتل محمد جاءوا يستأذنون قومه، وهم بنو هاشم وبنو المطلب ، لأخذه ، وقتله برضى قومه ، فأبوا ذلك عليهم ، ورفضوا تسليمه لهم مع أنهم لم يدخلوا في الإسلام يومذاك ، عصبية ، وخوفاً من العار .

---

[1] سيرة النبي ج١ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .

إن أعمــام النبي " ﷺ " ظلوا معه عصبية ، حتى أن عمه حمزة أسلم بسبب دفاعه عن محمد " ﷺ " ..

فلقــد حدثــوا أن أبا جهل مر على محمد " ﷺ " وهو عند الصفا فآذاه ، وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يرد عليه رسول الله " ﷺ " ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان، في مسكن لها تسمع ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعاً من قنص له ، متوشحا قوســه ، فقالت له المرأة يا أبا عمارة : لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكــم عمــرو بن هشام ، وجده هنا جالساً فآذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف، ولم يكــلمه محمد " ﷺ " فاحتمل حمزة الغضب ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحــد حتى أتى أبا جهل، وهو جالس، في نادي القوم حول المسجد ، فضربه بالقوس ، فشج رأسه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه، أقــول ما يقول، فرد ذلك علي إن استطعت .

فقام رجال من بني مخزوم لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً .

وثبــت حمــزة من ساعتئذ على ما قاله ، فأسلم وحسن إسلامه ، ويومها عرفــت قــريش أن رســول الله " ﷺ " قد عز ، والمسلمين معه، بإسلام عمه حمزه المعروف بينهم بأنه أعــز فتى في قريش [1].

وهكذا دافع عنه أعمامه ، لمنزلته بينهم ، وحسن تعامله ، وكرم خلقه ، ولو كــان غــير ذلك لخلعوه ، وتركوه .. أما عمه أبو لهب فقد استمر مع أعداء محمد يناصرهم ، ويصد عن سبيل الله تعالى .

---

(١) [illegible]

- ثالثا -

الجهر بالدعوة
ومواجهة متاعب أهل مكة

استمرت الدعوة سرية مدة عامين وتصف ، وبعدها أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة — وهنا أخذ كفار مكة في صرف النبي عن دعوته ، وبذلوا لهذا الغرض كل ما أمكنهم ، وأهم ما لاقاه الرسول "ﷺ" منهم ما يلي : —

١ - السؤال عن مدى صدق محمد "ﷺ" :

أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لمحمد "ﷺ" ، فأرسلوا رسلهم إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد ، وكيفية كشف مزاعمه .

يقول محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجا ، حتى أتيا المدينة ، فسألوا الأحبار عن رسول الله "ﷺ" ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله .

وقالا : إنكم أهل التوراة ، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا .

فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فتروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ،ما كان من أمرهم، فإنهم قد كان لهم حديث عجيب .

وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه .

وسلوه عن الروح ماهي ؟

فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ،وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول،فاصنعوا في أمره ما بدا لكم .

بأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش فقالا : يامعشر قريش قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمور ، وأخبروهم بها .

فجاءوا رسول الله " ﷺ " فقالوا : يا محمد أخبرنا ، عن كذا وكذا ، وسألوه عن الأمور التي حددها الأحبار .

فقال لهم رسول الله " ﷺ " : أخبركم غداً عما سألتم عنه ، ولم يستثن فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله " ﷺ " خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحي ، ولا يأتيه جبريل " ﷺ " .

حتى أرجف أهل مكة ، وقالوا وعدنا محمد غداً واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها ولم يخبرنا بشيء عما سألناه عنه .

وتألم رسول الله " ﷺ " من انقطاع الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

وبعد خمسة عشر يوماً جاءه جبريل " ﷺ " من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف ، فيها معاتبة الله على حزنه عليهم ، وخبره عما سألوه عنه من أمر الفتية ، والرجل الطواف وقول الله عز وجل : ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ ﴾ .

فلما أخبرهم بنبأ ما سألوا عنه ، رجعوا إلى أنفسهم ، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله " ﷺ " مواجهة عقلية ، فكرية ، ولذا لجأوا إلى العدوان ، والإيذاء المادي ، ونشر الأكاذيب ، والمفتريات حول محمد ودعوته .

٢ - موقف أبي لهب منه : لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾[1] خرج رسول الله حتى صعد النبي " ﷺ " على الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ ! .

---

[1] سورة الشعراء آية (٢١٤) .

فجعل "ﷺ" ينادي : يا بني فهر ! يا بني عدي ! وهكذا لبطون قريش جميعاً حتى اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟.

فقال النبي " ﷺ " : أرأيتكم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ !.

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال " ﷺ " : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو لهب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ ﴾ وقد تب [1] .

ولم يكتف أبو لهب هذا الموقف ، بل أخذ في التصدي لرسول الله "ﷺ" فكان يسير خلفه ويقول : إنه كاذب وأنا أعلم بخبره ، فهو ابن أخي ... وأخذ هو وزوجته في وضع الشوك والحطب أمام بيت النبي " ﷺ " ليعجزه عن الخروج والحركة ، وفيه وفي زوجته نزل قول الله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥ ﴾ [2]

٣ ـ السخرية والاستهزاء بمحمد " ﷺ " :

أخذ كفار مكة يستهزءون برسول الله " ﷺ " توهيناً لنفسه ، وصرفاً للناس عنه ، فكانوا ينادونه بالمجنون، يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالُوا۟ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ

---

[1] صحيح البخاري بشرح فتح الباري ـ كتاب التفسير ـ باب سورة تبت ج ٨ ص ٧٣٧ ، والتاب الخسران والتدمير .

[2] سورة المسد .

﴿ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴾[1] ويصفونه بالسحر والكذب يقول سبحانه : ﴿ وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴾[2] وكانوا يشيعونه ويستقبلونه بنظرات ناقمة، وعواطف هائجة، وكراهية ظاهرة، يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَـٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴾[3]

وكان إذا جلس، وحوله المستضعفون من أصحابه استهزأوا بهم، وقالوا هؤلاء جلساؤه الذين ﴿ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾[4] فرد الله عليهم بأنه وحده العليم بحقائق الناس وقلوبهم، وليس لهم أن يتقولوا عليهم، وذلك بقوله سبحانه : ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[5]، فأنكر عليهم بأسلوب يبرز جهلهم، وخبثهم.

إن كفار مكة كانوا يتصرفون باستعلاء وجبروت، وهم يتعاملون مع رسول الله، وسائر أصحابه، حتى أنهم جعلوا المؤمنين مادة سخريتهم، ودعابة مجالسهم، يتضاحكون من عقيدتهم، ويتغامزون إذا رأوهم، وإذا رجعوا إلى أهليهم تفكهوا بسيرهم، معتقدين أنهم ضلوا عن الحق، بتركهم عبادة الأوثان، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ۝ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ۝ وَمَآ أُرْسِلُواْ عَلَيْهِمْ حَـٰفِظِينَ ﴾[6] .

---

[1] سورة الحجر آية (٦) .

[2] سورة ص آية (٤) .

[3] سورة القلم آية (٥١) .

[4] سورة الأنعام آية (٥٣) .

[5] سورة الأنعام آية (٥٣) .

[6] سورة المطففين الآيات (٢٩ — ٣٣) .

٤ ـ بث الدعاية الكاذبة عنه :

أخذ الكفار يبثون الدعايات الكاذبة حول شخصية محمد " ﷺ " وعن القرآن الكريم الذي ينزل عليه حتى لا يصدقه أحد،فقالوا عن القرآن ما حكاه الله تـــعالى في قوله :﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ ﴾ [١] وقالوا عن الرسول : ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝ ﴾ [٢] .

وكل ما قالوه ظاهر البهتان ؛ لأن القرآن الكريم كلام الله ، ولو كان من عند محمد كما زعموا فما بالهم يعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه ؟ ؟

ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يعينون محمداً ؟ ؟ ! إنهم بشر كما يزعمون فلم يتركونهم يفعلون ؟ ولم لا يواجهونهم بالتحدي ؟ ؟

وهل يكتب محمد عنهم وهو أمي ؟ ؟ لقد جاءوا بالزور والبهتان ! !

ولم يعترضون على بشرية محمد " ﷺ " أيريدونه ملكاً ؟ وكيف يتعاملون مع الملك ؟

إن قلوبهم قد عميت ، وكل اعتراضهم تبريرات لكفرهم وعتوهم . . ولقد رأيناهم يبحثون عن أي علة تساعدهم على كفرهم .

ذكروا أن الوليد بن المغيرة قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد نزل بكم أمر ما أوتيتم له بحيلة بعد ، قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم خلقاً ومسلكاً، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأينا السحرة ونفثهم، وعقدهم .

---

[١] سورة الفرقان آية (٤ ، ٥) .

[٢] سورة الفرقان آية (٧) .

وقلتم : كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة، وتخالجهم وسمعنا سجعهم .

وقلتم : شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر، وسمعنا أصنافه كلها: هزجه، ورجزه . . .

وقلتم : مجنون ، لا والله ماهو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه،ولا وسوسته ، ولا تخليطه ، يا معشر قريش أنظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .

ثم ذهب الوليد إلى الحيرة بحثا عن حل يريده، فتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ووقف على أخبار رستم، وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله " ﷺ " مجلسا للتذكير بالله والتحذير من نقمته، خلفه النضر ، وهو يقول : والله ما محمد بأحسن حديثا مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس، ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا يكون محمد أحسن حديثا مني [1] .

وما درى الوليد أن حديث محمد " ﷺ " مع جماله يتضمن دينا صالحا ، ومنهجا طيبا، وطريقا لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة وهو كلام الله.. وأما حديثه فهو خيال كاذب ، وإبهار لفظي لا حقيقة فيه ، ولا غاية له . . ولا فائدة معه .

وفي الوليد بن المغيرة المخزومي نزل قول الله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَـٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ ﴾ [2] وقصته مع القرآن الكريم ، ومع محمد " ﷺ " تشبه ما فعله النضر

---

[1] علوم القرآن ج ٩ ص ٩ .

[2] سورة المدثر الآيات (١١ ــ ٢٥) .

ابن الحارث فلقد ذكروا أن النضر قال : والله لقد نظرت فيما قال محمد، فإذا هو ليس بشعر ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه ليعلو ما يعلى عليه ، وما أشك أنه سحر ، فكأنه رق له .

فبلغ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال : أى عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً .

قال : لم ؟

قال : يعطونكه فإنك أتيت محمداً تعرض لما قبله .

قال : قد علمت قريش أني أكثرها مالاً .

قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك منه أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له .

قال : فماذا أقول فيه ؟ فو الله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذى يقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .

قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال:فدعني حتى أتفكر فيه.فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره [1]

٥ ـ مساومات وتخليط :

حاول الكفار مرات عديدة أن يتعاون معهم محمد " ﷺ " في خلط الإسلام بالكفر ، ليكونا سوياً ديناً خليطاً من هذا وذاك ، وأن يعبدوا الله يوماً ، ويعبد محمد أصنامهم يوما آخر وهكذا .

يروى ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى والوليد بن المغيرة، وأمية ابن خلف، والعاص بن وائل السهمي ـــ وكانوا ذوى أسنان في قومهم ـــ اعترضوا محمداً، وهو يطوف بالكعبة، وقالوا له : يا محمـــد. هلم فلنعبد ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما

---

[1] تفسير ابن كثير ج٤ ص ٤٤٣ .

نعبد كنا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝ ﴾ [١)(٢] ، فكانت المفاصلة الكاملة بين الإيمان ، والكفر .

١- الاضطهاد البدني :

كان أشد الناس إيذاء لرسول الله جيرانه ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب ، يقول ابن إسحاق : كان النفر الذين يؤذون رسول الله " ﷺ " في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدي بن حمراء الثقفي ، وابن الأصداء الهذلي ـــ وكانوا جيرانه ـــ لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص فإنه أسلم فيما بعد،فكان أحدهم يطرح عليه"ﷺ" رحم الشاه، وهو يصلي.وكان أحدهم يطرحها في برمته إذا نصبت له،حتى اتخذ رسول الله " ﷺ " حجراً ليستتر به منهم إذا صلى، فكان رسول الله " ﷺ " إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه في الطريق [٣] .

وازداد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثه ، فقد روى البخاري عن عبد الله ابن مسعود " ﷺ " : أن النبي " ﷺ " كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، **فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)** فجاء به، فنظر ،

---

[١] سورة الكافرون .

[٢] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٣٦١ .

[٣] سيرة النبي ج١ ص ٤١٦ .

حتى إذا سجد النبي " ﷺ " وضعه على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر لا أغني شيئاً ، فجعلوا يضحكون، ويميل بعضهم على بعض ، مرساً ، ورسول الله " ﷺ " ساجد لا يرفع رأسه حتى جاءته ابنته فاطمة ، فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ، ثم قال: **اللهم عليك بقريش ثلاث مرات** ، فشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة . وقد سمى الرسول في دعائه فقال : **اللهم عليك بأبي جهل،وعليك بعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة،وأمية بن خلف، وعقبة بن أبي معيط،وعد السابع فلم تحفظه**، فو الذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله " ﷺ " صرعى في القليب، قليب بدر [١] .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله " ﷺ " همزه ولمزه ، وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿ وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ ۝١ ﴾ [٢] قال ابن هشام : الهماز : الذي يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز به،والهمزة هو الشتم نفسه ، واللماز: الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم [٣] واللمزة هي العيب والأذى .

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين ، جلس عقبة مرة إلى النبي " ﷺ " وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أتاه، وعاتبه، وطلب منه أن يتفل في وجه رسول الله " ﷺ " ففعل ، وأبي بن خلف نفسه هو الذي فت عظماً رميماً ثم نفخه في الريح نحو رسول الله " ﷺ " [٤] .

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله"ﷺ"،وقد وصفه القرآن بتسع صفات تدل على ما كان عليه من خلق رديء،وهي في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعۡ كُلَّ حَلَّافٖ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٖ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٖ ۝١١ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٍ أَثِيمٍ ۝١٢ عُتُلِّۭ بَعۡدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ۝١٣ ﴾[٥]

---

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري كتاب الوضوء باب إذا ألقي على ظهر المصلي قذر أو جيفة ١ / ٣٧
(٢) سورة الهمزة آية (١)
(٣) سيرة النبي ج ١ ص ٣٥٦ ــ ٣٥٧ .
(٤) نفس المصدر ١ / ٣٦١ ، ٣٦٢ .
(٥) سورة القلم الآيات (١٠ ــ ١٣) .

وكان أبو جهل يجئ أحياناً إلى رسول الله " ﷺ " يسمع منه القرآن،ثم يذهب عنه فلا يؤمن، ولا يطيع ، ولا يخشى، ويؤذى رسول الله " ﷺ " بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مختالاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كأنما فعل شيئا يذكر، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ۝ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰ ۝ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ۝ ﴾ [1]

وكان يمنع النبى " ﷺ " عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلى في الحرم ، ومرة مر به وهو يصلى عند المقام فقال : يا محمد ألم أنهك عن هذا ، وتوعده فأغلظ له رسول الله " ﷺ " وانتهره ، فقال : يا محمد بأى شئ تهددنى ؟ أما والله إنى لأكثر هذا الوادى نادياً ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝ ﴾ [2] .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهار ، بل ازداد شقاوة فيما بعد ، أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟

فقيل : نعم !

فقال : واللات والعزى ، لئن رأيته لأطأن على رقبته ولأعفرن وجهه فى التراب .

فأتى رسول الله " ﷺ " وهو يصلى ، ليطأ رقبته، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه مهرولاً ، ويتقى بيديه .

فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً ، وأجنحة .

فقال رسول الله " ﷺ " : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً [3] .

---

[1] سورة القيامة الآيات (٣١ — ٣٥) .

[2] سورة العلق آية (١٧) .

[3] مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ١٢٦ .

٧ ـ محاولة قتل محمد " ﷺ " :

وصل حد كراهية القوم لرسول الله " ﷺ " أن كفار مكة حاولوا قتله

من ذلك أن عتيبة بن أبي لهب أتى يوماً إلى رسول الله " ﷺ " فقال : إني

آكفر بـ : ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ ﴾[1] و ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ ﴾[2] ثم تسلط على

الرسول بالأذى ، وشق قميصه ، وتفل في وجهه " ﷺ " ، إلا أن البزاق لم يقع عليه

وحينئذ دعا عليه " ﷺ " وقال : **اللهم سلط عليه كلباً من كلابك** .

وقد استجيب دعاؤه " ﷺ " فقد خرج عتيبة مرة في نفر من قريش حتى

نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل عتيبة

يقول : يا ويل أخي هو والله آكلي كما دعا محمد عليّ ، قتلني وهو بمكة وأنا

بالشام ، **فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه**[3] .

وفي رواية هشام عن عروة عن أبيه ، أنه لما طاف الأسد بهم تلك الليلة

انصرف عنهم ، فجعلوا عتيبة وسطهم ، فأقبل الأسد يتخطاهم حتى أخذ برأس عتيبة

ففدغه[4] .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطئ على رقبته الشريفة" ﷺ " وهو

ساجد حتى كادت عيناه تبرزان[5] .

ومما يدل على أن طغاتهم كانوا يريدون قتله " ﷺ " ما رواه ابن إسحاق في

حديث طويل ، قال : قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون

من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسن

---

[1] سورة النجم آية (١) .

[2] سورة النجم آية (٨) .

[3] مختصرة سيرة الرسول " ﷺ " ص ١٣٥ .

[4] المرجع السابق ص ١٣٦ .

[5] المصدر السابق ص ١٦٣ .

له غداً بحجر ما أطيق حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموني عند ذلك، أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف، ثم جلس لرسول الله " ﷺ " ينتظره ، وغدا رسول الله " ﷺ " كما كان يغدو ، فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديتهم، ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، فلما سجد رسول الله " ﷺ " ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه مرعوباً قد يبست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده .

وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : قمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم بي أن يأكلني .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله " ﷺ " قال: ذلك جبريل " عليه السلام " لو دنا لأخذه [١] .

أما طغاة قريش فلم تزل فكرة قتل النبي " ﷺ " تنضج في قلوبهم ،وتكبر في عقولهم ، وتفكيرهم، روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم في الحجر ، فذكروا رسول الله " ﷺ " ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم في ذلك إذ طلع رســـول الله " ﷺ " فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك من وجه رسول الله " ﷺ " .

فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك من وجهـــه " ﷺ " .

---

[١] سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٩٨ ، ٢٩٩

ثم مر بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها ، فوقف ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة ليرفؤه بأحسن ما يجد ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم ، فو الله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به ، فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه ، وقام أبو بكر دونه ، وهو يبكي ويقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه ، قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط [1] .

وفي روايـة البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي " ﷺ " ، قال : بينما النبي " ﷺ " يصلي في حجـر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي " ﷺ " ، وقال : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ [2] .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج من عندنا ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، فلهوا عنه ، وأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نمس شيئاً من غدائره إلا رجـع معنا [3] .

ولم تغادر فكرة قتله " ﷺ " عقولهم ، وبخاصة بعدما رأوا انتشار الإسلام ، وصلابة المسـلمين ، وتـأكدوا أن بقاء محمد " ﷺ " سوف يؤدي إلى القضاء على عبادة الأصنام ، وحرمانهم من السيادة ، والتسلط ، وكان آخر محاولاتهم مؤامرة ليلة [illegible]

---

[1] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، والغمز الطعن والسب ، [illegible] بدون تفريق .

[2] صحيح البخاري ـــ باب ذكر ما لقي النبي " ﷺ " وأصحابه من المشركين بمكة ١ / ٤٤٠ .

[3] مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ١١٣ .

٨ . نتائج الاضطهاد :

مع الجهر بالدعوة، وخروج الرسول للعلن والمواجهة بدأ كفار مكة في إيذاء الرسول، وأصحابه .

وكــان الاضطهاد في بدايته قليلاً ، ضعيفاً ، ثم أخذ يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى وصــل إلى حد التآمر ، والتخطيط لقتل رسول الله " ﷺ " ، ونتيجة لهذا التصعيد في الاضطهاد أخذ رسول الله " ﷺ " يجمع أصحابه في دار الأرقم ليعلمهم الإسلام بعيداً عن كفار مكة ؛ كما أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها كثير من أصحابه .

وقــد حــاول كفار مكة اعتقال المهاجرين ، والفتك بهم ، لكنهم فشلوا . ورأى المشركون والكفار أن أغلب المسلمين تركوا مكة ، وتركوا محمداً " ﷺ " مع قلــة قليلة من أصحابه في مكة، وهاجروا إلى الحبشة، وغاظهم أن محمداً لم يضعف، ولم يترك دعوته ...

فذهــبوا إلى عمــه أبي طالب ، وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه ، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد، والتهديد الشديد ، فبعث إلى رســـول الله " ﷺ " وقــال له : يا ابن أخي إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا كذا فأبق علي وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله " ﷺ " أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته ـــ حتى يظهره الله أو أهلك فيه ـــ ثم استعبر وبكى ، وقام .

فلما ولى ناداه أبو طالب ، فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخي فقل مــــا

أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً [1] ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أوسد في التراب دفينا
فاصدع بأمرك ما عليك غضاضة ... وأبشر وقر بذاك منك عيونا [2]

فلما لم يحقق ذهابهم نتيجة يرجونها من أبي طالب،رجعوا بحيلة أخرى حيث ذهبوا إليه بعمارة بن الوليد،ليأخذه ويعطيهم محمداً،فأبى وقال لهم:والله لبئس ما تسومونني أتعطوني ابنكم أغذوه لكم،وأعطيكم ابني تقتلونه،هذا والله مالا يكون أبداً [3].

وذهبوا إلى محمد " ﷺ " محاولين مساومته ، يقول ابن إسحاق : حدثني يزيد ابن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً قال يوماً ، وهو في نادي قريش ، ورسول الله " ﷺ " جالس في المسجد وحده يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد ؟ فأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة " ﷺ " ورأوا أصحاب رسول الله " ﷺ " يكثرون ويزيدون فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلمه ..

فقام إليه عتبه ، حتى جلس إلى رسول الله " ﷺ " فقال : يا ابن أخي إنك منا حيث قد علمت من السطة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم وكفرت بمن مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل منها بعضها.

فقال رسول الله " ﷺ " : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال عتبة:يا ابن أخي،إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمرمالا جمعنا لك من

---

[1] سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

[2] مختصر سيرة الرسول "ﷺ" ص ٦٨ .

[3] وقد سبق ذكر هذه المحاولة في ص ٣٣١ .

من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا تراه، لا تستطيع رده عن نفسك، طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

ولما فرغ عتبة من حديثه .

قال له رسول الله " ﷺ " : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ، قال رسول الله " ﷺ " : فاسمع مني .

قال : أفعل .

فقال " ﷺ " : ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝ ﴾ ثم مضى رسول الله " ﷺ " في السورة يقرؤها عليه فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه ؛ ثم انتهى رسول الله " ﷺ " إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فلما رجع عتبة إلى قومه رأوا فيه مالا يريدون ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فو الله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ،

فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ؛ وإن يظهر على العرب، فملكه ملككم، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيي فيه ؛ فاصنعوا ما بدا لكم [١] ؛ وماذا أقول فيه ؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .

فقال له أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : دعني أفكر فيه ، فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم : يا معشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم ؛ وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ؛ ولا تختلفوا؛ فيكذب بعضكم بعضاً .

قالوا : فأنت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقول فيه .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن، ولا سجعه .

قالوا : فنقول مجنون .

قال : والله ما هو بمجنون فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال :ماهو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه،وهزجه، وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه فما هو بشاعر .

قالوا : فنقول ساحر .

---

[١] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٢٦٣ ، ٢٦٤ .

قال : والله ماهو بساحر ، لقد رأينا السحار وسحرهم ، فما هو بنفثه ، ولا بعقده .

قالوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقوله حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أصله لمعذق ، وإن فرعه لجنى ، وما أنتم بقائلين من هذا شيئا إلا وأنا أعرف أنه باطل ، وإن أقرب القول فيه أن تقولوا ساحر . فما يقوله سحر يفرق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فتفرقوا عنه بذلك ، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروه لهم .

وأنزل الله تعالى في الوليد قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ⑪ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ⑫ وَبَنِينَ شُهُودًا ⑬ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ⑭ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ⑮ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَـٰتِنَا عَنِيدًا ⑯ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ⑰ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ⑱ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑲ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ⑳ ثُمَّ نَظَرَ ㉑ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ㉒ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ㉓ فَقَالَ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ㉔ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ㉕ ﴾ .

٩ - أبو طالب يحتاط للأمر :

رأى أبو طالب أن الكفار والمشركين قد اشتدت عداوتهم لمحمد " ﷺ " ، ورأى أنهم لن ينتهوا من مكائدهم إلا إذا تخلصوا من محمد " ﷺ " بأى وسيلة ممكنة وذلك عار سيلحق ببني عبد مناف ، يتحدث به العرب كلهم ، فجمع أبناء عبد مناف وهم بنو أمية ، وبنو عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو هاشم ، وعرض عليهم خطورة الأمر ، وضرورة التكاتف ، والاتحاد في مواجهة عدوان كفار مكة

على ابن أخيهم محمد " ﷺ " ؛ فوافقه بنو هاشم، وبنو المطلب ؛ وأخذوا على أنفسهم الميثاق على حماية محمد " ﷺ " والدفاع عنه، وعدم تسليمه إلى الكفار أبدا، واتفقوا على ذلك مسلمهم وكافرهم ، ولم يشذ من هذين البطنين إلا أبو لهب فإنه انحاز مع كفار مكة ؛ ضد محمد ، ودعوته ؛ ولذلك يقول النبي " ﷺ " : كنا وبنو المطلب معا في الجاهلية والإسلام .

١٠ ـ المقاطعة العامة :

لما رأى كفار مكة أن بني هاشم وبني المطلب تواثقوا ؛ وتعاهدوا جميعا على حماية محمد " ﷺ " عملوا على مقاطعتهم ، وعدم التعامل معهم مطلقا . وتحالفوا على أن لا يجالسوهم ؛ ولا يبيعوهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يدخلون بيوتهم ، ولا يكلموهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولايزوجوهم حتى يسلموا محمدا لقتله ، والانتهاء من أمره ، وكتبوا بذلك ميثاقا علقوه في جوف الكعبة .

واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، واشتد الأمر على بني هاشم وبني المطلب حتى أكلوا ورق الشجر ، وحوصروا في شعبهم ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم للتعامل مع وفود الحج والعمرة ، وكان أهل مكة يزايدون عليهم لحرمانهم من كل خير ، حيث منعوا أن يتصل بهم أحد من القبائل البعيدة عن مكة ، وكانوا إذا رأوا تجارة قادمة سارعوا بشرائها قبل أن تصل إلى المحاصرين في الشعب ، مبالغين في ثمنها .

ودام الحال على ذلك حتى قضى الله بنقض المقاطعة، وتمزيق الميثاق المكتوب[1]

* * *

---

[1] سيأتي حديث مفصل عن انتهاء المقاطعة في الفصل التالي .

المبحث الثالث عشر

عام الحزن

وبشاء الله تعالى أن يتعرض محمد " ﷺ " لامتحان شديد .. فبعد مضي عشر سنوات من بعثته يموت عمه أبو طالب ، وتموت زوجته خديجة بعده بأيام قليلة .

كان النبي " ﷺ " يجد من كل منهما العون والمساعدة ، فلقد قام عمه بحمايته والتصدي لأعدائه ، وتحمل من أجل ذلك ، ومعه بنو هاشم ، وبنو المطلب مقاطعة قريش العامة ، وقد كان من ورائها الضرر الكبير .

وزوجته خديجة نعم الزوجة ، أمانة ووفاء ، كانت عاقلة ، وكانت كاملة ، عاشرت النبي خمسا وعشرين سنة ، وعاملته بكل الرقة والحنان ، والحب ، وكانت تتابع أخباره ، وتسليه ، وتحاول إرضاءه بعقلها ، وحكمتها ، وتعاونه بما لها ، وبكل ما يمكنها .

يـروي أنـس بن مالك " ﷺ " حادثة تدل على حكمة خديجة ، وحسن تصرفها ، وكمال عقلها .

يقـول أنـس " ﷺ " : أن النبي " ﷺ " كان عند أبي طالب ، فاستأذنه أن يتوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث أبو طالب بعده جارية له يقال لها "**نبعة**" فقال لها : انظري ما تقول له خديجة ؟ .. وما يقول لها ؟ .. بحثا عن سر ما يراه بينهما من مودة وما يلمسه من ترابط .

قالـت نبعة : فرأيت عجباً ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة فخرجت إلى الباب ، فأخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرها ، ثم قالت : بأبي وأمـي ، والله ما أفعل هذا لشيء ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي ستبعث ، فإن تكن هو فاعرف حقي ، ومنزلتي ، وادع الإله الذي يبعثك لي .

فقال لها " ﷺ ":والله لئن كنت أنا هو ، فقد اصطنعت عندي مالا أضيعه أبداً

وأن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً [١] .

يفقد الرسول " ﷺ " أبا طالب هذا ،وخديجة هذه،في عام واحد ؛ بل وفي

أسبوع واحد

ولذلك تألم كثيراً ، وسمى هذا العام عام الحزن ..

والموت قدر الله على جميع الخلق فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

ورسول الله " ﷺ " أول المؤمنين بقدر الله تعالى ؛ وهو أول الصابرين ، وكان حزنه

في حدود القدر المشروع .

وقضاء الله في موت أبي طالب وخديجة يتضمن حكماً جليلة منها :-

*بيان أن حبيبه" ﷺ " قدوة كاملة في الصبر الأمثل، والتأسي الجميل : لقد

ابتلي النبي ": ﷺ " بأقصى ما يبتلي به الإنسان فلم يجزع، ولم يفرق ، ولكنه كان

خير معتصم بجناب ربه، وأفضل لائذ بحمى مولاه ، وليس غريبا على الذي فقد

أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو في الخامسة ، وجده الذي كان عوضاً عن والده وهو

في الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا وعزاه الله عن ذلك

عزاء جميلاً ، ليس غريباً أن يعزيه الله أيضاً عن فقد العم وفقد الزوجة ، وعزاء الله

خير عزاء .

* أراد الله أن تقوم أعمدة الإسلام على كواهل المسلمين أنفسهم،

فلو كان أبو طالب ينصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته

حتى انتصار الإسلام،وقيام دولة المسلمين،لنسب الناس ذلك إلى زعامة هذا العم

ومعاضدته ، ولكن الله كان أغير على دينه ، وأحرص على توطيده بجنود الإيمان

وأبناء الإسلام، ولذلك كانت الوفاة قبيل الهجرة بزمن وجيز .

---

[١] فتح الباري ج ٧ ص ١٣٤ ، ١٣٥ .

أما إطلاق عام الحزن على هذا العام فليس مرده إلى حزن النبي " ﷺ " على فقد عمه، وروجه ، فالنبي " ﷺ " أصبر من أن تهزه أحداث الموت ، ولو كانت مزلزلة ، وهو أعرف الناس بالله ،وأقربهم منه،وما شغل قلبه إلا بالدعوة الإسلامية، والحرص على إبلاغها للناس، والحرص على هدايتهم .. هذا هو الذى أحزنه ، أحزنه أن هذه الوفاة سيكون لها أثر في إنطلاق وحوش قريش ، يقطعون الطريق في وجه الدعوة ويبطشون بكل من يعلن إسلامه .

إن حزن الرسول " ﷺ " كان من أجل انتصار الإسلام ، ونجاح الدعوة ، وكان يتألم كثيراً حينما يرى كفر قومه،وإنصرافهم عن دين الله،يقول تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ۝٦ ﴾ [1].

ويقول سبحانه ﴿ قَدۡ نَعۡلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحۡزُنُكَ ٱلَّذِي يَقُولُونَۖ فَإِنَّهُمۡ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ۝٣٣ ﴾ [2]

وقد حاول النبي " ﷺ " أن يستعين بغير أهل مكة بعد وفاة عمه فقام بمحاولتين داعياً إلى الله تعالى :ـــ

المحاولة الأولى :

ذهب النبي " ﷺ " إلى ثقيف في الطائف ، واصطحب معه زيد بن حـــارثة رضي الله عنه مولاه .

والطائف بلدة لطيفة ، كثيرة الثمر ، معتدلة المناخ ، تقع شرقي مكة على مرتفع عال ، وهي مشهورة بعنبها ، وتينها ، ورمانها ، وتمرها ، وأزهارها، وحدائقها الفيحاء ، ولما وصل الرسول إليها ومعه زيد بن حارثة عمد إلى حيث يجتمع سادة

---

[1] سورة الكهف آية (٦) .
[2] سورة الأنعام آية (٣٣) .

ثقيف ، فجلس إليهم ، وكلمهم فيما جاء له، من طلب نصرتهم للإسلام ، والقيام معه على من خالفه ، على أن يعيش بينهم .

بدأ حديثه يأخذ بأفئدة أغلب الحاضرين ، ويؤثر ــ كعادته ــ فيمن يستمعون إليه . وإذا بثلاثة إخوة من أشراف ثقيف ، ممن هم الرأى المسموع فيها ، يقطعون عليه حديثه ، وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب، أبناء عمرو بن عمير .

فقال أحدهما مكذباً : أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلك يا محمد ! .

وقال الثاني : أما وجد الله أحداً يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لئن كنت رسول الله كما تقول لأنت أعظم قدراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لى أن أكلمك [1].

فقام رسول الله " ﷺ " من عندهم، وقد يئس من إيمان ثقيف، وقد قال لهم: إذا فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، وكره رسول الله " ﷺ " أن يبلغ قومه عنه ، فيثيرهم ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه، فدخله ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من عنب، فجلس تحته ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقى من سفهاء أهل الطائف .

فلما اطمأن رسول الله " ﷺ " قال : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى وهــوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى مــن تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى ؟ أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك علىّ غضب فلا أبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بى غضبك،أو يحل علىّ سخطك،لك العتبى حتى ترضى،ولا حول ولا قــــوة إلا بك) [2] .

---

[1] سيرة ابن هشام ج١ ص ٤١٩ .

[2] الكامل فى التاريخ ج ١ ص ٣٤٥ .

يصور الحديث الصحيح الوارد في البخاري فعل ثقيف وقسوتهم على النبي "ﷺ" :

ولقد روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير : أن عائشة " رضي الله عنها " حدثته أنها قالت للنبي " ﷺ " : هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟

قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبني إلى ما أردت ، فانطلقت — وأنا مهموم — على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب — وهو المسمى بقرن المنازل — فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الجبال ، فسلم علي ثم قال : يا محمد . ذلك ماشئت فيهم، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين — لفعلت . (والأخشبان : هما جبلا مكة : أبو قبيس والذي يقابله وهو قيقعان) — قال النبي " ﷺ " : بل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلابهم من يعبد الله عز وجل وحده لا يشرك به شيئا [1] .

وهكذا كانت رحمة رسول الله " ﷺ " مع الناس ، فبرغم مالاقاه من ثقيف ، ومن أبناء عمرو بن عمير لم يدع عليهم ، وإنما دعا لهم " ﷺ " .

المحاولة الثانية : عرض نفسه على القبائل :

أخذ رسول الله " ﷺ " يعرض نفسه على قبائل العرب الآتين للمواسم حاجين أو معتمرين، وكان يطلب منهم أن يؤمنوا بالله تعالى، ويتركوا عبادة الأصنام والأوثان على أن يخرج معهم إلى ديارهم، ليمنعوه من غدر قريش ، وعداوتها ، حتى يتمكن من تبليغ رسالة الله ، وتوصيل دينه إلى الناس .

فمنهم من لم يؤمن بدعوته ، ورده ردا قبيحا .

ومنهم من لم يؤمن به . . ولكنه وعد بحمايته .

---

(1) صحيح البخاري كتاب بدء الخلق ج ١ ص ٤٥٨

ومنهم من كان بينه وبين الفرس مواثيق تمنعه من الإيمان ، ونصرة الرسول " ﷺ "

وكـــان عـــلى رأس من لم يؤمن بدعوته من القبائل ، ورد عليه رداً قبيحاً قبائل كندة ، وكلب ، وبني حنيفة .

يتكلم مصعب بن عمر الأسلمي عن بني حنيفة فيقول : نسأل الله أن لا يحرمنا الجنة ، لقد رأيت رسول الله " ﷺ " جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ، وبالجنة، وبذي المجاز يدعونـــا إلى الله ـــ عـــز وجـــل ـــ على أن نمنع له ظهره، حتى يبلغ رسالات ربه، ويشترط لنا الجنة،فما استجبنا له،ولا رددنا عليه رداً جميلاً ،فخشنا عليه وحلم عنا[١]

يـــروى مدرك بن منيب عن أبيه عن جده فيقول:رأيت رسول الله " ﷺ " في مكـــة وهـــو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا ، فمنهم من تفل في وجهـــه، ومنهم من حثا عليه التراب ، ومنهم من سبه ، حتى انتصف النهار، فأقبلت جارية بعس من ماء فغسل وجهه، ويديه، وقال:يا بنية لا تخشى على أبيك غيلة ولا ذلة فقلت : من هذه ؟

قالوا : زينب بنت رسول الله " ﷺ " ، وهي جارية وضيئة[٢]

ومن القبائل التي أحسنت لقاء النبي " ﷺ " بنو شيبان بن ثعلبة ، فعن علي ابن أبي طالب " ﷺ " أنه قال : لما أمر الله عز وجل نبيه " ﷺ " أن يعرض نفسه على قـــبائل العـــرب خرج وأنا معه ، ومعنا أبو بكر ... ثم ذهبنا إلى مجلس آخر عليهم السكينة والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلم فقال : من القوم ؟

قالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله " ﷺ " وقال : بأبي وأمي هؤلاء غرر الناس ،وفيهم مفـــروق بـــن عمرو ، وهانئ ابن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك، وكان مفروق قد غلبهم لساناً، وجمالاً ، وكانت له غديرتان تسقطان على تريبته،

---

[١] سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٥٩٥ .

[٢] سبل الهدى والرشاد ج٢ ص ٥٩٤ .

وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر .

فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال معروق : إنا لا نزيد على الألف ولن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

فقال معروق : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين نغضب . وإنا لنؤثر الجياد على الولاد ، والسلاح على اللقاح ، والنصر من عند الله يديلنا مرة ، ويديل علينا أخرى ، لعلك أخا قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله " ﷺ " فها هو ذا .

فقال معروق : إلام تدعونا يا أخا قريش ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤووني ، وتنصروني ، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله وكذبت رسوله ، واستغنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

فقال معروق : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا فتلا رسول الله " ﷺ " ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) ﴾[1] .

فقال معروق : دعوت ـــ والله ـــ إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال . ولقد أفك قوم كذبوك ، وظاهروا عليك .

ثم رد الأمر إلى هانئ بن قبيصة فقال : وهذا هانئ شيخنا ، وصاحب ديننا .

---

(١) سورة الأنعام آية (١٥١) .

فقال هانئ : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش ، وإني أرى تركنا ديننا ، واتباعنا دينك لمجلس واحد جلست إلينا فيه، لا أول له ولا آخر ، لذل في الرأي ، وقلة نظر في العاقبة ، إن الزلة مع العجلة ، وإنا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ، ولكن نرجع وترجع ، وننظر ، وتنظر .

ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب حربنا.

فقال المثنى : قد سمعت مقالتك يا أخا قريش،والجواب فيه جواب هانئ بن قبيصة، في تركنا ديننا،ومتابعتنا دينك وإنا إنما نزلنا بين صريين:أحدهما اليمامة،والآخر السماوة.

فقال له رسول الله " ﷺ " : ما هذان الصريان ؟ قال : أنهار كسرى ، ومياه العرب، فأما ما كان من أنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإنا إنما نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ، أن لا نحدث حدثاً ، ولا نؤوي محدثاً ، وإني أرى هذا الأمر الذي تدعونا إليه يا أخا قريش ، مما تكرهه الملوك ، فإن أحببت أن نؤويك وننصرك ، مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : ما أسأتم في الرد إذ أفصحتم بالصدق ، وإن دين الله عز وجل لن ينصره إلا من حاطه من جميع جوانبه ، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً حتى يورثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم،وأموالهم ، أتسبحون الله تعالى وتقدسونه ؟

فقال النعمان : اللهم فلك ذلك .

فتلا عليهم رسول الله " ﷺ " : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ۝ ﴾ [1] .

ثم نهض رسول الله " ﷺ " [2] .

---

(1) سورة الأحزاب آية (٤٥ ، ٤٦) .

(2) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ٢٣٧ .

ومن القبائل التي أعلنت استعدادها لإيواء النبي " ﷺ " مع عدم الإيمان به بنو كعب بن ربيعة ، وكاد الرسول " ﷺ " أن يذهب معهم لولا طاغية من طغاة البشر ردهم عما عزموا عليه .

يروى أبو نعيم عبد الرحمن العامري عن أشياخ من قومه قالوا : أتانا رسول الله " ﷺ " ونحن بسوق عكاظ فقال : من القوم ؟

قلنا : من بني عامر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة .

فقال : إن رسول الله إليكم، أتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحدا منكم على شئ .

قالوا : لا نؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .

فأتاهم بيحرة بن فراس القشيرى فقال : من هذا الرجل الذي أراه عندكم أنكره ؟

قالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : فما لكم وله ؟

قالوا : زعم أنه رسول الله ، فطلب إلينا أن نمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .

قال : ما رددتم عليه ؟

قالوا : بالرحب والسعة نخرجه إلى بلادنا ونمنعه مما نمنع منه أنفسنا .

فقال بيحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشئ أشر من شئ ترجعون به ! أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه ، وكذبوه فتؤووه ، وتنصروه ، تنابذوا العرب عن قوس واحدة ، قومه أعلم به، فبئس الرأى رأيكم ، ثم أقبل على رسول الله " ﷺ " فقال : قم فالحق بقومك فو الله لولا أنك عند قومي لضربت عنقك [١] .

ويلاحظ أن أهل مكة لم يتركوا محمداً يتصل بالناس ، بل سلطوا عمه أبا لهب وأبا جهل يسيران خلفه ، أحدهما بعد الآخر بالتناوب ، وكلما خاطب قوما

---

(١) زاد المعاد ج ٢ ص ٥٩ .

ودعاهم إلى الله يقول أبو لهب، ويقول أبو جهل : يا بني فلان ، إن هذا الرجل إنما يدعوكم إلى أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، وتتركوا حلفاءكم من الجن ، إلى ما جاء به من البدعة ، والضلالة ، فلا تطيعوا ، ولا تسمعوا منه[1].

يقول طارق بن عبد الله : إني بسوق ذي المجاز، إذ مر رجل بي عليه حلة من بـرد أحمر، وهو يقول : **يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا** ؛ ورجل خلفه قد أدمى عرقوبيه وساقيه يقول : **يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه** .

فقلت : من هذا ؟ قالوا: غلام بني هاشم الذي يزعم أنه رسول الله ؛ وهـذا عمه عبد العزى[1] (أبو لهب) .

ويروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من كنانة يقول: رأيت رسول الله " ﷺ " بسوق ذى المجاز وهو يقول : **يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا** .

وإذا رجل خلفه يسفي عليه التراب ، وإذا هو أبو جهل ، يقول : يا أيهـا الناس **لا يغرنكم هذا عن دينكم، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى.**
يتبعه حيث ذهب ورسول الله " ﷺ " يفر منه، وما يلتفت رسول الله " ﷺ " إليه[2].

* * *

---

[1] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٤٢٣ .

[2] سيرة ابن كثير ج٢ ص ١٥٦ .

المبحث الرابع عشر

زواج النبى " ﷺ "

بعد وفاة خديجة

بعد وفاة خديجة " رضي الله عنها " تزوج النبى " ﷺ " غيرها ، وهو فى مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فعقد على عائشة فى مكة، ودخل بها فى المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة ، ودخل بها فى مكة ، وتزوج أيضاً أم حبيبة بنت أبى سفيان " رضى الله عنهم أجمعين " حيث عقد عليها وهى فى الحبشة، ودخل بها بعد عودتها إلى المدينة بعد الهجرة .

وهذا تعريف بهؤلاء الزوجات :ـــ

أولاً : سودة بنت زمعة " رضى الله عنها " :

روى ابـــن إسحاق ـــ من طريق يونس بن بكير ـــ أن النبى " ﷺ " تزوجها بعد خديجة ودخل بها فى مكة قبل الهجرة، ولم يصب منها ولداً ، وكانت عائشة ـــ " رضي الله عنها " تقول عنها : ما رأيت من امرأة أحب إلى أن أكون فى مسلاخها من سودة بنت زمعة [١].

يورد ابن كثير قصة زواج النبى " ﷺ " بسودة ، وعائشة، فيقول : لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم ، امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله " ﷺ " .

فقالت : يارسول الله ألا تتزوج ؟

قال : من ؟

قالت : إن شئت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

قال : فمن البكر ؟

قالت : أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبى بكر .

قال : ومن الثيب ؟

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٨ ص ٥٧ .

قالت : سودة بنت زمعة ، قد آمنت بك واتبعتك .

قـال : فاذهبي فاذكريهما علي ، فدخلت بيت أبي بكر فقالت : يا أم رومان ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟ !

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قالـت : انظري أبا بكر حتى يأتي ، فجاء أبو بكر ، فقلت : يا أبا بكر ، ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ، إنما هي ابنة أخيه ، فرجعت إلى رسول الله " ﷺ " ، فذكرت ذلك له .

قال : ارجعي إليه ، فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام ، وابنتك تصلح لي ، فرجعـت فذكرت ذلك له ، قال انتظري ، وخرج ، ثم رجع فقال لخولة : ادعي لي رسول الله " ﷺ " فدعته ، فزوجها إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين .

ثم خرجـت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت لها : ما أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطبك إليه .

قالت : وددت ، ادخلي إلى أبي بكر (والد سودة) فاذكري ذلك له . وكان شيخاً كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه وحييته ، فقال : من هذه ؟

قالت : خولة بنت حكيم .

قال : فما شأنك ؟

قالت : أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة .

فقال: كفؤ كريم، ماذا تقول صاحبتك؟

قالت: تحب ذلك.

قال: ادعيها إلي، فدعتها، قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك، وهو كفؤ، كريم، أتحبين أن أزوجك به؟

قالت: نعم.

قال: ادعيه لي فجاء رسول الله "ﷺ" فزوجها إياه (٢).

وقد شكت سودة طروقها لرسول الله "ﷺ"، وحاولت أن تعتذر عن الزواج به، فسألها رسول الله "ﷺ": ما يمنعك مني؟

قالت: والله يا نبي الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إلي، ولكني أكرمك أن يضغو هؤلاء الصبية عند رأسك بكرة، وعشية.

قال: فهل منعك مني غير ذلك؟

قالت: لا والله، فقال لها رسول الله "ﷺ": يرحمك الله، إن خير نساء ركبن أعجاز الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرعاه على بعل بذات يده (١).

وهي التي وهبت يومها من رسول الله "ﷺ" لعائشة، وذلك حينما كبرت فكان رسول الله "ﷺ" يقسم لعائشة يومين: يومها، ويوم سودة (٢).

ونفهم من رواية الصحيحين أنها كانت امرأة — مع كبر سنها فيما بعد — ضخمة الجسم حتى أنها لتعرف وتميز بين النساء إذا مشت، حتى قال عمر ذات يوم — وقد خرجت سودة ليلاً —: إنك والله يا سودة ما تخفين علينا (٣).

وتصفها بعض الروايات بأنها كانت ثقيلة ثبطة، بطيئة الحركة، ولهذا استأذنت النبي "ﷺ" ليلة جمع (مزدلفة) في الدفع قبل حطمة الناس فأذن لها (٤).

---

(٢) [illegible] ج ٢ ص ٦٦ — [illegible] والنهاية ج ٣ ص ١٣٣

(١) [illegible] الإصابة في تمييز الصحابة ج ٨ ص ١١٧

(٢) [illegible] ج ٨ ص ٢٠١

(٣) [illegible] ج ٣ ص ١٦٩

ثانيا : عائشة بنت أبي بكر " رضي الله عنها " :

تزوج النبي "ﷺ" عائشة " رضي الله عنها " بعد وفاة خديجة بثلاث سنين [١] والــذي يظهــر من غالبية الروايات أن عقده "ﷺ" عليها كان بمكة وعمرها ستة سنوات ، أما الدخول بها فكان بالمدينة وهي بنت تسع سنين [٢] .

وممــا يؤكد صغر سنها حين الزواج لعبها مع البنات عند رسول الله ، ويجيء صواحب لها يتقمعن من رسول الله ، فيسربهن إليها [٣] .

وقد خطبها النبي " ﷺ " من أبي بكر ، فقال أبو بكر : إنما أنا أخوك ! فقال له النبي " ﷺ " : أنت أخي في دين الله وكتابه ، وهي لي حلال .

أما عن كيفية دخوله " ﷺ " بها : فتحدثنا عائشة وتقول : تزوجــني النبي " ﷺ " وأنــا بنــت ست سنين ، فقدمنا المدينة ، فنزلنا في بني الحرث بن خزرج ، فوعكــت ، فتمرق شعري فوفى جميمه ، فأتتني أمي أم رومان ، وإني لفي أرجوحة ومعي صواحب لي ، فصرخت بي ، فأتيتها لا أدري ما تريد بي ، فأخذت بيدي حتى أوقفتني على باب الدار ، وإني لأنهج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من ماء فمســحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت ، فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من شأني ، فلم يرعني إلا رسول الله " ﷺ " ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين [٤] .

وزواج النبي " ﷺ " بعائشة كان بعد رؤيا رآها في المنام تكررت مرتين كما في البخاري [٥] ، أو ثلاث مرات كما في مسلم [٦] .

---

[١] صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب تزويج النبي " ﷺ " خديجة ج ٦ ص ١٦٣ .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب مناقب الأنصار ــ باب تزويج عائشة ج ٦ ص ٢٠١ .

[٣] صحيح مسلم ــ كتاب فضائل الصحابة ــ باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٤ .

[٤] صحيح البخاري ــ كتاب النكاح ــ باب البناء بالنهار ج ٨ ص ١٦٦ .

[٥] صحيح البخاري ــ كتاب النكاح ــ باب نكاح الإبكار ج ٨ ص ١٣١ .

[٦] صحيح مسلم ــ كتاب الفضائل ــ باب فضائل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٢ .

يقول " ﷺ " : جاءني بك الملك في سرقة من حرير ،فقال لي : هذه امرأتك ، فكشفت عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هي ، فقلت : إن يك هذا من عند الله يمضه [١] .

وعائشة " رضي الله عنها " هي الوحيدة من بين أزواجه " ﷺ " التي تزوجها وهي بكر ، ولهذا كانت تظهر هذا الفضل ؛ وتقول للنبي " ﷺ " يا رسول الله ، أرأيت لو نزلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرة لم يؤكل منها ، في أيها كنت ترتع بعيرك ؟ ! قال : في التي لم يرتع منها ؛ تعني أن رسول الله " ﷺ " لم يتزوج بكراً غيرها [٢] .

وكان ابن عباس " رضي الله عنهما " يقول لعائشة : لم ينكح النبي " ﷺ " بكراً غيرك .

مكثت عائشة " رضي الله عنها " مع النبي " ﷺ " تسع سنين ، ومات عنها النبي " ﷺ " وهي بنت ثماني عشرة سنة .

وفي فضلها قال " ﷺ " : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام [٣] ، وأخبرها النبي " ﷺ " : أن جبريل يقرئها السلام [٤] .

وقد اختصت من بين سائر زوجات النبي " ﷺ " بنزول الوحي عليه وهو في لحافها ، أخبرنا بذلك المصطفى " ﷺ " وهو يقول لأم سلمة : يا أم سلمة لا تؤذيني في عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منكن غيرها [٥] .

ومحبة النبي " ﷺ " لعائشة لم تكن تخفى على المسلمين ؛ حتى لقد كانوا يتحرون هداياهم اليوم الذي يكون فيه النبي " ﷺ " عند عائشة [٦] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم معاً .

(٢) صحيح البخاري – كتاب النكاح – باب نكاح الأبكار ج ٨ ص ١٣١ .

(٣) صحيح مسلم – كتاب الفضائل ج ١٥ ص ١٩٩

(٤) صحيح مسلم – كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢١٠ .

(٥) صحيح البخاري – كتاب المناقب ج ٦ ص ١٤٣ .

وعائشة " رضي الله عنها " هي التي قبض النبي " ﷺ " بين سحرها ونحرها — كما كانت تقول — [1] لأنه " ﷺ " لقي ربه وهو في حجرها ، وكان آخر عهده أن بل ريقها ريقه " رضي الله عنها " .

ثالثا - أم حبيبة بنت أبي سفيان :

أم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان ، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبد الله ابن جحش الأسدي ، وفارقته بعدما تنصر ، وارتد ، فعقد عليها النبي " ﷺ " وهي بأرض الحبشة ، وأنكحها النجاشي للنبي " ﷺ " وأصدقها أربعمائة دينار ذهبا .

ودخل بها " ﷺ " في المدينة بعد أن عادت من هجرتها [2] .

وهي التي عرضت على النبي " ﷺ " الزواج بأختها " عزة بنت أبي سفيان " فعجب النبي " ﷺ " لذلك ، وقال : أو تحبين ذلك ؟ ! قالت : نعم .

وتعلل ذلك ، وتقول : لست لك بمخلية ، وأحب من شاركني في الخير أختي ، فرد عليها : إن ذلك لا يحل لي .

وإنما عقد النبي " ﷺ " على أم حبيبة تكريما لها ، وتقديرا لتمسكها بالإسلام ، وعوضا لها عن مفارقة زوجها .

* * *

---

(1) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٢٠٥ .

(2) المرجع السابق ج ١٥ ص ٢٠٨ .

(3) جوامع السيرة ص ٣٥ .

المبحث الخامس عشر

تتابع مجئ نصر الله تعالى

بذل النبي " ﷺ " جهده في دعوة أهل الطائف،وفي عرض نفسه على القبائل .

ومع ذلك لم يتحقق له ما يتمنى حيث رده أهل الطائف ردا قبيحا،ولم تؤمن القبائل بدعوته، ورفضت إجارته خوفاً من عداء قريش،وتأثراً بما كان أبو لهب وأبو جهل يذكران عنه

وكانت معونة الله مع عبده ورسوله محمد " ﷺ " حيث يسر له من أمره رشداً . ولم يخرج من جهاده مع الناس خالي الوفاض ، فحقق له عدداً من الانتصارات التي ترضيه ، رحمة من الله ، وفضلاً ، وأهمها ما يلي : ـــ

النصر الأول

إسلام عداس

بعد ما ردت ثقيف رسول الله " ﷺ " بهذه الصورة السيئة التي ذكرتها، أخذ " ﷺ " في العودة إلى مكة مرة أخرى .

وعندما وصل إلى بستان بني ربيعة جلس تحت ظل شجرة ليستريح، وأخذ يدعو ربه ، ويستغيث به ... فاستجاب الله له،وجاءه نصر الله ، حتى لا يعود لمكة خاوي الوفاض ، فكان إسلام عداس .

وقصة إسلام عداس أنه " ﷺ " لما جلس تحت الشجرة رآه عتبة ، وعتيبة ابنا ربيعة وعلما ما وقع له ، فتحركت له رحمهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانيا ، يقال له عداس ليعطيه شيئا من الفاكهة تعينه على هذه المتاعب وقالا له: خذ قطفاً (من هذا) العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه .

ففعل عداس ، ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله " ﷺ " ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله " ﷺ " فيه يده ، قال : بسم الله ، ثم أكل .

فنظر عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد

فقال له رسول الله " ﷺ " : ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟، وما دينك ؟

قال عداس: نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال رسول الله " ﷺ " : من قرية الرجل الصالح يونس بن متى .

فقال له عداس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟

فقال رسول الله " ﷺ " ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي . فأكب عداس على رسول الله " ﷺ " يقبل رأسه ، ويديه ، وقدميه ، وأسلم .

وهكــذا أسلم عداس فى أثناء عودة النبي " ﷺ " من رحلته إلى الطائف .

وأمـــا أبناء ربيعة فقد قالا لعداس : ويلك يا عداس ؟ مالك تقبل رأس هذا الرجل ويديه ، وقدميه ؟ !

فقال لهما : لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي (١) .

العنصر الثاني

إسلام الجن

حين إنصرافه " ﷺ " من الطائف ، راجعاً إلى مكة ، وعند واد في طريق مكة يسمى " نخلة " قام " ﷺ " في جوف الليل يصلي . فأتاه سبعة من جن نصيبين ، استمعوا لقراءته " ﷺ " ، وهو يصلي،فلما فرغ من صلاته ، أعلنوا إيمانهم وإسلامهم، ثم انصرفوا إلى قومهم دعاة ، يحملون الإسلام إليهم ، ويوضحون تعاليمه ، ومزاياه ، وفي ذلك يقول الله تــعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۝ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى

---

(١) سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٤٢١ .

ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[1] وقد نزلت قصتهم كاملة في سورة الجن .

وهكذا بدأ خلق آخر يدخلون في الإسلام، ويهتدون بالدعوة إليه ..

ومن سياق الآيات يتضح أن الرسول " ﷺ " لم يكن يعلم بحضور هذا النفر من الجن

لقد كان إيمان الجن نصراً آخر، أمده الله به، من كنوز غيبه المكنون . ولله جنود لا يعلمها إلا هو .

ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث تحمل في طياتها بشارات نجاح دعوة النبي " ﷺ " ، وتؤكد أن سائر قوى الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[2] ، ويقول سبحانه: ﴿ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ ﴾[3] .

النصر الثالث

إجارة المطعم بن عدي

لما خرج محمد " ﷺ " إلى الطائف عزمت قريش على منعه من العودة إلى مكة، حتى لا يجد مكاناً يأويه، أو أناساً يحمونه .. ومع ذلك نوى رسول الله العودة إلى مكة .

---

[1] سورة الأحقاف الآيات (٢٩ — ٣٢) .

[2] سورة الأحقاف آية (٣٢) .

[3] سورة الجن آية (١٢) .

قال له زيد بن حارثه " ﷺ " رفيقة فى رحلة الطائف : كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك ؟

فقـــال " ﷺ " : يـــا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وأن الله ناصر دينه ومظهر نبيه .

وسار رسول الله " ﷺ " صوب مكة ، حتى وصل حراء فمكث بها ، وأخذ يبحث عن شخص يجيره ، وينصره ..

فأرســـل رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال الأخنس أنا حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث الرجل إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بنى عامر لا تجير على بنى كعب

فبعـــث الرجل إلى المطعم بن عدى ، فرد المطعم رداً جميلاً وقال : نعم ثم تسلح ، ودعا بنيه ، وقومه ، وقال لهم : إلبسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت فإنى قد أجرت محمداً ، ثم بعث إلى رسول الله " ﷺ " : أن ادخل ، فدخل رسول الله " ﷺ " ومعه زيد بن حارثه حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على راحلته فنادى يا معشر قريش ، إنى قد أجرت محمداً فلا يهجه أحد منكم .

وانتهى رسول الله " ﷺ " إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده محدقون به ، بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أمجير أنت أم متابع ـــ مسلم ـــ ، قال بل مجير ، قال : قد أجرنا من أجرت ..

وقد حفظ رسول الله " ﷺ " للمطعم هذا الصنيع ، فقال فى أسارى بدر : لو كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمنى فى هؤلاء النتنى لتركتهم له [١] .

---

(١) صحيح البخارى ـــ كتاب الجهاد ـــ باب ما من النبى " ﷺ " على الأسارى ج ٥ ص ٢٢٦ ـ ط . الأوقاف .

العنصر الرابع

أضواء وسط ظلام القبائل

ظلت القبائل على كفرها ، وردوا على رسول الله حين عرض نفسه عليهم ردودا مختلفة وكان لموقف القبائل أثر مؤلم على نفس رسول الله " ﷺ " .

ويأبى الله إلا أن يكرم محمداً " ﷺ " ببعض الخير ، فتشرق عليها أضواء من بين هذه القبائل ، وذلك بإسلام أفراد منهم ، ودخولهم فى دين الله تعالى ، وعلى رأس هؤلاء المسلمين : —

١ ـ سويد بن الصامت " ﵁ " :

وهو رجل من بنى عوف بن مالك الأوسى ، جاء إلى مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله " ﷺ " حين سمع به ، فدعاه إلى الله، وإلى الإسلام .

فقال له سويد : فلعل الذى معك هو الذى معى .

فقال له رسول الله " ﷺ " : وما الذى معك ؟

قال : معى مجلة لقمان — يعنى حكمة لقمان — .

فقال له رسول الله " ﷺ " : أعرضها علىّ .

فعرضها عليه ، فقال له " ﷺ " : إن هذا الكلام حسن ، والذى معى أفضل من هذا قرآن أنزله الله تعالى علىّ ، هو هدى ونور ، فتلا عليه رسول الله " ﷺ " القرآن ، ودعاه إلى الإسلام،فلم يبعد منه،وقال:إن هذا لقول حسن وأسلم ، ثم انصرف عنه [١]

٢ ـ إياس بن معاذ " ﵁ " :

إياس بن معاذ من بنى عبد الأشهل وهم من الأوس ، جاء وهو صغير مع قومه يلتمسون الحلف مع قريش لينتصروا بهم على الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله " ﷺ " أتاهم ، وجلس معهم وقال لهم :هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

---

[١] سيرة النبى لابن هشام ج ١ ص ٤٢٧ .

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله بعثنى إلى العباد ، أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئا وأنزل علىَّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الحيسر ، أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك فلعمرى لقد جئنا لغير هذا ، فصمت إياس ، وقام رسول الله " ﷺ " عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعاث بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبث إياس بن معاذ أن هلك ، يقول محمود بن لبيد ، فأخبرنى من حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزالوا يسمعونه يهلل الله تعالى ، ويكبره ، ويحمده ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام فى ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله " ﷺ " ما سمع [١] .

٣ ـ أبو ذر الغفارى " ﷺ " :

لما بلغ يثرب خبر سويد ، وإياس " رضى الله عنهما " ، وإنهما سمعا محمداً " ﷺ " وآمنا بدعوته ، بدأ أهلها فى التفكير فى أمر محمد ، وبخاصة أهل الرأى فيهم، ومنهم أبو ذر الغفارى : أخذ أبو ذر يفكر فى الإسلام ، وهو فى يثرب ، فقال لأخيه : اركب إلى هذا الوادى فاعلمنى علم هذا الرجل، الذى يزعم أنه نبى، يأتيه الخبر من السماء ، واسمع من قوله ، ثم ائتنى .

فانطلق أخوه حتى قدم مكة ، ولقى محمداً " ﷺ " ، وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبى ذر ، فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر .

فقال أبو ذر : ما شفيتنى مما أردت ، فتزود أبو ذر، وحمل شنة له فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس النبى " ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه حتى أدركه بعض الليل، فرآه على " ﷺ " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم

---

(١) المصدر السابق ج٦ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ .

فلما أصبح أبو ذر: احتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ينظر إلى النبي " ﷺ " والنبي لا يراه حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه .

مر به علي في مضجعه فقال له: أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه عنده ، فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ .

حتى إذا كان يوم الثالث ، فعاد علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدنني فعلت ، ، ففعل ، فأخبره .

قال علي : فإنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " : فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئاً أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني ، حتى تدخل مدخلي ، ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل علي "ﷺ" على النبي " ﷺ " ، ودخل أبو ذر معه ، فسمع من قوله ، وأسلم مكانه ، فقال له النبي " ﷺ " : ارجع إلى قومك ، فأخبرهم حتى يأتيك أمري .

قال أبو ذر : والذي نفسي بيده لأصرخن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم قام القوم فضربوه حتى أضجعوه .

وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ! ألستم تعلمون أنه من غفار ؟ وأن طريق تجاركم إلى الشام ؟ فأنقذه منهم ، ثم عاد من الغد لمثلها ، فضربوه ، وثاروا إليه ، فأكب العباس عليه [١] .

٤ـ الطفيل بن عمرو الدوسي " ﷺ " :

الطفيل شيخ من شيوخ قبيلة دوس ، إحدى قبائل اليمن ، قدم الطفيل مكة ، ورسول الله " ﷺ " بها ، فمشى إليه رجال من قريش ، فقالوا له : يا طفيل ، إنك

---

[١] صحيح البخاري ـ كتاب المناقب ـ باب إسلام أبي ذر جـ٦ ص ١٨٢ .

قدمت بلادنا ، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك ، وعلى قومك ، ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنه ، ولا تسمعن منه شيئاً .

يقول الطفيل : فو الله ما زالوا بي حتى أجمعت أن لا أسمع منه شيئاً ولا أكلمه ، وحشوت في أذني حين غدوت إلى المسجد كرسفاً خوفاً من أن يبلغني شيء من قوله ، وأنا لا أريد أن أسمعه ، فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله " ﷺ " قائم يصلي عند الكعبة . فقمت منه قريباً، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله،فسمعت كلاماً حسناً ، فقلت في نفسي : واثكل أمي ، والله إني لرجل لبيب، شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح ، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يـــقول ! فإن كان الذي يأتي به حسناً قبلته ، وإن كان قبيحاً تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله " ﷺ " إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل بيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذي قالوا ، فو الله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لكي أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعني قولك ، فسمعته قولاً حسناً ، فاعرض عليّ أمرك ، فعرض عليّ رسول الله " ﷺ " الإسلام ، وتلا عليّ القـــرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، ولا أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق [1] .

٥ ـ ضماد الأزدي " ﷺ " :

ضماد رجل من اليمن ، كان يعمل بالرقيا من الجن ، قدم مكة ، فسمع أهلها يقولون : إن محمداً مجنون .

فقال : لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .

---

[1] سيرة النبي لابن هشام ج١ ص ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

فقال : يا محمد ، إني أرقي من هذا الريح ، فهل لك ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .. أما بعد .

فقال ضماد : أعد علي كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله " ﷺ " ثلاث مرات .

فقال ضماد: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبايعك على الإسلام ، فبايعه [1]

العنصر الخامس

الإسراء والمعراج

وأكرم الله نبيه محمداً " ﷺ " برحلة الإسراء والمعراج ، ليؤنسه ، ويعرفه منزلته عنده ، وليبدأ " ﷺ " بها مرحلة جديدة في الدعوة إلى الله تعالى .

والحديث عن الإسراء والمعراج يحتاج إلى تناول نقاط معينة وهي : —

١ ـ مفهوم الإسراء والمعراج

يراد بالإسراء تلك الرحلة التي صحب فيها جبريل "عليه السلام" محمداً "ﷺ" ليلاً من البيت الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس بإيلياء حيث ركبا معاً البراق .

ويراد برحلة المعراج صعود جبريل بمحمد " ﷺ " من بيت المقدس إلى السماوات العلا ، في معراج أحضره معه جبريل " عليه السلام " .

٢ ـ ثبوت الإسراء والمعراج

والإسراء والمعراج ثبت وقوعهما لرسول الله " ﷺ " بالقرآن الكريم ، وبالسنة النبوية وبشهادة الصحابة " رضوان الله عليهم " .

---

[1] الرحيق المختوم ص ١٥٢ .

أما القرآن الكريم ففيه يقول الله تعالى ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾ ﴾[1] ، ويقول سبحانه : ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾ ﴾[2] .

وأما السنة فقد أخرج مسلم عن أنس بن مالك : أن رسول الله " ﷺ " قال: أتيت بالبراق ، وهو دابة أبيض طويل ، فوق الحمار ، ودون البغل ، يضع حافره عند منتهى طرفه ، فركبته حتى أتيت بيت المقدس ، فربطته بالحلقة التي يربط به الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين ، ثم خرجت فجاءني جبريل " عليه السلام " بإناء من خمر ، وإناء من لبن فاخترت اللبن ، فقال جبريل " عليه السلام " اخترت الفطرة ،

ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل فقيل من أنت ؟ ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

---

[1] سورة الإسراء آية (١) .

[2] سورة النجم الآيات (١ ــ ١٨) .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم " عليه السلام " فرحب بى ودعا لى بخير .

ثم عرج بنا إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل " عليه السلام "

فقيل : من أنت ؟ ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟.

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا " صلوات الله عليهم " فرحبا ودعوا لى بخير .

ثم عرج بى إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل .

فقيل : من أنت ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد " صلى الله عليه وسلم " .

قيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه .

ففتح لنا فإذا أنا بيوسف " عليه السلام " إذا هو قد أعطى شطر الحسن فرحب ودعا لى بخير

ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟.

قال : محمد .

قال : وقد بعث إليه ؟.

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس ، فرحب ودعا لي بخير ، قال الله عز وجل: ﴿ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ ﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل

قيل : من هذا ؟.

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون " عليه السلام " ، فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى " عليه السلام " ، فرحب ودعا لي بخير ، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل .

فقيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟.

قال : محمد " ﷺ " .

قيل : وقد بعث إليه ؟.

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم " عليه السلام " مسندا ظهره إلى البيت المعمور ، وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى ، وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال ،

فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها ،

فأوحى الله إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى " عليه السلام " ، فقال : ما فرض ربك على أمتك .

قلت : خمسين صلاة .

قال موسى " عليه السلام " : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف،فإن أمتك لا يطيقون ذلك ؛ فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم .

فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف على أمتي فحط عني خمساً .

فرجعت إلى موسى ، فقلت حط عني خمساً .

قال موسى " عليه السلام " : إن أمتك لا يطيقون ذلك،فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

يقول " ﷺ " : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى " ﷺ "،حتى قال الله تعالى: يا محمد إنهن خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنه ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئاً ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى " عليه السلام " فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله " ﷺ " : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استحييت منه [1] .

---

[1] صحيح مسلم بشرح النووي ـــ باب الإسراء برسول الله " ﷺ " ج٢ ص ٢١٠ ـــ ٢١٥ ، يقول القاضي عياض عن هذا الحديث : لم يأت أحد بأصوب من هذا الحديث (الشفا ج١ ص ١٧٩) .

وقد روى حديث الإسراء والمعراج ثمان وثلاثون صحابيا وصحابية، بعضهم ذكره مطولاً ، وبعضهم ذكره مختصراً ، وبعضهم زاد جوانب لم تذكر عند الآخرين .. ووقعت بينهم اختلافات، والقدر المجمع عليه هو أنه " ﷺ " أسري به من مكة إلى بيت المقدس ، راكباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين .

ثم أتي بالمعراج ، وهو كالسلم ، ذو درج يرقى فيها ، فصعد فيه ، إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فتلقاه من كل سماء مقربوها .

ثم سلم على الأنبياء الذين في السموات، بحسب منازلهم ، ودرجاتهم ، حتى مر بموسى الكليم ، وإبراهيم الخليل في السادسة والسابعة ، ثم جاوز منزلتيهما " ﷺ " وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى ، وغشيها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هنالك جبريل على صورته ، وله ستمائة جناح ، ورأى رفرفاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون منه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين ، ثم خففها إلى خمس ، رحمة منه ، ولطفاً بعباده ، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها ، ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه . لما حانت الصلاة ، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ ، بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم في منازلهم ، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً ، واحداً ، فيخبره بهم وكان الأنبياء أنفسهم يسألون جبريل " عليه السلام " عن المصاحب له ، وعن بعثته .

والقول بأن الصلاة كانت بعد العودة من العروج هو اللائق، لأنه " ﷺ " كان أولا مطلوبا إلى الجناب القدسي ليتشرف بالمقام العلوي ، وتعرف منزلته عند ربه ، وحتى يفرض عليه ، وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتمع به هو وإخوانه من النبيين ، وأظهر شرفه ، وفضله عليهم ، بتقديمه في الإمامة وائتمامهم جميعا " صلوات الله عليهم " به، وذلك بوحي جبريل " عليه السلام " لهم في ذلك ، ثم خرج " ﷺ " من بيت المقدس فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم[1] .

وحتى نقف على ما بين هذه الروايات من اتفاق، أو اختلاف أبين ما يلي : —

أولا : رواة حديث الإسراء :

بلغ عدد رواة حديث الإسراء من الصحابة ثمان وثلاثين صحابيا ، وصحابية وهم : —

١ — أبي بن كعب " رضي الله عنه " .
٢ — أبو ذر الغفاري " رضي الله عنه " .
٣ — بريدة بن عبد الله " رضي الله عنه " .
٤ — أسامة بن زيد " رضي الله عنه " .
٥ — أنس بن مالك " رضي الله عنه " .
٦ — جابر بن عبد الله " رضي الله عنه " .
٧ — حذيفة بن اليمان " رضي الله عنه " .
٨ — سمرة بن جندب " رضي الله عنه " .
٩ — سهل بن سعد " رضي الله عنه " .
١٠ — شداد بن أوس " رضي الله عنه " .
١١ — صهيب بن سنان " رضي الله عنه " .
١٢ — عبد الله بن عباس " رضي الله عنه " .
١٣ — عبد الله بن عمر " رضي الله عنه " .
١٤ — عبد الله بن الزبير " رضي الله عنه " .
١٥ — عبد الله بن أبي أوفى " رضي الله عنه " .
١٦ — عبد الله بن سعد بن زرارة " رضي الله عنه "
١٧ — عبد الله بن مسعود " رضي الله عنه " .
١٨ — العباس بن عبد المطلب " رضي الله عنه "
١٩ — عثمان بن عفان " رضي الله عنه " .
٢٠ — علي بن أبي طالب " رضي الله عنه " .
٢١ — عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " .
٢٢ — مالك بن صعصعة " رضي الله عنه " .

---

[1] تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٢ .

٢٣ـ أبو بكر الصديق " ﷺ " . ٢٤ـ أبو أيوب الأنصاري " ﷺ " .

٢٥ـ أبو الحمراء " ﷺ " . ٢٦ـ أبو الدرداء " ﷺ " .

٢٧ـ أبو سعيد الخدري " ﷺ " . ٢٨ـ زيد بن حكيم " ﷺ " .

٢٩ـ أبو سفيان بن حرب " ﷺ " . ٣٠ـ أبو سلمة بن دحية " ﷺ " .

٣١ـ أبو ليلى الأنصاري " ﷺ " . ٣٢ـ أبو سلمى راعي رسول الله " ﷺ " .

٣٣ـ أبو هريرة " ﷺ " . ٣٤ـ أم المؤمنين عائشة"رضي الله عنها" .

٣٥ـ أسماء بنت أبي بكر"رضي الله عنها" .٣٦ـ أم كلثوم بنت رسول الله " ﷺ " .

٣٧ـ أم سلمة أم المؤمنين"رضي الله عنها" .٣٨ـ أم هانى " رضي الله عنها (١) " .

وقد أورد السيوطي مختلف الروايات بأسانيدها في كتابه"الخصائص الكبرى" ونقلها عنه العلامة الشيخ / يوسف النبهاني في كتابه " حجة الله على العالمين" فليرجع إلى أيهما من أراد الاطلاع عليها .

ثانيا : الزيادات الواردة عن رواية أنس المذكورة :

وردت زيادات في بعض الروايات زائدة عن رواية أنس بن مالك" ﷺ" التي نقلتها من صحيح مسلم وجعلتها أساساً لسائر الروايات، وسأحاول هنا ذكر هذه الزيادات لتتضح صورة الإسراء والمعراج كاملة ، وهي :ـ

أ ـ أخرج البخاري بسنده عن أنس،قال : (ليلة أسري برسول الله " ﷺ " من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه بالإسراء وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟

فقال أوسطهم : هو خيرهم .

فقال أحدهم : خذوا خيرهم .. وفي ليلة أخرى أتوه وهو نائم فحملوه ، ووضعوه عند بئر زمزم ، فتولاه منهم جبريل ، فشق ما بين نحره إلى لبته ، حتى فرغ من صدره

---

(١) أورد ابن كثير حصر هذه الأسماء في تفسيره ج٣ ص ٢٤ كما ذكرهم صاحب كتاب " حجة الله على العالمين ص ٣٣٧ .

وجوفه فغسله بماء زمزم بيده ، حتى أنقى جوفه ، ثم أتى بطست من ذهب ، محشو إيماناً وحكمة ، فحشى به صدره ، ولغاديده (عروق حلقه) [١] .

ب ـ وأخرج أحمد عن طريق أنس أن النبي أتى بالبراق ليلة أسري به ، مسرجاً ملجماً ليركبه ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : أبمحمد تفعل هذا ؟ فوالله ما ركبك أحد قط أكرم على الله منه فارفض البراق عرقاً ، ثم قر حتى ركبه " ﷺ " [٢] .

جـ ـ وأخرج ابن عساكر ، والبيهقي بسندهما عن حديث أبي سعيد الخدري يقول النبي " ﷺ " : فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ، ونفس طيبة ، فاجعلوها في عليين ، ثم تعرض عليه أرواح ذريته الفجار ، فيقول : روح خبيثة ، ونفس خبيثة اجعلوها في سجين .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأخونة عليها لحم ، قد أروح ، وأناس ، عندها ناس يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يتركون الحلال ، ويأتون الحرام .

ثم مضيت هنيهة فإذا بأقوام بطونهم أمثال البيوت ، كلما نهض أحدهم خر يقول : اللهم لا تقم الساعة ، وهم على سابلة آل فرعون ، فتجيء السابلة فتطؤهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا : ﴿ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ﴾ .

ثم مضيت هنيهة فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإبل ، فتفتح أفواههم ، ويلقمون حجراً ، ثم يخرج من أسافلهم ، فسمعتهم يضجون إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

---

(١) [illegible] ج ٦ ص ١٩٢ [illegible] .

(٢) [illegible] الإمام ج ١ ص ٤٠٥ – ٤٠٦ .

قال : هؤلاء من أمتك ﴿ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بنساء تعلقن بثديهن ، ونساء منكسات بأرجلهن ، فسمعتهن يضججن إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟

قال : هؤلاء اللاتي يزنين ويقتلن أولادهن .

ثم مضت هنيهة فإذا أنا بأقوام يقطع من جنوبهم اللحم ، فيلقمون ، فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم أخيك ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء الهمازون من أمتك اللمازون [1] .

د ــ وأخرج البيهقي ، وابن جرير بسندهما ، عن أبي هريرة " ﷺ " قال : وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ، ويحصدون في يوم ، كلما حصدوا عاد كما كان ، فقال النبي " ﷺ " : يا جبريل ما هذا ؟

قال : هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف ، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تتثاقل رؤسهم عن الصلاة المكتوبة .

ثم أتى على قوم على إقبالهم رقاع ، وعلى أدبارهم رقاع ، يسرحون كما تسرح الإبل ، والنعم ، ويأكلون الضريع والزقوم ، ورضف جهنم ، وحجارتها .

قال : ما هؤلاء ؟ يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين لا يؤدون صدقات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً .

---

[1] حجة الله على العالمين ص ٣٥٣ ، ٣٥٤ .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج في قدر ، ولحم آخر نيئ خبيث ، فجعلوا يأكلون من النيئ الخبيث ويدعون النضيج الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً فتبيت معه . حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شئ إلا خرقته .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمتك يقعدون على الطريق فيقطعونه .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمتك يكون عليه أمانات الناس لا يقدر على أدائها ، وهو يريد أن يحمل عليها .

ثم أتى على قوم تقرض ألسنتهم وشفاههم بمقاريض من حديد ، كلما قرضت عادت كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شئ ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء خطباء الفتنة .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث خرج ، لا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردها .

ثم أتى على واد فوجد ريحاً طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صـــــوتاً . فقال : يا جبريل ما هذا ؟

قال : هذا صوت الجنة تقول يارب ائتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرفي ، وإستبرقي وحريري ، وسندسي ، وعبقريي ، ولؤلؤي ، ومرجاني ، وفضتي ، وذهبي ، وأكوابي ، وصحـــافي

وأباريقي، ومراكبي، وعسلي، ومائي، ولبني، وخمري، فأتني ما وعدتني : فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، قالت : رضيت .

ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً منتنة ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول يارب آتني ما وعدتني ، فلقد كثرت سلاسلي، وأغلالي وسعيري، وحميمي، وضريعي، وغساقي، وعذابي ، وقد بعد قعري، واشتد حري ، فآتني ما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت [١] .

هـ ـــ وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة " ﷺ " ، قال : قال رسول الله " ﷺ " رأيت ليلة أسري بي لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق فإذا رعد وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات ترى من خارج بطونهم ، فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء أكلة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني ، فإذا أنا برهج ، ودخان ، وأصوات ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم، لئلا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لرأوا العجائب [٢] .

و ـــ جاء في حديث أبي هريرة ذكر كلام كل من إبراهيم وموسى وعيسى وداود وسليمان " عليهم السلام "، ثم ذكر كلام النبي " ﷺ " فقال : وأن محمداً " ﷺ " أثنى على ربه عز وجل ، فقال : كلكم أثنى على ربه ، وأنا أثني على ربي الحمد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين ، وكافة للناس ، بشيراً ، ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شيء ، وجعل أمتي خير أمة ، وجعل أمتي أمة وسطا وجعل أمتي هم

---

(١) رحمة الله على العالمين ص ٣٥٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٣٦٢ .

الأولون ، وهم الآخرون ، وشرح لي صدري ، ووضع عني وزري ، ورفع لي ذكرى ، وجعلني فاتحا ، وخاتما ، فقال إبراهيم بهذا فضلكم محمد [١] .

و ــ جاء في حديث أبي هريرة من طريق الربيع بن أنس ، أن رســـول الله " ﷺ " لما انتهى إلى سدرة المنتهى قال له الله تعالى : سل ، فقال " ﷺ " : إنك اتخذت إبراهيم خليلا ، وأعطيته ملكا عظيما ، وكلمت موسى تكليما ، وأعطيت داود ملكا عظيما ، وألنت له الحديد ، وسخرت له الجبال ، وأعطيت سليمان ملكا عظيما ، وسخرت له الجن ، والإنس ، والشياطين ، والرياح ، وأعطيته ملكا لا ينبغي لأحد من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يبرئ الأكمه ، والأبرص ، وأعذته وأمه ، من الشيطان الرجيم ، فلم يكن له عليهما سبيل .

فقال له ربه تعالى : قد اتخذتك خليلا ، وحبيبا ، فهو مكتوب في التوراة محمد حبيب الرحمن ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمتك هم الأولون ، وهم الآخرون ، وجعلت أمتك لا تجوز لهم خطبة حتى يشهدوا أنك عبدي ورسولي ، وجعلتك أول النبيين خلقا ، وآخرهم بعثا ، وأعطيتك سبعا من المثاني ، ولم أعطها نبيا قبلك ، وأعطيتك خواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشي لم أعطها نبيا قبلك ، وجعلتك فاتحا ، وخاتما [٢] .

وهذه الزيادات مع حديث أنس الذي أوردته ، تقدم صورة كاملة للإسراء والمعراج بدءا من شق صدره " ﷺ " قبيل الإسراء به ، وحتى عاد إلى مكة .

ثالثا : أحداث متعارضة في روايات حديث الإسراء :

بمراجعة روايات أحاديث الإسراء نلحظ فيها المعارضات التالية : ــ

(١) في حديث أنس الوارد في الفقرة (أ) السابقة أن ثلاثة نفر جاءوا إلى رسول الله قبل أن يوحى إليه ، مع أن الإسراء كان بعد البعث ، وقبيل الهجرة ، حيث جاء

---

(١) [illegible] الهيثمي ج ١ ص ٦٢ .

(٢) [illegible] عياض ج ١ ص ١٨٣ ، ١٨٤ .

في الحديث أن كثيراً ممن أسلم ارتد .

(٢) في رواية أنس الأولى أنه " ﷺ " لقى إبراهيم " عليه السلام " في السماء السابعة عند البيت المعمور، ولقى موسى " عليه السلام " في السماء السادسة، وفي بعض الروايات أنه " ﷺ " رأى إبراهيم " عليه السلام " في السماء السادسة، ولقى موسى " عليه السلام " في السماء السابعة[1].

(٣) في رواية ابن إسحاق أن الرسول " ﷺ " أتى بثلاث أوان ، أحدها ماء ، فقال قائل : إن أخذ الماء غرق ، وغرقت أمته ، وفي إحدى روايات البخاري : أنه أتى بثلاث أوان، ولم يذكر فيها الماء[2].

(٤) يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾[3] ورؤية الفؤاد تشير إلى رواية أنس من أن الرؤية كانت قلبية ، وعين الرسول " ﷺ " نائمة ، وفي الآية الثانية يقول الله تعالى : ﴿ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴾[4] فجاءت الرؤية بصيغة المضارع ، ولم يقل على ما رأى كالآية الأولى ، فدل ذلك على الرؤية الثانية ليست هي الرؤية الأولى .

(٥) في قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴾ دلالة على أنها رؤيا قلبية ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[5] دلالة على أنها رؤيا بالعين ، ولذلك رأى فيها : ﴿ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾[6] أما الآيات التي ترى في النوم فليست بهذا القدر من العظمة ، والفخامة .

---

[1] أنظر : صحيح مسلم في حديث أبي ذر بشرح النووي ج ٢ ص ٢١٧ .

[2] أنظر : سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٧ ، وصحيح البخاري ج ٦ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

[3] سورة النجم آية (١١) .

[4] سورة النجم آية (١٢) .

[5] سورة النجم آية (١٧) .

[6] سورة النجم آية (١٨) .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴾ [1] قال المفسرون في رواية يغشاها فراش من ذهب، وفي رواية أخرى قالوا ، ينتثر منها الياقوت وثمرها مثل قلال هجر .

جاء في أحاديث الإسراء ، أنه " ﷺ " رأى عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين ونهرين باطنين ، وأخبره جبريل " عليه السلام " بأن النهرين الظاهرين هما النيل والفرات .. وذكر حديث أنس أن هذين النهرين في السماء الدنيا ، وقال له الملك : هما النيل ، والفرات : أصلهما ، وعنصرهما .

رابعاً : فك تعارض الأحاديث :

والسؤال هنا : كيف نفك هذا التعارض ؟ ونجمع بين هذه الآراء ؟

نظر العلماء إلى هذا التعارض الظاهري ، وذهبوا إلى أن الإسراء وقع مرتين ، مرة في المنام ، ومرة ثانية في اليقظة .

يقول الإمام / محمد الشامي : (ذهب جماعة منهم المهلب شارح البخاري إلى هذا الرأي، وحكاه عن طائفة ، منهم أبو نصر القشيري ، والحافظ البغوي ، والمحدث أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمي ، المعروف بالسهيلي ، وبين أن النووي جزم به في فتاويه ، وهؤلاء وغيرهم من العلماء ذهبوا إلى تكرر الإسراء مرتين ، مرة في المنام ، ومرة في اليقظة، وكانت مرة النوم توطئة له، وتيسيراً عليه ، كما كان في بدء نبوته " ﷺ " من الرؤيا الصادقة ، ليسهل عليه أمر النبوة ؛ لأمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية ، وكذلك الإسراء سهله عليه بالرؤيا أولاً لأن هوله عظيم ، فجاء في اليقظة بعد توطئة، وتقدمة، رفقاً من الله تعالى بعبده، وتسهيلاً عليه [2] .

---

[1] سورة النجم آية (١٦) .

[2] الروض الأنف ج١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، سبل الهدى والرشاد ج٣ ص ١٠٦ .

وعلى هذا فإن حدوث الإسراء مرتين ، مرة على صورة ، ومرة أخرى على صورة أخرى لا تعارض فيه ، وبذلك ينتفى تعارض الروايات .

ولا مانع من تكرر الوحى إلى رسول الله " ﷺ " بالموضوع الواحد لحكمة يريدها الله ، كما هو ثابت فى حالات عديدة . .

٣

كيفية وقوع الإسراء والمعراج

أورد العلماء عدة آراء فى كيفية وقوع الإسراء والمعراج ، حيث ذهبوا فى تحديد كيفيتها إلى ثلاثة آراء : ـــ

الرأى الأول

الإسراء والمعراج كانا فى النوم وبالروح

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كانت رؤيا لرسول الله " ﷺ " رآها وهو نائم ، وعلى رأس القائلين بهذا الرأى أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " ومعاوية بن أبى سفيان " ﷺ " ، ويستدلون على رأيهم بما يلى : ـــ

١ ـــ رؤيا الأنبياء وحى ؛ لأن قلوبهم لا تنام ، يقول " ﷺ " : الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم [١] ، وبذلك يتحقق فى المنام ما يقصد فى اليقظة .

٢ ـــ يقول الله تعالى:﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ [٢] فقوله تعالى " الرؤيا " دليل على أنها كانت مناماً ، لأنها لو كانت يقظة لقال"رؤية" .

٣ ـــ جاء فى حديث أنس فى رواية شريك عنه : (وهو " ﷺ " نائم بالمسجد الحرام ... واستيقظت من منامى ، وأنا فى المسجد الحرام) [٣] وذلك دليل على وقوع الإسراء فى أثناء نوم النبى " ﷺ " .

---

(١) صحيح البخارى بشرح فتح البارى ـــ كتاب المناقب ج ٦ ص ٣٤ (٢) سورة الإسراء من الآية ٦٠

(٣) صحيح مسلم بشرح النووى ـــ كتاب المناقب ـــ باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٧ .

٤ ــ كان معاوية بن أبي سفيان " رضي الله عنهما " إذا تحدث عن مسرى رسول الله " ﷺ " ، يقول : كانت رؤيا من الله صادقة [1] .

د ــ يقول ابن إسحاق : (حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشـــة زوج النبي " ﷺ " كانت تقول : ما فقد جسد رسول الله " ﷺ " ، ولكن أسرى بروحه) .

الرأى الثانى

الإسراء كان بالجسد والمعراج كان بالروح

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كان بالجسد والروح معا ، من المسجد الحرام بمكة إلى بيت المقدس بإيلياء ، وبعده كان المعراج من بيت المقدس إلى السماوات العلا بالروح فقط ، ويستدلون على ذلك بما يلى : ــ

١ ــ يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ حيث جعلت الآية المسجد الأقصى غاية الإسراء تشريفا لرسول الله " ﷺ " ، ولو كانت غاية الإسراء إلى مكان آخر غير المسجد الأقصى لذكره سبحانه وتعالى ، لأنه أبلغ فى التشريف والمدح .

٢ ــ توجهت اعتراضات كفار مكة على انتقال رسول الله " ﷺ " من مـــكة إلى بيت المقدس والعودة منها فى ليلة واحدة، ولم يرد على لسانهم إعتراض على العروج إلى السماء السابعة، حتى سدرة المنتهى، مع أنه أدعى لإنكار الكافرين لو كان بالجسد

---

(1) [illegible]

وعلى هذا يثبت أن الإسراء كان بالجسد والروح ، أما المعراج فكان بالروح فقط لأن كفار مكة لم يعترضوا عليه مع كثرة المشاهد التي حكاها الرسول ﷺ حين رؤيته لها في معراجه ، ولو كان المعراج بالجسد لكثر الاعتراض .

الرأي الثالث

الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح

يذهب جمهور علماء السلف والخلف من الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانا يقظة بالجسد والروح ، ويستدلون على ذلك بما يلي :ــ

١ ــ يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ .

فقد ذكرت الآية أن الإسراء كان بعبده المكون من الجسد والروح ، لأنهما حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه الحقيقة ، ومن المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند استحالة حقيقة الظاهر ، ولا استحالة في قدرة الله أن يسرى بعبده روحاً وجسداً ، فلزم أن يكون الإسراء بهما .

٢ ــ يقول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾ [١] ففي الآية إثبات واضح على أن الرؤية كانت بالبصر ، وأسندها الله للبصر احترازاً عن رؤية القلب .

٣ ــ يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ [٢] ، ففي الآية دلالة على الرؤية البصرية لأنها لو كانت مناماً ما كانت كبرى ، ولسلم لها من سمعها من كفار مكة .

---

[١] سورة النجم آية (١٧) .

[٢] سورة النجم آية (١٨) .

٤ ـ يروى البخارى فى صحيحه عن ابن عبسة عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ هي رؤيا عين آريها رسول الله " ﷺ " ليلة الإسراء [١] .

وقد رد الجمهور وهم أصحاب الرأى الثالث ، القائلون بأن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح معاً على الرأيين السابقين بإبطال أدلتهم ، وردها .

رد أدلة أصحاب الرأى الأول :

قال أصحاب الرأى الثالث إن رؤيا الأنبياء وحى ، وبها تثبت الحقائق والمعلومات ، إلا أن الإعجاز فى الإسراء والمعراج لا يتم إلا إذا كان بالجسد مع الروح ، لأن المقصــود إثــبات ما شاهده النبى " ﷺ " بطريقة حسية ، حقيقية ، . وبذلك لا يتحقق بإســراء الروح ما قصد بإسراء الجسد .

وأيضاً فإن الرؤيا تأتى بمعنى الرؤية ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده ... وبشر قلباً كان جماً بلابله

وما كانت الرؤيا فتنة للناس ، إلا لأنها رؤيا بالبصر ، وقد قال الكفار : يزعم محمد أنه أتى بيت المقدس، ورجع إلى مكة فى ليلته ، والعير ترد إليها شهراً مقبلة وشهراً مدبرة ، ولو كانت رؤيا نوم لم يستبعد أحد منهم هذا ، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه فى السماء ، وفى المشرق ، وفى المغرب ، ولا يستبعد منه ذلك .

وأما استشهادهم بقوله " ﷺ " بين النائم واليقظان ، ثم استيقظت ، فالظاهر أن تلك الأقوال كان فى أول وصول الملك ، وبعد يقظته كان الإسراء .

وأيضاً فإن أحاديث الإسراء تتضمن ألفاظاً صريحة تؤكد أن الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح .

---

(١) صحيح البخارى ـ كتاب التفسير ج ٦ ص ١٦٠ .

رد أدلة أصحاب الرأى الثانى :

يرد الجمهور أدلة الرأى الثانى أيضاً ، ويرون أن آية الإسراء ذكرت الغاية بالمسجد الأقصى مراعاة لحال المستمعين ، حتى يؤمنوا بالإسراء لأنه الأقرب إلى عقولهم ، وأيسر لهم فى التصور عن المعراج ، لأنهم إذا صدقوا بالإسراء ، وسلموا بصدق محمد " ﷺ " أخبرهم بعد ذلك بما هو أعظم منه ، وهو " المعراج " ، ولذلك نزلت آيات المعراج فى سورة النجم بعد آية الإسراء .

وهكذا يرد الجمهور أدلة مخالفيهم ، فيترجح رأيهم برجحان أدلتهم ..

التوفيق بين الآراء ورد الاختلاف :

ويجب أن أشير هنا إلى ما ذكرته سلفاً فى صـ ٣٩٦ من أن الإسراء وقع لرسول الله " ﷺ " مرتين ، مرة فى اليقظة ، ومرة فى المنام يرفع التعارض الظاهر فى الأقوال الثلاثة، يقول الحافظ ابن حجر : إن قيل بتكرر الإسراء فلا إشكال ، وأن المرة الأولى كانت مناماً لتسهيله ، وتخفيف وطأته ، وأن المرة الثانية كانت يقظة بعد التوطئة والتقديم ، رفقاً من الله بعبده ، وتسهيلاً عليه ، كما حدث فى أول الوحى ، إذ بدأ بالنبوة وثنى بالرسالة .

وعلى هذا تصدق الآراء الثلاثة ، فمن قال بالإسراء الروحانى ، أعتمد على وقوع الإسراء فى المرة الأولى ، ومن قال بالإسراء الجسدى ، أعتمد على وقوع الإسراء فى المرة الثانية ، ومن قال بالإسراء البدنى ، والمعراج الروحى أخذ من المرة الأولى المعراج ، ومن المرة الثانية الإسراء .

يقول السهيلى : وهذا القول هو الذى يصح ، وبه تتفق الأخبار ، فالرواة جميعا ثقاة عدول ، لا سبيل إلى تكذيب بعضهم أو توهينه [١].

يقول ابن كثير : ونحن لا ننكر وقوع منام قبل الإسراء، فيه صورة ما وقع بعد ذلك ، فإنه " ﷺ " كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل

---

(١) الروض الأنف ج ٢ ص ١٥٠ .

ذلك من حديث بدء الوحي ، أنه رأى في منامه مثل ما وقع له يقظة بعد ذلك ، من باب الإرهاص ، والتوطئة ، والتثبت ، والإيناس [1] .

وهكذا كان الإسراء والمعراج رحلة علوية ، سامية ، خففت عن رسول الله " ﷺ " ما كان يعانيه من إنصراف الناس عن الإيمان،واستهزائهم به، وعلو مقامه ، وقدره، ومنزلته ، وهذا كاف في عونه على متاعب الناس ، وصموده أمام عتوهم وظلمهم .

العنصر السادس

إسلام الأنصار

لما أراد الله تعالى إظهار دينه،وإعزاز رسوله ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، قضى بأن يترك المسلمون مكة ، ويهاجروا منها إلى مكان آمن، يعيش أهله للإسلام ، ويهاجر إليه المسلمون ليكونوا قوة تحمي الحق ، وتدافع عنه ، وترد كيد المعتدين .

لما أراد الله ذلك خرج رسول الله " ﷺ " إلى قبائل العرب كما كان يفعل في كل موسم ، وذلك في العام العاشر من المبعث ، وقد وفقه الله تعالى ، ووفق الأنصار معه فتلاقوا في ثلاثة مواسم متتابعة ، عند العقبة ، حيث كان اللقاء الأول تمهيدا لبيعتي العقبة اللتين تمتا في اللقاءين الثاني، والثالث .

وبيان هذه اللقاءات فيما يلي : —

اللقاء الأول

إسلام نفر من الأنصار

حين خرج الرسول " ﷺ " في العام العاشر للقاء القبائل لقي نفرا من الخزرج وهم : —

١ — أسعد بن زرارة .. من بني النجار .

٢ — عوف بن الحارث بن رفاعة .. من بني النجار .

---

[1] البداية والنهاية جـ ٣ ص ١١٤ .

٣ ـــ رافع بن مالك بن العجلان .. من بنى زريق .

٤ ـــ قطبة بن عامر بن حديدة .. من بنى سلمة .

٥ ـــ عقبة بن عامر بن نابى .. من بنى حرام بن كعب .

٦ ـــ جابر بن عبد الله بن رئاب .. من بنى عبيد بن غنم .

فلما لقيهم الرسول " ﷺ " قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالى يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى ، من أنت ؟

فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان مما حببهم فى الإسلام أن اليهود كانوا معهم فى بلادهم ، كثيراً ما قالوا لهم : إن نبياً أظلنا زمانه ، سنؤمن به ، ونقتلكم وهو معنا قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله " ﷺ " أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله أيقنوا به . واطمأنت قلوبهم إلى ما سمعوا ، وعرفوا صدق ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب عن صفته .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

ثم قالوا : قد علمت الذى بيننا (يعنون الأوس والخزرج) من الاختلاف ، وسفك الدماء ، ونحن حراص على ما أرسلك الله به ، مجتهدون لك بالنصيحة ، دعنا نشير عليك برأينا ، فامكث على رسلك باسم الله ، حتى نرجع إلى قومنا ، فنذكر لهم شأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله . فلعل الله يصلح ذات بينهم ، ويجمع لك أمرهم

فإنا اليوم متباغضون متباعدون ؛ ولكنا نواعدك الموسم من العام المقبل ، فرضي بذلك رسول الله " ﷺ " ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدقوا "[1] .

ويعد هذا الاتفاق عهداً بين رسول الله " ﷺ " وهؤلاء النفر وحدهم على أن يبذلوا جهدهم لإصلاح ذات البين ؛ بين الأوس والخزرج ، ليأتوا في العام القادم سويا ويشتركوا في عهد رسول الله " ﷺ " معاً .

وكثير من المؤرخين ؛ وكتاب السيرة لا يعدون إيمان هؤلاء النفر بيعة ، ويعتبرونه مقدمة للبيعتين بعد ذلك ، إلا أن الشيخ / محمد الشامي عدها بيعة ، وتحدث عن ثلاث بيع لعده اللقاء الأول اتفاقاً متكاملاً ، وتم عند العقبة ، يقول عبد الله بن أبي بكر : لا أدرى ما العقبة الأولى ، ويقول ابن إسحاق : قد كانت عقبة، وعقبة ؛ إشارة إلى اللقاء الأول والثاني ؛ لأنهما كانا في مكان واحد، يجاور العقبة التي سميت البيع إليها ، لأن المبايعة كانت تتم بشعب يجاور العقبة ، يقع يسار القادم من مكة إلى منى ، وقد أقيم في هذا المكان مسجد يعرف بـ " **مسجد البيعة** " وموقعه في أول شعب يعرف بـ " **شعب العقبة** " و " **شعب الأنصار** "[2] .

ومع جمال وجهة نظر الشيخ إلا أني سأعتبر اللقاء الأول تمهيداً للبيعتين بعده تبعاً لجمهور مؤلفي السير والتاريخ .

اللقاء الثاني

بيعة العقبة الأولى

رجع النفر الذين قابلوا رسول الله " ﷺ " إلى يثرب ، وأحاطوا قومهم بخبر لقائهم ، وإسلامهم ، ودعوا أهل المدينة جميعاً من الأوس والخزرج إلى الإيمان ، ففشا الإسلام في دور الأنصار جميعاً ، فلم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وفيه ذكر لرسول الله " ﷺ " .

---

[1] سيرة النبي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٤٢٩ .

[2] هامش ك ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

ووضعت الحرب أوزارها ، وانتهى يوم بعاث ، آخر أيام الأوس والخزرج والكل يتمنى أن لا يعودوا إليها مرة ثانية ... ولذلك أقبلوا على الإيمان بدعوة محمد " ﷺ " ، ليتوحدوا بالإسلام ، وحتى لا يسبقهم اليهود إليه ، يروى البخاري في صحيحه بسنده أن عائشة " رضي الله عنها " قالت : (**كان يوم بعاث يوماً قدمه الله لرسوله ، فقدم رسول الله " ﷺ " إلى المدينة ، وقد افترق ملؤهم ، وقتل سرواتهم ، وخرجوا فقدمه الله لرسوله " ﷺ " (وجعله سبباً) في دخولهم الإسلام**)[1]

وذلك يشير إلى أنها كانت وقعة عظيمة احتاجوا بعدها إلى وصل ما انقطع وتعويض ما فقدوه ، فوجدوا الإسلام ، فصدقوا به ، وآمنوا بمحمد " ﷺ " ، وكان كـل من الأوس ، والخزرج يأنف من تسيد صاحبه عليه ، وأملوا في أن يكون الزعيم من غيرهم ، ولذلك كانت سعادتهم غامرة بقدوم مصعب بن عمير " ﷺ " ليكون إماماً للجميع .

والذين حضروا اللقاء الثاني ، وبايعوا هذه البيعة اثنا عشر رجلاً هم : ـ

١ ـ أسعد بن زرارة .	٢ ـ عوف بن الحارث .
٣ ـ معاذ بن الحارث .	٤ ـ ذكوان بن قيس .
٥ ـ عبادة بن الصامت .	٦ ـ يزيد بن ثعلبة .
٧ ـ العباس بن عبادة .	٨ ـ أبا الهيثم بن التيهان .
٩ ـ عويم بن ساعدة .	١٠ ـ رافع بن مالك .
١١ ـ قطبة بن عامر .	١٢ ـ عقبة ابن عامر .

وقد بايعهم رسول الله " ﷺ " بيعة عرفت ببيعة النساء ، لخلوها من النصرة والجهاد ، وأيضاً لأنها جاءت موافقة لما نزل القرآن الكريم بها بعد ذلك ، وهو يشرع للنبي " ﷺ " ما يبايع النساء عليه ، وذلك في صلح الحديبية .

---

[1] صحيح البخاري ـ باب مناقب الأنصار ج ٦ ص ١٤٤ .

يروى البخاري بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله " ﷺ " قال وحوله عصابة من أصحابه : تعالوا بايعوني ، على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك شيئاً فستره الله فأمره إلى الله : إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه [١] .

ولما هم القوم بالرجوع إلى المدينة طلبوا من رسول الله " ﷺ " أن يرسل معهم من يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ما نزل من الإسلام ، فأرسل " ﷺ " معهم مصعب بن عمير ، وأمره الرسول " ﷺ " أن يعلمهم الإسلام ، ويقرئهم القرآن ، ويفقههم في الدين .. وكان اختيار مصعب بن عمير لهذه المهمة اختياراً موفقاً ، لأنه استطاع بفضل الله أن يدخل الإسلام في كل بيوت المدينة خلال عام واحد ، وصار الجميع يهتمون بما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى — حتى عرف مصعب " ﷺ " باسم القارئ ، والمقرئ .

وتلقى بني الأوس والخزرج مصعباً بالترحيب ليؤمهم حيث كره كل منهم أن يؤمه واحد من القبيلة الأخرى [٢] .

اللقاء الثالث

بيعة العقبة الثانية

عاد أصحاب العقبة الأولى إلى المدينة ، ومعهم مصعب بن عمير ، ولم يقترب موعد الحج من العام القادم حتى هيأت قلوب أهل المدينة للخير ، وانتشر الإسلام فيهم ، حتى لم تبق دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين ، يظهرون إيمانهم ، ويتعرسون بما عاهدوا الله عليه .

---

[١] صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٠٠ .

[٢] البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥١ .

وقـــد تعلقت قلوب أهل المدينة برسول الله " ﷺ " حباً . وتقديراً ، وتألموا لموقـــف أهل مكة من الإسلام والرسول ، ولذلك اجتمعوا ودرسوا الموقف ، وقال بعضـــهم لبعض : إلى متى نذر رسول الله يطوف في جبال مكة ؟ ويخاف ؟ ويعتدي عليه المشركون ؟ !

فكـــان أن رحـــل عدد غفير من الأوس والخزرج إلى الحج تأدية للمناسك ، وحباً للقاء رسول الله " ﷺ " ، فلما وصلوا إلى منى ، وفي ثاني أيام التشريق واعدوا لقاء رسول الله في الشعب المجاور للعقبة .

يقـــول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله " ﷺ " العقـــبة من أوسط أيام التشريق أن نوافيه في الشعب الأيمن إذا انحدرنا من منى بأسفل العقبة ، على ألا ننبه نائما ، ولا ننتظر غائباً .

فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله " ﷺ " لها ، ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا أخذناه معنا ، وكنا نكتم على من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه ، وقلنا له : يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً ، ثم دعوناه إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله " ﷺ " إيانا في العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة .

فنمـــنا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من رحالـــنا لمـــيعاد رسول الله " ﷺ " نتسلل تسلل القطا ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في الشعب ، عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنـــت كعـــب - أم عمارة - ، إحدى نساء بني مازن من بني النجار ، وأسماء بنت عمـــرو بن عدي ، فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله " ﷺ " حتى جاءنا ، ومعه العـــباس بـــن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ، ويتوثق له كما حضر معه " ﷺ " أبو بكر ، وعلي ابن أبي طالب .

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر الخزرج [١] إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه : فهو في عز من قومه، ومنعة في بلده ، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه،ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وخاذلوه بعد الخروج به إليكم : فمن الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج : هل تدرون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم .

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم تريدون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه فمن الآن، فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة ، وإن كنتم تريدون أنكم وافون له بما عاهدتموه على نهكة الأموال، وقتل الأشراف ، فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ثم تكلم رسول الله " ﷺ " فقال لهم : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطيل ، فإن عليكم من المشركين عيناً ، وإن يعلموا بكم يفضحوكم ..

فقالوا يا رسول الله : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك ولربك ما أحببت .

فتكلم رسول الله " ﷺ " : فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال : أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم .

فأخذ البراء بن معرور بيده ، ثم قال : نعم فو الذي بعثك بالحق لنمنعك مما نمنع منه أزرنا ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب، وأهل الحلقة، ورثناها كابراً عن كابر .

---

(١) قال : وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها .

فاعـــترض القول أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله : إن بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها ـــ يعني اليهود ـــ فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبســـم رســـول الله " ﷺ " ثم قال : بل الدم الدم، والهدم الهدم ـــ أى ذمتى ذمتكم وحرمتى حرمتكم ـــ أنا منكم، وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم[1].

ثم قـــال أبو أمامة : (يا محمد : سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ، وعليكم ، إذا فعلنا ذلك).

قـــال " ﷺ " : أســـألكم لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لنفسي وأصحابي أن تؤوونا ، وتنصرونا ، وتمنعونا ، مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال " ﷺ " : لكم الجنة .

قالوا : فلك ذلك[2] .

وهنا قال رسول الله " ﷺ ": أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيباً تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

فمن الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بنى النجار ، ورافع بن مالك ابـــن العجـــلان نقيب بنى زريق ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة نقيب بنى الحارث بن الخزرج ، وسعد بن عبادة ، والمنذر بن عمرو نقيب بنى ساعدة ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعبادة بن الصامت .

ومن الأوس : أسيد بن حضير نقيب بنى عبد الأشهل ، ورفاعة بن عبد المنذر وسعد بن خيثمة نقيبا بنى عمرو بن عوف .

---

[1] البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

[2] المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٣ .

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله " ﷺ " قال للنقباء : أنتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ــ يعني المسلمين ــ قالوا : نعم [1].

وقد روى البيهقي عن الإمام مالك " ﷺ " قال : حدثني شيخ من الأنصار أن جبريل كان يشير إلى رسول الله " ﷺ " إلى من يجعله نقيباً ليلة العقبة [2].

وفي حديث كعب بن مالك قال : كان أول من ضرب على يد رسول الله " ﷺ " ، البراء بن معرور ، ثم بايع القوم [3]، فلما بايعنا رسول الله " ﷺ " صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط : يا أهل الجباجب : هل لكم في مذمم والصباة معه قد اجتمعوا على حربكم ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : هذا أزب العقبة ، هذا ابن أزيب ، استمع أي عدو الله ، أما والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله " ﷺ " : إرجعوا إلى رحالكم ، فقال له العباس بن عبادة بن نضلة ، والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رحالكم ، قال : فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا ... فلما علم اهل مكه جاءوا الى الأنصار ، فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا لتخرجوه من بين أظهرنا وتبايعوه على حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا لم يعلموه [4].

---

(1) سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٤٤٣ .

(2) سبل الهدى والرشاد ج ٣ ص ٢٨١ .

(3) البداية والنهاية ج ٣ ص ١٦٣ .

(4) المرجع السابق ج ٤ ص ١٦٤ .

وكذلـــك أراد الله بالأنصار خيراً ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدى هذا الحي من العرب ، وقضى بأن يكون للأنصار اليد الطولى فى نصرة الإسلام ، بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة التوحيد ، والتوحد ، ومحا ما كان بينهم من العداء والتنافر ، فلطالمـــا سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج ، وكان آخر يوم شهدوه هو يوم بعاث الذى ذهب ضحيته العديد من رجالاتها ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة التى تسيل ضماناً لسيادتهم ، وابتزازاً لأموال المتحاربين ، عن طريق بيعهم الأسلحة وما تحتاج إليه الحروب .

لقـــد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس للنبى " ﷺ " ، كما اشترط أبو الهيثم لقومه وعلم كل طرف ما له ، وما عليه ، وبذلك لم تكن بيعة قائمـــة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها قامت على التفهم للموقف ، والنظرة البعيدة للمستقبل .

وتجلـــت حكمة النبى " ﷺ " حين طلب من الأنصار أن يكتموا أمرهم حين يـــتوافدون إلـــيه فى المكان الذى واعدهم فيه وقد أطاعوه ، فلم يوقظوا نائماً ، ولم ينتظروا غائباً ، ذلك أنه كان يراقبهم فى هذا الموسم من لم يدخل نور الإسلام فى قلبه وأراد الله تعـــالى تضليل أهل مكة فتولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما بعد عـــلى مشـــركى قريش حين عاتبوا اليثربيين على مبايعتهم الرسول " ﷺ " ، وسلم الأنصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين والتعرض للكذب إن أنكروا .

وبعد تمام البيعة الكبرى عاد الأنصار إلى مدينتهم ، وأخذ المشركون يشتدون فى أذى المسلمين ، ومنعهم من الخروج .

فشـــكا الصحابة أحوالهم إلى رسول الله " ﷺ " ، واستأذنوه فى الخروج من مكـــة ، فأذن لهم ، وقال لهم : (أريت دار هجرتكم ، أرض سبخة ذات نخل بين

للإيمان[1] ثم مكث أياماً ، وخرج لأصحابه مسروراً ، وقال لهم : (قد أخبرت بدار هجرتكم ، وهي يثرب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها)[2] ، فأخذ الصحابة يخرجون متخافين ، مهاجرين إلى المدينة لتبدأ مرحلة جديدة في سيرة رسول الله " ﷺ " ، وفي الدعوة الإسلامية .

* * *

---

(١) السيرة الحلبية ج ٢ ص ١٦٨ .

(٢) سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٤٦٨ .



الفصل الثالث

حركة النبى "ﷺ"

بالدعوة إلى الله تعالى

فى مكة



تمهيد :

نزل الوحي على رسول الله " ﷺ " أولاً تعليماً وتهيئة ؛ وبعد مرور ستة أشهر نزل جبريل " عليه السلام " بأول سورة المدثر لينقل محمد " ﷺ " من مرحلة النبوة إلى مرحلة الرسالة ، كما هو واضح من قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنذِرْ ﴾ فهو أمر بالقيام بأمر الدعوة بما يعنيه من الثبات ؛ والإخلاص ، والملازمة ، والاستقامة ، والشمول ؛ وحسن الطلب والتوجيه .. لأن القيام يشمل ذلك كله [1] .

وبهذا الأمر (قُم) أخذ النبي " ﷺ " يتحرك بالدعوة ، لإيصالها إلى البشر أجمعين ، بطريقة منهجية تراعي أحوال الناس ، وبالحركة الممكنة ، وبقدر ما تسمح به الأحوال .

وقد اقتضت منهجية الحركة بالدعوة أن تمر بعدد من المراحل في مكة ؛ حيث تغاير التوجيه والبلاغ في صورته ، وأسلوبه ، في كل مرحلة عن سابقتها ، وعما يلحق بها .

وهذا التغاير بين مراحل الدعوة ضرورة واقعية ليتعامل الرسول " ﷺ " والدعاة معه ؛ ومن بعده ، مع الواقع بما يناسبه ، وبما يحقق الغاية المقصودة منه .

إن هدف الدعوة معروف منذ اللحظة الأولى ؛ لكن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى وسائل عديدة تتعامل مع واقع الحياة ، والأحياء ؛ ويحتاج كذلك إلى أسلوب يتفق مع أفهام المخاطبين ، ويتلاءم مع أفكارهم ، وثقافاتهم ..

إن ثبات الغاية ، وتغيير الأسلوب ، والوسيلة ، مسألة تعطي الدعوة الحيوية ، والمرونة ، والتجديد .

ومن المعلوم أن جمود الوسيلة لا يتفق مع تطور الحياة ، وتقدم المدنية ، وطبائع الناس ، كما أن جمود الأسلوب تخلف يؤدي إلى وضع الأفكار في قوالب غامضة تحير الفكر ، وتعجز عن إيصالها إلى عديد من الناس .

---

[1] انظر تفسير التيسير ج ص ٣٠٧ — ٣١٣ بتصرف .

وقد تحرك الرسول "ﷺ" بالدعوة إلى الإسلام بوسائل متعددة ، وأساليب كثيرة من خلال تعامله مع عديد من البشر ، في بيئات مختلفة ، وبين أطر مذهبية كثيرة .

وفي هذا الفصل سيكون الحديث عن حركة النبي " ﷺ " بالدعوة ، في الفترة المكية.ولذلك رأيت أن أقسمة على عدد من المراحل لتميز كل منها بخصائص معينة لا توجد في غيرها .

ومن خلال تناولي للفترة المكية بمراحلها أجدني أتعامل مع مصطلحات عديدة من أهمها مصطلحات المنهج ، والوسيلة ، والأسلوب .

وحتى لا تتداخل المعاني ، أرى أهمية تحديد مفاهيم هذه المصطلحات ، وبعدها سأتناول مراحل الدعوة في الفترة المكية ليشمل الحديث كل مرحلة بمنهجها ، ووسائلها ، وأساليبها ، وبذلك يتضح الأمر ، ويفهم المقصود .

وبذلك سيتكون هذا الفصل من المباحث التالية : ـــ

- المبحث الأول : تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة .
- المبحث الثاني : حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة في المرحلة السرية .
- المبحث الثالث : الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية .
- المبحث الرابع : المسلمون خلال المرحلة السرية .
- المبحث الخامس : المرحلة الأولى للجهر بالدعوة .
- المبحث السادس : مرحلة الجهر العام بالدعوة .
- المبحث السابع : الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام .
- المبحث الثامن : توافق الأسلوب مع الموضوع .
- المبحث التاسع : مواجهة عدوان الكفار .
- المبحث العاشر : استمرار الحركة بالدعوة .
- المبحث الحادي عشر : المسلمون في نهاية المرحلة المكية .

وذلك فيما يلي ...

المبحث الأول

تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة

تختلط الأمر على من يقرأ في الدعوة الإسلامية حين يرى استعمال كلمات مكان كلمات أخرى ظناً من المؤلف أنها متحدة المعنى ، مع أنها ليست بمعنى واحد ، كوضع كلمة المنهج مكان كلمة الأسلوب، واستعمال الأسلوب في موضع الوسيلة ... وهكذا ، الأمر الذي من أجله أعقد هذا المبحث لتحديد مفاهيم الحركة بالدعوة الإسلامية ، وخاصة أن كل مصطلح بدأ في أن يكون علماً على علم خاص، من علوم الدعوة العديدة ، التي يحتاجها الدعاة إلى الله تعالى في العصر الحديث .

وأرى أن تحديد مفاهيم مصطلحات الدعوة له أهمية في دراسة عصر النبي " ﷺ " لتعرف القضايا ، وتحدد معاني المصطلحات، وتفهم بوجه يحقق الاستفادة الدقيقة بها ، ولتكون الأسوة برسول الله " ﷺ " حيث يريد الله تعالى .

أولاً

منهج الدعوة

تعتمد الدعوة على منهج يحدد مسائلها، ويوضح طرقها ، ويعرف وسائلها ، ويضع القواعد العلمية التي تقنع المدعو ، وتحقق الغايات المقصودة من بعثة النبي محمد " ﷺ " بكل ما فيها من خير ، وأمن ، وسعادة ، للناس أجمعين ، في الدنيا ، وفي الآخرة .

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة ، كما تحدد مهام كل جانب ، وطريقة قيامه بدوره في الدعوة إلى الله تعالى .

إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على عدة جوانب هي : —

أ — مضمون فكري هو الإسلام بما حوى من عقيدة، وشريعة ، وأخلاق .

ب — أسلوب يحتوي على الفكرة ، ويتحرك بها ، ويوصلها لمن يستقبلها من الناس ، وقد يكون الأسلوب قولاً ، أو عملاً ، أو حالة معبرة، أو غير ذلك .

ج ــ أدوات تحمل الأسلوب بمضمونه ، ومحتواه .

د ــ شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة في صورة حسنة لتصل بها إلى المدعوين، رجاء إيمانهم ، وهدايتهم .

هـ ــ أنــاس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة ، واضحة ، مقنعة ، بأسلوب مناسب ، وأدوات ملائمة ، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم .

إن هــذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله ، ويجب أن يهتم العلماء بها ، بوضع القواعد ، وإعداد الدراسات التي يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية ، والنظام العام الذي يحدد الإطار لكل هذه الجوانب ، ولكل هذه العلوم لتترابط وتتكامل .

إن مــنهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذي يجمع كافة جزئيات عملية الدعوة ، وينسق بينها ، لتتكامل ، وتحقق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح .

وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمي يدل على ما ذكرت . .

تقول اللغة : إن المنهج يعني الخطة المرسومة ، والنظام الموضوع ، والمحدد للسير عليه ، واتباعه لتحقيق هدف معين ، والوصول إلى غاية محددة [١] .

وعــلماء التفسير والمحدثون يذهبون في معنى المنهج إلى ما ذكرناه ويرون أن المنهج هو الطريق الواضح ، البين [٢] .

يقول الدكتور / أحمد بدر،وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم : إن المنهج هــو الطريق المؤدي إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل،وتحدد عملياته حتى يصــل إلى نتيجة معلومة [٣] .

---

(١) مناهج الدعوة إلى الله ... د/ جلال الشمار ص ٢٩ ، وهذا المعنى استنباط من كتب اللغة وهي تدور حول معنى منهج ... ؛ المدخل إلى علم الدعوة ... د/ محمد البيانوني ص ٤٥

(٢) انظر معنى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ في تفسير الطبري ، والرازي ، وفي كتب السنة ... قوله "ﷺ" ... تكون خلافة على منهاج النبوة) فتح الباري ج ١ ص ١٠ ، والفتح الرباني ج ٢٣ ص ١٠ .

(٣) أصول البحث ومناهجه ص ١٤ .

إن المنهج خطة كاملة ، ونظرية تامة ، تحدد الدعوة ومسارها، وطرق الإقناع بها، وأسلوب الخطاب لها، وتحقيق أهدافها في كافة جوانب الحياة .

وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلح ، أو كعلم خاص ، يشتمل على نظرية شاملة للدعوة بكل جوانبها ، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب ، أو على الوسيلة ، أو على الموضوع ، أو غير ذلك ، إلا على وجه المجاز من باب تسمية الجزء باسم الكل، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .

ومنهج الدعوة رباني كله، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبه لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة ، وغايتها ، ثابتة مفصلة .

أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل ، والأساليب ، وصفات القائم بالدعوة ، وأحوال المدعوين ، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس، والشروط مع ترك التفاصيل للاجتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة ، لأن الحركة تعني الصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس ، والمنهج أعم من ذلك .

ثانيا

المضمون الفكري للحركة

الإســـلام هو الموضوع التي تتحرك به الدعوة ، وهو المضمون الفكري الذي يحتويه الأسلوب ، ويحركه بوسائله ، وأدواته .

والإســـلام أساسه العقيدة ، ولذلك تدور حركة الدعوة مع تبليغ العقيدة ، وتثبيتها في القلوب ، وربطها بكافة أنشطة الإنسان ..

إن العقـــيدة الإسلامية تتمثل في " شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدا رسول الله) .. وهذه الشهادة تتكون من شطرين : —

الشطر الأول :وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وبه تتحدد للإنسان عبوديته لله المعبود،ليقر له بالوحدانية المطلقة،ويتجه له وحده سبحانه وتعالى بالعبادة كلها، ويحصر

التلقي منه سبحانه وتعالى .

فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحدانيته سبحانه وتعالى ، بكل اليقين والإخلاص .

وليس عبداً لله وحده من يخضع ، ويخشع ؛ ويتجه بالعبادة لغير الله تعالى ! !

وليس عبداً لله من يرتضي لنفسه مصدراً غير الله ، يأخذ منه النظام والتشريع ! !

وليس عبداً لله من يعلن العبودية ظاهراً ، وعند حاجته للإعلان فقط ، ويخالف لوازمها عند العمل والتطبيق ! !

ويؤكد الشطر الثاني : وهـو أشـهد أن محمداً رسول الله ، أن محمداً هو طريق التلقي الوحيد عن الله تعالى ، فهو رسول الله " ﷺ " الذي نزل عليه الوحي ، وبلغه للناس ، ليمدهم بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم ؛ وينظم لهم جميع أعمالهم ، وأنشطتهم .

وليس مؤمناً من لا يضع الرسول " ﷺ " في موضعه الواجب ..

ولـيس مسلماً من يهمل ما جاء به رسول الله " ﷺ " ، ويعمل بما جاء من عند غيره ! ! ..

إن العقيدة الإلهية تقوم على كلمة الشهادة بركنيها ، لأن الشهادة تشمل الإسلام كله ؛ ولذلك كان اهتمام الرسول " ﷺ " بها منذ البداية ..

يقـول سـيد قطـب : والقلب المؤمن المسلم يتمثل هذه القاعدة بشطريها : بصـدق وإخلاص ، وبذلك يكون مؤمناً ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان ، وأركان الإسلام يتحقق بهما ، فالإيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره ، وشره ، يقوم على هذه القاعدة .

وكذلك الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج يعتمد عليها .

ثم الحـدود ، والـتعازير ، والحل ، والحرمة ، والمعاملات ، والتشريعات ، والتوجـيهات الإسـلامية ، إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله " ﷺ " عن ربه .

والمجتمع المسلم هو الذي تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضياتها جميعاً ، تمثلاً علمياً ، وعملياً ، لأنه بغير تمثل تلك القاعدة ومقتضياتها فيه لا يكون المجتمع مسلماً .

ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة لتصور كامل ، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بحذافيرها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم هذه القاعدة ، كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية بعيدة عنها [1] .

يقول الله تعالى : ﴿ ۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ [2] .

ويقول سبحانه : ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ [3] .

ويقول سبحانه : ﴿ أَمۡ لَهُمۡ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمۡ يَأۡذَنۢ بِهِ ٱللَّهُۚ وَلَوۡلَا كَلِمَةُ ٱلۡفَصۡلِ لَقُضِيَ بَيۡنَهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾ [4] .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴾ [5] .

من هذه الآيات وغيرها كثير في القرآن الكريم ، تعرف وحدانية الله تعالى ، وتتحدد واجبات العبودية ، وتتأكد ضرورة حصر الأخذ والتلقي من الله تعالى .

---

(1) معالم في الطريق ص ١١٥ ، ١١٦ .

(2) سورة النحل آية (٥١) .

(3) سورة الأنعام الآيات (١٦٢ : ١٦٣) .

(4) سورة الشورى آية (٢١) .

(5) سورة الحشر آية (٧) .

لقد ركز رسول الله " ﷺ " دعوته في مكة على تثبيت العقيدة في القلوب ليعيش الناس الإسلام كله بعدما تمتلئ قلوبهم بالإيمان .

إن المجتمع المسلم ، والفرد المسلم ، يجعل الإسلام دستور الحياة على أساس إيماني ، خالص ، ويعيشه بكماله ، وتمامه ، على أساس أنه متطلب إيماني ، نابع من عقيدة " لا إله إلا الله " التي هيمنت على قلبه ، وعقله ، وعواطفه . وأصبحت هي الموجه الوحيد لسلوكه عن طواعية واختيار .

إن مقتضى شهادة التوحيد يشمل أركان الإيمان ، وسائر العبادات ، والتوجيهات التشريعية ، والأخلاقية .. وغيرها [١].

إن مقتضى هذا التوحيد يشمل الحياة كلها . ولذلك كان البدء بتعليم العقيدة ، وكان الجهد المبذول في تثبيتها ضخماً ليتلاءم مع أهميتها ، ودورها في تطبيق الإسلام كله .

إن مقتضى التوحيد يؤدي إلى إيجاد الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم في عالم الواقع ، وبذلك يتحول الكون كله عابداً لله تعالى ، ويصير الناس ربانيين ، مخلصين ، صالحين ، أعمالهم كلها لله يتحرون بها طاعة الله والإمتثال لأمره ، واجتناب نواهيه .

وأمانيهم كسب رضى الله ، ومن أجلها يتحرون مناط الرضى ، ويركزون على عوامل القربى ، ليتمتعوا برحمة الله ، ورضوانه ، وحبه .

وتجارتهم الرئيسية مع الله ، وأغلى أرباحهم ينتظرونها يوم أن يتجلى الله عليهم بعزته ، وهم في النعيم، فيرونه ، ويسعدون بلقياه ، ويعيشون في الجنات خالدين لهم فيها ما يشاءون .

إن النطق بالشهادة ، يعبر عن حقيقة اليقين ، ويؤدي إلى التمسك بلوازمها ومقتضياتها، ويوجد المؤمن السعيد ، ويحقق المجتمع العظيم ، في عالم الناس .

---

[١] أنظر : كتاب لا إله إلا الله – للأستاذ/ محمد قطب ، العقيدة أولاً – الدكتور / محمد يحيى الجمال (؟)

ولقد صنع رسول الله " ﷺ " بالشهادة مجتمعا متحرراً من سلطان الشهوة ، وسلطان الطغاة ، مجتمعاً قائماً على العدل ، وتقرير كرامة الإنسان ، مجتمعا طاهر الخلق ، زكي الروح ، يقظ الضمير ، متآلفاً ، متحاباً ، يوالي الفرد الفرد أخاه ، ويعمل للجماعة كما يعمل لنفسه .

ولقد صنع رسول الله " ﷺ " هذا المجتمع السعيد لأن أفراده أقاموا هذا الدين (أولا) في قلوبهم ، وضمائرهم ، وطبقوه (ثانيا) في حياتهم وأعمالهم ، وبعد ذلك كانوا رجالا يحبون لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم ، ويحافظون على حقوق الآخرين قبل أن ينالوا حقهم .

إن هذا المضمون هو الإسلام كله ، وهو الجزء الرئيسي في منهج الدعوة ، لأن غاية المنهج هو خدمة الإسلام، وتبليغه للناس ، وتحقيقه في عالم التطبيق والسلوك.

ثالثا

أسلوب الدعوة

الفكرة في حقيقتها معلومات عقلية لا تظهر للناس إلا في قوالب لغوية ، يلفها حامل الفكرة أو تؤلف له.ويتمكن بواسطتها من إيصال فكرته ومعارفه لغيره . كما أن المستمع والمتلقي يفهم الفكرة ، ويتصورها ويتجاوب معها من خلال الكلمات التي سمعها أو قرأها .

والقوالب اللغوية الحاملة للمضمون هي الأساليب البيانية ..

والأسلوب أحد أركان منهج الدعوة ، ويعرفه العلماء بأنه المحتوى البياني المادي يسلكه الطريق لتصل الدعوة إلى المدعوين، وقد يكون هذا المحتوي قولا منطوقا أو مكتوبا ، أو صورة ، أو عملاً وهكذا ..

وللأسلوب أهميته في إيصال المضمون للناس ، لأن الإنسان لا يستوعب الفكرة ، ولا يفهمها جيداً إلا إذا وصلت إليه بأسلوب مفهوم ، مرتب على قواعد علوم اللغة والبلاغة التي لا بد منها لدقة المعنى ، والتأثر به، ولذلك دعا الرسل

" عليهم السلام " بلسان المدعوين،ووجب تبليغ الدين على نحو بين، ومفهوم ودقيق .

إن الخطاب الديني يتجه إلى الإنسان ، ويعيش مع طاقاته العقلية والوجدانية ، والسلوكية ... ووجب لذلك أن يتنوع مع دقة المعنى ، وجمـال العبـارة ، وحلاوة الأسـلوب على نمط القرآن الكريم الذي شهد له أعداؤه ، وقالوا عنه : إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة [١] .

إن أسلوب القرآن الكريم يتضمن الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ، والجذب الروحي ، لأنه يخاطب في الإنسان شعوره ، ومشاعره ، ويتحدث مع عقله وعواطفه ، ويأخذ بالألباب ، والأرواح .

لقد كان كفار مكة وعلى رأسهم قادتهم يتأثرون بالقرآن حين سماعه، ولذلك كانوا يأتون سراً لسماع محمد" ﷺ " في الليل إعجاباً بأسلوب القرآن الكريم .

يروي ابن هشام عن ابن إسحاق أن محمداً بن شهاب الزهري قال : إن أبا سفيان بن حرب ، وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله " ﷺ " ، وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فتلاوموا .

وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حتى إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا .

---

[١] سيرة النبي " ﷺ " لابن هشام جـ١ ص٢٩٣ .

حتى إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأخنس بن شريق أخذ عصاه ، وخرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟

قال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت أشياء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .

قال الأخنس : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل، فدخل عليه بيته ، فقال : يا أبا الحكم ، ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ،أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا ، حتى إذا تجاذينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا نصدقه .

فقام عنه الأخنس وتركه (١) .

لقد كان لأسلوب القرآن الكريم التأثير العظيم في عقول من يفهمه، ووجدان من يسمعه ، حتى رأينا كفار مكة يتخفون للتمتع بالاستماع إليه ، وما صدهم عن الإيمان إلا التعصب ، والحقد ، والحسد .

إن كثيراً من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام بسماعهم القرآن الكريم ، يقول تعالى : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ (٢) وما ذلك إلا لما

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

فيه من أصالة الموضوع وبساطة المعنى ، وجمال الأسلوب ، ولما فيهم من سلامة الفطرة ، وصدق التوجه،واتباع الحق ، والتسليم بالدليل، وشأن القرآن الكريم دائماً أن يزداد به الإيمان،وتخشع القلوب، وتذرف العيون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ﴾[1] .

ويقول سبحانه : ﴿ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾ ﴾[2] .

ويصف الله تعالى تأثير القرآن الكريم في النفوس المؤمنة ، ويبين ما يصيب القلوب من خشية ولين ، وما يظهر على جلودهم من قشعريرة واضطراب ، يقول تعالى : ﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَـٰبًا مُّتَشَـٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ ﴾[3] .

وحتى يقوم الأسلوب بدوره أرسل الله الرسل " عليهم السلام " بلغة أقوامهم ليتضح المعنى ، ويعرف المطلوب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾ ﴾[4] .

والأساليب تتنوع مراعاة لحال المدعوين ، لأن من الناس طائفة ذات نفوس مشرقة ، وعقول ذكية ، وإدراك سريع، وهؤلاء تكفيهم الإشارة ، ويناسبهم الإيجاز ،

---

(١) سورة الأنفال آية (٢) .

(٢) سورة مريم آية (٥٨)

(٣) سورة الزمر آية (٢٣) .

(٤) سورة إبراهيم آية (٤) .

ويرضيهم الكلمات القليلة ذات الدلالات الموجزة ، والمعاني الدقيقة .

ومن الناس طائفة ذات عقول متوسطة ، ونفوس خاملة ، وطباع لا تتحرك إلا إذا استثيرت ، وانفعلت ، وهؤلاء يناسبهم بسط الكلام ، وتكرار العبارة ، وسوق المعنى بأكثر من طريق .

ومن الناس طائفة ذات عقل وفهم ، لكنها محبة للجدل والحوار ، كثيرة السؤال والاعتراض ، مرة لتفهم ، وأخرى لتظهر ذاتها في حوار ونقاش [١] .

وقد أدى تنوع الناس إلى تنوع الأساليب ، مع أن المعنى والمضمون واحد .

ولذلك رأى العلماء أن الأسلوب بصورة عامة يتنوع إلى ثلاث صور كلية وبعدها تأتي الأساليب الفرعية العديدة ، المناسبة للمدعوين ، تعبيراً عن إحدى هذه الصور الكلية .

والصور الكلية للأسلوب ثلاثة ، أمر الله بها في قوله تعالى : ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [٢] ، وبيانها فيما يلي : —

الصورة الأولى : الحكمة : ــ

وهي مشتقة من الإحكام والإتقان ، ومرجعها إلى العلم الدقيق ، والحقيقة المجردة ، الخالية من الإطناب ، والتكرار .

وتطلق الحكمة على مسميات عديدة كالعقل ، والفهم ، والنبوة ، والحديث ، وعلى بعض أساليب الدعوة .

والحكمة في أساليب الدعوة تعني اللفظ المحكم الدقيق الدال على معناه المقصود بلفظ موجز ، وعبارة جميلة .. يقول أبو السعود : (الحكمة هي الدليل الموضح

---

(١) انظر : تفسير الرازي ج ٥ ص ٥١٥ بتصرف .

(٢) سورة النحل آية (١٢٥) .

للحق،المزيل للشبهة، المتجه إلى العقل مباشرة، من غير إثارة وجدان، أو تهييج انفعال)[١] .

ويقول الإمام النووى : الحكمة عبارة عن العلم المتصف بالإحكام ، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى المصحوب بنفاذ البصيرة ، وتهذيب النفس ، وتحقيق الحق، والعمل به، والصد عن اتباع الهوى والباطل ، والحكيم من له ذلك ، قـــال أبو بكر بن دريد : كل كلمة وعظتك،وزجرتك،أو دعتك إلى مكرمة،أو نهتك عن قبيح فهي حكمة، وحكم [٢] .

ويقول ابن القيم: الحكمة جامع مانع لأنه يشمل الإتقان، والإحكام للأقوال، وتنزيل جميع الأمور فى مواضعها المناسبة ، وفي أوقاتها الملائمة للإفادة بها [٣] .

الصورة الثانية : الموعظة الحسنة :

والوعظ يعني النصح ، والإرشاد ، ومخاطبة الوجدان ، وإثارة العواطف ، من خلال التنوع البياني الذي يعرض المعنى بأساليب مختلفة ، مع التذكير بالعواقب ، والترغيب في الفعل ، والتخويف من الترك .

والوعظ يشمل الوصية الخيرة ، والأمر بالحسنى ..

وعلى الجملة فإن الموعظة عبارة عن مجموعة من العبر النافعة،والخطابات المقنعة ، والإرشادات المعبرة .

وإنما وصفت الموعظة بأنها حسنة للإشارة إلى أن الموعظة تعني النصح الخير ، وتدور حول فعل المعروف ، وترك المنكر ، وتحاول إقناع العقل ، وإرضاء العاطفة ، وإن لا لم تكن حسنة .

---

[١] تفسير أبي السعود جـ ٢ ص ٢٠٠ .

[٢] تربية النبي لأصحابه ص ٣١٩ .

[٣] نفس المرجع السابق ص ٣٢٠ .

الصورة الثالثة : المجادلة بالتي هي أحسن :

المجادلة أدلة كلامية يوردها الداعي ليلزم الخصم ، ويفحمه ، ويقنعه بوجهة الداعي ، واتصفت المجادلة بالحسنى إبعادا لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحية الذي يعرف بالمجادلة المنطقية ، والمكابرة ، والمعاندة ، بأنها ليست لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، والتعالي وإثبات الذات ، ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دائما والوقوف على الحق باستمرار ، وإقناع الخصم بالحسنى .

يقول صاحب مختار الصحاح : (جادل مجادلة جدالا إذا خاصم بما يشغل عن ظهور الحق ، ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرع في مقابلة الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود حسن إن كان للوقوف على الحق وإلا فمذموم)[1] .

ويقول الرازي : الجدل المذموم محمول على الجدل في تقرير الباطل ، وطلب المال ، والجاه ، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ، ودعوة الخلق إلى سبيل الله ، والذب عن دين الله تعالى[2] .

وهكذا قيد الله الجدل بالتي هي أحسن حتى يكون هادفا ، ومقنعا ، ومناقشا لشبه المدعوين .

والفرق بين الجدل ، والموعظة ، أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين ، والخصم فيها ليس صامتا ، وإنما يناقش ، ويرد ، عما رسخ في نفسه من أوهام وشبه .

بخلاف الموعظة ، فإن المدعو بها يستمع إليها ، ويستثار بها ، ويتفاعل معها بلا ضرورة المنازعة الكلامية ..

وقد أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة ، والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسنى لتعم الفائدة سائر الخلائق المختلفين ، مكانا ، وزمانا ، وفكرا ، وطبيعة .

---

(١) مختار الصحاح مادة (جدل) .

(٢) مفاتيح الغيب ج ٢ ص ٢٥٢ .

وقد بين الرازي تنوع الناس ، وذكر أنهم بالنسبة لكمال الطبع ، طرفان وواسطة

فالطائفة الأولي التي تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال .

والطائفة الثالثة المجادلة هي طرف النقصان .

والطائفة الثانية صاحبة الموعظة هي الواسطة وهم الذين لم يبلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين، كما لم يبلغوا في النقصان والرذالة إلي حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية، ويقول :إن معني الاية أدع الأقوياء الكاملين إلي الدين بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية . وعوام الخلق بالموعظة الحسنة، وهي الدلائل اليقينية الاقناعية ، والتكلم مع المشاغبين بالجدل على الطريق الأحسن الأكمل [١] .

وتقسيم الناس إلي هذه الطوائف الثلاث تقسيم يتفق مع الواقع البشري ، لأن من الناس من يريد التعمق ويكره السطحية ، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقي القائم على الفكر والتدبر، ومنهم من يستهويه موضوع مثير، وفطرة طيبة، فيقف أمام اللفظة الجميلة، والمثل النادر ، والقصة الشيقة ، والتكرار المؤكد ؛ ويسهر لمنظر بائس ورؤية مسكين ، ومنهم من يهوي اللجج ،ويعشقه، وينازع، ويجادل .

لكن ليس معني هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخري تماما، وتتمايز تمايزاً كلياً، إذ من الناس من يجمع في طبعه أكثر من صفة ؛ ولذا كان تنوع الأسلوب ضرورة لمخاطبة كافة الناس ، ولإرضاء كافة عناصر الإنسان .

جاء في الظلال : والدعوة بالحكمة تراعي أحوال المخاطبين وظروفهم ، والقدر المختار لهم في كل مرة حتي لا يثقل عليه ، ولا يشق عليهم بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها ؛ والطريقة التي يخاطبهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها .

---

[١] مفاتيح الغيب ج ٥ ص ٥٣٦ ؛ ٥٣٧ .

والدعوة بالموعظة الحسنة تدخل إلى القلوب برفق ، وتعمق المشاعر بلطف ، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا تفضح الأخطاء التي تقع عن جهل . أو حسن نية ، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب النافرة ، ويأتي بخير أكثر من الزجر ، والتأنيب ، والتوبيخ .

والدعوة بالجدل بالتي هي أحسن تكون بلا تحامل ، على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح ، حتى يطمئن إلى الداعي ، ويشعر أن ليس هدفه الغلبة في الجدل ، والنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق حتى لا تشعر بالهزيمة ، والجدل بالحسنى هو الذي يطامن من هذه الكبرياء الحساسة [١] .

ويلاحظ :

أن كلاً من صور الأسلوب الثلاث لا تنحصر في شكل بياني محدد،لأن الصورة الواحدة تظهر في صور فرعيه عديده ، فمن الحكمة الإيجاز ، والإشارة ، والتأكيد المفرد .

ومن الموعظة الاستفهام،وضرب المثال،والتشبيه وإيراد القصص،والتأثير الصوتي

ومن الجدل ، المحادثة ، وحلقات النقاش ، وعقد الاجتماعات ، والمناظرات .

ولذلك أعتبرت هذه الصور الثلاث أصولاً للأساليب تتفرع منها صور عديدة قابلة للزيادة كلما تقدم الناس ، وتطورت العلوم ، وتنوعت الحضارات .

وهكذا ..

يكون الأسلوب ، ويكون دوره مع البلاغ والدعوة ..

* * *

---

(١) في ظلال القرآن ج ٤ ص ٢٢٠٢ .

رابعا

وسائل الدعوة

وسائل الدعوة عديدة ، ووظيفتها حمل الأسلوب بمضمونه ، وتوصيله إلى المدعوين .

ويخلط كثير من الناس بين الوسيلة ، والأسلوب، ويرون المقالة ، والخطبة ، والدرس وسائل للدعوة ، مع أنها تشتمل على أساليب تنقل الفكرة إلى المستمعين بواسطة الاتصال الشفهي الذي هو الوسيلة .

ويرجع سبب الخلط إلى تداخل النظرة إلى هذه الموضوعات ، لأنها تكون وسائل أو أساليب باعتبار الجانب المنظور إليه .

إن الخطابة ، والكتابة وغيرها قد تكون وسائل للدعوة ، إذا نظر إليها من ناحية هيكلها العام ، وشكلها الفني ، وتكون أساليب إذا نظر إلى الكلمات المنقولة من خلالهما ، المتضمنة للمعاني المقصودة .

إن الأسلوب الواحد تنقله الوسائل العديدة ، كما أن الأسلوب يوجد في عالم الواقع بعد إعداده ، بينما الوسيلة توجد قبل الإعداد أو بعده ، وتظهر أهميتها وقت إستخدامها، فالخطابة وسيلة ، والخطبة أسلوب .. وهكذا .

إن القرآن الكريم أسلوب للدعوة ، ينقل إلي الناس بوسائل عديدة مثل المشافهة ، والكتابة ، وآلة تكبير الصوت ، وهكذا .

وأيضاً فإن القرآن الكريم وهو أسلوب للدعوة موجود قبل عملية توصيله للناس ، وقد تتعطل الوسيلة، وتنتهي ولا يتعطل القرآن الكريم ، لأنه محفوظ بأمر الله تعالى .

ولهذا كانت أهمية التمييز بين الوسيلة والأسلوب ..

وأهم أساليب الدعوة ما يلي : ـــ

أولاً : وسائل المواجهة (المشافهة) :

يعتمد هذا اللون من الاتصال ، على المواجهة المباشرة بين الداعي والمدعو ، حيث تنقل الرسالة ، بواسطة هذه الوسيلة .

والاتصال المواجهي أقدم أنواع الوسائل ، وأكثرها تأثيراً ، وهو يشمل الاتصال الذي يتم بين فرد وفرد ، أو بين فرد وجماعة ، أو بين جماعة وجماعة ، مادام كل منها يتم بصور شفوية مباشرة .

ومن صور الاتصال المواجهي ما يلي :ـــ

(أ) **المحادثة البسيطة** : وتكون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة سابقة حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً أو مجيباً ، كأفراد الأسرة ، والجيران ، وزملاء الدراسة والعمل .. وهكذا .

(ب) **المناقشة** : وهي فن من فنون التربية والدعوة ، وتتم مشافهة بين عدد من الأشخاص ، حيث يعرض كل منهم رأيه من الموضوع محل النقاش ، وتختلف المناقشة عن المناظرة لأن المتناقشين يسيرون في اتجاه واحد ، بينما المتناظرون يسيرون في خطوط متعارضة ، كما أن المناقشة تتم أحياناً بلا إعداد ، بينما المناظرة تقوم على الإعداد دائما .

(ج) **الخطبة** : بكافة أنواعها ، لها دورها في الحضارات القديمة وما زال لها هذا الدور ، وتتميز الخطبة بتأثيرها الواضح لأنها تخاطب العواطف والوجدان وتدور حول موضوعها ، وتقدم العديد من البراهين ، في صور بيانية مؤثرة .

والخطبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب ، ولذلك وجب على من يقوم بالخطبة أن يهتم بجوانبها الفنية ، وقواعدها العلمية لكي يحقق الهدف الذي يرجوه من وراء عمله .

(د) **الندوة** : وتقوم على الاتصال المباشر إلا أنها تختلف عن الخطبة بأن الاتصال فيها يتم بمشاركة عدد من الاتجاهات تدور حول موضوع واحد .

وتحتاج الندوة إلي جمهور مثقف متمكن من المتابعة ، والمشاركة في الحوار؛ لأن بعـــض الندوات يفتح فيها للجمهور باب التعليق ليساهموا بآرائهم مع المتحدثين الأساسيين في الندوة .

(هـــ) **المحاضرة** : وهي لون من الاتصال المواجهي يعتمد علي التحليل العلمي ، والبراهين القوية ، وهي وسط بين الخطبة والندوة لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد ، والمستمع جمهور عريض ، وتأخذ من الندوة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة .

(و) **الدرس الديني** : وهو لون من الاتصال الديني يتم في المساجد غالباً ، وهـــو اتصال يتسع الموضوع فيه ، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال والمناقشة ، وله أثره الكبير في نشر الدين ، والتعريف بقضاياه .

٢ ـ الوسائل المكتوبة والمطبوعة : ـ

استعمل الإنسان هذا النوع قديماً ولكن بصورة بدائية ، فحينما اخترعت الكـــتابة كان الإنسان يكتب علي الجلد وورق الشجر ، وورق البردي، وما شاكل ذلـــك ، وبهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القديم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار ، وأوصلها إلي غيره ، أو تركها للأجيال المتعاقبة من بعده .

وهذه الوسيلة هي التي عرفت الناس حديثاً بالحضارات القديمة، وما وقع لها من حروب وأحداث ، وما كان فيها من ممالك ودول .

وفي عام ١٤٥٤م تمكن الإنسان من اختراع المطبعة ، الأمر الذي ساعد على إعطاء صور عديدة للرسالة الواحدة ، وفي أشكال متعددة ، إذ يمكن إبراز الرسالة في شكل كتاب ، أو في نشرة ، أو في صحيفة ، أو في خريطة ، وهكذا .

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلي : ـــ

(أ) تقـــوم علي الرأي المدروس، لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل ، ويحاول أن يصوغها في قالب بياني مشوق، دال علي معناه، بيسر وسهولة .

(ب) تسمح للقارئ بتكرار قراءتها ، والتحكم في ظروف التعرض لها مكانيا وزمانيا ، وبذلك يتمكن من فهمها ، واستيعاب المراد منها ، ولهذا نادى بعض الباحثين بأن تقدم الرسائل المعقدة في صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها .

(ج) تتمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلى الجماهير المتخصصة والصغيرة الحجم لقلة تكلفتها إذا قورنت بالوسائل الأخرى .

(د) تساعد الرسالة المطبوعة على الاقناع ، لأنها لا تخترق السمع ، ولا تقتحم العين ، وإنما يقدم المتلقي عليها مختاراً راضيا مما يجعله جزءاً من موضوعها يتسحل ، ويفسر ، ويرضى أو يرفض ، وتلك هي مراحل الاقتناع .

(هـ) تؤدى الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق ، المتأني ، لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عدداً من المرات ، ويمكنه أن يجزئ قراءتها ، وله أن يتأكد من صدق ما جاء فيها بالبحث والتحري والتأمل .

وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلى قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على اتساع النشر ، وضخامة التوزيع مما جعلها حقاً وسيلة للاتصال الجماهيري .

٢ ـ الوسائل المسموعة :

ويقصد بها الوسائل التي توصل الكلمة إلى الجماهير العريضة عبر المسافات البعيدة وهي الراديو ، تلك الوسيلة العجيبة التي تحمل الكلمة المذاعة بمختلف أشكالها وفنونها إلى أى مكان فى العالم في ثوان قليلة .

وتتميز هذه الوسيلة بما يلي : ـــ

(ا) يتميز الراديو بقدرته على اختراق أي مكان فى الكرة الأرضية فى يسر وحرية بلا عائق أو حاجز .

(ب) يتميز الراديو بقدرته على مخاطبة كافة الفئات مهما اختلفت ثقافتهم وأعمارهم وأجناسهم .

(ج) لا يحتاج الراديو إلى التفرغ التام من المتلقى لأن من الممكن الاستماع إلى الراديو خلال الاشتغال بعمل آخر ، يقول ايريك بارنو : (إن الراديو هو الوسيلة الوحيدة التي لا تستحوذ على العين ، أى أنه يمكن أن يخدم جمهوراً نشطاً أثناء تناوله الطعـام، وقـيامه بالعمل المنزلي ، وأثناء نهوضه من النوم ، واستحمامه وأثناء أداء متطلباته وهكذا[1] .

(د) تتميز الرسالة المرسلة بالراديو باشتمالها على المؤثرات الصوتية، والحوار البناء ، وهذا يجذب المستمع ويربطه بالرسالة الإعلامية .

(هـــ) يتمـيز الــراديو بنقل رسالته فور وقوعها ، ولذلك فهو الوسيلة الأساسية فى وقت الأزمات ، وحين وقوع حروب وصراعات .

(و) التكرار فى الرسالة الإعلامية بواسطة الراديو تكون مقبولة غير مملة لأنها تتخذ صوراً متعددة ، كل منها له جاذبيته الخاصة للمستمع .

وقـد أدى الـتطور الحضـاري إلي قيام الراديو بالترفيه بجانب قيامه بالخبر والتثقيف .

٤ ـ الوسائل المسموعة المرئية : ـ

وتجمع هذه الوسيلة أهم العناصر المؤثرة فى المستمع وهي الصوت، والحركة ، والصـورة ، وبذلك تتمكن من جذب أكثر من حاسة لدى الجمهور ، ولولا ما في هـذه الوسـيلة من صور غير مشروعة ، وبرامج مثيرة للشهوة ، لقلنا أنها أعظم وسيلة إعلامية معاصرة ، وأكثرها فائدة للدعوة إلى الله تعالى .

والأمـل معلـق بالمسلمين أن يستفيدوا بكافة الوسائل ، ووضعها فى الأطر الشرعية ، لتكون طريقاً لإيصال الإسلام كما نزل من عند الله إلى كل مكان فى العالم أداء للأمانة، وتحقيقاً للذات ، وتأسيساً لحضارتهم الذى يعمل الإسلام لتحقيقها.

---

[1] الأسس العلمية لنظريات الإعلام ص ٣٦٤ .

وليس من المقبول فى عالم اليوم أن يعيش المسلمون — وهم مسلمون — تابعين لغيرهم مقلدين ، وهم يملكون الأصالة ، والحياة .

إن الرؤية تدفع المشاهد إلي التنوع ، وتقدم الحادث نابضا بالحركة والحيوية .

* * *

خامسا

الداعي والمدعو

الداعي والمدعو هما طرفان فى العملية الدعوية ، لأن الداعي هو حامل الدعوة ومبلغها ، والمدعوون هم غاية الدعوة ، والمقصودون بعملية الدعوة كلها ، وعلى الداعي أن يتصف ببعض المزايا التي تمكنه من القيام بواجباته ، ومنها أن يتعامل مع المدعوين بما يناسب واقعهم ، وأحوالهم ، ويؤدي إلي إقتناعهم بما يعرض لهم ، وهذه تحتاج إلي دراسات عديدة ، سوف نذكر بعضها بإذن الله تعالي حين نستنبط أهم ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المكية .

والرسول " ﷺ " هو إمام الدعاة ، ورائدهم ، وهو أسوة الدعاة على الزمن كله [1] .

إن تحديد المفاهيم المتصلة بحركة الدعوة النبوية عمل أرجو من ورائه متابعة حركة النبي " ﷺ " بالدعوة إلي الله تعالي ، لنستفيد بها ، ونضع كل جانب فى موضعه . ونحن نتحرك بالدعوة اقتداء برسول الله " ﷺ " .

* * *

---

[1] أنظر : الإعلام فى القرآن الكريم ص ٢١٤ وما بعدها .

المبحث الثاني

حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة

خلال المرحلة السرية

في مرحلة النبوة التي استمرت ستة أشهر ، ألف النبي " ﷺ " ملاقاة جبريل " عليه السلام " ، وهيأت نفسه للمحافظة على ما يوحي إليه ، والقيام بما يكلف به ، والقدرة على تبليغه ، والدعوة إليه .

وهنا نزل عليه جبريل " عليه السلام " بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ ﴾[١] حيث كلفه بالنهوض ، وبذل الجهد ، والإنذار ، والدعوة ، والقيام بواجبات الرسالة ، وبذلك بدأ النبي " ﷺ " أولى مراحل الدعوة التي استمرت حتى نزل قول الله تعالى : ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ ﴾[٢] وبلغت مدتها عامين ونصفا لتبدأ مرحلة الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بداية الوحي [٣] وقد عرفت هذه المرحلة بـــ " مرحلة الدعوة السرية " .

ومفهوم السرية التي وصفت بها الدعوة لا يعني الكتمان، لأن الدعوة بطبيعتها تعني تبليغ الغير أمرا ليتبعه ؛ مع ترغيبه في الاتباع ، وتخويفه من الترك ، كما تفيد الدعوة الطلب المتكرر ، والنصح المؤكد، وإظهار الخير، والمصلحة للمدعوين، بأساليب متعددة ، وبوسائل مختلفة .

إن أبا بكر " رضي الله عنه " من السابقين الأول إلى الإسلام ، ومع ذلك سمع قبل إسلامه من قريش أعداء الإسلام حديثهم عن الدعوة ؛ مما يؤكد أن الدعوة لم تكن سرا مكتوما، يروى ابن كثير أن أبا بكر الصديق" رضي الله عنه " لقي رسول الله"ﷺ " فقـــال :

---

[١] سورة المدثر آية (١ ـ ٢) .

[٢] سورة الحجر آية (٩٤) .

[٣] السيرة النبوية ج١ ص ٢٦٢ ، وبذلك تكون فترة تهيئة النبي للرسالة ستة أشهر .

أحق ما يقول قريش يا محمد ؟ من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا، وتكفيرك آباءنا ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : بلي إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلي الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلي الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره، والموالاة علي طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يقر ، ولم ينكر ، فأسلم وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق (١)

ولهذا فإن وصف الدعوة بالسرية خلال هذه المرحلة كان للسرية النسبية التي ظهرت خلال الحركة بالدعوة .

ومن ملامح الحركة بالدعوة خلال هذه المرحلة ما يلي : ـــ

أولا : اقتصار الدعوة على العقيدة :

دعا النبي " ﷺ " إلي الإيمان بالله تعالي ، والإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بهذه الأركان لا يتم إلا بترك الشرك ، ونبذ عبادة الأصنام .

يقول " ﷺ " لعلي بن أبي طالب " ﷺ": (**أدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، وإلي عبادته ، وأن تكفر باللات والعزي**) .

ويقول لأبي بكر " ﷺ " : (**إني رسول الله ، ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وإني أدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، وإلي ترك عبادة غيره ..**) .

وكان " ﷺ " يخرج متخفياً لعبادة الله مع علي في شعاب مكة ، لا يعلم أحد عنهما شيئا إلا الله تعالي ، وذات يوم عثر عليهما أبو طالب ، وهما يصليان .

فقال أبو طالب لرسول الله" ﷺ " : يا ابن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أبينا إبراهيـــــم "ﷺ" بعثني الله به رسولاً إلي العباد ، وأنت أي عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلي الهدي ، وأحق من أجابني إليه، وأعانني عليه.

---

(١) البداية والنهاية ج ٦ ص ٢٦ .

فقال أبو طالب : أى ابن أخي ، إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشئ تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلي : أى بني ، ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟

فقال علي " رضي الله عنه " : يا أبت ، آمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، وصليت معه لله ، واتبعته .

فذكروا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلي خير فالزمه [١] .

فنجده " ﷺ " في حواره مع عمه يورد الكلمات الموجزة ، الجامعة للمعاني الكثيرة ، مع التركيز علي القضايا المسلمة عند العرب ، والانطلاق منها إلي ضرورة الإيمان بالله تعالي .

فالعرب جميعاً يعرفون الله تعالي،ويسلمون له بالقدرة،ومع ذلك يشركون معه في العبادة آلهة أخرى ... ويعتزون بأبيهم إبراهيم وإسماعيل"عليهما السلام" .. ولذلك وضح النبي"ﷺ"لعمه أنه يدعو لدين الله،ودين إبراهيم"عليه السلام" ودين الأنبياء السابقين .

ولم يغب عن رسول الله " ﷺ " مخاطبة عمه بالحسني فيقول له : **أى عم ، أنت أحق من بذلت له النصيحة ، ورجوت له الهداية .**

ومع أن أبا طالب لم يستجب للدعوة إلا أنه ظل أن محمداً " ﷺ " على حمايته . ولم يعترض علي إيمان ابنه علي " رضي الله عنه " .

وكان مجرد إعلان الصحابي (أى صحابي) الإيمان بدعوة رسول الله " ﷺ " بداية لتبدل حياته كلها ، ليظهر جديداً في كل شئ ، ويتغير تغيراً تاماً . وتلك إحدي العجائب التي صنعها محمد " ﷺ " في الذين آمنوا بدعوته .

يقول سيد قطب : ولقد كنت ، وأنا أراجع سيرة الجماعة المسلمة الأولي أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه ، وحضوره في قلوبهم وفي حياتهم ،

---

[١] السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٧ .

ولا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟

كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة في قلوبهم وفي حياتهم على هذا النحو العجيب ؟

كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟

كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاج والمسالك والاتجاهات والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا، وتكون معهم أينما كانوا ، وكيفما كانوا ؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة ، وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم ، ولكني لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟

عدت إلى القرآن أقرؤه على ضوء موضوعه الأصيل، وعرفت منهج القرآن في تجلية حقيقة الألوهية، وتعبيد الناس لها وحدها، بعد معرفتها ، وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله .

أدركت سر الصناعة ، عرفت أين صنع ذلك الجيل المتفرد في تاريخ البشرية وكيف صنع ، إنهم صناعة قرآنية ، صنعوا في هذا المنهج الرباني على يدي رسول الله " ﷺ " الذي غرس في نفوسهم معرفة أن الله هو الأول، والآخر ، والله هو الظاهر والباطن ، والله هو الخالق والرازق ، والله هو المسيطر والمدبر ، والله هو الرافع والخافض ، والله هو المعز والمذل ، والله هو القابض والباسط ، والله هو المحيي والمميت والله هو النافع والضار ، والله هو المنتقم الجبار ، والله هو الغفور الودود ، والله هو العلي الكبير ، والله هو القريب المجيب، والله هو الذي يحول بين المرء وقلبه ، والله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، والله هو العليم بذات الصدور ، وهو معهم أينما كانوا ، وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهو الذي ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، وما لهم من دونه من وال ، وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً .

وهكذا ...

وهكذا ...

جعلت هذه الحقيقة تملأ علي الناس حياتهم ، وتواجههم في كل درب ، وتتراءى لهم في كل صوب ، وتأخذ علي أنفسهم أقطارها، وتعايشهم، وتساكنهم بالليل والنهار، وبالغدو، والأسحار،وحين يستغشون ثيابهم ، وحين تهجس سرائرهـــم ، وحين يستخفون من الناس ، بل حين يستخفون من نفوسهم التي بين جنوبهم [١] : حتى خرجت منهم أناساً يذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم ، ويتيقنون بأن الدار الآخرة هي الحياة الصحيحة ، ويعيشون العبادة والعبودية في خواطر النفس ، وهمسات الروح ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

ولا عجب بعد أن كانوا هكذا فلقد تتلمذوا في مدرسة النبوة ، وتكونوا بمنهج الله ، وكانوا الجماعة الإسلامية الأولى .

ثانيا : قيام الدعوة على الاتصال الفردي [٢] : ـــ

قام الرسول " ﷺ " بتوجيه الدعوة إلي الناس بصورة فردية ، فلقد ثبت أنه " ﷺ " دعا السابقين إلي الإسلام كلا علي حدة ، وأحياناً كانت الدعوة تبدأ بسؤال موجه من الصحابي إلي رسول الله " ﷺ "،وأحياناً آمن البعض اقتناعاً بما كان يسمع ، ويري

وخديجة " رضي الله عنها " أول من دخلت في الإسلام ، آمنت بالرسالة قبل أن يطلب الرسول " ﷺ " منها أن تؤمن ، لأنها كانت تبشر بالرسالة ، وتنتظرها ،

---

(١) مقومات التصور الإسلامي ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) يســمي علماء الإعلام الاتصال الفردي بالاتصال الشخصي ويذكرون أنه الاتصال المباشر الذي يتم مواجهة بين فردين او بين فرد وجماعة صغيرة بين أعضائها علاقة ما .

وهو يتم عادة بطريقة تلقائية كالتحية والرد عليها ، وإجابة سؤال ، والتحادث حول أمر ما .

ويغلب هذا الاتصال المواجهة ، والاحتكاك المباشر ، ورد الفعل فيه يكون واضحاً .

ويتميـــز هذا النوع بأنه يتم في اتجاهين بصورة مباشرة مما يؤدي إلي فهم كل طرف للآخر وهذا يساعد علي الفهم ، وسرعة القضاء علي المعوقات التي تظهر أثناء العملية .

فلما جاء جبريل بالوحي صدقت بما كانت تتوقعه ، وأخذت تعبد الله كما يتعبد رسول الله " ﷺ " .. فلما تعلم الرسول الوضوء والصلاة وعاد لخديجة . توضأت كوضوئه . وصلت بصلاته ، فلما رآهما علي بن أبي طالب " ﷺ " يصليان سألهما علي : ما هذا ؟

قال له رسول الله " ﷺ " : هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسله . فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له ؛ وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فلست بقاض أمراً حتى أحدث به أبا طالب .

فكره رسول الله " ﷺ " أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له : يا علي . إذ لم تسلم فاكتم ؛ فمكث علي تلك الليلة ؛ ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام ، فأصبح غادياً إلى رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت على يا محمد ؟

فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، وتكفر باللات والعزى . وتبرأ من الأنداد ، ففعل علي وأسلم ، ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب ، وكتم علي إسلامه ولم يظهره [١] .

وكان سن علي " ﷺ " يوم أسلم عشر سنوات ، وكان من فضل الله على علي " ﷺ " في إسلامه أن جعله سبحانه وتعالى ينشأ في حجر رسول الله " ﷺ " قبل الإسلام ، يكفله " ﷺ " ، ويربيه كأنه ابنه .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله " ﷺ " وصلى بصلاة رسول الله " ﷺ " وأخذ يحفظ القرآن معه .

وأراد الله بأبي بكر خيراً، فسمع عن دعوة محمد " ﷺ " فجاء إليه مسرعاً يسأله قائلاً : أحق ما تقول قريش يا محمد من تركك آلهتنا، وتسفيهك عقولنا ، وتكفيرك آباءنا ؟

---

[١] أسد الغابة ج ١ ص ٤٨ .

فقال رسول الله " ﷺ " : بلي ؛ إني رسول الله ونبيه بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلي الله بالحق، فو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلي الله وحده لا شريك له، ولا تعبد غيره، والموالاة علي طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فأسلم ، وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق [١] .

وهكذا أسلم أبو بكر ، وعليّ ، وزيد " رضي الله عنهم " وهم أول من دخل في الإسلام بعد خديجة ، والعلماء مختلفون في أسبق الثلاثة إلي الإسلام ، فمنهم من قال : أولهم أبو بكر ، ومنهم من قال : أولهم علي ، ومنهم من قال : أولهم زيد بن حارثة .

والأولي بالصحة أن أولهم علي بن أبي طالب ، لقول النبي " ﷺ " لفاطمة، أما ترضين أني زوجتك أقدم أمتي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حلما [٢] .

يجمع أبو حنيفة الآراء المذكورة ، ويؤكد صحتها جميعاً ، ويري أن أول من أسلم من النساء خديجة ، وأول من آمن من العبيد الأرقاء زيد بن حارثة ، وأول من آمن من الصبيان عليّ بن أبي طالب، وأول من آمن من الرجال الأحرار الكبار أبو بكر " رضي الله عنهم جميعاً " [٣] .

ويروي ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن الحنفية أن أبا بكر لم يكن أول المسلمين إسلاماً ، بل أفضلهم ، وأكثرهم فائدة للدعوة إلي الإسلام [٤] .

وعلي الجملة فإن إسلام هؤلاء السابقين إلي الإسلام تم بالدعوة الفردية ..

ثالثا : تخير المدعوين : ■

لم يكن التوجه إلي الأفراد يتم مع جميع الأفراد بصورة مطلقة ، وإنما كان " ﷺ " يتخير من يدعوهم ، وهم المتصفون بالهدوء ، وقلة الحديث ،

---

[١] المرجع السابق ج ٦ ص ٤٦ .

[٢] بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٣ .

[٣] البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

[٤] المرجع السابق ج٣ ص ٣١ .

والمسامح . وحب الخير ، لأن هؤلاء الأشخاص إن أسلموا لن يجاهروا بإسلامهم ، ولن يظهروه لصناديد مكة ، وشيوخها ، ولن يتحدثوا عنه إلا مع أفراد على نمطهم ، وصفاتهم .. وإن لم يسلموا ، فالصمت ديدنهم ، ولن يحاولوا إيذاء محمد " ﷺ " بالحديث عنه ، والتكلم فيما دعاهم إليه .. ولذلك ترى المسلمين الأول كانوا من أمثال أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أما عمر بن الخطاب ، وخالد بن الوليد ، وعمرو بن العاص فقد تم عرض الإسلام عليهم في مرحلة تالية .

وهكذا بقيت الدعوة منحصرة بين أفراد معينين ، ولم يصل إلى أهل مكة إلا معارف قليلة عن الدعوة لا تحرك فيهم ساكناً ، ولا تثير غضبهم ، ولا تهيج مشاعرهم

إن هذا التخير والاصطفاء للمدعوين إجراء حكيم قام به النبي " ﷺ " لضمان بداية سليمة وموفقة للدعوة ، حيث كان " ﷺ " يركز على المعرفة الشخصية" لقابليات " الأفراد من جهة ، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخرى ، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها ، ممن لا يصلحون طليعة قيادية يؤسس عليها صرح الدعوة في هذه المرحلة [1] .

رابعاً : تجنب ضلالات القوم : ـ

أخذ النبي " ﷺ " يدعو ، ويعلم أصحابه العقيدة المطلوبة منهم ، مع تجنب الحديث عن آلهة القوم وضلالهم مع الأصنام، فلم يذم الآلهة ، ولم ينقد عبدتها ، وإنما اكتفى بعرض أركان العقيدة ، وبين مدى أحقيتها في ذاتها ، وأخذ يظهر للناس ما في أنفسهم ، وفي الكون من دلالات على وحدانية الله، واستحقاقه وحده للعبادة .

والآيات التي نزلت في هذه المرحلة شاهدة على مدى ابتعاد النبي " ﷺ " عن نقد ضلالات القوم ، والاكتفاء بتربية المسلمين ، وتقوية إيمانهم ، ومن هذه الآيات أوائل سورة المزمل ، وأوائل سورة القلم ، وهما آيات تحدد منهج التربية الإيمانية ،

---

(1) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ .

وبناء عقيدة قوية متصلة بالله تعالى عن طريق قيام الليل ، وقراءة القرآن ، حيث يتعود المسلم بالقرآن، وقيام الليل على يقظة القلب ، وقوة التأمل ، وتربية الإرادة ، وبذلك يتحول العبد إلى طاقة قوية ، تستفيد مما في الليل من فوائد ، وتستعد لما في النهار من عمل ، كل ذلك في عبودية ذاكرة ، وقلب مخبت منيب .

وتؤكد الآيات عظمة رسول الله " ﷺ " وهي تتحدث عن كمال عقله وكرم خلقه وعلو شأنه في الدنيا وفي الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ ﴾[1] .

خامسا : دعوة الأقربين الذين يعاشرهم " ﷺ " :

بدأ الرسول " ﷺ " يعرض الإسلام على الناس المختارين، وكان في تخيره لمن يدعوهم ، يكتفي بالأقرب إليه الذي يعايشه ، ويعاشره. فدعا علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة ، وأخذ يطبق تعاليم الوحي مع هؤلاء الأقربين تاركا الآخرين لوقت يقدره الله تعالى ... يقول يحيى بن عفيف : جئت زمن الجاهلية إلى مكة ، فنزلت على العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس، وحلقت في السماء ، وأنا أنظر إلى الكعبة ، أقبل شاب فرمي ببصره إلى السماء ، ثم استقبل الكعبة، فقام مستقبلها، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما . فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة، فخر الشاب ساجدا فسجدا معه .

فقلت يا عباس : أمر عظيم !

فقال العباس : أتدري من هذا ؟

فقلت : لا .

---

[1] سورة القلم الآيات (١ ـــ ٥) .

فقال العباس : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي .

قال : أتدري من الغلام ؟

قلت : لا .

قال : هذا علي ابن أبي طالب " ﷺ " .

قال : أتدري من هذه المرأة التي خلفهما ؟

قلت : لا .

قال : هذه خديجة بن خويلد زوجة ابن أخي ، وقد حدثني محمد أن ربك رب السماء والأرض، أمره بهذا الذي تراهم عليه ، وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة [١] .

وبقيت الدعوة منحصرة في هذا العدد القليل حتى أسلم أبو بكر " ﷺ " فأظهر الإسلام، ودعا أصحابه إليه ملتزماً بأهمية التخير في الدعوة كما نعلم من رسول " ﷺ "

سادساً : إسلام الضعفاء فقط :

كان السابقون إلي الإسلام من الضعفاء، الفقراء الذين لا جاه لهم في مكة ، ولا سطوة ، وهذا أمر جعل أشراف مكة لا يهتمون بالإسلام أول أمره ، استهانة بقلة أتباعه ، وهوانهم بين الناس ، يروى البخاري بسنده عن همام قال : سمعت عمارا يقول : رأيت رسول الله " ﷺ " وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان، وأبو بكر [٢] .

والعبيد هم : زيد بن حارثة ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، وأبو فكيهة مولى صفوان بن أمية ، وعبيد بن زيد الحبشي ، والمرأتان هما : خديجة ، وأم أيمن . نظر أهل مكة إلي هؤلاء الضعفاء ، فاستصغروا شأنهم ، وتصوروهم ظاهرة عارضة ، لا تلبث أن تنتهي وتزول .

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٥ .

[٢] صحيح البخاري ــ كتاب المناقب ــ باب فضل أبي بكر ج ٦ ص ٨١ .

وساعدهم على هذه النظرة أن العبيد من هؤلاء الضعفاء لم يقصروا في أعمالهم ، و لم يرتكبوا خيانة لسادتهم ، مع أنهم لم يسلموا .

وقد قضى الله تعالى بأن يكون أتباع الدعوة الأول من الضعفاء الفقراء لتنمو الدعوة على سنة البشر في التطور والتقدم ، وليعلم المسلمون دائماً حاجتهم الملحة للصبر ، والتحمل ، ومواجهة الطغيان بالعفو ، والتسامح .

إن هؤلاء الضعفاء هم القوة العملية في مجتمعهم فمنهم العمال ، والأجراء ، والعبيد ، ولا بد أن يعملوا ليعيشوا فليس معهم المال الذى يدفعهم إلى الترفه ، والكسل ، وتلك خاصية أفادت الدعوة الإسلامية لأنهم لما آمنوا بها وضعوا طاقتهم واستعدادهم في خدمتها ، ولذلك هاجروا بها ، وواصلوا الدعوة إليها ، وتحملوا في سبيلها الكثير ، فقدموا بذلك النماذج الرائدة للمسلمين بعدهم ، ولو كانوا من المترفين المنعمين ما تحملوا أذى،وما صبروا على مشقة،ولعجزوا عن أداء ما كلفوا به .

وأحب أن أبين قضية لها أهميتها وهي أن ضعف هؤلاء كانت في الجانب المادي فقط ، أما في الجانب المعنوي فكانوا هم الأقوياء ، وهم العقلاء ، فقد دخلوا في الإسلام مخالفين أسيادهم ، ولم يعبأوا بأي أذى ينالهم ، وتحملوا ، صابرين ، كل ما أصابهم من ظلم وعدوان ، وصل أحياناً إلى حد القتل ، والفناء .

سابعا : تصور الدعوة على أهل مكة ومن يأتيه : «

أكتفي الرسول " ﷺ " بالدعوة خلال هذه المرحلة على أفراد من الأقربين إليه في مكة ، و لم يخرج عن هذا الإطار في دعوته، اللهم إلا مع من قصد رسول الله " ﷺ " من خارج مكة وجاء يبحث عن دين الله تعالى .

ولذلك بقيت الدعوة في نطاق محدود ، لم يؤمن بتعاليمها أحد خارج مكة ، و لم ينشغل كفار مكة بتتبعها ، و لم تحدث صدام بين المؤمنين وغيرهم .

واستمر الأمر هكذا حتى قويت هذه الجماعة الأولى وأسلم أبو بكر " ؓ " فأعلن الأمر ، وجاهر به ، بعد إصرار منه على ذلك .

وكان " ﷺ " حريصاً في هذه المرحلة على عدم إثارة كفار مكة منعاً لتصادم معهم ؛ فكان إذا جاءه من يسلم بدعوته ، وهو من غير مكة يأمره بكتم إسلامه، والامتثال لأمر الله، والعمل به بعيداً عن الناس ، وهذا من الحكمة في الدعوة ، لأن كفار مكة لو بدأوا يعملون ضد المسلمين في هذه المرحلة لتمكنوا منهم لقلة عددهم ، وضعف وجودهم ؛ وهذا قدر أراده الله للمؤمنين في هذه المرحلة لينصر دينه بهم .

يروي ابن سعد بسنده عن شداد بن عبد الله أن أبا أمامة سأل عمرو بن عبسة : بأي شئ تدعي أنك ربع الإسلام ؟

قال : إني كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان بشئ ، ثم سمعت عن رجل يخبر أخباراً بمكة، ويحدث بأحاديث ، فركبت راحلتي ،حتى قدمت مكة فإذا أنا برسول الله " ﷺ " ، مستخفياً ، وإذا قومه عليه جرءاء .

فتلطفت حتى دخلت عليه فقلت : من أنت ؟

قال : أنا نبي .

فقلت : وما نبي ؟

قال : رسول الله .

قلت : الله أرسلك ؟

قال : نعم .

قلت : فبأي شئ ؟

قال : بأن يوحد الله، ولا يشرك به شئ، وتكسر الأوثان، وتوصل الأرحام .

فقلت له : من معك على هذا ؟

قال : حر وعبد ، يقصد أبا بكر ، وبلال بن رباح .

فقلت له : إني متبعك .

قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا، ولكن أرجع إلي أهلك، فإذا سمعت بي قد ظهرت فالحق بي .

فرجعت إلي أهلي وخرج النبي " ﷺ " مهاجراً إلي المدينة وقد أسلمت ، فجعلت أتخبر الأخبار حتي جاء ركبه من يثرب فقلت : ما فعل هذا الرجل المكي الذي أتاكم ؟

فقالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك ، وحيل بينهم وبينه ، وتركت الناس إليه سراعاً، فركبت راحلتي ،حتي قدمت عليه المدينة .

فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفني ؟

قال : نعم ، ألست الذي أتيتني بمكة ؟

فقلت : بلي ، يا رسول الله علمني مما علمك الله وأجهله .

(ثم ذكر الحديث بطوله وفيه تفصيل مواقيت الصلاة والوضوء وغير ذلك) [1] .

وهكذا وجه النبي " ﷺ " هذا الصحابي الجليل إلي عدم البقاء في مكة والرجوع إلي قومه ، وملازمة الصمت والسكوت حتي يظهر أمر الإسلام ، وبعدها يتمكن من الحركة ، والجهر ، والدعوة ، في ظلال حفظ الله ، ونصر إخوانه له .

ويبدو أن عمرو بن عبسة " ﷺ " كان من الحنفاء ، الذين أظهروا فساد آلهة القوم ، وأخذوا في البحث عن الدين الحق ، ولذلك كان توجيهه إلي التخفي أمراً ضرورياً في هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، لأن الحنفاء تعودوا نقد ما عليه الناس ، واحتقار آلهتهم ، من غير تقديم دعوة جديدة ، تتضمن معالم دين صحيح ، فلو استمر عمرو بن عبسة في المقد مع إسلامه فإنه يمثل خطورة لأهل مكة تشعل غضبهم في هذه المرحلة التي لا تتحمل هذا .

يخبر شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة قال : رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية ، وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إني امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فينزل الحي ليس معهم إله .

---

(١) الطبقات الكبرى ج ٤ ص ٢١٦ .

يخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار ، فينصب ثلاثة لقدره ، ويجعل أحسنها إلها يعبده .

ثم لعله يجد ما هو أحسن منه ، قبل أن يرتحل ، فيتركه ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلا سواه .

فرأيت أنه إله باطل ، لا ينفع ، ولا يضر ، فدلني على خير من هذا .

فقال : خرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتي بأفضل الدين ، فلم تكن لي همة منذ قال لي ذلك إلا مكة فآتي فأسأل : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا ، ثم قدمت مرة فسألت، فقالوا : حدث فيها رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فرجعت إلى أهلي، فشددت راحلتي، ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة ، فسألت عنه فوجدته مستخفيا ووجدت قريشا عليه أشداء ، فتلطفت حتى دخلت عليه فسألته .

فقلت : أي شيء أنت ؟

قال : نبي .

قلت : ومن أرسلك ؟

قال : الله . قلت : وبم أرسلك ؟

قال : بعبادة الله وحده لا شريك له وبحقن الدماء، وبكسر الأوثان ، وصلة الرحم ، وأمان السبيل .

فقلت:نعم ما أرسلت به،قد آمنت بك، وصدقتك،أتأمرني أمكث معك أو أنصرف ؟ فقال : ألا ترى كراهة الناس ما جئت به ؟ فلا تستطيع أن تمكث ، كن في أهلك فإذا سمعت بي قد خرجت مخرجاً فاتبعني [١] . وساق الحديث السابق بطوله ، وبألفاظ متقاربة .

---

[١] الثقات ج ٤ ص ٢١٧ .

ثامنا : التخفي في العبادة والتوجيه :

أخذ"ﷺ" يتخفي عن أعين أهل مكة وهو يوجه أتباعه ، ويطلق معهم تعاليم الإسلام

وقد اختار " ﷺ " للتخفي أماكن لا تكتشف بسهولة ، ومن ذلك الشعاب البعيدة عن بيوت أهل مكة ، وكان " ﷺ " يخرج إلي الشعاب ، ومعه علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة للصلاة فيها بعيداً عن أعين الناس [1] .

يقول ابن إسحاق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله " ﷺ " كان إذا حضرت الصلاة خرج إلي شعاب مكة ؛ وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفيا من أبيه أبي طالب ، ومن جميع أعمامه ، وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا [2] . ولما كثر عدد المسلمين كانوا يذهبون إلي الشعاب فرادى ، أو مثنى ، محافظة علي السرية ، وعدم التصادم .

ومن طرق التخفي اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانا تجتمع في المسلمون مع رسول الله " ﷺ " للتعلم ، والعمل ... وكان اختيار دار الأرقم ملائماً للتخفي والاستتار لعدة أسباب :ـــ

(أ) تقع دار الأرقم عند الصفا ، وهو مكان يتجه إليه كثير من أبناء مكة ، وتوجه المسلمين إلي هذا المكان أمر عادي لا يثير تساؤلاً ، ولا يوقعهم في شبهة .

(ب) لم يتوقع أحد من أهل مكة أن يجتمع محمد" ﷺ " مع أصـــحابه في دار الأرقم ولا يمكن لهم أن يتصوروا ذلك، لأن الأرقم من بني مخزوم، وهي قبيلة تنافس بني هاشم في السلم والحرب،ولا يتصور أن تنشأ دعوة هاشمية في دار مخزومية .

(ج) أسلم الأرقم وهو صغير لم يبلغ السادسة عشرة ، وصبي في هذا العمر لا يجرؤ أن يجعل بيته مكاناً لتجمع المسلمـــين ، فلقد جرت عادة القرشيين أن يكـــون اجتماعهم في بيوت كبار القوم ، وأغنيائهم ، وشيوخهم .

---

[1] إمتاع الأسماع ج ١ ص ١٧ .

[2] سيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٢٤٦ .

(د) إسلام الأرقم نفسه كان سرا على قبيلته ، وعلى غيرهم ، ولا يمكن تصور جعله مكانا لاجتماع المسلمين ؛ لأن صاحبه — لم يدخل في الإسلام — في نظرهم .

والحكمة في بدء الدعوة بالاستخفاء عديدة منها : —

(١) التريث ريثما تتكون لبنات قوية المزج ، شديدة التماسك ، في جو بعيد عن اثارة المعوقات في طريق سير الدعوة ، لأن هذه اللبنات هي القوة الدافعة التي سيعتمد عليها بناء المجتمع الإيماني الجديد ، في مواجهة قوى الظلم والبغي المتربصة بهذا الدين ، في صبر لا يعرف الوهن ، وجهاد لا يعرف اليأس .

(٢) ضرورة المسالمة في البداية ، لأن مهاجمة هذا المجتمع الغارق في شروره ومواجهته بضلاله ووسائل الدعوة لم يستو بعد ، يؤذن بتحريك دوافع المقاومة للدعوة في نفوس المستكبرين ، والدعوة لا تزال في أولى خطواتها ، فتعثر في سيرها ، وهي لا تزال وليدة طرية .

لذلك آثر النبي " ﷺ " الاستمرار بدعوته وتبليغ رسالته ، حريصا منه أن يكون سيرها مطردا وثابتا هادئا ، تسير إلى القلوب بخطى ثابتة ، حتى تتمكن من الإعلان عن نفسها في الوقت المناسب [1] ، بعد أن يؤمن بها عدد من الناس يضحون في سبيلها بالغالي والنفيس ، مما يضمن استمرارها وبقاءها .

(٣) إتاحة الفرصة للدعوة حتى تصل إلى مسامع العرب في مواسمهم ومحافلهم وأسواقهم ومضارب ديارهم ، فأتت هذه الخطوة أكلها ، حيث أقبل إلى مكة فريق منهم ، يتحسس أخبارها ، ويتعرف مكانها في خفية وحذر ، حتى إذا بلغوا مأمنها في مقرها (دار الأرقم) أسلموا لله تعالى ، واتبعوا رسوله " ﷺ " ، واهتدوا بهديه ، وآمنوا بما جاء به من الحق [2] .

---

(١) ... محمد رسول الله " ﷺ " — ج ١ ص ٦٠٥ .

(٢) ... " ﷺ " ص ١٤٩ .

(٤) المساهمة في تكوين قاعدة إيمانية صلبة ، ومثالية في هدوء ، وأناة لتقوم بدورها في المراحل التالية ، ولتقدم أسوة راقية لمن بعدهم في الخلق ، والسلوك ، وأداء الواجب .

تاسعا : حمل المسلمين مسئولية الدعوة :-

قام الرسول " ﷺ " بأمر الدعوة إلى الله تعالى . وتبعه نفر قليل ، فأخذ يعلمهم تعاليم الله التي ينزل بها الوحي .. وأخذ المسلمون يعيشون حياة جديدة ، طيبة ، وتكون منهم أناس ربانيون خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وتابع الرسول " ﷺ " تغذيتهم بالقرآن وتقويتهم بالإيمان حتى صاروا – بحق – عبيداً لله ، لا يريدون في الأرض علواً ، ولا فساداً .. ورأوا أن أعظم العمل هو الدعوة لدين الله ، والعمل به ... ولذلك رأينا أبا بكر " ﷺ " لم يكتف بإسلامه متخفياً ، وإنما أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسوله ، فأسلم بدعوته :

عثمان بن عفان .

والزبير بن العوام .

وعبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وطلحة بن عبيد الله بن عثمان .... رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما أسلم هؤلاء الخمسة ، قدم بهم أبو بكر إلى رسول الله " ﷺ " ، فصلوا معه ، وصدقوا برسالته ، وبلغ عدد المسلمين بهم ثمانية [٢] وفي اليوم الثاني جاء أبو بكر بنفر آخرين أسلموا بدعوته أيضاً وهم : عثمان بن مظعون ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبو سلمه بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم .

ويرجع نجاح أبي بكر في الدعوة إلى عدة أسباب :-

---

[٢] تاريخ الطبري ج ١ ص ٣١٧ .

أ ــ بساطة الدعوة إلي التوحيد كما هو ظاهر من قول رسول الله " ﷺ " لأبي بكر : **وأدعوك إلي الله بالحق ، فو الله إنه للحق ، " أدعوك إلي الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاة علي طاعته "** [١] .. وفي قوله " ﷺ " دلالة علي أن الله واحد ، وحقه أن يعبد وحده ، ونبذ ما عداه من آلهة وشركاء .

وقد صدق أبو بكر بما سمع من رسول الله " ﷺ " ، وآمن به بلا تردد . أو مراجعة ، بقول النبي " ﷺ " : **(ما دعوت أحداً إلي الإسلام إلا كانت له عنه كبوة : وتردد ، ونظر ، إلا أبا بكر ما تردد فيه)** [٢] .

ب ــ اشتهار أبي بكر " رضي الله عنه " في مكة بحسن الخلق ، وسعة الأفق ، وتنوع الثقافة ، ودقة الأمانة . يقول ابن كثير : **وكان أبو بكر رجلاً متآلفاً لقومه ، محبباً** سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ، ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ، ويألفونه لغير واحد من الأمر ، لعلمه ، وتجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلي الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ، ويجلس إليه [٣] .

ج ــ الاقتداء برسول الله " ﷺ " في الاصطفاء ، وتخير من يدعوهم ، كما هو واضح من الصحابة الذين آمنوا بدعوته لهم .

وعلي مثال أبي بكر " رضي الله عنه " كان سائر الصحابة الذين دخلوا في الإسلام ، فكان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه برفق إلي الإسلام فإن استجاب وجهه إلي دار الأرقم ، وإن لا تركه وانصرف عنه ، يروي ابن سعد في الطبقات قصة إسلام عمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ، ومجيئهما إلي دار الأرقم ، والتقائهما عند الباب ، والحوار الذي دار بينهما ، فيقول : قال عمار بن ياسر : لقيت صهيب بن

---

(١) دلائل النبوة للبيهقي ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

سنان على باب دار الأرقم ، ورسول الله " ﷺ " فيها ، فقلت له : ما تريد ؟

قال لي : ما تريد أنت ؟

فقلت : أردت أن أدخل على محمد فأسمع كلامه .

قال : وأنا أريد ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام ، ثم مكثنا يوماً على ذلك حتى أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون [١] .

وكان مجيئهما إلى دار الأرقم بتوجيه بعض الصحابة الذين وثقوا من إيمانهم .

وكان " ﷺ " ينظم الذين أسلموا في جماعات صغيرة ، لتلتقى كل مجموعة في بيت أحدهم يقرأون كلام الله ، ويتعاهدون الإسلام بالفهم ، والتطبيق ، وكان رسول الله " ﷺ " يرسل إلى هذه المجموعات أحد القراء ليحفظهم القرآن الكريم الذي نزل ، يروى ابن سعد أن عمر بن الخطاب لما ذهب إلى أخته مغاضبا وجد عندها خباب بن الأرت ، وكان يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن مع زوجها [٢] .

وإذا كان أحد المسلمين يقرأ ويكتب فإن الرسول " ﷺ " يرسل له القرآن مكتوبا ليقرأه على إخوانه .

وكان المسلمون الأوائل حريصين على حماية الإسلام ، وحماية رســـول الله " ﷺ " من ذلك ما فعله نعيم بن عبد الله النحام ، وكان " مستخفيا بإسلامه " فإنه لما رأى عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه شك في أمره وارتاب في مقصده ، مما دفعه إلى سؤاله فقال : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً ، هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

---

[١] ابن سعد ــ الطبقات ــ ج ٣ ص ٢٢٧ .

[٢] صحيح مسلم .

فقال نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً،أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ !

قال : وأى أهل بيتي ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب [١] .

ومن أعمال الصحابة التي بذلوها لحماية رسول الله " ﷺ " ، مراقبة الغرباء القادمين إلى مكة ، ومعرفة مقاصدهم، ومساعدتهم في الوصول إلى رسول الله " ﷺ " إن رغبوا في ذلك في إطار من السرية المطلوبة .. يروى البخاري بسنـــده أن أبـــا ذر " ﷺ " قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتمس رسول الله " ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فرآه علي " ﷺ " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شئ حتى أصبح ، ثم قام، واحتمل قربته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي " ﷺ " حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه ، فمر به علي " ﷺ " فقال : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟

فأقامه فذهب به معه، لا يسأل أى واحد منهما صاحبه عن شئ .

حتى إذا كان اليوم الثالث ، فعاد علي " ﷺ " على مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا تحدثني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهدا وميثاقا لترشدني فعلت .

ففعل .

فأخبره .

وقال علي له : إنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت شيئا أخاف عليك قمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني حتى تدخل مدخلي . ففعل ، فانطلق يقفوه ، حتى دخل على النبي " ﷺ " ودخل معه ، فسمـــع

---

(١) ابن هشام ــ السيرة ج ١ ص ٣٦٦ .

من قوله ، وأسلم مكانه [١] .

وهذا الحذر كان تصرف الصحابة حباً لرسول الله " ﷺ " ومحافظة عليه ، رضي الله عنهم أجمعين .

* * *

---

(١) أخرجه البخاري في الجامع الصحيح ـ كتاب مناقب الأنصار ـ باب إسلام أبي ذر ج ٤ ص ١٨٢

المبحث الثالث

الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية

قام الرسول " ﷺ " وأصحابه بدعوة الناس عن طريق الاتصال الشخصي ، والمواجهة المباشرة ، وهذه الوسيلة تحتاج إلى معرفة مسبقة بين الداعي ، والمدعو ، ليتمكن الداعي من تخير الوقت المناسب ، والحالة المناسبة ، والأسلوب المناسب ؛ كما يتمكن المدعو من السؤال ، والاعتراض ، والرد بهدوء وتعقل .

وبمراجعة عدد المسلمين في المرحلة السرية ، ومعرفة طرق إسلامهم نرى اتصال الدعاة بهم مباشرة على نحو ما سبق ذكره .

وأما أسلوب الدعوة فقد قام على عرض الأدلة الدقيقة المحكمة على صورة سؤال أو إجابة، من ذلك ما روي في قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي " ﷺ " السابق ذكرها ، حيث رأينا أن عمرو كان يبحث عن دين خال من الخرافات ، والأكاذيب الموجودة في حياة العرب ، ولم يرتضي لنفسه أن يتخير حجرا ويجعله إلها ، فلما سمع برسول الله جاءه ، وأخذ في سؤاله حتى تيقن من صدقه ، وآمن به . وكان يقول " ﷺ " : لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام [١] .

ويبدو أن النبي " ﷺ " لم يخبره بكل من أسلموا ، حفاظاً على سلامتهم ، وسلامة إيمانهم ؛ ولذلك قال : لقد رأيتني وأنا ربع الإسلام .

وعلى هذا يمكن فهم التضارب الذي ظهر على ألسنة الصحابة،وهم يعدون السابقين إلى الإسلام؛لأن كلاًروى حسب علمه،وسط جو الاستخفاء والسرية المذكور،يعضد ذلك ما قاله كل من أبي ذر وسعد بن أبي وقاص من أنه ثلث الإسلام [٢] .

---

[١] صحيح مسلم .

[٢] صحيح البخاري .

المبحث الرابع

المسلمون خلال المرحلة السرية

استمرت مرحلة الدعوة السرية سنتين ونصفا ، ودخل في الإسلام ستون مسلما ومسلمة من كافة طبقات ، وقبائل المجتمع المكي ، حتى أنه لا تخلو عشيرة مكية من شخص أو أكثر أسلموا من بينها .

وقد ورد ذكرهم بالتفصيل في كتب السيرة [1] وهم : ـــ

أولا : بنو هشام : ـ

١ ـــ علي بن أبي طالب .

٢ ـــ جعفر بن أبي طالب .

٣ ـــ أم الفضل بنت الحارث .

٤ ـــ أسماء بن عميس (زوج جعفر) .

٥ ـــ خديجة بنت خويلد .

ثانيا : بنو أمية : ـ

٧ ـــ عثمان بن عفان .

٨ ـــ خالد بن سعيد .

٩ ـــ أمية بنت خالد (زوج خالد) .

١٠ ـــ حاطب بن عمرو .

١١ ـــ عبد الله بن جحش .

١٢ ـــ أبو أحمد بن جحش .

١٣ ـــ امرأته فاطمة

ثالثا : بنو مخزوم : ـ

١٤ ـــ أبو سلمة بن عبد الأسد .

١٧ ـــ أسماء زوجة عياش .

١٨ ـــ ياسر بن عامر (حليف) .

١٩ ـــ سمية بنت خياط (زوج ياسر) .

٢٠ ـــ الأرقم بن أبي الأرقم .

رابعا : بنو تيم : ـ

٢١ ـــ أبو بكر الصديق .

٢٢ ـــ طلحة بن عبيد الله .

٢٣ ـــ عامر بن فهيرة (مولى) .

٢٤ ـــ بلال بن رباح (مولى) .

خامسا : بنو عدي : ـ

٢٥ ـــ سعيد بن زيد .

٢٦ ـــ فاطمة بن الخطاب .

٢٧ ـــ عامر بن أبي ربيعة (حليف) .

٢٨ ـــ نعيم بن عبد الله .

٢٩ ـــ واقد بن عبد الله (حليف) .

---

[1] المنهج الحركي للسيرة النبوية ج ١ ص ٢٥ ـ ٢٧ .

١٥ـ عياش بن أبي ربيعة .

١٦ـ عمار بن ياسر (حليف) .

٣٢ـ اياس بن البكير (حليف) .

سادسا : بنو زهرة :

٣٣ـ سعد بن أبي وقاص .

٣٤ـ عبد الرحمن بن عوف .

٣٥ـ عمير بن أبي وقاص .

٣٦ـ عبد الله بن مسعود (حليف).

٣٧ـ المطلب بن أزهر .

٣٨ـ خباب بن الأرت (حليف) .

سابعا : بنو سهم :

٣٩ـ خنيس بن حذافة .

٤٠ـ حفصة بن عمر (زوجة) .

ثامنا : بنو جمح :

٤١ـ حاطب بن الحارث .

٤٢ـ امرأته فاطمة .

٤٣ـ حطاب بن الحارث .

٤٤ـ امرأته فكيهة .

٤٥ـ السائب بن عثمان .

٣٠ـ خالد بن البكير (حليف) .

٣١ـ عامر بن البكير (حليف) .

تاسعا : بنو أسد :

٤٦ـ الزبير بن العوام .

عاشرا : بنو عامر :

٤٧ـ أبو عبيدة بن الجراح .

٤٨ـ سليط بن عمرو .

حادي عشر : قبائل متفرقة :

٤٩ـ صهيب بن سنان (رومي) .

٥٠ـ مسعود بن ربيعة.

٥١ـ معمر بن حبيب .

٥٢ـ زيد بن حارثة .

٥٣ـ عمرو بن عبسة (سلمي) .

٥٤ـ عثمان بن مظعون .

٥٥ـ قدامة بن مظعون .

٥٦ـ عبد الله بن مظعون .

٥٧ـ رملة زوجته .

وهؤلاء السابقون إلى الإسلام نماذج فريدة ، عاشوا أحرج فترات البناء الإسلامي ، وواجهوا أصعب المواقف وكانوا بحق أمثلة عالية في الفداء ، والتضحية ، والإخلاص ، والعبودية لله رب العالمين .

لقد خلعوا أنفسهم من مجتمعهم الجاهلي ، وكونوا جماعة الدعوة الأولي : التي تميزت بخصائصها وصفاتها ، إذ كان إيمانها يعني الخلوص التام من كل شرك ، والإلتزام المطلق لأمر الله تعالي ، فلا مهادنة في عقيدة ، ولا ضعف في القيام بواجب مع تحمل أي ضغط ، والصبر علي أي أذي ، وكان دخول أحدهم في الإسلام يعني البراءة التامة من الشرك وأهله ، والبعد عن موالاة غير المؤمنين ولو كان من أقرب الناس إليه .

وكان المسلم يحب أخاه المسلم، لا يحبه إلا لله ، ويلتزم بكل لوازم هذه المحبة من النصرة ، والنصيحة ، والمودة ، وحسن الأخلاق .

إن الإيمان كان يعني عند هؤلاء هجراً كلياً عن كافة صور الجاهلية، وانتقال المؤمن إلي منهج الإسلام بكماله وتمامه، وذلك هو الإيمان في الحقيقة .

وقد قام هؤلاء المسلمون بواجبهم إزاء الدعوة إلي الله تعالي،إذ حملوا الإسلام إلي زوجاتهم،وأبنائهم،وأهاليهم،وإلي كل من يعاشرونهم، وله معهم ثقة ، ولهم به معرفة ، وبواسطة هؤلاء الصحابة دخل الإسلام بيوتهم ، وأسلم عدد من الزوجات والأبناء .

وساعد هؤلاء الصحابة في تبليغ الإسلام حسن الاتباع ، وسلامة التطبيق ، والتخلق بأخلاق الإسلام ، لأن ذلك يعد في ذاته دعوة عملية .

وساعدهم كذلك أنهم تيقنوا أن الإيمان يعني العلم والعمل معاً ، فلم يقصروا في تعلم ، ولم يتهاونوا في تطبيق . وكان إيمانهم قائماً علي اليقين التام ، والاقتناع الصادق ، فلما تعرضوا للابتلاء لم يتأثروا ، ولم يضعفوا .

لقد كانوا قوة انتصروا لدينهم وارتفعوا به إلي مصاف العلا فكانوا بحق خير أمة أخرجت للناس ، واستحقوا أن يضعهم الرسول " ﷺ " فوق الصحابة أجمعين ، فعندما اختلف أحدهم وهو عبد الرحمن ابن عوف مع خالد بن الوليد بعد إسلامه قال الرسول " ﷺ " : يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فو الله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته في سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابي أو روحته [1] .

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٧٤ .

فبالرغم من أن خالد من أصحاب رسول الله " ﷺ " ، وبالرغم من أنه من الذين أسلموا ، وأنفقوا قبل الفتح : بالرغم من ذلك كله ، فلقد قيل له هذا القول حين اختلف مع عبد الرحمن بن عوف " ﷺ " ، أحد أفراد الطليعة السابقة ، والنواة الصلبة التي قام البناء الإسلامي على أكتافها ، ولا ننسى أبداً أن من هؤلاء بين النسوة خديجة " رضي الله عنها " إحدى الكاملات في الدنيا ، وأسماء بنت عميس ، وأم الفضل بنت الحارث وغيرهن اللاتي كن النموذج الأعلى للنساء في التاريخ .

* * *

المبحث الخامس

المرحلة الأولي للجهر بالدعوة

(جهر رسول الله " ﷺ ")

لم تبق الدعوة سراً مجهولاً علي أهل مكة، فلقد علموا كثيراً عن محمد "ﷺ" ودعوتـــه لديـــن جديد ، و لم يتحركوا لذلك، و لم يكترثوا به ؛ لأن معلوماتهم عن الإسلام كانت عامة ، وبسيطة، جعلت الدعوة في نظرهم أقل خطورة على معتقداتهم من الحنفاء الذين يجاهرون ببطلان عبادة الأصنام ، والأوثان .

ومـــا يدل على علمهم بالدعوة أن أحد تجار مكة جاء إلي أبي طالب فرأى محمـــداً " ﷺ " يصـــلي، وخلفه علي، وخديجة ، وعلم أنهم بذلك يعبدون الله الذي يدعو إليه محمد " ﷺ " .

وسبق ذكر علم أبي طالب بإيمان علي بالإسلام، ودعوة رسول الله "ﷺ" له ليسلم ، ومع إتساع موجة المعرفة بدعوة محمد "ﷺ" بقي أهل مكة علي إهمالهم شأن محمد ومن معه فسكتوا عن دعوته، و لم يتصوروا خطورة علي أديانهم ، وأوضاعهم .

وكـــان صمت أهل مكة عن المسلمين في هذه الفترة فضلا من الله ، حيث تكونـــت النواة الصلبة التي يقوم عليها البناء ، ونشأ جيل القمة الذي حمل مسئولية الإســـلام مع رسول الله " ﷺ " وبعده ، ويكفي أن تعرف أن تسعة من هؤلاء، هم المبشرون بالجنة ، وعاشرهم هو عمر بن الخطاب " ﷺ " ؛ وأن الرسول "ﷺ" اتخذ منهم أهل الشوري الستة ، ومات " ﷺ " وهو عنهم راض .

بعد هذا بدأت **مراحل الجهر بالدعوة** التي تعددت تبعا لاعتبارات مختلفة ...

وقـــد رأيت بعض العلماء **يعدها ثلاثاً** باعتبار نوعية المدعوين . فهناك الجهر للأقربين ، وهناك جهر لأهل مكة ، وهناك جهر ثالث للناس أجمعين [١] . لكن هذا

---

(١) أنظر : الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص ٣٠٤ ـــ ٣٣٥ .

التقسيم ثم يلاحظ تداخل صور الجهر بالدعوة لأن الرسول " ﷺ " وهو يجهر بالدعوة كان يدعوا أقرباءه الأدنين وأهل مكة ، وكلهم أقرباؤه ... وأيضا كان يدعو من باقي مكة من خارجها .. كما أن الرسول " ﷺ " أعلن من أول الدعوة أنها للناس أجمعين .

وهناك من يقسم **المرحلة الجهرية إلي مرحلتين** باعتبار الشخص الذي جهر بالدعوة ، ويري هؤلاء أن الرسول " ﷺ " هو الذي جهر بالدعوة للناس في المرحلة الأولي ..وأن عمر بن الخطاب "رضي الله عنه" وحمزة بن عبد المطلب " رضي الله عنه " هما اللذان جهرا بالدعوة بعد المرحلة الأولي بعامين [1]وكان جهرهما بداية المرحلة الجهرية الثانية .

ونري أن هذا التقسيم أكثر صواباً من التقسيم الأول ، ولذلك سأتناول المرحلة الأولي هنا علي أساس هذا التقسيم .

ويلاحظ هنا أن مراحل الدعوة تقسيم منهجي لتسهيل المعرفة بالسيرة النبوية لأن المراحل كانت تتداخل أحياناً ، ففي المرحلة السرية جهر أبو بكر بالدعوة ، ومع جهر الرسول " ﷺ " كان الصحابة يباشرون الدعوة أيضاً .

وتعد المرحلة الجهرية الأولي وسطاً بين المرحلة السرية ، ومرحلة الجهر العام ، لأن المرحلة الجهرية الأولي قام بالجهر خلالها رسول الله " ﷺ " مع المحافظة علي سرية أماكن التجمع ، والحركة للمسلمين ، الأمر الذي يجعل هذه المرحلة انتقالا من طبيعة المرحلة السرية إلي طبيعة الجهر العام .

وتبدأ مرحلة جهر الرسول"ﷺ" بالدعوة بنزول قوله تعالي: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ۝ ﴾ [2]وقوله تعالي:﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ۝ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ ﴾ [3] .

---

(١) انظر : المنهج الحركي للسيرة ج ١ ص ٣٧ ، ٧٨ .

(٢) سورة الحجر : الآيتان (٩٤ ، ٩٥) .

(٣) سورة الشعراء : الآيتان (٢١٤ ، ٢١٥) .

والآيات تأمر رسول الله " ﷺ " بالجهر بالدعوة ، وترك المشركين فى غيهم وعدم إثارتهم ، مع التركيز على دعوة الأقربين ، وتقوية العلاقة الطيبة مع المؤمنين .

وكانت هذه المرحلة جهرية لرسول الله " ﷺ " فقط ، حيث أمره الله تعالى بالجهر ، أما أصحاب النبى " ﷺ " المؤمنين فقد ظلوا على صمتهم ، واستخفائهم ، لأن الأمر بالجهر جاء مقترناً بالدعوة إلى الصبر ، والتحمل ، وتجنب المشركين ، والبعد عن كل ما يؤدى إلى التصادم معهم .

ولأن حركة الصحابة كانت سرية بقى مكان تجمعهم فى دار الأرقم سراً لا يعلمه كفار مكة إلا يوم أسلم عمر بن الخطاب ، وكانوا يخفون من أسلم حفاظاً عليهم ، ولذلك استمروا يؤدون مناسكهم ، وصلواتهم فى الشعاب ، ولم يتجمعوا عند الكعبة إلا بعد إسلام عمر .

رغب المسلمون مرة فى إسماع القرآن الكريم أهل مكة عساهم يتأثرون ببلاغته ، ومعانيه ، فاجتمعوا لتدبير هذا الأمر ، فقالوا :والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لها به قط ، فمن رجل يسمعهموه ؟ .

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه .

قال : دعونى فإن الله سيمنعنى . ، فغدا ابن مسعود حتى أتى المقام فى الضحى ، وقريش فى أنديتها ، ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ ، رافعاً بها صـــــوته ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ ﴾

فتأملوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عبد ؟

ثم قالوا : إنه ليتلوا بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضربونه فى وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد أثروا فى وجهه ، فقالوا له : هذا الذى خشينا عليك ،

فقال : ما كان أعداء الله أهون علي منهم الآن ، ولئن شئتم لأغادينهم بمثلها غداً .
قالوا : لا ، حسبك ، قد أسمعتهم ما يكرهون [1] .

إن استضعاف المشركين لمن أسلم ، وإيذاء من يظهر منهم كان سبباً في التدرج بالجهر بالدعوة ، ولذلك اتخذ الجهر مرحلتين .

إن موضوع الدعوة تحدد بدقة منذ اللحظة الأولي،وهو الدعوة إلي وحدانيـــة الله ، وقصر العبادة له سبحانه وتعالي،وكل ما جد في شان الدعوة كان مع الوسائل ، والأساليب ، ولذا سأتناول في هذا المبحث الملامح التالية : ـــ

أولا : ظهور الجماعة المؤمنة : ـ

ظهرت الجماعة الإسلامية الأولي في مكة ، وخرجت للعلن بعد أن جهر الرسول " ﷺ " بالدعوة ، وصارت تمثل كياناً له دينه ومرجعيته ، وخلقه ، وذاتيته .

إن العقيدة التي صدق بها هؤلاء السابقون إلي الإسلام ، هي الدين الذي آمنوا به ، وهي القاعدة التي طهرتهم ، وصهرتهم نظرياً وعملياً ، وجعلتهم يكونون المجتمع الإيماني علي قاعدة نظرية معرفية تحتم العمل والتطبيق .

إن التوحيد هو الحقيقة الكبري في الكون ، فالخالق تعالي واحد ، والكون بسننه ، ونواميسه واحد ، والإنسان في جوهره ، وغايته ، ووجوده واحد ، والكون بكامله يتجه إلي الله عز وجل اتجاهاً واحداً بالعبادة والطاعة : ﴿ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ [2] ، وينبغي للإنسان أن يتجه إلي نفس الغاية والهدف ، وإلا حصل التصادم والتمزق والضياع في مسيرة الحياة .

ولذلك نص القرآن المكي علي قاعدة الوجود الكبري ، وغاية الوجود الإنساني في قوله تعالي : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [3] حيـــث

---

[1] السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ٣١٥ .
[2] سورة آل عمران آية (٨٣) .
[3] سورة الذاريات آية (٥٦) .

ترسم الآية الإطار العام للعقيدة،والدائرة الشاملة للحياة البشرية ، وجعل كل الأعمال الظاهرة ، والباطنة عبادة لله تعالي .

ولم يكن صدفة أن يبدأ رسول الله " ﷺ " بتربيه المجموعة الأولي علي تجريد التوحيد ، فرسخ في قلوبهم المعرفة الحقة بالله تعالي التي تقتضي الاستسلام التام له ، والطاعة المطلقة له ، وعدم التقدم بين يديه ، والرضا والتسليم بقضائه وقدره [١].

ومرجعية هذه الجماعة هي الوحي الإلهي. والرسول " ﷺ " بينهم ، يعلمهم ، ويبين لهم طرق العمل به ، والهداية بمنهجه ..

وقد تعلمت هذه الجماعة من القرآن الكريم الذي نزل عليهم أن هناك سنناً أرادها الله تعالي لمسيرة الحياة والأحياء ، لابد من تقبلها ، والتعامل معها ...ومن أهمها :-

أ- الابتلاء والتمحيص :

ابتلاء المؤمنين بالأذي والاضطهاد سنة إلهية في الناس ، ليظهر الطيب والخبيث ، ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي " ﷺ " : (ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي) [٢] ، ويقول الله تعالى : ﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ [٣] .

وعلي هؤلاء المسلمين ، ومن يأتي بعدهم ضرورة تحمل الابتلاء ، والصبر علي الأذي تمييزاً لهم ، وإظهاراً لصلابتهم ، يقول الله تعالي ﴿ مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ

---

[١] منهج النبي " ﷺ " ص ٣٢ .

[٢] صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣ .

[٣] سورة العنكبوت الآيات (١ — ٣) .

ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾[1] ، ليبين دور الابتلاء في إظهار صلابة الرجال،وبروز مزايا المؤمن الصادق ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾[2]

فبالابتلاء يبرز الإيمان ، ويمحص الصادقين .

ب ـ التغيير يبدأ من الباطن :

الإنسان عقل وجسد ، وباطن وظاهر ، وتعاليم الإسلام شاملة لعناصر الإنسان جميعاً ، ولذلك نرى الدعوة قد بدأت بالجزء الهام في الإنسان وهو الباطن أساس التغيير،يقول الله تعالى : ﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾[3] وإذا تغير الباطن تغير الظاهر ، ودائماً تأتي النتائج تبعاً لأسبابها .

ج ـ أهمية الإعداد للنجاح :

يعتمد النجاح في أي مجال على مقدمات لا بد منها ؛ ومن هذه المقدمات الاستعداد للعمل ؛ وإعداد العدة المكافئة له حتى لا يضيع المسلم في بيداء الحياة ، ومجاهلها،وهذا الإعداد متنوع تبعاً للعمل المطلوب،والغاية المقصودة ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾[4] .

---

[1] سورة آل عمران آية (١٧٩) .

[2] سورة آل عمران آية (١٥٤) .

[3] سورة الرعد آية (١١) .

[4] سورة الأنفال آية (٦٠) .

إن سنة النصر لا تتخلف متى استوفت الشروط والإعداد ، وأهمها الاستقامة على منهج الله بطاعة أمره ، واتباع رسوله " ﷺ " ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ ﴾ [1] وقال — جل ذكره ، : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [2] .

وجاءت عوامل النصر جلية واضحة في قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَاصْبِرُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [3] .

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب تخلف النصر بطبيعة الحال ، وربما حلت الهزيمة ؛ لأن سنن الله تعالى لا تحابي، ولا تجامل أحداً من الخلق ، ولا تجاري أهواء البشر ، وإنما تساير أعمالهم،وإن الذين يرثون الكتاب وراثة بالاسم، وشهادة الميلاد ؛ ولا يترجمون ما فيه من الأوامر والنواهي عملاً سلوكيا ثم يقولون : سيغفر لنا ! لا يستجيب الله عز وجل لهم،حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم الله به في كتابه المنزل [4]

ثانيا ـ مواجهة الرسول قومه بالدعوة :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله " ﷺ " بالجهر بالدعوة، وأن ينذر عشيرته القريبة منه ، على أن يبدأ بالأقرب إليه ،أخذ "ﷺ" يعد للأمر عدته ، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هي المواجهة المباشرة سواء بصورة فردية ، أو جماعية ، أو عامة .

يروي ابن الأثير أن رسول الله"ﷺ" قال لعلي:يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين ،فضقت ذرعاً،وعلمت أني متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره [5]

---

[1] سورة محمد آية (٧) . [2] سورة الصافات الآيات (١٧١ – ١٧٣) .

[3] سورة الأنفال آية (٤٥ ، ٤٦) . [4] حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص ١٠٢ .

[5] الكامل ج٢ ص ٦١ .

ولما مرض "ﷺ" وجاءته عماته يعدنه، قال لهن: ما اشتكيت شيئاً، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم، فإنه غير مجيبك .

فنراه " ﷺ " يخبر علياً وعماته بدعوته بصورة فردية ..

ومرة يجمع أعمامه ، ونفراً من بني المطلب بن عبد مناف ، حيث دعاهم إلي طعام ، وبلغهم بدعوة الله تعالي مرتين لأنه لم يتمكن من الحديث في المرة الأولي بسبب مبادرة أبي لهب له ، ودعاهم في المرة الثانية .

جاء في الكامل لابن الأثير أنه لما أنزل الله علي رسوله : ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۝ ﴾اشتد ذلك عليه " ﷺ " وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته كالمريض ، فأتته عماتـــه يعدنه،فقال : ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولاتدع أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك . فدعاهم " ﷺ " .

فحضروا ومعهم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلا .

فبادره أبو لهب وقال : هؤلاء هم عمومتك، وبنو عمك، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة ، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب لك بطون قريش، وتمدهم العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فسكت رسول الله " ﷺ " ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله ، أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إني رسولُ الله إليكم خاصة، وإلي الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك،وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنما أنا أحدهم ، غير أني أسرعهم إلي ما تحب ، فامض

لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك ، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا [1] .

فقالت له أخته صفية ــ عمة رسول الله ــ " ﷺ " رضي الله تعالي عنها : أي أخي ، أيحسن بك خذلان ابن أخيك ، فو الله ما زال الناس يخبرون أنه يخرج من بني عبد المطلب نبي ، فهو هو .

قال أبو لهب : هذا والله الباطل، والأماني وكلام النساء في الحجال،إذا قامت بطون قريش، وقامت معها العرب،فما قوتنا بهم، فو الله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس .

فقال أبو طالب : والله لنمنعنه ما بقينا [2] .

وهكذا دعا النبي " ﷺ " عشيرته الأقربين في جو أسري خالص ، قائم على المودة ، وروح القرابة ... ودار نقاش في إطار هذا التجمع .

كما وجه لهم دعوة عامة بأن نادى عليهم جميعاً من فوق الصفا ، فلما تجمعوا دعاهم إلي الله تعالى .

يروي المؤرخون أنه " ﷺ " لما نزل عليه قوله ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد النبي " ﷺ " على الصفا ، فجعل ينادى : يا بني فهر ، يا بني عدى .. لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ فجاء أبو لهب وقريش فقال : أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

قالوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : أني نذير لكم بين يدى عذاب شديد .

---

[1] الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٦١ .

[2] الدعوة الإسلامية في عهدها المكي ص ٢١٥ .

فقال أبو لهب : تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا ؟ ، فنزل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ ﴾ [١] [٢] .

كما أن عدداً من أصحاب النبي " ﷺ " من الله عليه بالإسلام ، وهداه إلى الحق بإحدى طرق الهداية ، فمنهم من أسلم بعدما رأى من رسول الله " ﷺ " معجزة بهرته ، أو موقفاً حركه، أو دعوة من الرسول " ﷺ " استجيبت، كما حدث مع عبد الله بن مسعود ، وخالد بن سعيد بن العاص، وعمر بن الخطاب ، وأم أبي بكر " رضي الله عنهم " .

يقول عبد الله بن مسعود : كنت غلاماً يافعاً ، أرعى غنماً لعقبة بن أبي معيط بمكة ، فأتى علي رسول الله " ﷺ "، وأبو بكر " ﷺ " وقد فرا من المشركين ، فقالا : أعندك يا غلام لبن تسقينا ؟

قلت : إني مؤتمن ، ولست بساقيكما .

فقال رسول الله " ﷺ " : هل عندك من جذعة لم ينز عليهما الفحل بعد ؟

قلت : نعم ! فأتيتهما بها ، فاعتقلها أبو بكر ، وأخذ رسول الله " ﷺ " الضرع ، ودعا فحفل الضرع ، وأتاه أبو بكر بصخرة منقعرة ، فحلب فيها ، ثم شرب هو ، وأبو بكر ، ثم سقياني ، ثم قال للضرع أقلص فقلص .

فلما كان بعد أتيت رسول الله "ﷺ" فقلت علمني من هذا القول الطيب — يعني القرآن الكريم — .

فقال له "ﷺ" : " إنك غلام معلم ، يقول ابن مسعود " فأخذت من فيه سبعين سورة ما ينازعني فيها أحد [٣] .

---

(١) سورة المسد آية (١ ، ٢) .

(٢) فتح الباري ج ١ ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

وأما خالد بن سعيد بن العاص فلقد رأى في المنام أنه وقف به على شفير النار فذكر من سعتها ما الله أعلم ، ويرى في النوم كأن ات أتاه، يدفعه فيها، ويرى رسول الله " ﷺ " آخذاً بحقويه ، لا يقع ، ففزع من نومه ، فقال أحلف بالله أن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له ، فقال أريد بك خير ، هذا رسول الله " ﷺ " فاتبعه ، فإنك ستتبعه وتدخل معه في الإسلام ، والإسلام يحجزك أن تدخل فيها ، وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله " ﷺ " وهو بأجياد ، فقال يا رسول الله ، يا محمد إلى ما تدعو ؟

قال : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ، ولا يضر ، ولا يبصر ، ولا ينفع ، ولا يدري من عبده ممن لا يعبده .

قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله " ﷺ " بإسلامه ، وتغيب خالد وعلم أبوه بإسلامه ، فأرسل في طلبه فأتى به ، فأنبه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه ، وقال : والله لأمنعنك القوت .

فقال خالد : إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به ، وانصرف إلى رسول الله " ﷺ " فكان يكرمه ويكون معه [1] .

وهكذا تكاثر المسلمون ، وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم لدرجة أن أبا بكر الصديق " ﷺ " أخذ يلح على رسول الله " ﷺ " بإظهار الإسلام ، وتوسيع دائرة التحرك به ، وإعداد المؤمنين لتحمل ما يصيبهم من الضرر والأذى .

ورؤية أبي بكر في المجاهرة والمواجهة لها ما يبررها ، فلقد أحس من كفار قريش قلقاً من زيادة عدد المسلمين دفعهم لتشديد الأذى، والتعنت مع كل من يسلم، ومن المعلوم أن الطغاة يضاعفون عدوانهم كلما رأوا من خصومهم خنوعاً

---

[1] البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

واستسلاما ، فأراد أبو بكر " ﷺ " أن يبرز لهم من نفسه قوة ، فيمنعهم من العدوان وخوفهم من أذى المسلمين .

وفي هذه الحالات تبرز أهمية المواجهة لأنها تحد من غلواء المعتدي ، وتظهر رجالا ، يتحسسون للحق ، ويدخلون في الإسلام فينتصر الإسلام بهم .

وقد أراد الله تعالي إظهار الإسلام كطلب أبي بكر " ﷺ " ، الأمر الذي أدى في النهاية إلى انتصار المسلمين ، وخزى الكافرين .

إن المسلمين الأول لم يكونوا على مستوى واحد من المواجهة ، فمنهم من كان تحميه قبيلته ، ومنهم المتميز بالجرأة ، والصلابة ، وقوة الشكيمة ، والقدرة على المواجهة ... ولذلك ألح أبو بكر " ﷺ " على رسول الله " ﷺ " في الظهور .

فقال له رسول الله " ﷺ " : يا أبا بكر إنا قليل .

فلم يزل أبو بكر يلح على رسول الله " ﷺ " ، حتى أذن له " ﷺ " ، فأظهره " ﷺ " وحده ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشيرته .

وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله " ﷺ " جالس فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله " ﷺ " .

وثار المشركون على أبي بكر ، وعلى المسلمين ، فضربوا من وجدوه في المسجد ضربا شديدا ووطئ أبو بكر ، وضرب ضربا شديدا ، ودنا منه الفاسق عتبة ابن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ، ويحرفهما لوجهه ، ونزل على بطن أبي بكر حتى ما يعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تيم يتعادون ، فأجلت المشركين عن أبي بكر ، وحملت بنو تيم أبا بكر في ثوب ، حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في موته .

ثم رجعت بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة ابن ربيعة ، فرجعوا إلى أبي بكر ، فجعل أبو قحافة وبنو تيم يكلمون أبا بكر حتى أجاب ، فتكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله " ﷺ " ؟

فمسوا منه بألسنتهم وعذلوه ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظرى أن تطعميه شيئاً ، أو تسقيه إياه . فلما خلت به ألحت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله " ﷺ " ؟

فقالت : والله مالي علم بصاحبك .

فقال : اذهبي إلي أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل

فقالت : إن أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

فقالت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى ابنك ! ! .

قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً . فدنت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق ، كفر ، وإني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله " ﷺ " ؟

قالت : هذه أمك تسمع .

قال : فلا شيء عليك منها .

قالت : سالم صالح .

قال : أين هو ؟

قالت : في دار ابن الأرقم .

قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أرى رسول الله " ﷺ " ، فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل ، وسكن الناس ، خرجتا به يتكئ عليهما ، حتى أدخلتاه على رسول الله " ﷺ " ، فأكب عليه رسول الله " ﷺ " فقبله ، وأكب عليه المسلمون ، ورق له رسول الله " ﷺ " رقة شديدة ، فقال أبو بكر بأبي وأمي يا رسول الله ، ليس بي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي برة بولدها ، وأنت مبارك فادعها إلي الله ، وادع الله لها عسى الله أن يستنقذها بك من النار ، فدعا

بها رسول الله " ﷺ " ودعاها إلى الله فأسلمت ، وأقاموا مع رسول الله " ﷺ " في الدار شهراً (١) .

وأراد الله للمسلمين قوة ، فجعل من اشتداد أذى قريش للمسلمين سبباً في إسلام حمزة عم رسول الله ، وعمر بن الخطاب " رضي الله عنهما " ، وهما من فتيان مكة ، اللذين اشتهرا بالشجاعة ، والبأس ، وكان القرشيون يهابانهما لقوتهما .

يسوق ابن إسحاق قصة إسلام حمزة فيقول : أن أبا جهل مر برسول الله " ﷺ " عند الصفا ، فآذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف لأمره ، فلم يكلمه رسول الله " ﷺ " ، ومولاة لعبد الله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى نادٍ من قريش عند الكعبة ، فجلس معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب " رضي الله عنه " أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من قنص له ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم ، وكان أعز فتى في قريش ، وأشد شكيمة ، فلما مر بالمولاة ، وقد رجع رسول الله " ﷺ " إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمارة ، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد آنفاً من أبي الحكم بن هشام ، وجده ها هنا جالساً فآذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد " ﷺ " .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يقف على أحد ، معداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فشجه شجة منكرة ، ثم قال : أتشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك علي إن استطعت ، فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل " دعوا أبا عمارة فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً ، واستمر حمزة " رضي الله عنه " على

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٠ .

إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله " ﷺ " من قوله ، فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله " ﷺ " قد عز وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه ، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه [(١)] .

وزاد غير ابن إسحاق أن حمزة لما أسلم كان منفعلاً مندفعاً ، وأدركه الندم على تسرعه ، يقول حمزة " ﷺ " : أدركني الندم على فراق دين آبائي وقومي ، وبت من الشك في أمر عظيم ، لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، وتضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق ، ويذهب عني الريب ، فلما استتممت دعائي إزاح عني الباطل ، وامتلأ قلبي يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله " ﷺ " فأخبرته بما كان من أمري ، فدعا لي بأن يثبتني الله [(٢)] .

وأسلم عمر بن الخطاب " ﷺ " أيضا في وسط التشدد والاضطهاد للمسلمين ، يروي ابن إسحاق بسنده قصة إسلام عمر فيقول : وكان إسلام عمر فيما بلغني أن أخته فاطمة بنت الخطاب ، زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت ، وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام ، رجل من قومه ، من بني عدي بن كعب قد أسلم ، وكان أيضا يستخفي بإسلامه فرقا من قومه ، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحا سيفه يريد رسول الله " ﷺ " ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له ، أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا ، وهم قريب من أربعين ، ما بين رجال ، ونساء ، ومع رسول الله " ﷺ " عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلي بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين " رضي الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله " ﷺ " بمكة ، ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة .

---

(١) سيرة النبي " ﷺ " لابن هشام ج١ ص ٢٩١ .

(٢) سيرة النبي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٩٢ .

بلقيه نعيم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً هذا الصابئ ، الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأي أهل بيتي ؟

قال : ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة ، فيها : ﴿ طه ۝ ﴾ يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم ، أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها ، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما .

فلما دخل قال : ما هذه الهينمة التي سمعت ؟

قالا له : ما سمعت شيئاً .

قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضربها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، فارعوى، وراجع نفسه ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟ ! ، وكان عمر كاتباً .

فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخاف ، وحلف لها بآلهته ليردها إذا قرأها إليها .

فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أخي، إنك نجس، على شركك، وأنه لا يمسها إلا الطاهر ، فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها ﴿ طه ﴾ فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه ، فقال له : يا عمر ، والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه ، فإني سمعته "ﷺ" أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فالله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر " فدلني يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم .

فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه . فأخذ عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمد إلى رسول الله " ﷺ " وأصحابه ، فضرب عليهم الباب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله " ﷺ " ، فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف ، فرجع إلى رسول الله " ﷺ " وهو فزع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله " ﷺ " : ائذن له ، فأذن له الرجل ، ونهض إليه رسول الله " ﷺ " حتى لقيه في الحجرة ، فأخذ حجزته ، أو بمجمع ردائه ، ثم جبذه به جبذة شديدة ، وقال: ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فو الله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة . فقال عمر : يا رسول الله، جئتك لأؤمن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله " ﷺ " تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله " ﷺ " أن عمر قد أسلم [١] .

---

(١) سيرة النبي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٦ .

وبإسلام حمزة " ﷺ " وعمر " ﷺ " بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة ؛ لأنهما لم يرتضيا لدينهما هذا الاستتار ما دام هو الحق .

وقد سأل عمر عن أكثر الناس قولاً ، وأفشاهم للحديث ، وعلم أنه جميل بن معمر الجمحي فأتى إليه ، وأخبره بأنه أسلم ، فصاح جميل بأعلى صوته : إن ابن الخطاب صبأ .

وذهب إلى أبي جهل وأخبره بإسلامه .

وأراد كفار مكة قتل عمر فأجاره العاص بن وائل السهمي ، يروى البخاري بسنده أنه بينما كان عمر بن الخطاب في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل السهمي — أبو عمرو ، وعليه حلة سبرة ، وقميص مكفوف بحرير ، وهو من بني سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : مالك يا عمر ؟

قال عمر : زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت .

قال : لا سبيل إليك ، وبعد أن قالها أمنت .

فخرج العاص ، فلقي الناس قد سال بهم الوادي ، فقال : أين تريدون ؟

فقالوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صبأ .

قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس [١] .

وكان إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام ، وبذلك بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة إلى الله تعالى ..

لقد تم الانتقال إلى هذه المرحلة في وقت كان كفار مكة يخططون للقضاء على الإسلام والمسلمين بعدما شعروا بخطورة الإسلام على وضعيتهم في مكة .

* هل كان يتصور كفار مكة أن ينقلب حمزة عليهم بهذه الصورة المفاجئة ؟ ! !

* وهل توقعوا أن يتبعه عمر ، ويعلن إسلامه بعده بثلاثة أيام فقط ؟ !

---

[١] المنهج الحركي ج ١ ص ٨١ .

- وهل ظنوا مرة أن يجير العاص بن وائل عمر وينقذه منهم ، وقد كادوا أن يفتكوا به ؟ ! !
- وهل دار بخلدهم أسرار هذه المواقف المفاجئة ، وفى هذا الوقت بالذات ؟ ! !

لم يفكروا فى شئ من ذلك ، ولم يتوقعوه ، لأنهم لم يتصوروا القدر الإلهى ، ونصره لعباده المؤمنين .

إن عقول البشر جميعاً تعجز عن تصور أى شئ من هذه القضايا،ولا تقدر على اكتشاف شئ من أسرارها . وكل ما تصوره أهل مكة ، عن محمد "ﷺ" ودعوته وعن المؤمنين به عكس ما حدث ، لأن المواجهة وقتها تصاعدت وتضخمت ، والتخطيط لقتال محمد ومن معه أمر موجود .

لكن إرادة الله غالبة ، وقدرته لا حدود لها ، ففى وسط الضعف تبرز قوة ، ومن ثنايا الجبروت والطغيان يأتى العدل والحق ، والله غالب على أمره ؛ ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

※ ※ ※

المبحث السادس

مرحلة الجهر العام بالدعوة

أكرم الله تعالى المسلمين في مكة بإسلام حمزة بن عبد المطلب " رضي الله عنه " وعمر ابن الخطاب " رضي الله عنه "،فلقد أعز الله بهما الإسلام،وقوى المسلمون،يقول صهيب بن سنان " رضي الله عنه " : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعي إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حلقا ، وطفنا بالبيت،وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به [1] .

ويقـــول عبد الله بن مسعود " رضي الله عنه " : مازلنا أعزة منذ أن أسلم عمر [2] ، يروى ابن إسحاق أنه لما أسلم عمر نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسـلام عمر، وهو الفاروق ، لأنه كان سبباً في التفريق بين عهدين ، لأنه لما أسلم قال لرسول الله " ﷺ " : ألسنا على الحق ، وهم على الباطل ؟

قال " ﷺ " : بلى .

قال عمر : ففيم الاستخفاء ؟ ! [3] .

وأمـــر عمر " رضي الله عنه "على أن يخرج المسلمون من دار الأرقم جهاراً ، معلنين إسلامهم ، فخرجوا في صفين في أول الصف الأول عمر ، وفي أول الثاني حمزة وهم يهللـــون ، ويكـــبرون ، ولهم دوي كدوي الرحى ، حتى دخلوا المسجد الحرام بهذه الصورة الجهرية الجماعية، ولذلك قال " ﷺ " : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه [4] .

والفـــرق واضح بين إظهار أبي بكر للإسلام وبين إظهاره بعد إسلام عمر ، لأن إظهار أبا بكر كان فردياً ، أما بعد إسلام عمر فكان إظهاراً جماعياً قام به المسلمون

---

(1) الطبقات الكبرى ج ٣ ص ٢٦٩ .

(2) المرجع السابق ص ١٨ .

(3) مناقب عمر لابن الجوزي ص ١٨ .

(4) الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان ج ٦ ص ٢٥٢ .

وخرجوا من دار الأرقم يهللون ويكبرون .

وهكذا

بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة يصدع بها رسول الله " ﷺ " وصحابته " رضوان الله عليهم " ، وينادون بها قولاً ، وعملاً ، في بيوتهم ، وفي كل مكان . وعند البيت .

لقد حاول أبو بكر " ﷺ " إظهار الدعوة بالبيت قبل ذلك فأوذى إيذاءً شديداً [١] ، فلما أسلم حمزة وعمر حقق المسلمون ما تمناه أبو بكر قبل ذلك .

وشعر كفار مكة بخطورة الإسلام لما رأووا من قوة أتباعه ، وكثرة معتنقيه ، وشدة إخلاصهم لما يؤمنون به ، وحينئذ شددوا في الاضطهاد ، والأذى .

والفرق بين الجهر الأول ، والجهر الثاني أن الجهر الأول كان خاصا بالدعوة يقوم به رسول الله " ﷺ " علانية ، بينما الجهر الثاني صار عاماً يقوم به الرسول " ﷺ " وأصحابه القادرون على التبليغ ، كما أن السرية ظلت ملازمة لتحرك المسلمين في المرحلة الأولى وهم يتعلمون الإسلام من رسول الله " ﷺ " في دار الأرقم ، وفي الشعب ، أو في الأماكن النائية ، أما في المرحلة الثانية فقد أخذ المسلمون يظهرون مناسكهم في الأماكن العامة ، عند الكعبة ، وفي أماكن العمل ، وصاروا يجتهدون في إبراز الإسلام في عملهم ، ونسكهم ، وخلقهم .

ولهذا ...

كانت الحركة بالدعوة في المرحلة الأولى أشبه بحركة المرحلة السرية ، أما مرحلة الجهر العام فكان لها طابعها الخاص في الدعوة إلى الله تعالى .

* * *

---

[١] أنظر ص ٤٧٣ وما بعدها .

المبحث السابع

الحركة بالدعوة

خلال مرحلة الجهر العام

أدى تغيير صورة الجهر العام عن المراحل السابقة إلى أن أخذ طابع الحركة بالدعوة صوراً عديدة ، منها القديم ، وفيها الجديد .

فمع ثبات المضمون الفكري للدعوة إلا أن بقية الجوانب قد تغيرت . .

فلقد تنوعت الوسائل ، وأصبحت شاملة لكل وسيلة ممكنة ، وتغيرت الأساليب ، وصارت ملائمة للمدعوين مع تعدد مذاهبهم ، وأماكنهم ، وحاجاتهم .

وقد اضطر رسول الله "ﷺ" والمسلمون معه إلى مواجهة الاضطهاد الذي يقع عليهم من أهل مكة مما أمكنهم في إطار ماهم فيه من قلة ، وضعف .

وذلك سيتناول هذا المبحث المسائل التالية : ــ

المسألة الأولى

تنوع وسائل الدعوة

لم تعد وسائل الدعوة قاصرة على الاتصالات الشخصية والمواجهة المباشرة ، وإنما رأيناها ظهرت في صور عديدة ، ومختلفة ، ومن أهمها :

أولا : الاتصال بصوره المختلفة

يرى علماء الاتصال في العصر الحديث أن صور الاتصال التي يتم بها التوجيه والدعوة ، تنحصر في ثلاث صور رئيسية هي : ــ

أ - الاتصال الشخصي :

وهو الذي يحدث بين فرد وفرد ، أو بين فرد وعدد قليل. وهذا الاتصال يتم بصورة تلقائية ، لما بين أفراد هذا الاتصال من معرفة مسبقة، وتلاق عادي كالرجل وبنيه ، والإنسان وجاره ، والعامل وزملائه ، والطالب وإخوانه ، وهكذا ...

ويتميز هـذا اللون بأنه اتصال هادئ ، يقوم على الثقة ، وتبادل الرأي في وضـوح ، وبساطة ، ورد الفعل واضح عند الطرفين، لأنه يتم مباشرة بين الأطراف مـن غـير واسطة ، وبلا سابق إعداد، وفي موضوعات شتى ، والدعاة إلى الله تعالى يستفيدون هذا الاتصال ، ويجعلونه طريقاً لدعوتهم التي يبررونها لمعاشرتهم بالقول، أو بالعمل، أو بالتأمل والتفكير المشترك ..

وهـذا الاتصال يفيد في نطاق المجتمع الصغير ، والبدائي ، كالأسرة، ورفاق المسجد ، والقرية ، وجماعة العمل ، وفريق اللعب ، وهكذا ..

ب ـ الاتصال الجمعي :

وهـو الاتصال الذي يتم بين القائم به وبين جماعة من الناس ، بعد إعداد، وتنظيم يشمل المكان ، والزمان ، والموضوع .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم مواجهة ، وبطريقة مباشرة ، لأن الإعداد والتنظيم يجمع أفراداً تقاربت ثقافتهم ، واهتماماتهم ، ونشاطهم العام ، وكل هذا يساعد على وضـوح الرؤية ، ومعرفة مدى استجابة الجماعة لتوجيهات القائم بالاتصال .. ومن أمثلة هذا الاتصال تجمع الناس لخطبة الجمعة ، أو لسماع درس ، أو لمناقشة قضية مثارة ، أو لحل مشكلة تهم المجتمعين .

جـ ـ الاتصال الجماهيري :

وهو الاتصال الذي يتم بين القائم بالاتصال وبين جمهور عريض غير محدد ، وبطـريقة غـير مباشرة ، ويتميز هذا الاتصال بسعته ، وسرعة انتشاره ، وبتخطيه لـلحواجز المادية ، ووصوله لكل الناس في مختلف أحوالهم ، وأماكنهم، وأعمالهم ، ومن صور هذا الاتصال : النشرات التعليمية ، والكتب المؤلفة، وتوجيهات الصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية ، وأشرطة التسجيل ، وهكذا ..

ومـع تميز هذا الاتصال بالسعة والتنوع فإنه يحتاج لبذل مالي،وعقلي في إعداد رسائله،ومعرفة مدى استجابة الناس لما يطلب منهم ، والوقوف المباشر على تساؤلاتهم

واستفساراتهم ، والتأكد من وصول الأفكار إليهم على الصورة المطلوبة .

تلك هي صور الاتصال الممكنة ، التي تحدث عنها علماء الإعلام في العصر الحديث . وقد أحاطوها بهالة تفيد أنها من مستحدثات العصر ، ومخترعات الحضارة المعاصرة ، برغم ذلك نقول ، وبكل وضوح : **إن رسول الله " ﷺ " استخدم هذه الصور الثلاث** وهو يدعو الناس خلال مرحلة الجهر بالدعوة . .

فبالنسبة للصورة الأولى : نرى أنه " ﷺ " استخدم وسيلة الاتصال الشخصي مع أهل بيته ، وأقربائه ، وأصحابه الذين أسلموا ، حيث كان يلتقي بهم بصورة تلقائية ، عدداً من المرات ، في اليوم الواحد ، وكان " ﷺ " يسألهم عن أحوالهم ، ويجيب لهم عن ما يعن لهم ، ويؤمهم في الصلاة ، ويبلغهم ما نزل من وحي ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم ، ويحثهم على الصبر والتحمل ، ويشد من أزرهم .

وكان " ﷺ " يقابل غير المسلمين المعروفين له ، يدعوهم إلى الله تعالى ، ويدور عليهم في بيوتهم ، وأماكن تواجدهم في مكة ، أو حولها ، وكان كلما قابله واحد يعرفه في الطريق ، أو عند البيت ، حراً أو عبداً ، ضعيفاً أو قوياً ، غنياً أو فقيراً ، إلا ويعرض عليه دعوة الله تعالى ، ويطلب منه الدخول في دين الله تعالى .

وكان " ﷺ " يتبع الناس في مجالسهم ، ومحافلهم ، وفي المواسم ، والأسواق ليدعوهم إلى الله تعالى بالحسنى ، وبالخلق الكريم .

وكان " ﷺ " يشرك من يدعوه في تناول قضية الدعوة من أجل إقناعه بالحسنى ، وذلك أمر مهم في حركة الدعوة ، لأن الدعوة ليست تسلطاً واستعلاء ، وليست احتقاراً لعقل الناس ، وليست استهانة بقدراتهم على التصور ، والحكم السليم .

أنظر إليه "ﷺ" وهو يدعو الحصين والد عمران ، حيث تراه يستدرجه إلى المنطق ، ويضعه أمام اعتراف صريح بالإيمان ، فقد أخرج ابن خزيمة عن عمران من خالد من طريق من عمران بن حصين قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن قريشاً جاءت إلى الحصين ، وكانت تعظمه ـ

فقـــالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر آلهتنا ويسبهم ، فجاءوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي "ﷺ" .

فقال النبي "ﷺ" : أوسعوا للشيخ ، وعمران وأصحابه متوافرون .

فقـــال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك : إنك تشتم آلهتنا ، وتذكرهم ، وقد كان أبوك حصينة وخيراً ؟

فقال "ﷺ" : يا حصين ! إن أبي وأباك في النار ، يا حصين ! كم تعبد من إله ؟

قال : سبعاً في الأرض وواحداً في السماء .

قال "ﷺ" : فإذا أصابك الضر من تدعو . قال : الذي في السماء .

قال "ﷺ" : فإذا هلك المال من تدعو ؟

قال : الذي في السماء .

قال "ﷺ" : فيستجيب لك وحده ، وتشركه معهم ، أرضيته في الشكر ، أم تخاف أن يغلب عليك ؟

قال : ولا واحدة من هاتين ، وقد علمت أني لم أكلم مثله .

قال "ﷺ" : يا حصين ! أسلم تسلم .

قال : إن لي قوماً وعشيرة فماذا أقول ؟

قال "ﷺ" : قل : اللهم ، أستهديك لأرشد أمري وزدني علماً ينفعني ، فقالها حصين فلم يقم حتى أسلم ، فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبي "ﷺ" بكـــى وقال : بكيت من صنيع عمران. دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران. ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرقة ، فلما أراد حصين أن يخرج قال "ﷺ" لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة الباب رأته قريش فقالوا : صبأ وتفرقوا عنه [1] .

ونراه "ﷺ" يعيش مع واقع حصين ، ويسائله فيها إلى أن تحقق لدعوته ما يريد .

[1] حياة الصحابة ج ١ ص ٥٥ .

إن الدعوة في حد ذاتها تقدير للإنسان ، وتوجيه أمين للفكر والعقل ، وإيقاظ للفطرة والإنسانية السليمة ، وبذلك يتم الإيمان بالإقتناع والفهم ، ويرتبط المسلم بدينه حباً وولاءً وطاعة .

وبالنسبة لصورة الاتصال الثانية : وهي الاتصال الجمعي نرى أنه " ﷺ " استعد لها ، فلقد كان " ﷺ " يتخير الجماعة القليلة العدد ، المتفقة اتجاهاً ، الموحدة هدفاً ، ويعد لهم اجتماعاً منظماً ، في جو من الود والمحبة لما بين الرسول " ﷺ " وبين هذا الجمع من صلات القربى ، والمعاشرة ، والقومية وغير ذلك .. كما حدث بعد أن أمر بالجهر بالدعوة فإنه " ﷺ " أمر علياً ابن عمه ، بأن يعد طعاماً ، وشراباً لأعمامه ، وعماته ، وقد تكرر هذا التجمع بين الرسول " ﷺ " وبين أعمامه ، وعماته ، ومن خلال هذا الاتصال اتضحت مواقف كل طرف ، وظهر خط كل فرد فقد أعلن أبو لهب عصيانه ، وتصديه للدعوة ، وأعلن أبو طالب وقوفه مع الرسول " ﷺ " وحمايته له غير أنه سيستمر على دين أبيه ، ومن هذا القبيل أن رسول الله "ﷺ" كان يعرض الإسلام على من يعرفهم ، ولو كانوا أعداء ، فلقد اجتمع عند ظهر الكعبة مع صناديد مكة ، وهم عتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا من بني عبد الدار ، وأبا البختري أخا بني الأسد ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد ، وزمعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ، وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين [1].

والاتصال الجمعي : وسيلة تحتاج إلى الإعداد الجيد ، لأن الرسول أو الداعية يعرف مقدماً الهدف الذي من أجله كان تنظيم هذا الاتصال ، ولذلك لزم إعداد الموضوع ، وعرضه بطريقة مقنعة ، ترضي المستمعين .

وعلى منظم هذا الاتصال أن يتوقع المعارضات العديدة لموضوعه ، ليستعد بالشرح ، والتفصيل ، وتفنيد المزاعم التي قد تظهر في اجتماعه ، أنظر إلى رسول الله

---

(١) ... ٤٧٤

"ﷺ" وهـــو يدعـــو أبا جهل ومعه المغيرة بن شعبة .... يقول المغيرة : إن أول يوم عرفـــت فيه رسول الله "ﷺ" أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أزقة مكة ، إذ لقينا رسول الله "ﷺ" فقال رسول الله"ﷺ" لأبي جهل : يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله .

فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت منته عن سب آلهتنا ؟ ... هل تريد إلا أن تشهد أنك قد بلغت ؟ ... فنحن نشهد أن قد بلغت ، فو الله لو أني أعلم أن ما تقول حق لاتبعتك .

فانصرف رسول الله "ﷺ" وأقبل على أبي جهل فقال:والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء:إن بني قصي قالوا:فينا الحجابة ، فقلنا : نعم،ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ،ثم أطعموا وأطعمنا حتى إذا تحاكت الركب قالوا : منا نبي ، والله لا أفعل [١] .

وبالنسبة للصورة الثالثة :

وهي التي تعرف بالاتصال الجماهيري ، فقد استعملها النبي " ﷺ " ، وربما من ورائها أن يصل الإسلام إلى الجماهير الغفيرة من الناس .

لما جهر الرسول " ﷺ " بالدعوة ، ورغب في دعوة أهل مكة جميعا استعان بهذه الوسيلة الجماهيرية ، فصعد على الصفا ، وأخذ ينادي في الناس فعم ، وخص ، ونـــادى بطـــون قريش بطناً بطناً ، فجعل الواحد منهم إذا لم يجد وقتاً ، أرسل من يعرف له الخبر ... وهكذا تواجدت مكة كلها عند الصفا [٢] .

وخرج "ﷺ" عند المروة بعد نزول قوله تعالى : ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ۝﴾ ثم قال : يا آل فهر ، فجاءته قريش فقال أبو لهب بن عبد المطلب : هذه فهر عندك

---

[١] حياة الصحابة ج ١ ص ٦٥ .

[٢] أنظر ص ٤٧٤ .

فقال ، فقال : يا آل غالب ، فرجع بنو محارب وبنو الحارث ابنا فهر ، فقال : يا آل لؤي ابن غالب ، فرجع بنو تيم الأدرم بن غالب ، فقال : يا آل كعب بن لؤي ، فرجع بنو عامر بن لؤي ، فقال : يا آل مرة بن كعب ، فرجع بنو عدي بن كعب وبنو سهم وبنو جمح بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي ، فقال : يا آل كلاب بن مرة ، فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة ، فقال : يا آل قصي ، فرجع بنو زهرة بن كلاب ، فقال : يا آل عبد مناف ، فرجع بنو عبد الدار بن قصي وبنو أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو عبد بن قصي ، فقال رسول الله "ﷺ" : إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من الله حظاً ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : (لا إله إلا الله) فأشهد بها لكم عند ربكم ، وتدين لكم العرب وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو لهب : تباً لك فلهذا دعوتنا ؟ فأنزل الله ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾[1] .

ووصلت الدعوة إلى كل أهل مكة ... ولذلك عدت هذه الطريقة اتصالا جماهيرياً .

وكان " ﷺ " يوجه أصحابه إلى هذه الطريقة ويقول لهم : ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

* * *

---

[1] حياة الصحابة ج ١ ص ٧٢ .

ثانيا

الدعوة بالحوار والمفاوضة

دعا الرسول " ﷺ " بهذه الوسيلة أملا فى إسلام من يفاوضهم ، ويحاورهم .

وهـــذه الوسيلة تختلف عن الاتصال الجمعي فى أنها قد تكون تلقائية ، وقد تكـــون بإعداد وتوجيه من المدعوين لا من رسول الله " ﷺ " ، وحينئذ يأتى الرسول أو الداعية للمفاوضة ، وهو لا يعرف موضوعها ، وكل ما فى ذهنه ، وكل ما يأمله هو عرض الدعوة ، وإيمان الناس بها .

وكـــان رسول الله " ﷺ " يؤمل فى المفاوضات ، ويرجو أن تكون سببا فى إسلام أهل مكة . .

يروى ابن كثير صورا لهذه المفاوضات ، ومنها أن أشراف مكة اجتمعوا عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد فكلموه ، وخاصموه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه ، فجاءهم رسول الله " ﷺ " سريعا ، وهو يظن أنه قد بدا لهم فى أمره شيئا ، وكان حريصا ، يحب رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .

فقـــالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله لا نعلم رجلا من العرب أدخـــل عـــلى قومـــه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وســـفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، وما بقى من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك [١] .

ثم عرضوا أن يحققوا له المال ، أو الملك ، أو الشرف ، أو الزوجة الجميلة ، إن كان هو ما يعمل له .. فأجابهم " ﷺ " : ما بى ما تقولون ، ما جئتكم بما جئتكم بـــه أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل على كتابا ، وأمرني أن أكون لكم بشيرا ونذيرا ، فبلغتكم رسالة ربي ،

---

[١] البداية والنهاية ج ٣ ص ٥٠ .

ونصحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فقالوا : يا محمد فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلادا ، ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا [1] ، وحاجتنا شديدة إلى المال ، والماء ، والعطاء ، وأخذوا يطلبون أموراً حسية تاتيهم على وجه خارق للعادة ..

فمرة يقولون : سل لنا ربك الذى بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليجر فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ، وليكن فيما يبعث لنا منهم قصي بن كلاب فإنه كان شيخا صدوقا، فنسألهم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن فعلت ما سألناك، وصدقوك صدقناك، وعرفنا به منزلتك عند الله،وأنه بعثك رسولاً كما تقول [2] .

ومرة ثانية يقولون :سل ربك أن يبعث لنا ملكا يصدقك بما تقول ، ويراجعنا عنك ، وتسأله فيجعل لنا جنانا، وكنوزا، وقصورا من ذهب، وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي. فإنا نراك تقوم فى الأسواق، وتلتمس المعاش ،كما نلتمسه، حتى نعرف فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم [3] .

ومرة ثالثة يقولون : أسقط السماء كما زعمت أن ربك إن شاء فعل ، فإنا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

واستمر أهل مكة فى هذه العروض لا يقصدون من ورائها سوى السخرية ، وإضاعة الوقت ، والرسول يقول لهم فى كل مرة : ما بهذا جئت ، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه على أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم [4] .

---

(١) [illegible]
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]
(٤) [illegible]

ورغم مقصد أهل مكة من هذا الحوار ، إلا أنه يعتمد على أسلوب بياني له فوائده ... فهم يعرضون قضيتهم ، ومزاعمهم ، مع شبههم ووجهة نظرهم ، والرسول "ﷺ" يسمع ، ويرد عليهم في حلم ، ورفق بما يرد ظنهم ، ويحدد لهم ما يدعوهم إليه .

إن وسيلة المفاوضة تتميز بإظهار مراد كل طرف منها ، ونظرته إلى الطرف الثاني ، ومنهجه في العرض والرد ... ولذلك اتخذها الرسول "ﷺ" وسيلة لعرض الإسلام .

ويبدو أن هذه المفاوضات تعددت مع النبي "ﷺ" ، وقام بها غير واحد من القرشيين ، وكلها تتجه وجهة معينة ، فقريش تبرز ما حل بها بسبب الدعوة ، وتحاول صرف النبي "ﷺ" عنها بإغرائه بكافة ألوان الإغراء ، مع تهديده ، وتخويفه ، إن لم يتفق معهم ، والنبي "ﷺ" يرد بالوحي المنزل عليه ، ويقرأ عليهم من القرآن ما يناسب المقام ، ليبين حقيقة الدين الإلهي ، في أنه منزل من الله ، وحقيقة القرآن العربي المبين ، وحقيقة الرسول الداعية ، مع إنذارهم بالويل ، والثبور إن لم يؤمنوا بالإسلام ، وتذكيرهم بما حل بمن سبقهم ، وهم على علم به .

لقد قام الرسول "ﷺ" خلال هذه اللقاءات بالدعوة إلى دينه ، حيث كان يسمع لمقالة القوم ، وشبههم ، ومزاعمهم ، ثم يكر بالنقض والرد .

إنه رسول يحمل رسالة ، وكتاب ربه معه يهدي به من ضلال ، وينقذه من حال ، وإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا ، ويستغفروا فمحمد الرسول عبد بشر ، وهو أول من يستقيم لربه ، ويستغفر ، إنه لا يحتاج للمال ، ولا للملك ، ولا للجاه ، فقد استبان له الطريق ، ووضحت أمامه معالم الهدى ، وتيقن من كل ما نزل عليه .

إنه "ﷺ" متمسك برسالته ، ومستمر في الدعوة لها بالحسنى ، واللين ، والحجة ، والبرهان ، والبصيرة ، والوضوح .

وهكذا كانت المفاوضات وسيلة للدعوة إلى الله تعالى، يقول الإمام ابن كثير (اعترض المشركون على رسول الله وتعنتوا في أسئلتهم له، حيث طلبوا أمورا من الآيات وخوارق العادات على وجه العناد، لا على وجه الطلب والإرشاد، وكان الرسول يسمع منهم، ويرد عليهم، بالرفق واللين، ويبين لهم خطأ جدالهم وعنتهم)(١).

ثالثا

الدعوة بالانتقال إلى القبائل ودعوتهم

وكان رسول الله يذهب إلى قبائل العرب، وبطونهم، يدعوهم إلى الله بالحكمة واللين، وكان ينتهز المواسم، والأسواق، ويذهب إلى القبائل في اجتماعهم ويدعوهم. يقول الزهري: كان رسول الله "ﷺ" في تلك السنين يعرض دعوته على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم شريف كل قوم، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويسمعوا له ويقول: (لا أكره أحداً منكم على شئ، من رضى بالذى أدعوكم إليه فذلك، ومن كرهه لم أكرهه.. فلم يقبل أحد منهم، وما بات أحد من تلك القبائل إلا قال: قوم الرجل أعرف به، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومه، ولفظوه)(٢).

وقد ذكر الواقدى البطون والأفراد الذين ذهب إليهم رسول الله"ﷺ" ودعاهم إلى الإسلام، وعدهم واحداً واحداً، موضحاً مواقفهم.

وأهم هذه الانتقالات من أجل الدعوة ذهاب النبى "ﷺ" إلى الطائف لدعوة بنى ثقيف إلى الإسلام حيث عرض عليهم أن يأوى إليهم ويكون معهم إذا أسلموا، لكنهم ردوه رداً قبيحاً، وسلطوا عليه سفهاءهم وأطفالهم، فرموه بالحجارة، وطردوه من ديارهم وحيداً لا يجد لنفسه نصيراً من الناس، ولا مأوى في ديارهم(٣).

---

(١) انظر: البداية والنهاية ج ٣ ص ٤٩ — ٥٣.

(٢) [illegible] ج ٣ ص ١٤٠.

(٣) [illegible] ص ٣٦٦.

فاتجـــه إلى الله قائلا : (اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على الناس .. أنت أرحم الراحمين،أنت رب المستضعفين، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟! إلى بعيد يتجهمني ! أم إلى عدو ملكته أمري ؟ !

إن لم يكـــن بـــك غضب على فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي ! أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، أن يحل علي غضبك ، أو أن ينزل بي سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) [١] .

وكان نصر الله مع رسول في هذه الشدة فاستجاب له الدعاء ، فآمـــن به " عداس " ، ولما اتجه إلى مكة أجاره " المطعم بن عدى "، فدخل مكة في جواره [٢] .

إن الانتقال بالفكرة برهان على أهميتها ، واهتمام صاحبها بها ، وهذا في حد ذاته يدفع العقلاء إلى الاستماع ، والمعرفة ، والفهم .

وهكذا استعمل رسول الله " ﷺ " وسيلة الانتقال من أجل الدعوة وتبليغ الرســـالة لمـــا لها من أهمية في مباشرة التوجيه ، ومعرفة موقف المدعوين ، والرد على تساؤلاتهم واستفساراتهم، وكان النبي لا يفرق بين قوم وقوم،ولا بين مكان ومكان ، بـــل كان يتجه كلما أمكنه ذلك ... ولعل ذهابه إلى الطائف سيرا على قدميه ذهابا ورجوعا، دليل على ذلك ، وعلى مدى ما تحمله الرسول للدعوة بهذه الوسيلة .

رابعا

الدعوة بمقابلة الوفود

استقبال الوفود، لإحاطتهم بالأمور التي وفدوا من أجلها، أسلوب انتشر بعد صلح الحديبية لكثرة الوافدين ، حتى ظن كثير من الناس أن هذه الوسيلة لم تظهر قبل صلح الحديبية .

---

(١) الكامل ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) انظر ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ .

لكن ذلك ليس صحيحاً،فلقد ظهرت هذه الوسيلة قبل الهجرة ..

وأهمية هذه الوسيلة تبرز في أنها تبلغ قوماً جاءوا يبحثون عن الحقيقة ، ولديهم رغبة في الاستماع إليها، كما أن هؤلاء الوافدين لا يثقون فيما لديهم من معلومات أو خبر ، ويريدون أن يسمعوا الحقيقة من مصدرها ، وبخاصة أن أهل مكة ، وأعداء الدعوة أخذوا في ترويج الإشاعات، ونشر الأكاذيب حول محمد ودعوته . . ولهذا جاءت الوفود للرسول نفسه بعيداً عن قالة السوء ، ومروجي الإشاعات ، وناقلي الأخبار الكاذبة .

ومجيء الوفد دليل على رجحان عقل أصحابه ومن وراءهم ، فهم من أجل الوصول للحق والصواب جاءوا متحملين للمشاق ، باذلين من وقتهم وجهدهم ومالهم الكثير في سبيله .

إن الغالبية العظمى للوفود التي وفدت على رسول الله " ﷺ " ، في مكة أو في المدينة ، كانت خيراً لأصحابها، إذ دخلوا في الإسلام بعد أن عرفوه، وعلموا حقيقته .

وأول وفد جاء للنبي " ﷺ " وهو في مكة،وفد نصارى الحبشة حيث قدم على رسول الله " ﷺ " عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك فكلموه ، وسألوه،وتحدثوا معه (ورجال من قريش يرقبونهم)،فلما فرغوا من أسئلتهم،واستفسارتهم،استمعوا لرسول الله عليهم فيما أرادوا،ويدعوهم إلى الإسلام،ويقرأ عليهم القرآن،حتى فاضت أعينهم من الدمع،وآمنوا،وصدقوا،ودخلوا في دين الله تعالى،فلما قاموا من عنده " ﷺ " اعترضهم أبو جهل ونفر من قريش،وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب،بعثكم من وراءكم من أهل دينكم، ترتادون لهم، فتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم، وصدقتموه فيما قال لكم، ما نعلم ركباً أحمق منكم .

فردوا عليهم: لا نجاهلكم،سلام عليكم،لنا أعمالنا،ولكم أعمالكم،لا نألوا أنفسنا خيراً [١] .

---

(١) البداية ج ٣ ص ٨٢ .

ومن أشهر الوفود التى قدمت إلى مكة وفد الأوس والخزرج الذين جاءوا إلى رسـول الله وقابلوه عدداً من المرات وبايعوه بيعتين عند شعب العقبة ، تعرفان ببيعة العقـبة الصغرى ، وبيعة العقبة الكبرى، حيث اتفق النبي " ﷺ " فى البيعة الثانية على أن يهاجر والمسلمين إلى المدينة ، على أن يمنعه أهلها عما يمنعون به نساءهم، وأبناءهم ، وأموالهـم ، واخـتار منهم أثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس يكونون على قومهم بما بايعوا عليه [١] .

ويعـد وفد الأنصار هذا من أكثر الوفود تأثيرا فى مسار حركة الدعوة، فبه نشأت قوة الإسلام فى المدينة ، وكانت الهجرة ، وكانت الدولة الإسلامية .

إن استقبال الباحث عن الحقيقة يحتاج لداعية كفء يفهم قضيته ، ويعرف طـرق عرضها الحسن ، ويجيد التعامل مع الوافد ذى الثقافة المعينة ، والبيئة الخاصة ، والتقاليد المتنوعة .

ولقـد كان رسول الله " ﷺ " بمعونة الله له يتعامل مع الوفد بطريقة حكيمة حسنة تؤدى إلى النتائج التى يرجوها المخلصون ، والبحث عن الحقيقة موجود دائماً ، وتصورات العقول يشوبها الشك كثيراً وهى تريد الوصول لليقين ، والمشكلة تكمن فى وجود أشخاص يتعاملون مع الواقع،ويطوعون القضايا ، ويوجهونها نحو الصواب ، ويجيدون فهم الدعوة ، وحسن عرضها على الأفهام .

ولقد كان " ﷺ " نموذجا عالياً فى الاستفادة بهذه الوسيلة ، لأن القبائل كانت تتخير أعلم أبنائها ، وأعقلهم ، ويحددون له الهدف المقصود ، وكان الرسول " ﷺ " يقابلهم وهو يرجوهم للإيمان .

لا بد من معرفة دوافع الوفد للحضور ، وكشف خصائص أفراده ، ومعرفة مـن وراءه ، ولذلـك فالاستماع لأفراده ابتداء ضرورة لا بد منها ، وكان " ﷺ " يسـتمع للوفـد ويجيـب على تساؤلات أعضائه،ويكرم وفادتهم ويقدم لهم النصح

---

[١] انظر تفصيلات ، مورد الأخبار من ص ١٤٩ إلى ص ١٧٠ .

ويدعوهم بالحسنى والهدوء ، ولذلك كان أعضاء الوفود يتأثرون بكرم الخلق ، ويدهشون لجلاء الحق ، ويؤمنون بدين الله رب العالمين .

* * *

خامسا

الدعوة بإرسال الرسائل والدعاة

من الوسائل التي دعا بها رسول الله " ﷺ " في مرحلة ما قبل الهجرة إرسال الدعاة والرسائل ، وبخاصة إلى الأماكن البعيدة .

ومن الرسائل ما كتبه النبي " ﷺ " وأرسله إلى النجاشي وحمله عمرو بن أمية الضمري وجاء فيه : (من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم ملك الحبشة ، سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك، القدوس، المؤمن، المهيمن ، وأشهد أن عيسى روح الله، وكلمته، ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة، الطيبة، الحصينة، فحملت بعيسى " عليه السلام " فخلقه من روحه، ونفخته، كما خلق آدم بيده، ونفخته ، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالاة على طاعته ، وأن تتبعني، فتؤمن بي، والذى جاءني ، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي جعفرا، ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر فإني أدعوك، وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام على من اتبع الهدى)[1] .

وقد أسلم النجاشي الأصحم، وأرسل إلى النبي يخبره بذلك ، ويعرفه أنه لا يملك إلا نفسه ، وهو النجاشي الذى أكرم وفادة المسلمين إليه ، وصلى عليه رسول الله " ﷺ " حينما علم بوفاته .

---

[1] البداية والنهاية ج ٣ ص ٨٣ ، وفي المرجع تفصيلات واسعة عن أعمال محمد في المدينة .

وكما أرسل النبي " ﷺ " رسائله خلال هذه المرحلة بعث بعض الدعاة متميزين بالخصائص التي تؤهلهم للدعوة ، ومن هؤلاء " مصعب بن عمير " فلقد أرسله النبي " ﷺ " إلى المدينة عقب بيعة العقبة الأولى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين .. فنزل مصعب على (أسعد بن زرارة) فكان يصلي بمن أسلم،ويدعو إلى الله تعالى،وسمي" ﷺ " في المدينة بالقارئ والمقرئ .

وبسبب مصعب دخل الإسلام كل بيوت المدينة ، وعلى يديه أسلم زعيما الأوس والخزرج ، وخيرة رجال الأنصار .

ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة الهجرة الثانية كان معهم جعفر بن أبي طالب أميراً مقدماً عليهم ، ومتحدثا نيابة عنهم ، وقد قام جعفر بدوره كداعية مسلم : يفهم دينه ، ويوضحه بالحسنى والحكمة ، ذلك أن قريشاً أرسلت وفدا من قبلها إلى النجاشي ليعيد المهاجرين إلى ديارهم .

حاول أعضاء وفد قريش إحداث وقيعة بين النجاشي وبين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة إلا أنها قوبلت بحكمة جعفر الداعية.

يروي ابن إسحاق بروايته عن أبي موسى قال : أمرنا رسول الله " ﷺ " أن ننطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي ، فبلغ ذلك قريشاً فبعثوا عمرو بن العاص وعمارة بن الوليد ، وجمعوا للنجاشي هدية ، وقدما على النجاشي، فأتياه بالهدية فقبلها، وسجدا له ، ثم قال عمرو بن العاص : إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا ، وهم في أرضك .

قال النجاشي : في أرضي ؟ ! .

قالا : نعم ..

فبعث النجاشي إلينا ، فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد أنا خطيبكم اليوم ، فانتهينا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه، وعمرو عن يمينه . وعمارة عن يساره ، والقسيسون جلوس سماطين ، وقد قال له عمرو وعمارة : إنهم لا يسجدون لك .

فلما انتهينا بدأنا من عنده من الرهبان قائلين : اسجدوا للملك .

فقال جعفر : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

فلما انتهينا إلى النجاشي قال : ما منعك أن تسجد ؟ !

قال جعفر : لا نسجد إلا لله .

فقال له النجاشي : وما ذاك ؟

قال جعفر :(إن الله بعث فينا رسولاً، وهو الذي بشر به عيسى بن مريم "عليه السلام" من بعده اسمه أحمد . فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر) .

وأعجب النجاشي بقول جعفر .

فقال عمرو بن العاص : أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم !

فقال النجاشي لجعفر : ما يقول صاحبكم في ابن مريم ؟

قال جعفر : يقول بقول الله فيه : (هو روح الله وكلمته أخرجه من العذراء البتول التي لم يقربها بشر ، ولم يفرضها ولد) .

فتناول النجاشي عوداً من الأرض ورفعه وقال : يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ولا وزن هذه .. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده فأنا أشهد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ، امكثوا في أرضي ما شئتم ، ثم رد هدية قريش[1] .

وتعد الهجرة إلى الحبشة عملاً إسلامياً رائداً ، يدخل في إطار التبليغ العام للدعوة ، لأن الإسلام بهذه الهجرة وصل إلى خارج الجزيرة العربية ، وبدأ انتشاره عملياً في العالم .

ويخطئ من يتصور الهجرة إلى الحبشة فراراً من الأذى ، لأنها كانت في الأصل هجرة للدعوة إلى الله تعالى ، وفي نفس الوقت راحة من عدوان قريش .

---

[1] البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٠ .

يدل على أنها كانت هجرة للدعوة إلى الله فى الأساس أن أغلب الذين هاجروا كانوا من ذوى القوة والمنعة فى مكة،ولهم من عصبتهم من يدافعون عنهم وعلى رأسهم جعفر بن أبى طالب ، وله من أبيه وقومه قوة ومنعة وفى نفس الوقت بقى الموالى ، والمستضعفون ولم يهاجروا ، وبقوا فى مكة صابرين ، محتسبين .

وأيضا فلقد هاجر نسوة من أشراف مكة ، والنسوة لا يتعرضن للأذى كما هو عرف العرب فى الجاهلية ..

ويلاحظ أن هذه الهجرة ضمت رجالا من اليمن كذلك .

وهؤلاء لا صلة لهم بما يجرى فى مكة لأنهم ليسوا منها، وعلى رأس هؤلاء اليمنيين أبو موسى الأشعرى ، الذى هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين إليها .

ولو كانت الهجرة إلى الحبشة هروبا ، وفراراً فقط ما حاول أهل مكة أن يستعيدوا هؤلاء المهاجرين الفارين ، لأنهم بفرارهم قد تخلصوا منهم ، ولو كانت الهجرة فراراً وخوفاً لعاد المهاجرون عقب الهجرة إلى المدينة مباشرة بعد زوال سبب الخوف، ولكنهم لم يرجعوا إلى المدينة إلا فى العام السابع بعد الهجرة .

إن الهجرة إلى الحبشة كانت دعوة ناجحة ، وكان أفرادها خير ممثلين للإسلام ، وخير دعاة إليه ، ولذلك حملوا رسالة النبى "ﷺ" إلى النجاشى ، وسلموها إليه بمجرد وصولهم إلى بلاده .

وهكذا كان دعاة الإسلام الذين أرسلهم رسول الله وهو فى مكة إلى المدينة وإلى الحبشة ، كانوا قوة فى الحق ، وصبراً على البلاء ، وحكمة فى الدعوة ، وأفقاً واسعاً،ودقة عالية فى فهم الموقف،والتعامل معه بما يفيد الدعوة ، ويؤدى إلى الإيمان ..

لم يعرف مصعب "ﷺ" الانفعال فى مواجهة التعنت والإيذاء ، وإنما كان رقة فى السلوك ، وسمواً فى الأخلاق ، وصبراً جميلاً فى عرض قضيته على الناس .

ولم يفقد جعفر "ﷺ" رباطة جأشه حينما رأى وفد قريش يتحدثون مع النجاشى ، ويوجهون له الأسئلة فى تحد واستفزاز ، وإنما كان متخلقا بخلق الإسلام ،

يرد مما علمه الله ، ويجيب وفق ما سمع من رسول الله ، واثقاً فى علو الحق وانتصاره ، وقد كان له ما تمنى .

إن الدعوة فى المجتمعات غير الإسلامية تحتاج إلى مثل هذه النماذج الرائدة من الدعاة المخلصين .

تلك هى أهم الوسائل التى دعا بها النبى " ﷺ " خلال مرحلة الجهر بالدعوة فى مكة ، ويلاحظ أن وسائل المرحلة السرية لم تهمل وإنما كانت وسائل مستمرة تواكب نتاجها ، وهكذا سائر الوسائل تكون مع حركة الدعوة على طول الزمن .

* * *

« سادساً »

الدعوة بالعمل والتطبيق

حافظ الرسول " ﷺ " على تطبيق ما يدعو إليه ، والالتزام به على وجه دقيق وبذلك قدم دعوته للناس بمنهج عملي .

ولـــذا كـــان من أوائل الذين عذبوا وأذوا ، وحين دعا المؤمنين إلى الصبر والـتحمل كـــان من أوائل الصابرين ، وبقى "ﷺ" مع قومه محاصراً فى الشعب حين أتاهم الفرج وحين عرض عليه قومه الملك ، والمال ، والجاه ، رفض عرضهم ، وبين لهم أنه رسول الله إليهم ، وإلى الناس كافة ، يحمل لهم دين الله تعالى [١] .

واستمر يقيم فى مكة مع كفارها فى الوقت الذى وجه أصحابه " رضوان الله عليهم " بالهجرة إلى الحبشة حيث الأمن والهدوء .

لقد كان رسول الله " ﷺ " مثالاً عملياً فى التأسى ، والقدوة ولذلك جعله الله تعالى مناط الأسوة والاتباع ، يقول الله تعالى : ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ [٢] .

---

[١] أنظر ص ٣٤٢ وما بعدها .

[٢] سورة الأحزاب آية (٢١) .

إن حياة الرسول العملية كانت دعوة حكيمة ناجحة؛ لأن النفوس تتأثر بالأعمال أكثر من تأثرها بالأقوال، لأن دلالة العمل على الصدق أوضح من دلالة القول المجرد فربما كان القول لكسب شخصي ، أو لغاية قاصرة ، أما عمل الرسول والدعاة فهو دليل على إيمانهم اليقيني بما يدعون إليه ، وينادون به .

- سابعاً -

الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلي

أقـــام المجتمع القرشي قبل الإسلام عادة جاهلية ، وحافظ عليها ، وهي عادة الحماية والجوار : ومعناها أن الضعيف إذا لجأ لقوي أجاره ، وأعلن حمايته ، وحينئذ لا يجرؤ أحد على التعدي عليه ، وإن لا قامت الحرب .

ولذلك كان المجير قوي الشكيمة، عزيزاً في قومه، متمكناً من حماية من يجير .

وهـــذه العـــادة لا صلة لها بفكر المستجير ، أو ثقافته ، ولذلك استفاد منها رسول الله "ﷺ" وهو يتحرك بالدعوة في مكة .

وقد عاش الرسول "ﷺ" في حماية عمه أبي طالب ، يقول ابن إسحـــــاق : (وحدب على رسول الله "ﷺ" عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله "ﷺ" على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء؛ فلما رأت قريش أن رسول الله لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه ، من فراقهم وعيب آلهتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حـــدب عليه ، وقام دونه فلم يسلمه لهم)[1] . وقد حاول كفار مكة عدة مرات صرف أبي طالب عن حماية محمد فلم يتمكنوا ، وكان لحماية أبي طالب أثر فعال في خدمة الدعوة حيث بقي رسول الله يدعو إلى دين الله تعالى وهو يقيم في مكة .

ومن صور الحماية والجوار التي استفاد بها المسلمون ما روته السيدة عائشة " رضي الله عنها " ، قالـــت : (لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله "ﷺ" طرفي النهار ، بكرة وعشية ، فلما ابتـــلي المسلمون خرج

---

[1] السيرة النبوية ج ١ ص ٢٨٤ .

أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : أين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي ، فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي .

فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببلدك .

فرجع أبو بكر ، وارتحل معه ابن الدغنة ، فطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أتخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويصل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟

فلم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة : فأمر أبا بكر ، فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء، ولا يؤذينا بذلك، ولا يستعلن ، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر .

فطفق أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وبرز فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن ، فتتقصف عليه نساء المشركين، وأبناؤهم يعجبون منه، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً، لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، وقد جاوز ذلك ، وابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتن أبناءنا ونساءنا ، فانهه ، فإن أحب على أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أبى إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك ذمتك ، فإنا قد كرهنا أن نخفر ذمتك ، ولسنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال : قد علمت الذي عاقدت لك عليه فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي ، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني خفرت في رجل عقدت له .

فقال أبو بكر : فإني أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله) [١] .

ومــن صور الإجارة ما سبق ذكره حين عودة النبي "ﷺ" من الطائف فلقد دخل مكة في جوار المطعم بن عدى على نحو ما سبق ذكره [٢] .

ومن المعلوم أن الاستفادة بالواقع الاجتماعي في نجاح الدعوة أمر مباح ما دام لا يمـس جوهر الدعوة بصورة ما .. أما إذا أدى إلى أى مساس ضار بالدعوة فإنه لا يجـوز ، ولـذلـك صاح الرسول "ﷺ" في وجه عمه باكيا حينما طلب منه أن يبقى الدعـوة على نفسه ، قال له : **يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه** [٣] .

وكما فعل أبو بكر " ﷺ " فإنه رد جوار ابن الدغنة حين وجده قيدا عليه في الدعوة ، واكتفى بحماية الله له .

المسألة الثانية

أساليب الدعوة

من خلال البلاغة القرآنية

تنـتقل الأفكـار ، والمعلومات من طرف إلى آخر بواسطة ألفاظ ، وجمل ، تملك قوة التأثير ، والإقناع ، وتحقق الغاية من إطلاقها منطوقة أو مكتوبة ، أو مصورة .

والبلاغة بفنونها المختلفة هي المورد الفياض الذي يقدم للدعوة أسلوبها المؤثر ومقولتها السديدة .

---

[١] صحيح البخاري ــ باب الكفالة ــ باب جوار أبي بكر ــ ج٤ ص ١٣٠ ــ ط . الأوقاف .

[٢] انظر ص ٣٧٦ .

[٣] سيرة ابن هشام ج١ ص ٢٦٥ .

والقـــرآن الكريم هو الذروة الأعلى في البلاغة العربية ، وهو الأسلوب الذى يـــبعه النـــبى "ﷺ" فى عرض دعوته ، وتبليغ دين الله تعالى ، ولذلك حين نبحث فى أساليب الدعوة فى عصر الرسالة نجد أنفسنا تلقائياً أمام القرآن الكريم نستنطقه فيطلعنا على أسلوب رسول الله فى الدعوة ، ونستهديه فيهدينا .

ومـــن هنا ندرك أن القرآن الكريم هو دستور الدعوة موضوعاً ، ووسيلة ، وأسلوباً ، وغاية . .

والقرآن الكريم يقدم الفصاحة العالية البليغة . فى أسلوبه ، ونسقه ، ويصور المعـــنى المقصـــود تصويراً حركياً ، حيث يجسد المعنى ، ويقدمه مشخصاً ، ظاهراً ، حيث نجده يفضل الكلمة المصورة للمعنى أكمل تصوير فيشعرك به أتم شعور وأقواه ، وعند لذلك أمثلة : ـــ

كلمة " يسكن " فى قوله تـــعالى : ﴿ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ﴾[1] لما فى السكون من الهدوء ، والثبات كأنها على الأرض .

وكلمة " تسوروا " فى قوله تعالى : ﴿ ۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴾[2] لدلالة الكلمة على المفاجأة ، والمخالفة ، والاستعلاء .

وكلمة " يطوقون " فى الآية الكريمة : ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[3] لأن الطوق يعم ويشمل ما بداخله فى إحكام .

وكلمة " سفك " فى آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[4] ، لأن السفـــك

---

(1) سورة الشورى آية (٣٣) .
(2) سورة ص آية (٢١) .
(3) سورة آل عمران آية (١٨٠) .
(4) سورة البقرة آية (٣٠) .

يشير إلى كثرة إسالة الدم والعدوان .

وكلمة " انفجر " في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ﴾ [1] ، لما فيها من المفاجأة والانطلاق ، والكثرة ، والدهشة .

وكلمة " يخرون " في الآية : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [2] ، لدلالة يخرون على الاقتناع، والخضوع ، وقوة الإيمان .

ومن بلاغة القرآن الكريم وتميزه في التصوير الحركي، نراه يعبر عن المعنى المعقول بألفاظ تدل على محسوسات ، تبين أثر ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في النفس ، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيده تمكناً من النفس ، وتأثيراً في الوجدان ، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ﴾ [3] وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ ﴾ [4] لترى قدرة كلمة ختم في تصوير امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس،وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ﴾ [5] لترى قيمة كلمتي **الظلمات والنور** ، في إثارة العاطفة وتصوير الحق والباطل ، وتلمس من كلمة " **يخرجونهم** " ففيها دلالة على تصوير

---

[1] سورة البقرة آية (٦٠) .

[2] سورة الإسراء الآيات (١٠٧ – ١٠٨) .

[3] سورة البقرة آية (٧) .

[4] سورة الجاثية آية (٢٣) .

[5] سورة البقرة آية (٢٥٧)

بالإخراج بصورة حسية مع أنه من المعنويات التي يدركها العقل المجرد .

وقوله تعالى : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ [1] لنرى قيمة هذه الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر إلى عالم لا يسمع ، ولا يتكلم ولا يرى بسبب عتوهم وكفرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ ﴾ [2] .. فكلمات **ينقضون ويقطعون ويوصل** ، تصور الأمور المعنوية في صور الحس الملموس ، وفي القرآن من أمثال ذلك عدد ضخم .

وقد يأتي القرآن الكريم بكلمتين فيهما سر الإيحاء ومصدره ، كالجمع بين الناس والحجارة ، في قوله تعالى : ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴾ [3] فهذا الجمع يوحي إلى النفس بالمشاكلة بينهما ، والتشابه

وقد تكون العبارة بجملتها هي الموحية كما تجد ذلك في قوله تعالى : ﴿ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [4] أولا تجد هذه الثياب من النار ، موحية لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب أليم ، فقد خلقت الثياب يتقي بها اللابس الحر والقر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران .

ومن هذا الباب قوله تعالى : ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾ [5] فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران .

---

(1) سورة البقرة آية (١٨)

(2) سورة البقرة آية (٢٧) .

(3) سورة البقرة آية (٢٤) .

(4) سورة الحج آية (١٩) .

(5) سورة الزمر آية (١٦)

يقول السيوطي في الإتقان : المعنى الواحد قد يخبر عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معاني الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر في أكثر الأحوال ، وذلك ميسر حاصل في علم الله فلذلك كان القرآن الكريم أحسن الحديث وأفصحه ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح ، ولذلك أمثلة منها قولـــــه تعالى : ﴿ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ [1] ، من جهة أن الثمر لا يشعر بمصيره إلى حال يجنى فيها ، ومن جهة مؤاخاة الفواصل .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾ أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة .

ومنها : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أحسن من (لاشك فيه) لثقل الإدغام ، ولهذا كثر ذكر الريب .

ومنها ﴿ وَلَا تَهِنُواْ ﴾ أحسن من (ولا تضعفوا) لخفته .

ومنها ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى ﴾ : أحسن من (ضعف) لأن الفتحة أخف من الضمة .

ومنها " أمن " أخف من " صدق " ، ولذا كان ذكر الإيمان أكثر من ذكر التصديق .

ومنها ﴿ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ ﴾ أخف من (فضلك) .

ومنها (آتى الدهر) أخف من (أعطى) .

ومنها (أنذر) أخف من (خوف) .

---

(1) سورة الرحمن آية (٥٤)

ومنها ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أخف من (أفضل لكم) والمصدر في نحو ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ ﴾ ، ﴿ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أخف من (مخلوق) و (الغائب) و (نكح) أخف من (تزوج) ؛ لأن فعل أخف من تفعل ، ولهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر .

ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة ، الغضب ، والرضا ، والحب ، والمقت ، في أوصاف الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة ، لأنه لو عبر عن ذلك بألفاظ الحقيقة لطال الكلام ، كأن يقال : يعامله معاملة المحب ، والماقت ، فالمجاز في مثل هذا أفضل من الحقيقة ؛ لخفته ، واختصاره ، وابتنائه على التشبيه البليغ فإن قوله ﴿ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أحسن من (فلما عاملونا معاملة المغضب) أو (فلما أتوا إلينا بما يأتيه المغضب) أ . هـ[1] .

ولم يزد مرور الزمن بألفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها ، وسياجاً لجلالها ، لم تبل لفظة ولم تتخل عن نصيبها ، في مكانها من الحسن ، وقد يقال : إن كلمة الغائط من قوله سبحانه : ﴿ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾[2] قد أصابها الزمن فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها ، ولكنا إذا تأملنا الموقف ، وأنه موقف تشريع وترتيب أحكام ؛ وجدنا ، أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى ، وصاغه في كناية بارعة ، فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض ، وكان يمضون إليه في تلك الحالة ، فتأمل أي كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة ، وإن شئت أن تتبين ذلك فضع مكانها كلمة تبرزتم ، أو تبولتم ، لترى ما يثور في النفس من صور ترسمها هاتان الكلمتان ، ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية

---

[1] الإتقان جـ٢ ص ١٢٥ .

[2] سورة المائدة آية (٦) .

يوم نزل القرآن ، وأنها لا تزال إلى يوم الناس هذا أسمى ما يمكن أن يستخدم ، في هذا الموضع التشريعي الصريح .

وتأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها مطمئنة في موضعها ، غير نافرة ولا قلقة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحت لاختل المعنى واضطرب الفهم ؛ فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية، ينقص ويختل بنقصانها .

وقد يشتد تمكن الفاصلة في مكانها ؛ حتى لتوحي الآيات بها ، قبل نطقها ، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال : أملى على رسول الله " ﷺ " هذه الآيـــة : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ﴾ وهنا قال معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ فضحك رسول الله " ﷺ " ، فقال له معاذ : مم ضحكت يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت [١] .

وحتى ليأبى قبولها ، والاطمئنان إليها ، من له ذوق سليم ، إذا غيرت وأبدل بها سواها ، كما حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : ﴿ فَإِن زَلَلْتُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾، ولم يكن يقرأ القرآن وختم بأن الله غفور رحيم، فقال الأعرابي : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه [٢]، والآية إنما ختمت بقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وخذ الآيات التي تنتهي بوصفه تعالى بالعلم ، أو بالقدرة ، أو بالحلـــم ، أو

---

[١] الإتقان ـــ ج ١ ص ١٠٤.

[٢] المرجع السابق ـــ ج ١ ص ١٠١ .

بالغفران ، تجد المناسبة في ذلك الختم واضحة جلية ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ ﴾ [1] فهو يعلم بما نجري في المشرق والمغرب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [2] السميع لدعوانا ، والعليم بما تضمره أفئدتنا من الإخلاص لك ، وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ ﴾ [3] ، فهو سميع بما تم من وصية ، وعليم بمن يبدلها ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [4] فالمجيء بالساعة في مثل لمح البصر أو أقرب يستدعي القدرة الفائقة ، وقوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ ﴾ [5] فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة خارقة ، وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾ ﴾ [6] فمالك السموات والأرض ـــ لا ريب ـــ يقدر على كل شيء .

---

[1] سورة البقرة الآية (١١٥) .

[2] سورة البقرة الآية (١٢٧) .

[3] سورة البقرة الآيات (١٨٠ ــ ١٨١) .

[4] سورة النحل الآية (٧٧) .

[5] سورة الحج الآية (٦) .

[6] سورة آل عمران الآية (١٨٩) .

وقد تجتمع فواصل متنوعة ، في إطار غاية واحدة ، لحكمة يريدها الله تعالى من هذا التنوع في هذا التنوع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَـٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ۝ ﴾ [1] ، فإن الموضوع عرض لإثبات أدلة وجود الله ، وقدرته ، ووحدانيته ، ومع ذلك تنوعت الفواصل ، حيث ختمت آية بيتفكرون ، لما أن الاستدلال بإنبات الزرع ، والثمر ، على وجود الله وقدرته ، يحتاج إلى فضل تأمل ، يرشد إلى أن حدوث هذه النوع يحتاج إلى إله قادر ، يحدثه ، فناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به ، وانتهت الثانية بيعقلون ، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان ، ليرتاح ليلاً ، ويعمل نهاراً ، وتسخير الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فتشرق وتغرب في دقة ونظام تامين ، يحتاج إلى عقل يهدى إلى أن ذلك لابد أن يكون بيد خالق مدبر ، فختمت الآية بيعقلون ، وختمت الآية الأخيرة بيذكرون ، لأن الموقف فيها يستدعي تذكر ألوان مختلفة بثها الله في الأرض ، للموازنة بين أنواعها ، بل الموازنة بين أصناف نوع منها ، فلا يلهيهم صنف عن سواه ، ولا يشغلهم نوع عن غيره ، وهذه الموازنة تقتضي إلى الإيمان بقدرة الله ، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة .

---

[1] سورة النحل الآيات (١٠ ــ ١٣) .

هذا ..

وقد أبرز القرآن الكريم مع فصاحة الكلمة ، وبلاغة الآيات ، ودقة الفواصل وروعة التعبير صوراً تعد قمة في الفصاحة والبلاغة ، وتجعل القارئ أو المستمع أمام صوره حسية بارزة ، تصورها الكلمات ، وتقدمها للعقل في هيئة جميلة ، مقبولة ، بعيدة عن التجريد العقلي الخالي من الإثارة ، والتوضيح .

إن الأسلوب التصويري يختلف عن الأسلوب التجريدي في أن التجريد يضع المعنى في صوره معنوية تحتاج لإدراكها إلى عقل واع ، وفهم عالم ، أما التصوير الحسي فإنها تقدم المعنى في صورة متحركة تلتقي مع الحس ، وتثير الوجدان ، وتوجد في النفس انفعالاً يدفعها إلى معايشة الحدث ، ومتابعته ، والتأثر به .

ومن أهم ما قدمه القرآن الكريم في مجال الأسلوب التصويري ما يلي :-

١ - التصوير بالألفاظ والعبارات

ألفـاظ القرآن الكريم كلها مختارة ومقدرة لتحتل مكانها في الجملة بحيث لا يغني عنها سواها ، ولتنهض بدورها في تأدية المعنى على أكمل وجه ، وأتم بيان ، وأبلغ صيغة .

والقرآن الكريم لم يبتكر ألفاظاً كانت مجهولة قبله ، بل الجديد في لغة القرآن أنه في كل شأن يتناوله من شئون القول يتخير له أشرف المواد ، وأمسها رحماً بالمعنى المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للامتزاج ، ويضع كل مثقال ذرة في موضعها الذي هو أحق بها ، وهي أحق به ، بحيث لا يجد المعنى في لفظة إلا مرآته الناصعة ، وصورته الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطنه الأمين ، وقراره المكين .

وقـد مـر بـنا منذ قليل عدد من الأمثلة على كلمات قرآنية وضعت في موضعها ورأينا كيف أنها صورت معناها ، وقدمته جلياً ، واضحاً ، شاملاً لكل جوانبه وعناصره .

كما شاهدنا تميز الكلمة في موضعها عن سواها المشتمل على نفس المعنى . .

وكما بدت البلاغة القرآنية فى الكلمة الواحدة ، والجملة المركبة ، فإنها تتحقق كذلك فى الآيات الكثيرة وهى تتحدث عن موضوع ما .. ومن أمثلة ذلك السموغ نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ۝ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝ ﴾[1] وهذه الآيات جزء من قصة أصحاب الجنة التى ذكرها القرآن الكريم بياناً لعاقبة البخل ترهيباً منه ، وحثاً على البذل ، ونقف عند الكلمات ﴿ فَتَنَادَوْا ﴾ و ﴿ مُصْبِحِينَ ﴾ و ﴿ فَانطَلَقُوا ﴾ و ﴿ يَتَخَافَتُونَ ﴾ فنجدها تصور حركة أصحاب الجنة وهم يتنادون مبكرين قبل أن يستيقظ الفقراء ، ثم وهم ينطلقون إلى جنتهم لا يصرفهم شئ عما اعتزموه ، ثم وهم يبالغون من التكتم زيادة فى الحيطة ، ويتخافتون ويسرون بالكلام ، وهذا التصوير الذى قامت به الكلمات يثير الخيال ، ويجعله يتابع حركتهم ، ويستثير فى النفس حبها للاستطلاع ، ويستولى على مشاعر السامع فلا يستطيع التحول عن متابعتهم فيرى نهاية أمرهم ، ومن ثم يستقر فى وجدانه الدرس القيم الذى سيقت القصة من أجله .

ومن أمثلته قوله تعالى : ﴿ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ۝ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ۝ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ۝ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ۝ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ۝ ﴾[2] والآيات الكريمة تخوف من البخل وعاقبته ، ولذا نقف عند الكلمات ﴿ نَارًا ﴾ و ﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ و ﴿ الْأَشْقَى ﴾ و ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ و ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ﴾ ففيها من القدرة على التصوير ما يجعلها أبلغ فى الترهيب ، فالمنذر به ﴿ نَارًا ﴾ ومن ذا الذى لا يفزع من النار ، ويعمل ما يقى نفسه شرها ، ثم هى نار ﴿ تَلَظَّىٰ ﴾ أى تتسعر ، ويشتد لهيبها ثم

---

[1] سورة القلم الآيات (٢١ — ٢٤) .

[2] سورة الليل الآيات (١٤ — ١٨) .

باعتبار صيغة المضارع للمبالغة في تأثير التصوير باستحضار المشهد، كأنه واقع وقت التكلم، وما يلقيه المشهد في الحس من الفزع والخوف .

ولو عبر بألفاظ أخرى لا تستطيع هذا التصوير مثل " عذاباً شديداً " لما كان له مثل هذا الأثر المناسب للمقام .

وقوله ﴿ ٱلْأَشْقَى ﴾ الذى يجعل المستحق هذا العذاب في قمة الشقاء ونسك إضافة جديدة تزيد التعبير قدرة على الترهيب ، ثم لنتأمل قوله ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ الذى يصور المكذب في عدم استجابته للدعوة وعناده كأنه يذهب بعيداً عن الدعوة مبالغة في وصفه بالكفر الذى استحق به العذاب .

أما قوله تعالى ﴿ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴾ فإنه يصور الأتقى وقد أبعد عن مصدر الخطر ، فلم يكتف بالوعد بعدم تعذيبه بل أخبر بأنه سيكون بعيداً عن النار زيادة في الاطمئنان ، وحثاً على البعد عن أسباب الشقاء .

وهكذا يبدو أثر التصوير بالكلمات في تقوية المعاني وزيادة تأثيرها في النفوس تحقيقاً لما يرمى إليه الداعية ترهيباً أو ترغيباً .

٢ ـ التصوير بالتشبيه

أسلوب التشبيه من الأساليب القوية في التأثير لما تملكه من عناصر الحركة والتوضيح ، يقول الإمام عبد القاهر الجرجاني : أن التشبيه يفتح إلى القلب طريقاً متصلاً بالعين .

وعلى ذلك فهو تحريك للعين والقلب والحواس ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ۝ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝ ﴾ (١)

فقد جاءت هذه الآيات بعد آيات صورت مصير المؤمنين ، والكافرين بعد استقرارهم في الجنة والنار .

---

(١) سورة المدثر الآيات (٤٩ ـ ٥١) .

وقد بدأت الآيات باستفهام إنكاري عن سبب إعراضهم عن الإيمان مع وجود كل دواعي الاستجابة ليقوا أنفسهم هذا المصير الذي ينتظرهم .

والقرآن يصورهم في نفورهم من الدعوة، والإسراع في إبعاد أنفسهم عنها أسراعا يمضون فيه على غير هدى ، بالحمر المستنفرة التي تبالغ في الفرار، وتحث نفسها عليه، فراراً من أسد هصور، يبغي اللحاق بها لافتراسها ، فكم توحي هذه الصورة بالعجب من أمرهم، والسخرية منهم ، ثم ما أعظم ما أبرزته هذه الصورة من أحوالهم : فهم في فرارهم هذا من الدعوة لا يلجأون إلى مأمن من الخطر ، بل يفرون على غير هدى ولا بصيرة ، ثم إبراز ما في نفوسهم من كراهيتهم العميقة للدعوة في تلك الصورة البالغة التي تحملهم على المبالغة في البعد عنها، وعدم الاستماع إليها فضلاً عن تدبرها، وإذا كنا نركز هنا على أثر التصوير في إبراز المعاني فإن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى عوامل أخرى تضمنتها الصورة، ضاعفت ما لها من تأثير فاختيار لفظ " الحمر " وما يوحي به من دناءة، وخسة، مبالغة في السخرية بهم ثم اختيار لفظ " قسورة " من بين أسماء الأسد، لما يوحي به من القسر، والعنف مبالغة في سبب فرارهم، وذلك إشارة إلى ما في نفوسهم من مشاعر عدائية، تحثهم على الفرار من الدعوة، وهكذا يبرز التشبيه المعاني ويثبتها في النفوس، ويوحي بما يحقق الهدف منه، ويتضح هذا جلاء إذا حاولنا أن نعبر عن هذا المعنى بأسلوب غير أسلوب التشبيه كأن نقول مثلا : فما لهم يعرضون عن الدعوة كل هذا الإعراض، أو هذا الإعراض الشديد ؟ ! !

٣ - التصوير بضرب المثل

يطلق المثل ويراد به : القول السائر الذي يمثل مضربه بمورده . وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً ، فيه غرابة، صيرته جديراً بالتسيير في البلاد، وحقيقا بالقبول استعير لكل حال ، أو صفة ، أو قصة ، لها شأن عجيب ، وخطر غريب ، من غير أن

يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيه [١] .

ونطلق بالمعنى الأول على الاستعارة التمثيلية التي اشتهرت وصارت مثلا وهي كثيرة في القرآن الكريم ، ومن المعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [٢] أي الوصف الذي له شأن عظيم وخطر جليل ، وقوله : ﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [٣] أي قصتها العجيبة الشأن .

هذا وأسلوب المثل له خطره بين فنون القول وقدرته على التأثير التي يستمدها من خصائصه المميزة : —

أولها : ما يعبر عنه السيوطي في الإتقان بقوله : (ضرب الأمثال يستفاد منه أمور كثيرة ، ومنها تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والغائب بالمشاهد) [٤] .

ويقول عنه صاحب الكشاف : (ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في أبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى يريك المتخيل في صورة المحقق والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأن مشاهد وفيه تبكيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامح الأبي) [٥] .

وثانيها : أن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر ، وإيقاظ النفوس ، وتجديد نشاطها ، فالإنسان يميل بطبيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال

---

[١] تفسير أبي السعود . ج ٦ ص ٤٠ .

[٢] سورة النحل الآية (٦٠) .

[٣] سورة الرعد الآية (٣٥) .

[٤] الإتقان في علوم القرآن ... ج ٢ ص ١٣١ .

[٥] تفسير الكشاف ... ج ١ ص ١٩٥ .

حكمتها ورشاقة لفظها ، وإصابتها المعنى ، وطرافتها التى تتجدد ولا تبلى . مما نرى أثره فى وجوه السامعين لها وإقبالهم عليها وتسليمهم بحكمتها .

وثالثها : أن المثال وسيلة من وسائل الإقناع، فإن المورد للمثل إنما هو فى الحقيقة يقيس الأمر الذى يدعيه على أمر معروف عند من يخاطبه، ومسلم لديه ، ومن ثم لزم التسوية بينهما فى الحكم، وتحقق الإلزام به .

تلك أهم عوامل التأثير فى أسلوب ضرب المثل ، ولنورد بعض النماذج لها .

يريد القرآن الكريم أن يبين للمشركين تفاهة ما يعبدونه من دون الله وعجزهم المزرى فلا يعبر عن ذلك بوصفهم بالعجز والتفاهة بل يصوره فى هذا المثل المؤثر : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ ﴾[1] .

وأى عجز أبلغ من عجز من يزعمونهم آلهة عن خلق أتفه المخلوقات وأحقرها وهو الذبابة ولو اجتمعوا وتعاونوا فى ذلك ، إنهم يعجزون عما هو أيسر من الخلق، وهو استنقاذ ما يسلبه منهم ذلك المخلوق الضعيف .

أبعد هذا دليل على الجهل والضلال ؟ وهكذا يتركهم القرآن الكريم هم وآلهتهم سخرية الساخرين، وحديث المتندرين .

٤ ـ التصوير القصصى

القرآن فى قصصه لا يعمد إلى الحشد من الحوادث والمواقف فيصورها فى تتابع ليأتى عليه كله ، بل أن القصص القرآنى مرتبط بالغرض الدينى فهو يسوق القصة فى مقام يقتضيها ، ولهدف محدد يرمى إليه ، ومن ثم يختار من الحوادث والمواقف ما يحتاجه المقام ويصيب به الهدف المقصود . حيث ترى القصة تركز مرة على الزمن

---

[1] سورة الحج الآية (٧٣) .

وأخرى على المكان ، وثالثة على الأشخاص ، ورابعة على الحداث ، وخامسة على الحوار .. وهكذا تبعا لما يقتضيه مقام إيراد القصة .

ولهذا نرى القصة الواحدة تكرر مرات عديدة في مقامات مختلفة ، ويختار منها في كل مقام ما يناسب الغرض المذكورة من أجله ، وربما كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قصة يوسف " عليه السلام " ، إذ ذكرت تامة كاملة مرة واحدة .

ولنأخذ للتصوير القرآني للمشاهد والمواقف ، وما يلابسها من برغبات وعواطف ، مثالاً من قصة مريم " عليها السلام " في السورة المسماة باسمها .

والغرض الذي سيقت له القصة هو بيان الحق في شأن عيسى " عليه السلام " وولادته من غير أب ، ونفي ما نسجه النصارى حوله من دعاوى زائفة ، رتبوا عليها ادعاء الوهيته ، أو أنه ابن الإله إلى آخر ما قالوه .

وقد اختار القرآن الكريم في هذا المقام من المشاهد ما يفي هذا الغرض معقبا عليه بتقرير الهدف من القصة في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ۝ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ۝ ﴾ [1] .

أما المشاهد التي اختارها القرآن الكريم فهي مرتبة على النحو التالي: تبدأ بمشهد يمثل مريم بعد أن بلغت مبلغ النساء،وقد انتحت مكاناً بعيداً واتخذت حجابا يسترها عن أعين الناس لشأن من شئونها،يقتضي ألا يراها أحد،ويفاجئها الملك وهي في خلوتها فيساورها الفزع ويدور بينهما حوار ينتهي باستسلامها لأمر الله وتحدث الحمل .

﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ۝ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ۝ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ

---

[1] سورة مريم الآيات (٣٤ ـ ٣٦) .

إن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ﴾ [1] .

المشهد الثاني : يصورها وقد حملت بابنها ، وخافت أن يطلع أهلها على ما بها ، فآثرت البعد عنهم ورحلت إلى مكان بعيد ، وهناك تعاني آلاماً لا قبل لها بها ، فهي تعلم أنها تؤدي دوراً اصطفاها الله له،ولكنها تدرك كذلك أن أحداً لن يصدقها فيما ستذكره من تفسير لحملها هذا الوليد بلا أب ، ثم تجتمع عليها الآلام الجسدية والنفسية عند الوضع فتكاد مقاومتها تنهار ، وتتمنى لو ماتت قبل أن تتعرض لكل ذلك ، ولكن الرحمن يفرج عنها ذلك كله في لحظة ويبرىء جراحها وترى من الآيات ما يملؤها ثقة به تستهين معها بكل شيء .

﴿ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾ ﴾ [2] .

المشهد الثالث : يمثلها وقد عادت تحمل ابنها إلى قومها ، فيواجهونها بما هو متوقع منهم ، بالتأنيب والسخرية ، ويقفونها موقف المسئول عن جريمة ارتكبتها ، ولكن المعجزة الإلهية تنهي الموقف كله ، وينطق الله الوليد ليخبر القوم بالحقيقة .

---

(1) سورة مريم الآيات (١٦ — ٢١) .

(2) سورة مريم الآيات (٢٢ — ٢٦) .

﴿ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ﴾ [1] .

وتنتهي المشاهد عند هذا الحد ، فقد استوفى العرض المسوق له القصة ما تحتاجه من بيان، ولم يبق إلا أن يعقب القرآن عليها بما يبلور مغزاها ويقرر ما دلت عليه .

والمشاهد كما نرى تنقلنا إلى مسرح الأحداث وتعرضها علينا بعد أن تحييها ، وتجعلها تجري تحت أبصارنا وبصائرنا .

ولنلق نظرة على قدرة النص على تصوير المشاعر التي صاحبت هذه الأحداث وجعلتنا نشارك أصحابها إنفعالهم ونتجاوب معهم .

فها هي ذي مريم — تلك الفتاة العذراء الطاهرة — تريد الخلوة فتحتاط ألا يراها إنسان ، وتتخذ الحجاب ، ولكنها تفاجأ بشاب وسيم أمامها، ولنا أن نتخيل إزاء ما أصابها من ذعر وفزع، وماذا تملك وهي فتاة لا حول لها ولا طول ، فماذا تفعل ؟ فلنستمع إلى القرآن يعبر عن فزعها في قوله : ﴿ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ ﴾ .

وعندما يجيبها الملك الكريم موضحاً مهمته لا يجدي ذلك في طمأنتها ونزع الخوف من نفسها ، فقد تكون خدعة دبرها ذلك الذي اقتحم عليها خلوتها وانفرادهـا

---

(1) سورة مريم الآيات (٢٧ — ٣٣) .

لا تستسلم له بل تعمد إلى الاستيثاق من الأمر فتسأله : ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ؟

وعندما يقضي أمر الله وتحمل استجابة بقضائه، وترحل بعيداً عن قومها تنتابها الهواجس ، وتتداعى عليها الهموم ، كيف ستواجه قومها ، وهم أهل عبادة وطهر وغيرة على الشرف والعرض ؟

وكيف ستفسر لهم ما حدث ؟

ثم يضاف إلى آلامها النفسية آلام جسدية مما يصاحب الوضع فتخور مقاومتها ، وتهن عزيمتها ، ولنستمع إلى القرآن يعبر عن ذلك بقوله على لسانها : ﴿ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾ .

ولكن تطوراً مفاجئاً يبدل كل شيء ، وينهي أزمتها ، ويبرئ جراحها المادية والمعنوية ، فترى من آيات الله ما يرد إليها يقينها ، ويملؤها ثقة تواجه بها العالم ، وتتحدى الدنيا ، فإذا بها تعود غير مكترثة لشيء تحمل ابنها في اعتزاز وفخر ، مؤمنة بأن الله الذي رأت فضله وقدرته لن يتخلى عنها مصدقة بوعده، ملتزمة بأمره ، وعندما تبدأ محاكمتها أمام قومها بالسخرية اللاذعة ، والتوبيخ المهين ، لا تحرك ذلك ساكناً فيها ، ولا تهتز ثقتها في الله ولا تزيد عن أن تشير إلى ابنها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ إنه الاطمئنان القلبي لنصر الله ورعايته .

ولكن قومها معذورون ، فهي تحدثهم بما لم يعهدوه ، فلا تقنعهم إجابتها بل يرون فيها تهكماً بهم ، واحتقاراً لهم ، فيردون عليها وهم في ذروة انفعالهم منكرين ذلك عليها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

تلك قدرة التصوير على إبراز المشاعر والتعبير عن أعمق الانفعالات تجعلنا نشارك أبطال القصة مشاعرهم فنحس نحو مريم بالإشفاق عليها ، والتعاطف معها في

محنتها ، والإعظام لشأنها والإعجاب بقوة يقينها ، ونتمنى لو كنا هناك لندفع عنها الأذى ونرده على لائميها .

ويلاحظ أن أسلوب القصة القرآنية يتضمن التشويق ، وتصوير المشهد ، ويمزج الجوانب الدينية بجوانب القصة ، ويبرز الحوار الحسن ، ويكرر بلا ملل أو سآمة .

٥ ـ التشويق والإثارة في الأسلوب

يتضمن أسلوب القرآن الكريم الإثارة والتشويق بعدة طرق فمرة يفصل بعد إجمال ، ويبين بعد إبهام ، لأن النفس مع الإجمال ، والإبهام ، تتشوق إلى معرفة ما وراء ذلك ، وتنتبه لما يأتي عساه يكون شارحاً ، موضحاً ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ [1] هكذا عبر عن جزائهم في إجمال بأن مصيرهم الجنة . ثم فصل ما في الجنة من ألوان النعيم فيقول ذاكرا أحوالهم فيها : ﴿ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۖ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ ﴾ [2] .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [3] هكذا يعبر في إجمال ثم يفصل بعض هذا الملك الكبير والنعيم فيقول سبحانه : ﴿ عَـٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۖ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَـٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ [4] .

---

(١) سورة الإنسان الآية (١٢) .

(٢) سورة الإنسان الآيتان (١٣ – ١٤) .

(٣) سورة الإنسان الآية (٢٠) .

(٤) سورة الإنسان الآيات (٢١ – ٢٢) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ [١] فقد بين أن مساعي الناس في الدنيا متنوعة ثم فصل ذلك بقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ [٢].

ومثال الإبهام ثم التوضيح قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ ﴾ [٣] فقد ذكر لفظ ﴿ مَثَلًا ﴾ مبهماً ثم فسره بما جاء بعده ليثير النفس إلى معرفة المراد ويشوقها إليه .

ومرة بأسلوب التهييج ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [٤] فحاشا لله أن يكون الرسول "ﷺ" ممن لا يتقون الله حتى يؤمر بها ، أو أن يكون مطيعاً للكافرين فينهى عن طاعتهم ولكنه أسلوب الإلهاب والتهييج الذي يراد به الحث على زيادة التمسك والتصلب والثبات على ما هو عليه ، ويكون فضل هذه الطريقة في التعبير على قولنا : استمر في التقوى أو ازدد منها وازدد تمسكاً بعدم طاعة الكافرين والمنافقين : هي أنها تفيد مع ذلك الإلهاب والتهييج ، وتثير الشعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقيا وأكثر تمسكاً بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملا في المعاني الهامة التي هي أصول في هذا الدين [٥] .

---

[١] سورة الليل الآية (٤) .

[٢] سورة الليل الآيات (٥ ـــ ١٠)

[٣] سورة التحريم الآية (١٠)

[٤] سورة الأحزاب الآية (١) .

[٥] من أسرار التعبير القرآني .

٦ ـ التأثير الصوتي من خلال الترتيل

يقـــول الدكتور محمد دراز : أول ما يلاقيك ويسترعي انتباهك من أسلوب القـــرآن خاصية تأليفه الصوتي في صورته، وجوهره ، دع القارئ المجود يقرأ القرآن يرتله حق ترتيله،نازلاً بنفسه على هوى القرآن ، لا نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم انتبـــذ مكاناً قصياً، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها وسكناتها ومداتها وغناتها ، واتصالها، وسكتاتها ، ثم ألق بسمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد جردته تجريداً، وأرسلت ساذجة، في الهواء فستجد نفسك منها بإزاء لحن غريب لا تجده في كلام آخر ، ستجد اتساقاً وائتلافاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموسيقى والشعر على أنه ليس بأنغام ولا بأوزان .

ثم يقول : وهذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا يخفى على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب [1] .

وقـــد تحدثـــنا من قبل عن الألفاظ المصورة بجرسها الخاص ، حتى أنها لتكاد ترسم صورة للمعنى بنغمها المميز من أمثال : الصاخة ، والصرصر وغيرهما .

ثم هو في بناء جمله يعمد إلى لون من التوافق تكاد تكون به متوافقة فـــي الـــوزن ، فاقـــرأ قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ۝ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ۝ ﴾ [2] فـــتجد ذلك الإيقاع المميز الذي يشيع في هذه الجمل ، فيجعلها كأنها مضبوطة بتفاعيل، وأوزان متحدة .

وثمة سمة أخرى للتعبير القرآني هي ذلك التشاكل الواقع بين الحروف في أواخر الآي يطلق عليه العلماء الفواصل ، وهي تمد التعبير بميزة صوتية أخرى تزيد تأثيره في أداء وظيفتها المعنوية . إذ تساعد على تلاوته مرتلاً مجوداً . بأنغام آسرة :

---

(1) النبأ العظيم ، ص ١٠١ ـ ١٠٢ .

(2) سورة الليل الآيات (١ ـ ٤) .

ذات إيقاع يتناسب مع الموقف، واتجاه المشاعر التي تصاحبه، ولهذا نرى القرآن الكريم ينتقل من فاصلة إلى أخرى تبعاً للموقف، وما يتطلبه من إيقاع يتناسب معه.

ولنقرأ قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ (٧) ﴾[1] فنراه يستخدم قافية الراء الساكنة التي يوحي إيقاعها بالحزم والجد الذي يستوجبه سياق هذه الأوامر إلى نبيه الكريم بعد انقطاع الوحي عنه.

فإذا انتقل إلى غرض آخر تغيرت الفاصلة بأخرى ذات إيقاع مغاير ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠) ﴾[2] فهو هنا يذكر باليوم الآخر وما فيه من أهوال، فيختار الألفاظ المتسمة بالشدة والقافية الموحية بالرهبة العميقة.

ومثل هذا نجده في قصة مريم، فقد التزم في القافية الياء المشددة، ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا (١٦) فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا (١٧) ﴾[3] إلى آخر القصة فإذا انتهت وانتقل إلى تقرير معنى القصة وبيان العبرة من ذكرها نقرأ قوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (٣٥) وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٣٦) ﴾[4] فتتغير القافية كما ترى، وكأنما هذه

---

[1] سورة المدثر الآيات (١ – ٧).

[2] سورة المدثر الآيات (٨ – ١٠).

[3] سورة مريم الآيات (١٦ – ١٧)

[4] سورة مريم الآيات (٣٤ – ٣٦).

الآيات الأخيرة تصدر حكماً مستمداً منها ، وطبيعة الحكم تقتضى أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى إيقاعاً رصيناً قوياً بدل إيقاع القصة الرضى المسترسل ولهذا هذا السبب كان التعبير [1] .

وهكذا يستخدم القرآن الكريم الخصائص الصوتية كوسيلة للتأثير كما سبق أن بينا ، فيختار لكل مقام ما تستوجبه البلاغة في التعبير عنه .

٧ ـ إظهار عوامل الطاعة

يعمـــل أسلوب القرآن الكريم على إبراز عوامل الطاعة في النفس البشرية ، ويورد لذلك عديداً من ألوان الترغيب والترهيب [2] .

ويبسط الإنسان بمدى علم الله وقدرته ، ويدعو دائماً إلى النظر في الآيات الكونية ، والإنسانية .

* * *

---

[1] التصوير الفني في القرآن ص ٩٠ ـ ٩١ .

[2] سوف نفصل هذا الجانب في الجزء الثاني بإذن الله تعالى

المبحث الثامن

توافق الأسلوب والموضوع

حين نعيش مع أسلوب الدعوة في عصر الرسالة نلحظ دقة التوافق بين الأسلوب والموضوع .

الدعوة إلى العقيدة : إذا كان الموضوع دعوة إلى العقيدة نرى الأسلوب يتجه إلى قدرات الإنسان المختلفة بالإقناع ، والدليل .

فمرة يتجه إلى العقل ، فيجادله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة ، وأنها متهافتة لا تقوم على أساس ولا يقرها منطق سليم وليسوق له بعد ذلك الأدلة القاطعة على صحة العقيدة الجديدة ، وشهادة المنطق لها ، واطمئنانه إليها ، وهو في جدله ذلك يسوقه في أسلوب تجتمع له جوانب الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ، مما يجعله جديراً بأن يطلق عليه المنطق الوجداني كما سبق .

فقد جادل المشركين ، وركز في جدله على إثبات عجز هؤلاء الشركاء المزعومين ، وعرض ذلك في أساليب متعددة .

مرة بالتلطف ، والاستدراج ، واشراكهم في استنباط النتائج ، والوصول إلى الحق كما فعل إبراهيم " عليه السلام " في إبطال عبادة الكواكب ، وكيف استعرضها إبراهيم "عليه السلام" واحداً واحداً ، ليثبت عدم أحقيتها للألوهية ،حتى إذا انتهى منها جميعاً صدع بالحق الذي يريده قائلاً : ﴿ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ۝ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝ ﴾[1] .

ومرة بأسلوب المواجهة الصريحة ، التي تقطع كل حجة ، وتنهي كل جدل ، كما في تلك التجربة العملية التي قام بها إبراهيم ،ليثبت لقومه أن أصنامهم عاجزة ، لا عن النفع والضر فقط ، بل عاجزة أيضاً عن أن تدفع عن نفسها ، وذلك عندما

---

[1] سورة الأنعام الآيات (٧٨ — ٧٩) .

حطمها وجعلها جذاذاً متناثراً تطؤه الأقدام .

ومرة بأسلوب التقرير الذي يجبرهم على النطق بالحق الذي لا يدفع ﴿ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ۝ قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝ ﴾[1] .

ومرة بالسخرية منهم وتصويرهم في صورة العاجز عن أتفه الأمور ، كما رأينا في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ۝ ﴾[2] .

ومرة بمطالبتهم بالدليل على دعواهم حتى إذا عجزوا كان ذلك قاطعاً في بطلانها لأنها لا تعتمد على دليل .

ومرة بحثهم على تدبر ما في الكون من دلائل على وحدانية الله وهو في هذا المجال يعرض عليهم صفحات ناطقة من كتاب الكون الدالة على ألوهية الله ووحدانيته، فليس عليهم إلا أن يعملوا عقولهم، ويتدبروا وستبدو الحقيقة لبصائرهم جلية لا تحتاج إلى دليل .

ويتجه القرآن الكريم إلى الوجدان كذلك باعتباره وعاء الشعور الإنساني ومنبع غرائزه ونزعاته ، وحوافز إرادته حيث نراه :

---

[1] سورة يونس الآيات (٣٤ - ٣٥) .

[2] سورة الحج الآية (٧٣) .

- يثير غريزة حب الذات بالترغيب ، فالإنسان مجبول على حب الخير لنفسه والسعي لما يحققه ، فيعده بالخير في الدنيا والآخرة ، ويعرض عليه صورا وألوانا منه ، مستخدما كل وسائل التأثير ، من تصوير معجب ، وتأكيد قوي ، وتشويق يثير الكوامن ، فيريه الجنة كأنه يرى مباهجها ، ويستروح نسماتها ، ويزين له ما يصعد الإيمان في القلوب من شعور بالمن وشعور بالرضا إلى آخر تلك المعاني التي تمس الوجدان وتفتح مغاليق القلوب .

- يثير غريزة الخوف بالترهيب مما سيترتب على عدم الاستجابة من ويلات وبلاء في الدنيا والآخرة أيضا ، فيعرض عليه صور العذاب في الآخرة ، ويذكره بما أصاب الأمم السابقة في الدنيا عندما تولت عن دعوة الله ، في أساليب تجعله يرى مصارع القوم ، ويسمع أناتهم ، مما يهز القلوب ، ويزلزل النفوس لتنقاد وتلين .

- يثير غريزة التدين في الإنسان التي تدفعه إلى البحث عن الحق ، فيلهمه إياه ، في أسلوب أخاذ يحثه فيه على النظر في آيات الله ، ويعرض عليه من ذلك ما يقنع الحس والعقل معا .

- كما يثير فيه مشاعر الخشية والإجلال لله ، بما يعرضه عليه من صفات جلاله ، وعظائم آياته الدالة على قدرته ، كما يثير مشاعر الحب لله ، ورجاء فضله ، والتودد إليه والتوكل عليه ، والثقة في رعايته وحمايته ، بما يعرضه من ألوان نعمه ، وعميم فضله ، وسابغ رحمته ، فهو الرحمن ، الرحيم ، الودود ، الغني ، الباسط ، الجواد ، أسبغ نعمه على الناس ظاهرة وباطنة .

تلك المعاني التي تمثل رباطا روحيا محكما يشد الإنسان إلى ربه ، يكررها القرآن ويؤكدها حتى تستقر في النفوس فترقق العواطف وتلين القلوب وتشدها نحو الحق جل وعلا .

كما يستحث القرآن شعور الكرامة الإنسانية ، يأبى به أن يذل لمخلوق مثله ، وأن يعبد وجوها ما لا يملك لنفسه شيئا ، ويزكي فيه شعور الاعتزاز بما فضل به ـــ

على سائر خلقه ، من اصطفائه للخلافة فى الأرض وحمل الأمانة ، وتلك المنزلة العالية لا يصح أن يهدرها الإنسان فيسجد لحجر ، أو يطلب العون من جماد .

هذه الغرائز وتلك المشاعر التى يتجه إليها القرآن ليجد الحق طريقه إلى القلوب من خلالها ، يختار فى التعامل معها ما يناسبها من الأساليب المؤثرة التى توجج أوارها، وتزكى حميتها .

الدعوة إلى العبادة :

إذا كانت الدعوة إلى العبادة نرى القرآن الكريم يتجه إلى غريزة حب الذات بالترغيب ، فيعرض ألواناً مما تحققه العبادات للمسلم فى الدنيا ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر،وعند حديثه عن الحج يشير إلى أنه فريضة ليشهد المؤمنون منافع لهم والزكاة تطهر المال وتزكى النفوس،وتحقق الخير للمجتمع كله،وتربط بين الغنى والفقير برباط الحب والإخاء،ثم يسوق ألواناًمن الجزاء فى الدنيا بمضاعفة الخير، وتحقيق الجزاء الأوفى فى الآخرة ، ويعرض ذلك فى صورة آسرة تدفع النفوس دفعاً للطاعة .

ويتوجه إلى غريزة الخوف بالترهيب ، فيوعد المقصرين بكل ألوان العذاب

ويتوجه إلى غريزة الملكية فيقلل من حدتها ، كما فى تسمية الصدقة قرضاً فهى لن تضيع بل تتضاعف ، ويؤكد أن ما ينفقه المسلم اليوم سيضاعفه له الله غداً ، ويذكر بأن المال الذى فى يد الأغنياء إنما هو مال الله جعلهم مستخلفين فيه ، فهو يطالبهم بإعطاء الفقراء بعض ما أعطاهم من مال .

ويتوجه إلى النفس الإنسانية فيعالج أدواءها من بخل وشح وحب للجاه والاستعلاء ، والمن والأذى .

كل ذلك لاحظه الإسلام فى دعوته للعبادات ، لأن طبيعة الموضوع تقتضيه ، وساقه فى أساليب زاخرة بألوان من وسائل التأثير .

الدعوة إلى المعاملات : إذا كانت الدعوة إلى المعاملات نرى القرآن يتجه إلى الألفاظ فيختار أدقها،وأحكمها فى الدلالة على المعنى المراد،ويكون استعماله للألفاظ استعمالاً

حقيقياً ، فإذا أطلق لفظاً اطلاقاً مجازياً لغرض ما، كان ذلك واضح المأخذ قريباً، شديد الظهور ، كما فى تسميته المرضعة أماً ، والمشاركة للطفل فى الرضاعة من الأم أختاً .

وفى الصياغة القرانية تقصد الآيات إلى تقرير الحقائق الدينية، والأحكام الشرعية دون مبالغة،أو تجوز ، فلا يستعمل الخيال فى أصول المعانى المرادة ، وإنما يكون التعبير الحقيقى ، المفصل، الواضح، إذا كان المقام يستدعى التفصيل ، أو الجمل الجامع إذا كان المقام له .

ويؤثر غالباً المعاني الوجدانية لبعث الثقة فيها لأنها حكم الله العليم بما يصلح الناس : أو التذكير برقابة الله واطلاعه على الأعمال أو التحذير من مخالفتها، وإثارة شعور التقوى فى النفس، أو الترغيب فى الطاعة، والوعد بجزيل الأجر ،وحسن المثوبة ، كما يستخدم وسائل التأثير الأخرى كالتوكيد ، وتكرير صفات الله فى الفواصل ، أو إثارة الشعور الأخلاقى فى النفس ، وباللمسات الوجدانية التي توحى بها الألفاظ والتعبيرات .

وهكذا ..

يتوافق أسلوب القرآن الكريم مع الموضوع الذى يدعو إليه ، بدقة بالغة تحقق المقصود من الأسلوب .

* * *

المبحث التاسع

مواجهه عدوان الكفار

تيقن كفار مكه أن دعوة محمدﷺ تختلف عن ما سبقها من أفكار الحنفاء ،و أمثالهم من ناحية تحديد موضوعها ،و ثباتها ، و سمو أهدافها ..... و كان أكثر ما أثار انتباههم ازدياد قوة المسلمين يوما، بعد يوم ،و شدة تواصل المؤمنين،و ترابطهم ،و قوة حب المسلمين لله و رسوله ، و عظمه اعتزاز المسلمين بدينهم ، و تمسكهم بتطبيق تعاليمه بصدق و إخلاص .

وصل كفار مكه الى هذا الفهم، و بدأوا فى التحرك لمواجهته ، و قد أخذ توجههم يزداد عنفا" شيئا" فشيئا" من أجل الوصول الى إطفاء نور الحق ، و القضاء على الدين الوليد .

بداوا- أولا" — بإغراء النبي ﷺبالمال،و الجاه، والسلطان و بكل ما يريد شريطة أن يترك دعوته [١] لكنه صلى الله عليه و سلم رد عليهم بتمسكه بدعوة الله ، و حذرهم من عاقبة كفرهم ،و نفذ معهم أمر الله له فى قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَـٰعِقَةً مِّثْلَ صَـٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾.[٢]

و حاولوا — ثانيا"— مساومة رسول اللهﷺ ليجمع شيئا" من دينهم و شيئا" من دعوته ليلتقى الفريقان فى منتصف الطريق ، و بذلك لاتضار آلهتهم لأنها ستعبد مع الله تعالى، فرد عليهم رسول اللهﷺبقوله تعالى﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝ وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝ ﴾[٣]

---

(١) انظر صفحه ٣٤٥

(٢) سورة فصلت اية١٣

(٣) سورة الكافرون

وطلبوا منه **ثالثا** - أن يبقى أمره لنفسه ، و على آل بيته فأبى عليهم ذلك، و عرفهم أنه رسول الله تعالى لهم ، و للعالم كله .

عندئذ أخذوا في صد الناس عنه بنشر الاشاعات الكاذبة عن رسول الله ﷺ فاتهموه بالسحر ، و الكذب ،و السفه ،و اتهموا القرآن بالاختلاق ،و النقل من الأساطير واتهموا المسلمين بالضعف.و عدم التعقل — يحكي الله تعالى حملتهم هذه فيقول سبحانه « وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٦﴾ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ »[1]

فلما يئسوا من محاولاتهم لرسول الله ﷺذهبوا الى عمه عددا من المرات .

مرة يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن دعوته لأنها - في نظرهم - فرقت جمعهم و عابت ألهتهم ، و أساءت الى أبائهم .

و مرة يحاولون أن يستبدلوا به فتى منهم ، للقيام بقتله بعد تملكه .فلما لم يستجب لهم أبو طالب ذهبوا اليه مهددين ،فكلم أبو طالب محمدا ﷺفي الأمر ، فرد عليه بأنه مستمر على دعوته ، و لن يتركها بحال .

يصور ابن اسحاق ذلك فيقول (و مضى رسول الله ﷺعلى ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه،ثم اشتد الأمر بينه و بينهم،حتى تباعد الرجال. و تضاغنوا و أكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذامروا فيه،وحض بعضهم بعضا" عليه. ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له: يا أباطالب، إن لك سنا و شرفا و منزلة فينا ،و إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا و الله لا نصبر على

---

(١) سورة الفرقان الآيات ٥-٨

هذا من شتم آبائنا ،وتسفيه أحلامنا ،وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله و إياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

فعظم على أبي طالب فراق قومه و عداوتهم ، و لم يطب نفسا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ،و لا لأحد منهم، فبعث الى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني، فقالوا لي كذا و كذا ، للذي كانوا قالوا له : فأبق علي و على نفسك و لا تحملني من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء أنه خاذله و مسلمه ، و أنه قد ضعف عن نصرته و القيام معه .

فقال رسول الله ﷺ: يا عم ، و الله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته .

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل ياابن أخي، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال: إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا".[1]

و حينئذ تأكدوا من فشلهم في تحريض عمه أبي طالب ، و تجريده ﷺ من الحماية و المساندة فوضعوا خطة متعددة الأطراف لإرهاب الرسول و المؤمنين ، و منع الناس من الاقتراب من رسول الله ، و الاستماع لدعوته . و مجمل هذه الخطة يتضح في النقاط التالية :-

١- قيام كل قبيلة بتعذيب ، و اضطهاد من أسلم من أبنائهم، أو من عبيدهم.

- من ذلك أن أبا جهل كان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف،و منعة، أنبه و أخزاه و أوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال ، و الجاه ، و إن كان ضعيفا" ضربه و أغرى به [2]

---

(١) سيرة النبي ج١ ص ٢٦٥،٢٦٦

(٢) سيرة النبي ج١ ص٣٢٠

— و لما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاعته، وأخرجته من بيته . و كان من أنعم الناس عيشا، فتحشف جلده تحشف الحية [١]

— و كان أمية بن خلف الجمحي يضع حبلا في عنق مولاه بلال، ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به جبال مكة،وكان أمية يشده شدا" ثم يضربه بالعصا ،و كان يلجئه إلى الجلوس في حر الشمس ، كما كان يكرهه على الجوع ، وأشد من ذلك كله أنه كان يخرجه إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطحاءمكة،ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول:لا و الله لا تزال هكذا حتى تموت ، أو تكفر بمحمد ، و تعبد اللات و العزى . فيقول بلال— و هو في ذلك أحد، أحد،حتى مر أبو بكر يوما" و هم يصنعون ذلك به ،فاشتراه بغلام أسود ، و قيل بسبع أواق أو بخمس من الفضة و أعتقه [٢].

- و كان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى لبني مخزوم ، أسلم هو و أبوه و أمه فكان المشركون — و على رأسهم أبو جهل يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بحرها . و مر بهم النبي ﷺ و هم يعذبون فقال لهم : صبرا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة ، فمات ياسر في العذاب ، و طعن أبو جهل سمية — أم عمار— في قلبها بحربة فماتت ، و هي أول شهيدة في الإسلام ، و شددوا على عمار بالحر تارة ،و بوضع الصخر على صدره تارة أخرى، و بالتغريق ثالثة. و قالوا : لا نتركك حتى تسب محمدا" أو تقول : في اللات و العزى خيرا ، فوافقهم على ذلك مكرها وجاء باكيا معتذرا إلى النبي ﷺفأنزل الله تعالى﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَـٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَـٰنِ وَلَـٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ [٣]

(١)رحمة للعالمين ص ٥٨

(٢)سيرة ابن هشام جـ١ ص ٣١٧، ٣١٨

(٣)سورة النحل آية ١٠٦

- و كان أبو فكيهه و اسمه أفلح - مولى لبني عبد الدار ، فكانوا يشدون برجله الحبل ثم يجرونه على الأرض [١] .

- و كان خباب بن الأرت مولى لأم أنمار بنت سباع الخزاعية . فكان المشركون يذيقونه أنواعا من التنكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، و يلوون عنقه بلوية عنيفة ويضجعونه مرات عديدة على فحام ملتهبة . ويضعون عليه حجرا . حتى لا يستطيع أن يقوم [٢]

- و كانت زنيرة، و النهدية،و ابنتها،و أم عبيس إماء أسلمن ، و كان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا .

- و أسلمت جارية لبني مؤمل-و هم حي من بني عدي- فكان عمر ابن الخطاب و هو يومئذ مشرك- يضربها ،و إذا مل قال : إني لم أتركك إلا ملالة[٣]

- و كان المشركون يلفون بعض الصحابة في إهاب الإبل و البقر ، ثم يلقونه في حر الرمضاء ، و يلبسون بعضا آخر درعا من الحديد ثم يلقونه على صخرة ملتهبة [٤]

- و قائمة التعذيب طويلة شملت أغلب من أسلم في مكة بعد الجهر بالدعوة ،يروي ابن كثير بسنده عن ابن جبير أنه قال: قلت لعبد الله ابن عباس: "أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله "ﷺ"من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟

قال: نعم والله! إنهم كانوا يضربون أحدهم ،و يجيعونه ،و يعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالسا" من شدة الضرر الذي به، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى تقولوا له اللات و العزى إلهان من دون الله ،فيقول: نعم ! افتداء منهم مما يبلغون من جهدهم .[٥]

---

(١) رحمة للعالمين ج ١ ص ٥٧

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر ص ٦٠٦

(٣) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣١٩

(٤) رحمة للعالمين ج١ ص ٥٨

(٥) البداية و النهاية ج٣ ص ٥٩

٢-إعداد فريق من شباب الكفر ممن يجيد فن التعامل مع الناس ،ليمروا على القبائل في مواسمهم؛ ليقولوا في رسول الله ما شاءوا من قول سيء ، و وشاية كاذبة .

٣- تكليف جماعة من ابنائهم لملاحقة رسول الله" ﷺ" عند البيت، و شتمه ،و وصفه بكل صفة منفرة ،و إحاطته بالسخرية ، و الاستهزاء حتى تسقط مهابته في نظر الناس معى عمرو بن العاص ﷺ" أن عروة ابن الزبير سأله عن أكثر ما رأى من قريش إيذاء لرسول الله " ﷺ" .

قال :" حضرتهم ، و قد اجتمع أشرافهم يوما في الحجر ، فذكروا رسول الله " ﷺ" ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، و شتم أباءنـــاء وعـــاب ديــنـا ، وفرق جماعتنا ، و سب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم .،

فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله " ﷺ" فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله " ﷺ" ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانيه غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله " ﷺ" : ثم مر بهم ثالثة فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال: أتسمعون يامعشر قريش ، أما و الـــذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى مامنهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه و صاة قبل ذلك ليرفؤه بأحسن مـــا يجد من القول فيقول : إنصرف ياأبا القاسم ، فوالله ماكنت جهولا" فانصرف رســـول الله " ﷺ" ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر و أنا معهم ،فقال بعضهم لـ بعض : ذكـــرتم مـــا بلغ منكم ، و ما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبيـــنما هـــم في ذلـــك طلع عليهم رسول الله " ﷺ" فوثبوا إليه وثبة رجل واحد و أحـــاطوا به ، يقولون له: أنت تقول كذا و كذا ، لما كان يقول من عيب آلهتهم و دينهم .

فيقول لهم رسول الله " ﷺ " : نعم أنا الذى أقول ذلك .

ورأيت رجلاً منهم يأخذ بمجمع ردائه " ﷺ " . فقام أبو بكر ﷺ دونه ، و هو يبكى

و يقـــول : أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه ، فإن ذلك لأشد ما

رأيت قريشا نالوا منه قط "[١]

و قد سبق أن ذكرنا ما كان منهم مع رسول الله " ﷺ " فى قصة اسلام حمزة ﷺ "[٢]

٤- التعنت فى مواجهة رسول الله ، و طلبهم أمورا خارقة للعادة ، دليلاعلى صدقه

و هم مع ذلك عازمون على الكفر، مهما جاءهم من الخوارق.و لذلك قال الله تعالى

لرسول الله " ﷺ " ليصرفه عن مواجهتهم:﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ

آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ

﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ

يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ

شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾[٣]

و قال تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ

جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾[٤]

لقد رأى أهل مكة العديد من المعجزات الخارقة للعادة و على رأسها القرآن الكريم

، و مع ذلك لم يؤمنوا ، فلما طلبوا خوارق جديدة لم يستجب الله لهم رحمة بهم .

لأنه سبحانه وتعالى لو أوجدها لهم، و استمروا على كفرهم لعذبهم عذابا شديدا .

---

(١) السيرة لابن هشام ج١ ص ٢٨٩:٢٢٩

(٢) انظر صفحة ٤٠١

(٣) سورة الأنعام الآيات ١٠٩ - ١١١

(٤) سورة يونس الآيات ٩٦ - ٩٧

يروى ابن كثير ان ابن عباس قال :" قالت قريش للنبى " ﷺ" : ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهبا" و نؤمن بك.

قال" ﷺ" : و تفعلوا ؟

قالوا :نعم .

فدعا الرسول " ﷺ" ربه فأتاه جبريل

فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام و يقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم ذهبا" .فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذابا" لا أعذابه أحدا" من العالمين ، و إن شئت فتحت لهم باب الرحمة و التوبة ؛ قال :" بل التوبة و الرحمة "(١)

و قد واجه رسول الله " ﷺ" هذا العدوان بطرق عديدة أهمها :-

<u>أولا" تقوية إيمان المعذبين</u> :

أخذ رسول الله " ﷺ" فى تقوية إيمان المعذبين ، و عرفهم أن المؤمنين دائما" فى بلاء، و أنهم بإيمانهم يعملون للآخرة قبل الأولى.يقول ابن اسحاق :"و كانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، و بأبيه و أمه، و كانوا أهل أول بيت فى الاسلام إذاحميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة ، فيمر بهم رسول الله " ﷺ" فيقول ، فيما بلغنى : صبرا" آل ياسر، موعدكم الجنة.فأما أمه فقتلوها ،وهى تأبى إلا الاسلام ."(٢)

و كان يقول لهم " ﷺ" :"أشد الناس بلاء الانبياء، ثم الأولياء، ثم الأمثل فالأمثل يبلى الرجل على قدر دينه" (٣)

و كان المسلمون يرون فى رسول الله " ﷺ" المثل ، والقدوة .فهو أسبقهم إلى العطاء ، وأولهم فى التضحية ، و أفضلهم فى الشرف ، والنبل ، والطهر . و لذلك سابقوا فى كل ما عاهدوا الله عليه .

ولقد كانت آيات القرآن الكريم تنزل عليهم تؤملهم فى النصر و تحدد لهم معالم الطريق

١- البداية و النهاية ج٣ ص ٥٢

٢- السيرة النبوية ج١ ص٣١٩

٣- فيض القدير ج١ ص٥١٩

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ ﴾(١)

وكان الرسول " ﷺ " حريصا على تعريف المسلمين بمدى العبء الواجب تحمله يروى البخاري بسنده أن خباب بن الأرت جاء الى النبي " ﷺ " وهو متوسد برده ، وهو فى ظل الكعبة ، و قد لقينا من المشركين شدة ، فقلت :ألا تدعو الله ؟ فقعد ، وهو محمر وجهه ، فقال:"لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط حديد ما دون عظامه من لحم و عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، و ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء الى حضرموت ما يخاف إلا الله و الذئب على غنمه "(٢)

و بهذا التوجيه النبوى للجماعة المؤمنه الأولى ، ظهرت قوية ،صامدة ، محتسبة ، .

و عليها ، وعلى أمثالها ، وجدت الأمه الأسلامية، وتحقق للأسلام و المسلمين الكرامة و الحرية.

ثانيا: تحرير الأرقاء

كان أغلب من يعذب هم الارقاء الذين أسلموا عند سادتهم ، و لذا هدى الله أبا بكر ﵁ الى تحرير من استطاع تحريره، و بارك رسول الله "ﷺ" فعله .

من ذلك أن أبا بكر ﵁ مر على بلال "﵁" وهو يعذب ، فقال لأمية ابن خلف :ألا تتقى الله فى هذا المسكين ؟حتى متى؟

قال له: أنت الذى أفسدته فأنقذه مما ترى .

فقال أبو بكر :أفعل ، عندى غلام أسود أجلد منه ، وأقوى ، على دينك، أعطيكه به

(١) سورة الصافات الآيات ١٧١-١٧٧
(٢) الرحيق المختوم ص ١١٧

فقال أبو بكر : هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك وأخذ بلالا فأعتقه، ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم ، وهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرا" و أحدا"، و قتل يوم بئر معونة شهيدا"، وأم عبيس ، و زنيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : ما أذهب بصرها إلا اللات و العزى ، فقالت : كذبوا و بيت الله ماتضر اللات و العزى و ماتنفعان ، فرد الله بصرها ، و أعتق النهدية و بنتها و كانتا لامرأة من بني عبد الدار ،فمر بهما و قد بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، و هي تقول : و الله لا أعتقكما أبدا".

فقال أبو بكر ﷺ: حل يا أم فلان

فقالت : حل ، أنت أفسدتهما فأعتقهما .

قال : فبكم هما ؟

قالت : بكذا و كذا .

قال : قد أخذتهما و هما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

قالتا : أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها .

قال: و ذلك إن شئتما .

ومر بجارية من بني مؤمل ، (حي من بني عدى بن كعب)، و كانت مسلمة ، و عمر ابن الخطاب ﷺ يعذبها لتترك الاسلام ، و هويومئذ مشرك و كان يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر اليك ، إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك .فابتاعها أبو بكر ، فأعتقها "[1]

و قد عاتب أبو قحافة والد أبي بكر ولده فيما فعله .لانه رأى أن أبا بكر ينفق ماله في تحرير الضعفاء الذين لا ينفعونه ، و لا يدفعون ضرا" عنه (كما يتصور) ..

و هنا قال له أبو بكر : يا أبت إني لم أفعل ذلك إلا لله .

(١)البداية و النهاية ج٣ ص٥٢

فنزل فيه قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ ﴾ و قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾ ﴾ [١]

ثالثا : هجرة المسلمين الى الحبشة

شقت الدعوة مسيرتها الصعبة بين كفار مكة ، وأخذ الأذى يلاحق كل من أسلم ، و رأى رسول الله " ﷺ" بعد سنين من الجهر بالدعوة أن الكفار ماضون في عنفهم ، و عنتهم ، و صدهم الناس عن سبيل الله .... و لذلك أمر رسول الله " ﷺ" أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، لما فيها من موطن آمن، ووجود ملك لا يظلم أحدا"..

روى عن ابن مسعود أن رسول الله " ﷺ" بعث أصحابه الى النجاشي و كانوا نحو ثمانين رجلا ، و إمرأة و ذلك في رجب سنة خمس من النبوة .

تقول أم مسلمه : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا النجاشي خير جار ، و أمنا على ديننا كما وعدنا الله ، لا نؤذى ، و لانسمع شيئا" نكرهة ، و أقمنا في خير دار مع خير جار .

و عاش المهاجرون بالحبشه مدة سمعوا خلالها أن صلحا" أبرمه الرسول " ﷺ" و أهل مكة فجاءوا الى مكة عائدين فلما أكتشفوا أن شيئا" لم يحدث عادوا مرة ثانية الى الحبشة ،و ظل المهاجرون في الحبشة الى أن هاجر الرسول ﷺ الى المدنية فقدموا اليها بعد فتح خيبر .

هذه الكوكبة السابقة الى الهجرة كان لها فضل السبق في إيصال الإسلام الى خارج الجزيرة ، و الدعوه اليه بعملهم، و سلوكهم .... و بهذا السبق تميزوا عن المهاجرين الى المدينة ...... يروى البخارى بسنده عن أبي موسى الاشعرى رضى الله عنه قال " بلغنا مبعث النبي " ﷺ" و نحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه .

---

(١) سوره الليل الآيات ٥-٧، ١٩-٢١

.أنا و أخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهم أبو بردة ، و الثاني أبو رهم في ثلاثة و خمسين أو اثنين و خمسين رجلا" من قومي فركبنا سفينة ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبشة ، فوافقنا جعفر أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعا"إلى النبي ﷺ حين افتتح خيبر، و كان أناس من الناس يقولون لنا ، سبقناكم بالهجرة ، و دخلت أسماء بنت عميس ، و هي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي " ﷺ" زائرة ، و قد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة ، و أسماء عندها فقال عمر حين رأي أسماء : من هذة ؟

قالت حفصة : أسماء بنت عميس .

قال عمر: الحبشية هذه ؟ البحيرية هذه ؟ ! !

قالت أسماء : نعم .

قال : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله " ﷺ" منكم ، فغضبت و قالت : كلاو الله ، كنتم مع رسول الله " ﷺ" يطعم جائعكم ، و يعظ جاهلكم ، و كنا في دار،أو في أرض البعداء ، و ذلك في الله و في رسوله " ﷺ" وأيم الله لا أطعم طعاما" و لا أشرب شرابا" حتى أذكر ذلك لنبي " ﷺ"، و أسأله و الله لا أكذب ، ولا أزيغ، ولا أزيد عليه .فلما جاء النبي " ﷺ" قالت : يانبي الله ، إن عمر قال كذا و كذا .

قالﷺ : فما قلت له ؟

قالت : قلت له كذا و كذا .

قال ﷺ: ليس بأحق بي منكم ، و له و لأصحابه هجرة واحدة ، و لكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت: فلقد رأيت أبا موسى و أصحاب السفينة يأتون أرسالا"يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح، و لا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ قال أبو بردة : قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى و أنه ليستعيد هذا الحديث مني[1]

---

(١) فتح الباري ج٩ ص ٢٤-٢٧

و قد سر رسول الله ﷺ سرورا بالغا بعودة مهاجري الحبشة بعد هذه الفترة الطويلة و أمر الاسلام يعلو،و سلطانه يمتد شمالي شبة الجزيرة و جنوبها ، و عندما نزلوا بالمدينة قام الحبيب المحبوب ﷺ يرحب بعودتهم، ويعلن فرحه بهم، وذلك فيما يرويه الحاكم بسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " لما قدم جعفر بن أبي طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ "ما أدري بأيهما أفرح ؛ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر "(١)

إن الهجرة الى الحبشة كانت مؤقتة ،يلجأإليها المسلمون، يكتشفون بها معالم الناس ، و يتعرفون على مذاهب و عادات الاقوام . و لذلك عاد المهاجرون إلى المدينة موطن الاسلام ، و مستقره ، و قاعدة انطلاقه إلى العالم كله.

رابعا : إنتهاء المقاطعة :

لم تقف المواجهه بين كفار مكة ، و بين المسلمين عند الهجرة الى الحبشة بل أخذت تزداد عنفا" وشدة لأن كفارمكة فشلوا في رد المهاجرين إليهم،واعتقالهم بعدما كانوا يتصورونه أمرا" سهلا .

وحينئذ رأى كفار مكة ضرورة القيام بعمل حاسم للقضاء على محمد، ودعوته فلما تصدى لهم بنو هاشم ، وبنو المطلب، و تحصنوا بشعبهم، اتفقوا على مقاطعه بني هاشم و بني المطلب، بصورة تامة، لا يجالسوهم،و لا يبيعوهم ، و لا يشترون منهم ، و لا يزوجوهم ، و لا يتزوجون منهم ، و استمرت المقاطعه ثلاث سنوات حتى اشتد الأمر ببني هاشم، وبني المطلب، حتى أكلوا ورق الشجر ، و كان يسمع للأطفال بكاء من شدة الجوع .

واستمر الأمر على ذلك حتى أذن الله له بالانتهاء ، يروى ابن كثير ذلك بقوله: (و جمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل القوم جمع بني المطلب وبني هاشم و أمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهـــــم ،

(١) المستدرك ج٢ ص ٦٢٤

و أمرهم أن يمنعوه ممن أرادو قتله ، فاجتمع على ذلك مسلمهم، و كافرهم ، فمنهم من فعل ذلك حمية ، و منهم من فعله إيمانا و يقينا .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ، و أجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم و لا يبايعوهم ، و لا يدخلوا بيوتهم ، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، و كتبوا فى مكرهم صحيفة ، و عهودا، و مواثيق. لا يقبلون من بنى هاشم صلحا" أبدا" ، ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل ، فلبث بنو هاشم و بنو المطلب فى شعبهم ثلاث سنين ، و اشتد عليهم البلاء و الجهد، و قطعوا عنهم الأسواق، و لم يتركوا طعاما يقدم مكة ، و لم يجدوا بيعا" إلا بادروهم إليه ، فاشتروه ، يريدون بذلك أن يدركوا سفك دم رسول الله ﷺ . فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على فراشه حتى يرى ذلك من أراد مكرا" و اغتيالا له ، فإذا نام الناس أمر أحد بنيه، أو إخوته، أو بنى عمه ليضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، ويأمر رسول الله ﷺ أن يأتى بعض فرشهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بنى عبد مناف، و من قصى، و رجال من سواهم من قريش قد ولدتهم نساء من بنى هاشم، ورأوا أنهم قد قطعوا الرحم، و استخفوا بالحق، واجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغدر، و البراءة منه، وبعث الله على صحيفتهم الأرضة فلحست كل ما كان فيها من عهد و ميثاق .

و يقال إنها كانت معلقة فى سقف البيت فلم تترك اسما لله فيها إلا لحسته ، و بقى ما كان فيها من ظلم، و شرك، و قطيعة رحم ،

و أطلع الله عز و جل رسوله على الذى صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبى طالب ،

فقال أبو طالب : لا و الثواقب ما كذبنى فانطلق يمشى بعصابته من بنى المطلب حتى

أتى المسجد، و هو حافل من قريش ، فلما رأوه عامدا لجماعتهم أنكروا ذلك وظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء،فأتوهم ليعطوهم رسول الله ﷺ ، فتكلم أبو طالب فقال: قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتكم التي تعاهدتم عليها فلعله أن يكون بيننا و بينكم صلح ، وإنما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجبين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدفوع إليهم فوضعوها بينهم ، و قالوا : قد آن لكم أن تقبلوا، و ترجعوا إلى أمر يجمع قومكم فإنما قطع بيننا و بينكم رجل واحد، جعلتموه خطرا" لهلكة قومكم، و عشيرتكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا" لكم فيه نصف ، و إن ابن أخي أخبرني و لم يكذبني - أن الله بريء من هذه الصحيفة التي في أيديكم، و محا كل اسم هو له فيها، و ترك فيها غدركم ،و قطيعتكم إيانا، و تظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفيقوا فو الله لا نسلمه أبدا" حتى يموت من عندنا آخرنا ، و إن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه ، أو استحييتم .

قالوا : قد رضينا بالذي تقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصادق المصدوق ﷺ قد أخبر خبرها ، فلما رأتها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا: و الله إن هذا سحر من صاحبكم فارتكسوا، و عادوا بشر ما كانوا عليه من كفرهم ، و الشدة على رسول الله ﷺ و القيام على رهطه بما تعاهدوا عليه"[١] .

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش ، و لم يبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام ابن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن عامر بن لؤي و ذلك أنه كان ابن أخي نضلة بن هشام بنت عبد مناف لأمه ، و كان هشام لبني هاشم واصلا ، و كان ذا شرف في قومه فكان فيما بلغني - يأتي بالبعير و بنو هاشم و بنو المطلب في الشعب ليلا قد أوقره طعاما، حتى إذا بلغ به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ثم ضرب على جنبه فدخل الشعب عليهم، ثم يأتي به قد أوقره برا فيفعل به مثل ذلك .

---

(١) [illegible] وقد ذكر رواية أخرى أن الأرضة أكلت كل ما في الصحيفة ما عدا اسم الله تعالى

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أميه بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كـانت أمه عاتكه بنت عبد المطلب ، فقال : يازهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب و تنكح النساء و أخوالك حيث علمت :لا يباعون و لا يبتاع منهم ، و لا ينكحون و لا ينكح إليهم ؟

أما إني أحلف بالله لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ما أجابك إليه أبدا" .

فقال : و يحك ياهشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد،والله لو كان معي رجل اخر لقمت في نقضها .

قال قد وجدت رجلا .

قال من هو ؟

قال أنا.

قال له زهير ابغنا ثالثا، فذهب إلى المطعم بن عدى فقال له: يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف؛ و أنت شاهد على ذلك، موافق لقريش فيه . أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعا .

قال: ابغنا ثالثا

قال :قد فعلت .

قال :من هو ؟

قال: زهير بن بني أمية .

قال :ابغنا رابعا، فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال نحو ما قال لمطعم بن عدى فقال: و هل تجد أحدا" يعين على هذا ؟

قال :نعم ! قال من ؟ قال زهير بن أبي أمية و المطعم بن عدى و أنا معك

قال: ابغنا خامسا ".

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكلمه، و ذكر له قرابتهم، و حقهم فقال له: و هل على هذا الأمر الذى تدعونى إليه من أحد ؟

قال: نعم ثم سمى القوم ، فاتعدوا عند الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك و أجمعوا أمرهم، و تعاقدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

وقام زهير بن أبى أمية فطاف بالبيت سبعا، ثم أقبل على الناس ، فقال يا أهل مكة أنأكل الطعام و نلبس الثياب، و بنو هاشم هلكى لا يبتاعون، و لا يبتاع منهم ، و الله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة .

قال أبو جهل – و كان فى ناحية المسجد و الله لا تشق .

قال: زمعة بن الأسود: أنت و الله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

قال أبو البخترى : صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها و لا نقره .

قال المطعم بن عدى: صدقتما و كذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها و مما كتب فيها .

وقال: هشام بن عمرو نحوا" من ذلك .

قال: أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل، تشوور فيه بغير هذا المكان .

وقام المطعم بن عدى إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم[١]

و هكذا انتهت هذه الفترة القاسية التى مر بها المسلمون فى مكة ، و جاء الفرج من عند الله تعالى ، و انتهت هذه المقاطعة الظالمة .

و شاءت إرادة الله تعالى بوفاة أبى طالب عم رسول الله ﷺ و زوجته خديجة رضى الله عنها فى عام واحد ، عرف بعام الحزن فكان أن سرى الله تعالى عن رسول الله ﷺ برحلة الإسراء و المعراج . و بذلك تجلت معالم الدعوة العالمية فى لقاء رسول ﷺ بإخوانه الرسل، و بما أوحى إليه.

---

(١) البداية و النهاية ج٣ ص ٩٦

المبحث العاشر

استمرار الحركة بالدعوة

في خلال مرحلة الاضطهاد والمواجهة كان الرسول يتحرك بالدعوة في اتجاهات متعددة، باذلاً ما أمكنه من جهد ، وفكر ، وتوجيه .

فقد عرض الاسلام على القبائل ،وعلى جميع الوافدين إلى مكة في مواسم الحج و التجارة، وواجه كفار مكة بدعوتهم الى الله ، و تلاوة القرآن الكريم عليهـــــم ، و أبدى لهم ما بدعوته من صدق ، و حق .. و بين لهم أن ما منعهم من الإسلام إلا الجحود، و التعصب، يدل على ذلك أقوال و أفعال نطق بها الكفار .

يقول أبو جهل (يا محمد إنا لا نكذبك و لكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾[1]

وغمزه الكفار يوما ثلاث مرات،فقال لهم في الثالثة:يا معشر قريش : جئتكم بالذبح ، فأخذتهم تلك الكلمة ، حتى أن أشدهم عداوة يرفؤه بأحسن ما يجد عنده .

و لما ألقوا عليه سلا جزور و هو ساجد دعا عليهم ، فذهب عنهم الضحك، و ساورهم الهم و القلق ، و أيقنوا أنهم هالكون.

و دعا على عتيبة بن أبي لهب فلم يزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه ، حتى أنه حين رأى الأسد قال : قتلني و الله محمد — و هو بمكة .

و كان أبي بن خلف يتوعده بالقتل .فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، فلما طعن أبيا في عنقه يوم أحد و كان خدشا غير كبير قال:إن محمدا قال : أنا أقتلك ، فوالله لو بصق علي لقتلني.

و قال سعد بن معاذ — و هو بمكة — لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنهم أي المسلمين قاتلوك ، ففزع فزعا شديدا ، و عهد أن لا يخرج من

---

(١) سورة الأنعام الآية (٣٣) .

مكة ، و لما ألجأه أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليسكنه من الفرار فقالت له امرأته : يا أبا صفوان ، أنسيت ما قال لك أخوك اليثربي ؟ قال : لا و الله ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا.

و كان "ﷺ" يعيش مع المسلمين يمدهم بالوحي ، و يعلمهم الإسلام و يملأ قلوبهم باليقين ، و يعمل على سلامتهم ، و تحقيق الخير لهم بكل ما أمكنه . من ذلك لما اكتشف المشركون بعض الصحابة في شعاب مكة و هم يصلون مستخفين ناكروهم و اصطدموا معهم ، أمر النبي ﷺ أصحابه بالاجتماع في دار الأرقم لكي يعبدوا الله بعيداً عن أنظار قريش : و يتعلموا ما ينزل من القرآن الكريم [1]

وحين أسلم بعض الغرباء كعمرو بن عبسة ، و أبي ذر الغفاري، أمرهم النبي ﷺ بالرجوع إلى قومهم ، لينشروا الإسلام في قبائلهم من ناحية ، و ليحافظوا على أنفسهم من كفار قريش الذين يفتنون الضعيف ، و الغريب الذي لا ناصر له [2]

حرص "ﷺ" على متابعة شؤون أصحابه بتقوية هممهم و تثبيتهم عند حلول الشدائد و المحن بهم ، فكان يزور الذين يعذبون منهم في أماكن تعذيبهم، فيواسيهم بالصبر و الثبات ، و يبشرهم بالجنة ، كما في قوله لآل ياسر و هم يعذبون :" صبرا آل ياسر فإن موعدكم الجنة "[3] ، وهو " ﷺ " هو الذي وجه أبا بكر الصديق لشراء العبيد وإعتاقهم حسبة لله تعالى .

وكان عليه الصلاة و السلام يقوم بزيارة منتظمة لأبي بكر ﷺ كما جاء في حديث عائشة ﷺ :" لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكـــرة و عشيا" .

---

[1] سيرة ابن هشام ـــ ج ١ ص ٢٧٥ .

[2] صحيح البخاري ـــ كتاب مناقب الأنصار ـــ باب إسلام أبي ذر ـــ ج ٤ ص ٢٤١ .

[3] أخرجه الحاكم في المستدرك ، و صححه ـــ ج٣ ص ٣٨٨ .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع الواقع في حركته للدعوة و هو في مكة ،و جعل حركته مخاطه بالسرية ليحقق ما يريد،ولذلك لم يوجه دعوته لعمر بن الخطاب لشدته ولم يطلب من عمه حمزة الإيمان لقوته ، وإنما تركهما وأمثالهما ليتأثرا بأسلوب مناسب لهما ، رغم أن الخير للدعوة كان في إيمان عمر وحمزة " ﷺ " .

لقد كان " ﷺ " يدور على الناس في منازلهم ، ومساكنهم . ويستفيد بالمواسم والأعياد ، ويقابل المفكرين والشعراء ليقنعهم بدين الله تعالي .

وكان " ﷺ " يحتاط لدعوته ، ولنفسه وهو يتحرك بالإسلام ، فلقد خرج " ﷺ " إلى الطائف راجلاً ليلاً مع مولاه زيد ، حتى لا يعلم أحد من قريش بوجهته ، فيعملون على معاكسته [١] .

وعندما كان يتصل بالقبائل في مواسم الحج لطلب النصرة ، كان كثيراً ما يخرج في ظلام الليل [٢] ، ولا يعلن ذلك لأحد .

وعندما التقي عليه الصلاة و السلام بوفد الأنصار في السنة الثالثة عشرة من البعثة لمبايعته على الحماية، و النصرة ، اتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتى لا يعلم به أحد من أهل مكة .

فكان أول إجراء أمني اتخذه : هو ضبط الموعد مكاناً ، و زماناً ، بدقه متناهية ، فكان المكان :" شعب العقبة الأيمن "

والزمان : أوسط أيام التشريق ؛ حيث يكون الناس في زحمة الانشغال بتهيئة أنفسهم للعودة إلى ديارهم ، وأولادهم .

و الوقت : نهاية الثلث الأول من الليل حيث يستسلم الناس للنوم [٣]

وثاني إجراء : هو الكتمان الصارم للأمر ، و خروج المجتمعين مثنى و أفراداً

---

[١] الرحيق المختوم ـ ص ١٤٨ .

[٢] تاريخ الإسلام ـ ج ١ ص ١٢٩ .

[٣] سيرة ابن هشام ـ ج ٢ ص ٤٩ .

مستخفين ، دون انتظار غائب ، أو إيقاظ نائم [1]

و ثالث إجراء : حضوره بعد اكتمال العدد ومعه عمه العباس ، ووضعه عليه الصلاة والسلام حراسة قوية وأمينة في مداخل الشعب [2] حيث كلف أبا بكر بالوقوف على فم الطريق ، وكلف علياً بالوقوف على فم الشعب.

و رابع إجراء : هو طلبه عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز في كـــــــلامه [3] و أن يخفض صوته ، حتى لا يطول اللقاء و لا يشعر به أحد .

وبعد ذلك قام "ﷺ" باختيار اثني عشر نقيبا - تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس- لتحمل المسؤلية وقال لهم : أنتم على قومكم كفلاء ، ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم ، وأنا كفيل على قومي ... قالوا : نعم .

وبهذا الاختيار بدأت ملامح القيادة الجديدة في المدينة المنورة وبدأت أنظار المسلمين تتجه نحوها ليعيشوا عصر التمكين ، والقوة ، وليؤدوا واجبهم مع دين الله تعالى .

ولسوف نرى في تخطيط النبي "ﷺ" للهجرة مدى الحرص الذى بذله "ﷺ" ليصل إلى الغاية ، وبالهجرة تبدأ مرحلة جديدة في مسار الدعوة إلى الله تعالى .

وسوف نوضح ذلك في الجزء التالي بعون الله تعالى ..

❊ ❊ ❊

---

[1] الشفا — ج١ ص ٢٢١ .

[2] منهج النبي "ﷺ" في حماية الدعوة ص ٤٦٧ .

[3] السيرة النبوية لابن كثير — ج ٢ ص ٢٠٢ .

المبحث الحادى عشر

المسلمون فى نهاية المرحلة المكية

اتســـع نطـــاق الإسلام ، وكثر عدد الداخلين فيه ، ووصل حدود إلى قبائل العرب جميعاً ، وانتقل المسلمون بالإسلام إلى خارج الجزيرة العربية .

وأصبح عدد المسلمين كثيراً فقد هاجر منهم إلى الحبشة ما يقرب من مائة ، وهاجر منهم إلى المدينة ما يقرب من خمسمائة صحابي وصحابية ، بالإضافة إلى عدد غير قليل امن سراً فى مكة ، وفى غيرها ، وهم المؤمنون والمؤمنات المشار إليهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ ﴾ .

لقد أدى هذا الانتشار الواسع للإسلام إلى ضرورة الهجرة من مكة، لأن كفار مكة أخذوا يبذلون جهدهم لصد الناس عن الإسلام بوسائل عديدة ، ولم يعد مقبولاً أن يبقى المسلمون مستسلمين للطغاة وحقهم واضح ، فى الوقت الذى أخذ الناس فيه ينظرون إلى ما بين المسلمين وأهل مكة ، ليبنوا عليه موقفاً ، ويتخذوا قرارهم فى الإيمان .

الأمر الذى دعا إلى ضرورة وجود دولة للإسلام ترفع رايته ، وتحمى أتباعه ، وهو الذى أراده الله تعالى ، وحققه بالهجرة إلى المدينة المنورة .

* * *

الفصل الرابع

ركائز الدعوة

المستفادة من المرحلة المكية



تمهيد :

لقد امتدت المرحلة المكية حتى الهجرة إلى المدينة المنورة ،و وقعت خلالها أحداث عظام ، تقدم أضواء عالية فى حركة الدعوة إلى الله تعالى ، تظهر العبر و الدروس ، و تكشف الطبائع و النفوس ، و تبين ما فى كل موقف من ركيزة ، و مبدإ مدروس، وتعود أهمية معرفة هذة المرحلة للدعوة إلى إنها تعيش مع المسلمين فى مرحلة قلتهم و ضعفهم ، و تصور كيف عاش المسلمون بالإسلام صادقين مما أدى إلى انتقالهم من الضعف إلى القوة ، و من الهوان إلى العزة و الانتصار ، و هى أمور يحتاجها المسلمون المعاصرون .

كما أن أحوال الدعوة ، و مدى ارتباط المسلمين بالإسلام، يحتاج إلى مراجعة ضرورية لقياس الأحوال على عصر التأسيس الأول ، ليعرف الداء، و يظهر الدواء .

و فى المرحلة المكية حدد النبي ﷺ الأسلام بجلاء ، و دعا إليه بوضوح و تلقاه الصحابة منه نقياً ، صافياً ، و عاشوا به ، و عملوا له ، و تحركوا من أجله لأنهم حملوه أمانة ، و مسئولية ، وحاجة شخصية .

إن المسلمين فى كل زمان ومكان عليهم أن يرتبطوا برسول الله " ﷺ " فى أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، وكافة شئونهم ، وهذا يحتم عليهم ضرورة العودة إلى السيرة النبوية ، وأحداثها ، فهى الصورة العملية ، التطبيقية لتعاليم الله تعالي ، وهى القرآن متحركاً فى السلوك والطاعة .

إن السيرة النبوية هى الوحي المنزل فى صورة تطبيقية ، ولذا كانت مدارستها تصويراً حياً للإسلام ، وكان فهمها هو البداية الصحيحة للعمل بالإسلام .

والمسلم الصادق يدرك تماماً أن السيرة النبوية ثقافة روحية ، وفهم للدين ، وإحاطة بالإسلام ناصعاً ، جميلاً .

لهذا و لغيره عقدت هذا الفصل لأطوف مع السيرة، وأتأمل فى حركة الدعوة خلال المرحلة المكية لأبرز أهم الركائز المستفادة منها ، وذلك فيما يلى : ـــ

الركيزة الأولى

المعرفة الشاملة للمدعوين

من أساسيات النجاح في تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح معرفة المدعوين والإحاطة بالواقع النفسي ، والفكري ، والاجتماعي لهم ، لأن ذلك ييسر عملية الدعوة ، ويمكن القائمين على شئونها من وضع الخطط الملائمة للمدعوين ، ومراعاة ما هم عليه من فكر ، ودين ، واتجاه .

إن المعـــرفة بالمدعوين تمكن الدعاة من مخاطبة القوم بلغتهم ، والدخول إلى عقولهم من الجوانب المؤثرة التي تدفعهم إلى النظر والتفكير .

إن كل جماعة لها خصائصها النفسية ، واتجاهاتها العقلية ، ونشاطها العملي ، وفي هـــذه الجوانـــب توجد مفاتيح الولوج لشخصية الجماعة ، ولذاتية الفرد وسط الجماعة .

والمقصـــود بالجماعة الطائفة من الناس التي تكون مجتمعاً متماسكاً ، مترابطاً بواســطة انتماءات خاصة كالوطن ، أو الدين ، أو التحزب مما يؤلف بين أفرادها جماعة يشملهم تماسك نفسي ، وولاء وجداني .

إن أي جماعة تعيش مدة ما في إطار انتماء معين ، تكتسب صفات خاصة ، واتجاهات جديدة ، وتعيش بشعور واحد ، وآمال واحدة .

إن الفرد يكتسب من الجماعة بفعل العدد شعوراً بقدرة لا تقهر ، بينما الفرد وحده يردع غرائزه ويخضعها لعقله ، لشعوره بالمسئولية .

إن الفرد وسط الجماعة يذعن لغرائزه طوعاً ، نظراً لزوال الشعور بالمسئولية ما دامت الجماعة غفلاً ، وغير مسئولة .

إن الفرد في الجماعة تسرى إليه بالعدوى المشاعر الجماعية بطريقة لم نتوصل إلى تفســيرها ، وإن كانت موجودة ، وتسهل ملاحظتها . وانتقال شعور الجماعة إلى الفرد بالعدوى يسهل للفرد أن يضحي بمصالحه الشخصية في سبيل الجماعة العامـــة ،

وهذا استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الإنسان إلا إذا كان جزءا من جماعة.

لهـــذا كان فهم المدعو من أساسيات تكوين الدعاة ، ليتخيروا المنهج الذى يدعو به حين الدعوة ، لأن أملهم النجاح ، وتحقيق ما يرجون من غايات .

ولعـــل الحادثـــة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصدده من تأثير الجماعة ، فصـــاحبها اتخـــذ موقفاً من الدعوة، وكادت تصل إلى أعماقه، ويستسلم لها عندما احـــتكم إلى طبيعـــته الخاصة ، لكنه لحظه العاثر قدرله أن يضع نفسه مرة أخرى فى غمـــار الجماعـــة، ويقع تحت تأثيرها ، ذلكم هو الوليد ابن المغيرة فقد روت كتب السيرة أن النبى " ﷺ " قام فى المسجد يصلى ، والوليد قريب منه يسمع قراءته ، فلما فطـــن النبى " ﷺ " لاستماعه ، أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه مـــن بنى مخزوم فقال : (والله لقد سمعت من محمد " ﷺ " أنفاً كلاماً ، ما هو من كـــلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه) ، ثم انصرف إلى منزله ، فقالـــت قـــريش : صبأ والله الوليد ، ولتصبأن قريش كلها ، فأوفدوا إليه أبا جهل لتحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه إلى مجلس قومه ، فقال لهم : تزعمون أن محمداً " ﷺ " مجنون ، فهل رأيتموه يخنق قط ؟ تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟

تـــزعمون أنـــه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر منى ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟ تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذباً ؟

يســـألـــهم ويجيبونه : كلا ، فى كل سؤال ، حتى أعياهم أن يردوا كلامه ، فقال أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

فقال : دعنى حتى أتفكر .

ثم قال : ما هو إلا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين .

ومن هنا كان لابد من تثبيت الإيمان في القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة هـــذه الموانع النفسية ، ولانكتفي بجعله إيمانا عقلياً بارداً، لا بد أن يتحول اليقين إلى إيمان وجداني، حاكم على القلب، راجح على ما يخالفه من رغب، ورهب، وأمل، وألم ولن يتهيأ ذلك إلا بأن نتوجه إلى كل منافذ التأثير في الإنسان؛ وهو وحده ، أو وهو في جماعـــة لنصل مـــن خلالها إلى ما نريده من جعل الدعوة في قرار مكين، وأن نغير بها النفوس قبل أن نغير بها السلوك.

يقـــول الدكـــتور / محمد رجب البيومي : إذا كان القرآن الكريم قد أوتي الإقناع المنطقي الملزم ، فإنه لا يتجه بحديثه إلى الفكر وحده، فيلزمه الحجة، مكتفيا به عن سواه ، إذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفي في الجـــذب والتأثير ، فلابد معها من غزو مناطق الشعور ، وبعث كوامن العواطف ، حـــتى يتهيأ السامع إذا سمع ، والقارئ إذا تلا ، إلى إنجذاب نفسي يدفعه إلى أشرف المبادئ، وأحكم المثل .

ولو كانـــت المعـــرفة وحدهـــا كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية المخلصة دليل المهتدي ، إذا قرئت ودرست، ولكنك تشاهد الناس يقرأونها متمتعين ، ثم يحيدون عن أكثر ما تهدي إليه ، إذ أن العلم شئ ، والسلوك الإنساني شئ آخر ، لذلـــك اتجـــه القرآن إلى التأثير الوجداني بعد الحجة والبرهان ، ليغزو مناطق الشعور الإنساني بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلي بحججه ، فجاء التصوير البياني في القرآن الكريم آية الآيات في الروعة والإعجاز [١] .

والإنســـان ســـواء أكان منفرداً أم في جماعة، يجمع في طبيعته من الملكات المستعددة ما يجعل إهمال بعضها إهداراً لجانب من الطبيعة الإنسانية، خلقه الله تعالى ليقوم بدوره ، ويؤدي وظيفته .

---

[١] البيان القرآني ـــ ص ٧٨ .

وحين اتجه علماء الكلام إلى العقل وحده ، ماذا كانت الثمرة التي جناها الإسلام من وراء جهودهم الخارقة التي ظلت قروناً وقروناً تبدىء وتعيد في حجج عقلية باردة ، لا تثير وجداناً ولا تدفع إلى عمل ؟ ! !

إن علينا أن نلتقي بالإنسان في قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعاً ، نتعامل مع العقل بماله من قوة الإدراك والتميز ، ونتعامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس والمشاعر التي تنشأ عن التأثير بما يسر ويؤلم ، ونتعامل مع الإرادة باعتبار ما تتخذه من قرارات هي النتيجة النهائية لاستجابتها أو رفضها للدعوة ، ذلك أن الصفات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها في بعض ، والإيمان هو حالة نفسية ، مرتبط بالجوانب النفسية كلها ، يتأثر بها ويؤثر فيها .

يقول الدكتور / محمود حب الله : فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان — الوجدانية والإرادية والعقلية — ولكنها تتصل بها كلها اتصالاً وثيقاً ، ولا ترضى نفس المرء ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تضامنت شخصيته ، ونواحيه النفسية كلها ، وعملت معاً على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شيء من التضارب بين قواه المتعددة ، حول عقيدة من العقائد ، بل إنسجام ووئام ، فيوجد قبول عقلي ، واطمئنان قلبي ، والتقاء مع الإرادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة [١] .

ثم يقول : وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والإرادة احتاجت ، في وسائل نشرها ، إلى الاعتماد على كل هذه القوى [٢] .

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلابد لنا — كي نصل إلى التأثير فيه — أن نلاحظ طبيعته بكل جوانبها ، لأن الفرد في جماعة يواجه واقعاً يحدث

---

[١] الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية — ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

[٢] المرجع السابق ص ٢٧٤ .

فى طبيعته بعض التعديل عنه وهو وحده، حيث ينشط جانبه الوجدانى ، بسبب تفاعل مع الجماعة ، واستهوائها له ، وسيطرة روحها العامة على ملكاته الخاصة .

وقد سبق أن رأينا أن رسول الله " ﷺ " بعث إلى العالم كله ، ولذلك عرفه الله بطبائع الناس ، وواقع المجتمعات المختلفة عن طريق القصص القرآنى الذى نزل أغلبه فى مكة قبل الهجرة .

وقد احتوى القصص القرآنى على نماذج من المجتمعات البشرية ووضح خصائصهم ، وحدد أساليب مخاطباتهم حيث نراه يصور الملأ ، والضعفاء ، ويجلى حقيقة المنافقين والمشركين ، ويبين دور السفهاء والمترفين بين الناس ... إلخ .

وبذلك قدم القصص القرآنى تحليلا صحيحاً للنفوس ، والعقول للناس أجمعين .

إن الهيكل العام للقصة القرآنية يأخذ صورة واحدة، فهو قائم على دعوة الله يقدمها الرسول إلى قومه ، وإلى من أرسل إليهم ، فيقف المدعوون موقف المعارضة والإنكار ، فيأخذ الرسول فى محاورتهم ، والرد عليهم ، ويناقشهم فى شبههم ومعارضاتهم ، ويبين لهم الصدق بأدلته ، ويحدد لهم بطلان ما هم عليه ببراهينه ، ويطوف بهم خلال الحوار مع طبيعة النفوس ، واتجاهات العقول ، وميول الوجدان .

إن القصص القرآنى يبرز ملامح أشخاصه ومنهجهم فى الجدل والحوار ، وموقفهم من الحق ، وبذلك يقدم للدعوة والدعاة صورة حقيقية للمدعوين .

وينتهى القصص القرآنى دائماً ببيان عاقبة المؤمنين ، ومصائر الضالين المكذبين .

والواضح من هذا ما رأينا فى تنشئة النبى " ﷺ " فلقد عاشر الرعاة ، وعاش مع فئة العمال والأجراء ، وتعامل مع التجار وسادة الناس ، وكان له مع الملأ مواقف وتصرفات ، وانتقل إلى عديد من الأماكن حيث سافر إلى المدينة ، وإلى بلاد الشام ، وتربى فى بادية بنى سعد .

ويكفي حياته المكية لأن مكة في ذلك الزمان كانت تحتوي على كافة أنماط التنوع البشري، حيث جعلها الله بوتقة تضم كل ألوان، وأطياف البشر، فتكون معمل الخبرة والتجربة لرسول الله " ﷺ " والدعوة إلى الله تعالى .

إن معرفة المدعوين ، والوقوف على المثيرات الوجدانية، والعقلية ضرورة للدعوة ، وحتى لا يحدث إنفصال بين الداعية والناس .

لقد كان رسول الله " ﷺ " يحدث كل قوم بلغتهم ، وفي كل أمر يهمهم ، وحين يقدم لهم الآيات الدالة على صدق الدعوة إختار الأدلة المناسبة ، فإن كانوا من أهل الزرع خاطبهم في الأشجار ، والنبات ، والثمار ، وإن كانوا من أهل البحر خاطبهم بالماء ، والسفن ، واللؤلؤ والمرجان ...وهكذا .

إن خطاب العالم يختلف عن خطاب العامي بالضرورة ، كما أن الحديث مع الكبير ليس كالحديث مع الصغير ، والقضايا التي تحرك الرجل ليس هي التي تحرك المرأة .

والإنسان كما يتأثر بالجماعة يتأثر بالبيئة،والثقافة ، والتوجه العام للمجتمع . فالإنسان الشرقي يختلف عن الإنسان الغربي ، والعربي غير العجمي ، ومن ثقافته علمية ليس كمن ثقافته فنية أدبية ... والإنسان في مجتمع مستقر يفكر بطريقة تغاير الإنسان في مجتمع مضطرب قلق .

وهذه نماذج لمدى تنوع الناس ، وتعدد بؤر التأثير فيهم ، مما يؤكد ضرورة تفاعل الدعاة مع المخاطبين ، ومخاطبتهم بما يناسبهم [١] .

وفي العصر الحديث رأينا مدى تأثير الدعاة في أقوام يتفاعلون معهم ، وما كان ذلك إلا بسبب معرفة الدعاة الشاملة بواقع المدعوين وطبائعهم.. الأمر الذي مكنهم من مخاطبتهم بالحسنى، ومناقشتهم بالدليل المقنع ، والبرهان السديد .

---

[١] لقد عاصرت مجموعة من الدعاة أرسلهم الأزهر الشريف - مشكور - للدعوة في بعض البلدان الإفريقية لكنهم لعدم معرفة لغة وأحوال الناس ظلوا مدة طويلة يعلمونهم مبادئ اللغة العربية ، ولم يتمكنوا من تبليغهم دين الله تعالى .

الركيزة الثانية

دور الداعية

بين الله والناس

إيصـــال الإسلام للناس فن لا يقدر عليه الجميع ، ولذا كان من الضروري إيجاد داعية ، يملك القدرة على أداء هذه المسئولية .

إن الدعوة تحـــتاج إلى داعـــية متصف بصفات عديدة تجعله قادراً على القيام بواجب الدعوة على الوجه الذي يرضى الله ورسوله .

وأول هـــذه الصـــفات عـــراقة الأصل ، وشرف المنزلة لأن الناس تعودوا الخضوع لعلية القوم ، والاستماع لأصحاب المنزلة فيهم .

وقد علم النظام القبلي أهل مكة أن يكون لكل قبيلة شيخ ولكل مجتمع رئيس يأمر فيطاع ، ويحتاج فيعطى ، ولذلك وجب أن يكون الداعية بين الناس متميزاً فيهم بكـــرم الخلق ، وعلو المنزلة كما كان رسول الله " ﷺ " فهو من خير العرب نفساً ، ومن خيرهم نسباً ، فهو خيار من خيار .

ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الدعاة أن ينشأوا نشأة عملية ، يعايشون فيها النـــاس على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم ، وثقافاتهم كما أكرم الله رسوله " ﷺ " بمعايشة بني سعد ، والرعاة ، والتجار واليهود ، والنصارى ، وأهل مكة ، الأمر الذي مكنه بعد ذلك من التعامل الجيد مع الناس جميعاً .

ومـــا يجـــب أن يتحلى به الدعاة مكارم الأخلاق ، لأن ذلك أدعى للثقة ، وأقوى في التصديق .

وهذا هو رسول الله " ﷺ " أشتهر بين قومه بالصدق والأمانة ، وكان الغرباء في مكة يسألون عن خلق رسول الله فإذا علموا تميزه بالخلق الكريم أقبلوا عليه .

والداعـــية وارث النبي " ﷺ " في مهمته الإرشادية ، والقائم مقامه في إبلاغ ديـــن الله ، وكان النبي " ﷺ "يرشد المسلمين إلى ذلك ، فقال لأصحابه : " ألا ليبلغ

الشاهد منكم الغائب)[١] ، وقال (تسمعـــون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم)[٢] .

وحتى يتمكن المسلمون من القيام بهذه المهمة قضى الإسلام بتخصيص فئة معينة للقيام بها ، فما صح ولا يصح أن تقوم الأمة كلها على تخصص واحد ، وعمل سواه ؛ وقد بين الله تعالى أن على الناس أن لا يتجمعوا كافة على غرض واحد ، ولو كان هو الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ ۞ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾[٣] .

يقول علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي "ﷺ" وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصبة،يعني السرايا فإذا رجعت السرايا وقد أنزل الله بعدهم قرآناً تعلمه القاعدون مع رسول الله" ﷺ " وذلك معنى ﴿ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي يتعلم القاعدون ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرونه[٤]،وبمثل ذلك فسر مجاهد وقتادة الآية .

وهذا التفسير ينهى عن التجمع الكامل للنفير، ويحث على بقاء جماعة مع النبي " ﷺ " لمتابعة تعاليم الدعوة، وذلك هام في حد ذاته، لأن التفقه للدعوة أمر ضروري ؛ وهذا الوجه في تفسير الآية مقبول[٥] لأن النبي مصدر العلم ، والقعود معه يحقق التفقه والتعليم ، من غير سفر أو رحيل .

---

[١] صحيح البخاري ـــ ج ١ ص ٣٧ ـــ كتاب العلم ـــ باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

[٢] الفتح الرباني ـــ ج ١ ص ٢٦٤ ـــ كتاب العلم ـــ باب فضل تبليغ الحديث .

[٣] سورة التوبة الآية (١٢٢) .

[٤] تفسير ابن كثير ج٣ ص ٨٧ .

[٥] وهناك توجيهات أخرى للآية وهي أن تخرج طائفة مع النبي " ﷺ " ، أثناء الجهاد بقصد التفقه ليعلموا غيرهم بعد الرجوع إليهم في المدينة ، أو تعليم المجاهدين إذا التقوا بهم بعد المعركة .

وإن طلب جماعة لعلوم الدعوة فرض كفاية، كالجهاد تماماً؛ لأنهما معاً يؤديان إلى حفظ الدين واضحاً من غير تحريف، وإلى حمايته قوياً بلا اعتداء، بل إن الدفاع عن الدين بالكلمة أحياناً يكون أجدى من الجلاد عنه بالسيف .

هذا وقد أخذ الشاطبي [١] من قوله ﴿ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ ﴾ أن الدعاة المنذرين قائمون مقام النبي " ﷺ " لأن الله قال له ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ﴾ فالإنذار في الآيتين عمل مشترك يقوم به النبي وأتباعه من بعده على وتيرته .

ولئن كانت مهمة النبي في زمنه " ﷺ " صعبة فإن مهمة الدعاة اليوم كذلك لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة، ومجادلة المخالفين بالحسنى : وما أكثرهم اليوم ككثرتهم أيام النبي " ﷺ " .

ولئن كان الوحي يتنزل بالدين على رسول الله جزءاً جزءاً فإن ما نزل منجماً قد جمع وحفظ كله ليبقى بجملته مع الدعاة زاداً لهم،وأملاً لدعوتهم في النصر والبقاء .

ولئن عز الأشخاص المميزون فواجب على الأمة المسلمة أن تتخير وتعلم ، وتدرب ، وكما تبذل جهوداً لتخريج الأطباء ، والمهندسين، والضباط فعليها أن تبذل الكثير لإيجاد الداعية الكفء الذي يفيد الدين ، والناس جميعاً .

والدعاة اليوم هم المبشرون المنذرون، الحاملون صوت النبوة، المكلفون بالوصول بها إلى كل مكان في الوجود .. وقد قدر الله للدعوة أن تظل باقية في كتبها محفوظة بأمره، لكن الذي يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الكفء الذي يتخذ الرسول أسوته، ويحاول أن يستجمع ما اتصف به على قدر طاقته و﴿ لَّكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

ولابد في تكوين الداعية أن يكتسب بعض الصفات الضرورية التي تجعله ذا صلة قوية

---

[١] الموافقات ج ٤ ص ٢٤٥ .

بالله تعالى ، الذى يحمل رسالته ، ويبلغ دينه ، ويعيش مع وحيه سبحانه وتعالى ، كما تجعله فوق الصلة بالناس فهم مجال حركته ، ومقياس نجاحه ، وأمله كله ينحصر فى هدايتهم .

إن الداعية يحتاج إلى هذين الجانبين لأهميتهما له : ــ

أولاً : تقوية صلته بالله :

الداعية مرشد إلى الخير ، وموجه نحو الهدى ؛ وكل هدفه أن يعرف الناس ربهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

وعليه هو أولاً أن يمتن صلته بالله فى يقين وقوة،ويجعل إيمانه قائماً على تفرغ القلب الكامل لمولاه ، والارتباط المطلق به ، والتوكل الراسخ عليه ، والتسليم التام لكل ما يأتى به من غير ارتياب ــ أو حرج ــ لتكون الدعوة بذلك نابعة من قوله وعمله ، وكل ذلك سهل ميسور .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم،كتاب الدعوة الذى هو دستوره وهاديه ، ومن آياته يعلم أن الله واحد، منزه عن الشريك فى ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة فى مفهومها ودلالاتها ، أنظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝ ﴾ [1]

تراها قد صرحت بوحدانية الله من غير غموض ، بل إن القرآن يدافع عن هذه الوحدانية فيدعو إلى ترك ما عداها فيقول ﴿ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ [2] ويتجه بالدليل العقلى لمن يريده فيقول : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ [3] .

---

(1) سورة الصافات الآية (٤) .

(2) سورة النحل الآية (٥١) .

(3) سورة الأنبياء الآية (٢٢) .

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات بل تتكلم عن كل كمالاتها بإثبات الصفات والآثار ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [١] وقوله : ﴿ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّـٰرُ ﴾ [٢] فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود، قديم، حي، باق، عليم، مريد، قادر سميع، بصير، متكلم ، وبإثبات هذه الصفات تنتفي اضدادها ، والصفات وإن تشابهت ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنها ليست هي في الحقيقة لأن الله : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [٣] .

والقرآن الكريم لا يترك الداعية يبحث وحده عن الدليل، الدافع إلى الإيمان بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية في المخلوقات، ليتم إيمانه، ويحس طمأنينة خاصة تمر بين جوانبه ، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى في داخل النفس وخارجها ، والمخلوقات عديدة ، والنظر فيها يبين الدقة الإلهية، والعناية الربانية،ويؤدى إلى الإيمان المطلوب،فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمي، وآخر للتنفس، ومن ظاهر به حواس وجوارح ، هذه النفس بكل أجزائها تقوم بوظيفتها بطريقة تلقائية .

وقد وزعت الأعمال في براعة ودقة على كافة الأجهزة ، ليقوم كل بدوره : فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتكلم ، والرجل تمشي ، والأسنان تمضغ ، والمعدة تهضم ، والرئة تستنشق .

وهذا كله يشير إلى العناية والدقة الموجودة في خلق الله تعالى ، وهو الأمر الذى جعل العلماء يرون في القرآن الكريم أدلة خاصة به سموها : ــ

(١) أدلة العناية والدقة .

---

[١] سورة الحديد آية (٣) .

[٢] سورة الرعد الآية (١٦) .

[٣] سورة الشورى الآية (١١) .

(٢) أدلة الحسن والجمال .

(٣) أدلة الغاية والقصد .

وهذه أدلة تجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته لها ونظره فيها .

وقد حث الله الإنسان على النظر إلى النفس ، فقال تعالى : ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [١] ليروا فيها دلالة واضحة على وجود الصانع،وحكمته،وتدبيره ويكفى أن ينظر الإنسان إلى نفسه ليرى كما قال الزمخشرى فى ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال،وفى بواطنها وظواهرها عجائب الفطر وبدائع الخلق،وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول،وخصت به من أصناف المعانى،وبالألسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما فى تركيبها وترتيبها، ولطائفها من الآيات الساطعة،والبينـــات القاطعة ، على حكمه المدبر، دع الأسماع، والأبصار، والأطراف،وسائر الجوارح ، وتأتيها لما خلقت له ، وما فى الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثنى ، فإنه إذا جسا شئ منهـــا جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل [٢] .

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم الفسيح المملوء بالآيات البينات والعجائب الرائعة التى يجب النظر فيها ، يقول تعالى : ﴿ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ .

إن الداعية وهو يلازم الدعوة عليه أن يفكر فى هذا، وفى غيره، ليؤمن الإيمان الواجب، ويعلم من غير تردد حق الله الذى آمن به فيؤديه .

وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس فى أداء هذا الحق فقال تعـــالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ .

---

[١] سورة الذاريات آية (٢١) .
[٢] تفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦ .

يقول الزمخشري أن معنى الآية ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة و لم أرد من جميعهم إلا أباها [1] ولذا دعيت كل الأمم إلى واجبها ، يقول تعالى : ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ وكان النداء الأول في دعوة كل رسول هي ﴿ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ لأن الإيمان بالله الخالق، والتسليم له يقتضي حتماً، وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده .

إن العبادة هي الحبل الوثيق الذي يربط الإنسان بالله، وليس هناك سبيل سواها ، والله قريب من عباده قرباً لا واسطة فيه ، والداعية يعلم ذلك فيعبد الله مخلصاً له الدين،ويتفرغ بكليته في عبادته،ولذلك فعبادته غذاء روحي،ترقى به ذاته، وتذكره بالسلطان المطلق، وتسمه بحسن الخلق، وكريم المعاملة، وذلك كله سر العبادة وحقيقتها فمثلاً عن الصلاة ـ كعبادة ـ قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها لأن إقامة الشيء يعني الإتيان به متوماً، كاملاً، يصدر عن علته، وتصدر عنه آثاره ، ومن المعلوم أن الغاية من الصلاة ذكر الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴾ [2] وآثارها تظهر على المصلي ذاته لأنها : ﴿ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ﴾ [3] وهي بالإقامة عبادة حقة، فيها خضوع كامل، ناشيء عن إحساس يقيني بعظمة الرب القادر سبحانه وتعالى، ويتبعها أثرها المراد الذي يظهر في البعد عن كل باطل، والتخلق بكل حسن جميل ، وهكذا كل عبادة تعطي للنفس جرعة من الذكر، وجزءاً من السعادة .

ولا يرى الداعية من عبادته هذه المنزلة إلا إذا أداها مخلصاً كما أمر ، فإن القوم جميعاً : ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [4] وقد قال لهم الرسول " ﷺ " ﴿ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ ﴾ [5] ولذلك فهم

---

[1] تفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١ .
[2] سورة طه الآية (١٤) .
[3] سورة العنكبوت الآية (٤٥) .
[4] سورة البينة الآية (٥) .
[5] سورة الزمر الآية (١١) .

بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائماً ، ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [1] أنظر إليهم تجدهم : ﴿ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ ﴾ [2] لا يفارقون ذكره فى لحظة من لحظات الحياة، وكذلك يذكرهم ربهم ، ففى الحديث القدسى : (أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملإ ذكرته فى ملإ خير منه) [3] ، وهم فى ذكرهم الدائم يتقلبون بين الخوف والرجاء ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾ [4] .

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص الذى رسم الدين إطارها، وحدد شعائرها، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، بل إنه فى كل حياته عابد كما أراد الله بالمعنى العام والخاص معاً ، فاجتماعياته عبادة يفعلها لله رب العالمين، والسعى فى معاشه، والتعاون مع أهله عبادة يؤديها، ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه .

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً فى سبيل الله بمن خرج سعيا على المعاش فيقول تعالى : ﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [5] .

إن هذا الفهم الأصيل يجعل العابد فى علاقة خيرة مع الناس فيعود المريض ويطعم الجائع، ويسقى العطشان ، ويرفع الأذى من طريق الناس ، ويدفع إلى السعى

---

[1] سورة المجادلة الآية (٧) .
[2] سورة آل عمران الآية (١٩١) .
[3] صحيح البخارى ج٩ ص ١٣٩ .
[4] سورة السجدة الآية (١٦) .
[5] سورة المزمل الآية (٢٠) .

والضرب فى الأرض ، وهكذا ، يؤديها الداعية بهذا الفهم وبتلك النية ويسلمها لله رب العالمين .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل فى عالم الروح لأنها عنده لذاتها فتربطه تلقائياً بالله ، وتبرزه كحقيقته خاضعاً لربه، محباً هائماً فى تعلقه به ، لأنه بإيمانه أشد حباً لله لأنهم كما عرفهم ربهم بقوله : ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[1] والدعاة عباد الله بحق ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾لأن الله يحب المتقين، والمحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السمع والطاعة ويبحث عن المعروف ليفعله، ويأمر به، وعن المنكر ليجتنبه، وينهى عنه . وبسبب استغراق الداعية فى ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم علاج لراحة نفسه ، ونسيان آلامها ، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق الهدوء التام ، ألا تراها كانت علاجاً لرسول الله " ﷺ " يوم أن أكثر القوم من أكاذيبهم ومفترياتهم حتى ضاق صدره بما يقال ، فوجهه الله إليها علاجاً له فقال : ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ ﴿٩٩﴾ ﴾[2]،ووجهه إليها كذلك إذا أحس بالنصر والفوز شكراً ورضى،فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾[3] .

والعبادة بدورها لا تجد عسراً فى القيام بمهمتها فى الشدة، أو الرخاء لأنها تعايش إنساناً منفعلاً بها،ومسلماً بأنه مخلوق يتصرف كإرادة الخالق ويؤمن أنه : ﴿ مَآ

---

[1] سورة البقرة الآية (١٦٥) .
[2] سورة الحجر الآيات (٩٧ - ٩٩) .
[3] سورة النصر .

أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (١) .

إن هذا الإيمان الراسخ (**من الداعية**) الذى استتبع عبادة مخلصة صادقة وحبا هائماً شاملاً، يؤدى بصاحبه حتماً إلى التوكل الدائم على الله، والاستسلام له بلا تردد، لأنه ما دام قد ثبت فى نفسه ثبوتاً جازماً أنه لا فاعل إلا الله، واعتقد فيه تمام العلم وتمام القدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والرحمة لجملة العباد وآحادهم وأنه ليس وراء منتهى قدرته، وعلمه، ورحمته، قدرة، ولا علم،ولا رحمة، فإنه متكل لا محالة على الله ؛ مستمر فى انفعاله الروحى الصادق،لأن الله معه فى كل آن وحال . ولتمام توكله نجده يسلم أمر رزقه إلى الله : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴾ (٢) ويترك كل شىء لإرادة الله لأن المسألة هى : ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ (٣) ويشكر النعم ويصبر على المكروه : ﴿ وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَآ ءَاذَيْتُمُونَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ (٤) .

وعلى الجملة فإن المرء كما يقول الحكيم الترمذى : (من نور الله قلبه بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بصيرته بنور اليقين، فاستقام قلبه، واطمأنت نفسه ، وسكنت، ووثقت، وأيقنت، وسعدت بربها الخالق،وائتمنته على نفسها،فرضيت به وكيلاً، وتركت التدبير عليه ؛ فإن وسوس له عدوه بالرزق، والمعايش لم يضطرب قلبه، ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأنه رؤوف رحيم،وأنه حليم ودود،وأنه رب عفو غفور،وأنه عدل لا يجور، وأنه عزيز لا تمتنع منه الأشياء . وأنه يجير ولا يجار) (٥) .

---

(١) سورة الحديد الآية (٢٢) .
(٢) سورة الذاريات الآية (٥٨)
(٣) سورة يوسف الآية (٦٧) .
(٤) سورة إبراهيم الآية (١٢)
(٥) الرياضة وأدب النفس ص ٩٣

وبهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون خيرا في كافة الجوانب ويملك القدرة على الدعوة والبلاغ ، وحينئذ يمكنه أن يفيض على الناس بما امتلأ به ، فكل إناء بما فيه ينضح ، والظل في استقامته ، وامتداده يتبع أصله .

إن داعية متمتعاً بهذا اليقين يخدم الدعوة أكثر من آلاف ضعف إيمانهم ، وهزلت عقيدتهم ، لأن هؤلاء الآلاف يضرون ، ولا يفيدون، وقد أتى الإسلام من قبلهم .

ثانيا : توثيق إرتباطه بالناس :

لا يقف أمر الداعية عند تحسين صلته بالله على نحو ما سبق فإن ذلك يفيد شخصه أولاً وهو مستوى يحتاج إليه كل من أسلم وجهه لله وهو محسن ، وإنما على الداعية أن يحسن صلته بالناس فمعهم تكون دعوته، ولهم ينشرها، وبهم يحقق نصرها وظهورها ، وهذه الصلة الاجتماعية ضرورية للداعية لأنه :

أولا : أخ للناس استظهر عليهم بالنصح والتوجيه .

ثانيا : محل الثقة والنظر لما له من صفات ولما ينادي من مبدأ .

ثالثا : رائد الجماعة وزعيمهم ، ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس في فهم وتقدير ، ويتآلف معهم في مودة ، ويتحلى بما يضعه في الريادة من غير منازعة وشكوك .

والناس جميعاً إخوة ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد، هو آدم أب البشر أجمعين ، وعلى الداعية أن يتيقن ذلك ، ويعمل على أساس أنه ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بسبب لونه: أو طبيعته، أو عنصره، وإنما التفاوت بشيء خارج عن ذات الشخص وعنصره كإيمان، أو عمل، أو إخلاص ، وهو تفاوت لا يمس الإنسانية في شيء وقد وضح الله هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ [1] .

---

[1] سورة الحجرات الآية (١٣)

يقول الزمخشري: إن معنى الآية، فما منكم منم أحد إلا وهو يدلي بما يدلي به الآخر سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر، والتفاضل في النسب [١] وذلك شيء طبيعي لأن الإنسان خلق مكرماً كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [٢] ، يقول الألوسي: أي جعلناهم قاطبة برهم، وفاجرهم، ذوي كرم أي شرف ومحاسن [٣] وهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات في القرآن الكريم مصدرة بـ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾ و﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ تنويهاً بهذه الصفة العامة التي يأخذ منها أي إنسان بقدر ما يأخذ الآخرون سواء بسواء .

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان وإنسان في دعوته ، ولا يفرق بينهم بسبب غنى ، أو حسب ، أو ما شاكل ذلك ، فلا يدعو القوي تاركاً الضعيف ، أو يخص غنياً مهملاً الفقير ، أو يقصر دعوته على الرجال دون غيرهم ، وذلك لأن دعوته عامة للجميع ، وهو المكلف بنشر هداية الله بينهم ، والكل محتاج إليها ، بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواه ، ولذلك فالإعراض عنه ليس من صفات الداعية المثالي ، ولقد أودع الله للدعاة درساً في هذا الباب بما حدث من النبي " ﷺ " مع عبد الله بن أم مكتوم ، فرغم أن عبد الله كان أعمى مما جعله لا يتحقق من عمل النبي " ﷺ " في مجلسه،فدخل عليه طالباً التعليم،في الوقت الذي كان النبي " ﷺ " مشغولاً فيه بتعليم غيره من صناديد قريش ، وكونه أعمى يعطيه العذر في عدم تقدير الوقت المناسب للسؤال ، وسبق القرشيين في الحضور يعطي النبي " ﷺ " عذراً في إمهال عبد الله ، خاصة وأن عبد الله أسلم من قبل ، والقرشيون لم يسلموا بعد ، وفي إسلامهم إسلام غيرهم ، رغم ذلك فقد عوتب النبي " ﷺ " في هذا الموقف

---

[١] تفسير الكشاف ج١ ص ٥٦٩

[٢] سورة الإسراء الآية (٧٠) .

[٣] روح المعاني ج ١٥ ص ١١٧ .

حتى لا يقال أنه أهمل عبد الله لفقره وعماه ، وأهتم بغيره لجاهه وغناه ، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك بداية سيئة يهتم فيها الدعاة بالأشياء الظاهره ويفرقون بين بعض الخلق وبعض بما ليس لهم به سبب ، فقال تعالى : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ ﴾[١] .

إن النبى " ﷺ " فى هذا الموقف كله كان يعمل للدعوة ويسعى إلى إسلام القوم وتزكيتهم، باذلاً من نفسه جهداً، وعملاً، كما تفيده التاء فى " تصدى " والقوم الذين تصدى لهم النبى " ﷺ " هم عتبة، وشيبة، ولدا ربيعة ، وأبو جهـــل، والعباس ابن عبد المطلب،وأمية بن خلف،والوليد بن المغيرة، وهم قادة مكة ورؤساؤها مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم [٢] ولذلك بقى مستمراً فى دعوتهم ، فلما جاءه عبد الله ودعاه لم يقطع حديثه معهم ، وإنما أعرض عنه ، فكان العتاب موعظة ترسى مبدأ إسلامياً هو الحرص على كرامة الإنسان مطلقاً ، يجب الاتعاظ بها والعمل بموجبها .

الركيزة الثالثة

صفات الدعاة

الداعية رائد فى مجتمعه ، يقود بالحسنى ، ويدعو إلى الحق والصواب ، وينادى بالخير المطلق للناس أجمعين .

وهذه المهمة التى يقوم بها الدعاة تحتاج إلى شخصية ذات مواصفات معينة تساعد على القيام بهذه المهمة الخطيرة ، الشاقة .

---

[١] سورة عبس الايات (١ ـ ١٠) .

[٢] تفسير الكشاف ج٤ ص ٢١٨ .

إن الدعوة فهم دقيق للإسلام ، وتقدير صحيح لمخاطبة الناس ، ومهارة فائقة لمواجهة المواقف المفاجئة ، وذكاء فريد للبيان والتفصيل ، والدفاع عن الحق ، وإزاحة الشبه والزيوف .

لهذا وغيره نرى حاجة الدعاة إلى صفات تعينهم فى تبليغ دين الله للناس .

ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى أطر رئيسية هى : ـ

أولا : صفات التكامل الذاتى، وأهمها الصدق، والأمانة ، والإخلاص ، والذكاء

ثانيا : صفات الترابط والمودة ، وأهمها الحلم والتواضع ، والقناعة، والكرم .

ثالثا : صفات الريادة والتوجيه .. وأهمها المشاركة الوجدانية ، والقوة ، والشجاعة .

وهذه الصفات تحتاج إلى بيان ...

" أولا "

صفات التكامل الذاتى

يبعث الله رسله بعد بلوغهم سن الأربعين ، لأنه حد الرشد ، ونضوج العقل ، يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةً ﴾ لأن كمال الرشد يساعد على تكميل الغير ، ونحن هنا نشير إلى أهم الصفات البارزة فى الشخصية الكاملة لتكون منارة فى تنشئة الدعاة ، وتوجيههم نحو النجاح فى مهمتهم .

إن تأثير داعية واحد يتميز بالصفات المنشودة أفضل من تأثير مئات الدعاة الذين اتخذوا الإمامة والدعوة وظيفة يكفيها حضور الأوقات والانصراف من المسجد .

سمعت مرة أحد العلماء يقول : إنى أؤمن بالواحد ، فظننته يتحدث عن الإيمان بالله تعالى الواحد ، الأحد ... ولكنه بين أن مقصده الداعية المثالى ولو كان واحدا ، لأن الكثرة ، غير المهيأة لا تفيد مثله .

ومع آمال المؤمنين المخلصين أرجو للدعاة أن يكونوا على مستوى دعوة الله تعالى .

وأهم صفات الكمال الذاتى ما يلى : ـــ

١ ـ الصدق :

والصدق فوق أنه فى حد ذاته سلوك سام، وصفة راقية، فهو منبع الثقة، وأساس التسليم، لأن الصادق لا يخالف الواقع ، وكل قوله مسلم، لا يحوم حوله شك، أو تكذيب .

والصدق فى الداعية ضرورة، لأن ما يذكره ليس رأياً شخصياً، ولا اجتهاداً ذاتياً، لأنه مبلغ دعوة الله كما جاءت،ومبين لغوامضها،وناقل كل بيان قيل فى شأنها ، وكل هذا يحتاج إلى صدق فى التبليغ، ودقة فى النقل والبيان، حتى يتيقن المدعو من أن كل ما يسمعه من الداعية هو رسالة الله، وأن الدعوة كما بدت من قوله هى هى كما تركها رسول الله " ﷺ " بلا تزيد أو انتقاص .

ولذلك كان من الحكم الخالدة فى رسالة الإسلام أن أهم صفة اشتهر بها النبى " ﷺ " هى صفة " **الصادق الأمين** " وقد ذكر النضر بن الحارث بعض أوصافه لقومه فقال لهم : (**هو أصدقكم حديثاً**) [١] ، ولما سأل هرقل أبا سفيان (ولم يكن **قد أسلم بعد**) عن محمد قائلاً:وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجابه : لا .

فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله [٢] ، وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق لأن دعوة الله لا نعلمها إلا من مبلغها ، ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله ، أما من إلترم الصدق مع البشر فهو صادق حتماً مع الله سبحانه وتعالى .

ولما بدأ النبى " ﷺ " يجهر بدعوته سأل الناس (**لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقى ، قالوا جميعاً : ما جربنا عليه كذباً**) [٣]، وإنما

---

[١] سيرة النبى ج ١ ص ٣١٩ .
[٢] صحيح البخارى ج ١ ص ٥ ، ٦ ـ باب بدء الوحى .
[٣] صحيح البخارى ج ٦ ـ كتاب التفسير ـ باب تبت يدا أبى لهب .

بدأ معهم بإظهار إقرارهم بصدقه ليوضح لهم أن دعوته لهم هى الحق ، لأنه لم يعهد فيه الكذب قط .

وقد كثرت التنبيهات والتوجيهات فى القرآن الكريم والحديث النبوى لالتزام الصدق فى كل شيء فقال تـعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ .

ويقول النبى " ﷺ " (**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة**)[1] بل يصل الأمر فى أهمية الصدق إلى جعله أحد الصفات الأساسية للمسلم،لأن الإسلام فى حقيقته نبذ للأوهام ،وبعد عن الباطل، وهو بذلك يتنافى مع الكذب، ومن افتراه ليس مؤمناً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾[2] .

وسئل النبى " ﷺ " (**أيكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل : أيكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أيكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا**)[3] .

وإن كان هذا شأن المسلم على إطلاقه فما بالك بالداعية الذى هو فى أشد الحاجة إلى أن يتبع، وبغير الثقة فى صدقه لا يكون هناك اتباع، ألا ترى أخوة سيدنا يوسف " عليه السلام " حينما احتجز أخوهم " بنيامين"عند يوسف " عليه السلام " ذهبوا إلى أبيهم قاصين ومن أجل أن يثق فى قولهم قالوا : ﴿ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[4] بل إن رسل الله إلى لوط " عليه السلام " يقولـــــون له : ﴿ وَأَتَيْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾[5] فتجدهم يظهرون صفة الصدق لمحدثهم على وجه التأكيد، فيها، ليكون ذلك أدعى إلى السماع،

---

[1] موطأ مالك ج٤ ص ٢٢٧ ـ ما جاء فى الصدق .
[2] سورة النحل الآية (١٠٥)
[3] موطأ مالك ج ٤ ص ٢٢٨ ـ ما جاء فى الصدق والكذب .
[4] سورة يوسف الآية (٨٢) .
[5] سورة الحجر الآية (٦٤) .

وأسرع فى الموافقة، لا فرق كما هو مذكور بين الملائكة والبشر، لأن الإقناع لا يتم إلا بالأمر الواقع، ويعيش التصديق دائماً مع الحق والثبات ، ومن أكثر من الدعوة حاجة إلى الإقناع والثبات ! ! ! .

صحيح أن الدعوة تحمل فى طياتها عناصر الثقة بها، من واقعية فى التشخيص ودقة فى الإسعاد ، لكن هذا لا يعفى الداعية من ضرورة الثقة فيه أيضا، لكى تصغى إليه الأذان ، وتسمع العقول، وتفكر الأفئدة، وبعدها يكون قد أدى ما عليه .

٢ ـ الأمانة :

ومما يلازم الصدق صفة الأمانة الشاملة لكل ما يقوم الإنسان به تجاه نفسه وتجاه الناس،من قول، أو عمل. ومن أكبر الخيانات أن تكذب الحديث حيث يقـــول ﷺ "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق،وأنت له به كاذب"[١] ولذلك أمر الله المسلم بأن لا يخون فى أى جانب من الجوانب حيث قال تعـــالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[٢] وكما ارتبط الإيمان بالصدق فهو يرتبط بالأمانة ، ويجب أن يشتهر الداعية بالأمانة كما أشتهر بالصدق عند الجميع من أسلم ومن لم يسلم ليتحقق خير كثير للدعوة .

٣ ـ الإخلاص :

يحتاج الدعاة إلى الإخلاص لله تعالى وهم يبلغون دينه ..

والمقصود بالإخلاص أن يكون العمل كله لله ، لا يداخله غرض آخر ، وأن يبحث فى كل أقواله ، وأعماله ، وأحواله عن مراد الله وتوجيهه فيما سيقوم به .

وقدوته فى ذلك رسول الله " ﷺ " الذى عاش عمره للدعوة ولم ينظر لشيء آخر . عرض عليه كفار مكة المال ، والملك ، والسلطان ، والمرأة ليترك الدعوة . فكان رده واضحاً بأنه لن يتركها ولو ملكوا قوى الكون وأعطوها له فى يده ، وتحت تصرفها[٣]

---

[١] البخارى ـ باب الأدب المفرد .
[٢] سورة الأنفال الآية (٢٧) .
[٣] انظر ص

ولصدق إخلاصه " ﷺ " لدعوة الله تعالى تحمل في سبيلها الكثير . فقد أوذي في نفسه ، وولده ، وسائر جوانب حياته ، وظل صابراً محتسباً ، راجياً رضوان الله تعالى ؛ لذلك وجب على الدعاة أن يعيشوا للدعوة ، وبخاصة أن الله تعالى قد يسر لهم أمر المعاش ، في هذا العصر .

إن الداعية المخلص لرسالته مسئول عن : —

— العلم بالدعوة : وذلك لا يتأتى إلا بالقراءة الدائمة والتعلم المستمر ، وليجعل للكتاب نصيباً من حياته ، يعود إليه أثناء تحضير درسه ، وإعداد خطبته .

ومن المعلوم أن الداعية يعرض دعوته جزءاً ، جزءاً ، وعليه حينئذ أن يعد لكل جزء عدته بالقراءة ، والفهم والإعداد .

— تخير الوسيلة : وهذا يحتاج إلى النظر في كافة الوسائل الممكنة لتخير المفيد منها ، فقد يكون المفيد كتاباً ، أو حواراً ، أو مصاحبة ، أو حديثاً مطولاً .

وله في رسول الله " ﷺ " أسوة ، فلقد دعى خديجه " رضي الله عنها " بالعمل ، ودعا أبا بكر بالكلمة الموجزة ، ودعا غيره بالخطة المطولة ، أو برؤية العمل والتطبيق .. وهكذا .

— تحمل المشاق : يلاقي الدعاة في أعمالهم عديداً من العقبات ، بعضها من المدعوين وبعضها من غيرهم ، من شياطين الإنس والجن ... وقد عشنا مع رسل الله " عليهم صلوات الله وسلامه " ، ورأينا المعاناة التي قابلتهم أثناء قيامهم بالدعوة إلى الله تعالى .. ومع ذلك لم تلن لهم قناه ، ولم تضعف لهم عزيمة ، واستمروا على إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى .

على هذا يجب أن يستمر الدعاة غير مبالين بما يعترضهم من مشاق ، محتسبين ذلك لله رب العالمين .

٤ ـ **الذكاء والبديهة** : يتعرض الدعاة لمواقف تحتاج منهم إلى بديهة متوقدة تمكنهم من إيجاد الحل المناسب لها ، في إطار المشروعية الإسلامية ، وبسرعة خاطفة ، منعـــا

لنشر الملل مع المدعوين .

إن الذكاء العادى ، والذاكرة الضعيفة تضر أكثر مما تفيد فى بعض الأحيان ، وكثير من العباقرة فقدوا تفوقهم بسبب بطئهم فى التفكير ، وإيجاد الحلول ، ومعالجة المواقف .. لأن الإنسان قد يكون مثقفاً ، غزير المادة ... ومع ذلك يرتج عقله ، وتخونه ذاكرته إذا صادف موقفاً ، حساساً ، مفاجئاً .

وقديماً قالوا (**إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه**) .

ذهب غلام مع وفد قومه لتهنئة عمر بن عبد العزيز ، ولما وقفوا بين يدى الخليفة إشرأب الغلام للكلام .. فقال عمر : يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك .

فقال الغلام : يا أمير المؤمنين : إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد أجاد له الاختيار ، ولو أن الأمور بالسن لكان ههنا من هو أحق بمجلسك منك .

فقال عمر : صدقت [1] .

والقلب الحافظ لا يكون إلا من ذاكرة حسنة ، وبديهة حاضرة ..

وقد درس علماء النفس ظاهرة ضعف الذاكرة فوجدوها ضارة بالإنسان ، وخاصة الإنسان العادى .

يقول "كارل سيشور" :إن الرجل العادى لا يستخدم أكثر من عشرة فى المائة من قدرته الموروثة فى الاستذكار ،ويضيع منه تسعون فى المائة بإهماله قوانين التذكر الطبيعية [2]

إن العلم هبة إلهية يعطيها للمتقين من عباده كما يقول تعالى : ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ .

ويقول الإمام الشافعى :

شكوت إلى وكيع سوء حفظى   فارشدنى إلى ترك المعـــاصى

وأخبرنى بأن العلـــــم نـــــور   ونور الله لا يعطى لعاصـــى

---

(١) الشخصية ص ٢٢ .

(٢) التأثير فى الجماهير ص ٦١ .

وأهل التصوف يشعرون بالإلهام الإشراقي ، ويذكرون أن أهل الله يكون الله معهم دائماً عوناً ونصيراً .

ومع أن الأمر هبة إليه فإننا نطالب بالأخذ بالأسباب ومطرد العادة .

أراد النظام أن يوجه ولده إبراهيم للدعوة إلى الله تعالى فأحضره إلى الخليل بن أحمد ، فقام الخليل باختبار ذكائه ، والوقوف على درجة بديهته ، فأحضر كأساً ، وقال له : صف هذا الكأس .

فقال إبراهيم : بمدح أم بذم ؟ !

فقال الخليل : بمدح .

فقال إبراهيم : تريك القذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراء .

فقال الخليل : بذم .

فقال إبراهيم : يسرع إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر .

وهنا أخذ يعلمه ، ويوجهه لما رأى فيه من فطنة وذكاء ..

ومن هذا الباب أيضاً أن الحافظ العراقي لما ذهب إلى شيخ ابن البابا ليتلقى عنه الحديث اختبره أولاً حيث قال له : من ابن البيع ؟

قال الحافظ : الحاكم أبو عبيد الله النيسابوري .

فقال له : من أبو محمد الهلالي ؟

قال : سفيان بن عيينة .

قال له : هلم يا بني : وعرف مكانته من الوعي والإدراك ؛ وإستعداده للتعلم،وعلمه .

إن مثل هذا الاختبار يتم اليوم في عدد من الدراسات المتخصصة التي تبدأ من وقت مبكر كدور المعلمين والمعلمات ، ومعاهد الخدمة الاجتماعية ، والمدارس العسكرية المتنوعة ، وذلك كله لينجح الطالب بعد تخرجه فيما يوكل إليه من أعمال .

وقد أدرك قدر هذا الاختبار المبكر مع الاختيار أصحاب المذاهب الوضعية

ورجال الأديان الأخرى فعملوا به وأخذوا يعدون لباطلهم دعاة فيهم الذكاء والنشاط والإخلاص ، وغير ذلك من الصفات التي تنتشر بها الأفكار والعقائد .

وإعداد الدعاة إلى الإسلام يجب أن يتدرج في هذا الخط الطبيعي : حيث يختارون في سن مبكرة ، وتختبر مستوياتهم الذهنية وقدراتهم الشخصية ليسهل إعدادهم ، ويكونوا بعد تخرجهم على مستوى واجب الدعوة، وأهمية العمل لها .

" ثانيا "

صفات الترابط والمودة

تأليف القلوب عملية أساسية في الدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك وجب على الداعية أن يهتم بهذا الجانب الحيوي في نشاطه ، ليرتبط مع الناس في مودة وإخلاص .

ويعتمد هذا التأليف على ملامح شخصية الداعية ، ولذا نوصي بضرورة تميزه بالصفات التالية : ــ

١ ـ الحلم :

والحلم صفة هامة للداعية لجمع القلوب، وتذيب الإحن، وتجعل له قدرا كبيرا من الصلابة في مواجهة أشد المواقف، وأحلكها، وهو أول ما يتحلى به الخلق الحسن ؛ لأنه يقرب الغريب، ويذهب العداوة .

وهل يستوي الحلم والتهور ؟ أبداً لا يستويان لأن الحلم سيد الأخلاق ، والحقيقة أنه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [1] والحلم ليس دليل ضعف أبدا ـ بل هو الدليل على القوة ، والمالك لنفسه عند الغضب هو القوي في الحقيقة . يقول النبي " ﷺ " : (ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب) [2] والإسلام رغم أنه يعطي للنفس حقها في مقابلة السوء بمثله حيث قال تعـــالى :

---

[1] سورة فصلت الآيات (٣٤)

[2] موطأ مالك ج ٤ ص ٩٥ ما جاء في الغضب .

﴿ وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا ﴾وهذا شيء طبيعي يتفق مع غريزة الإنسان في الانتقام والانتصار إلا أن الأسمى من الانتصار هو أن يكون المرء حليماً يعفو عند الإساءة ، فقال تعالى عقب هذا الجزاء المثلي : ﴿ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ ﴾وكـون الأجر على الله يحتم العفو إلى درجة كبيرة .

ولضرورة هذه الصفة للداعية أمر الله رسوله بها فقال له:﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴾[1]،وقال له:﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[2] .

وعلى الدعاة أن يهتموا بالحلم والعفو ليصلوا إلى غرضهم، ولا يجعلوا همهم الغضب والانتقام؛ لأن ذلك ينفر المدعوين منهم ولا يحببهم في استماع الدعوة وتفهمها ، يقول الإمام الغزالي : (أما حسن الخلق بعد العلم، والورع، فضرورة ليتمكن من اللطف والرفق، وهو أصل الباب، وأسلمه، والعلم والورع لا يكفيان فيه فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه ما لم يكن في الطبع قبوله ، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق، ومقدرة صاحبه على ضبط نفسه وقت الشدة والغضب ، وبه يصبر الداعي على ما أصابه من دين الله، وإلا فإذا أصيب عرضه، أو ماله، أو نفسه نسي الدعوة، وغفل عن دين الله، واشتغل بنفسه ، بل ربما يقدم عليه ابتداء لطلب الجاه والاسم) [3].

يقول الشيخ / ابن علوي الحداد : (على الدعاة أن يكونوا على نهاية من الصبر، والاحتمال، وسعة الصدر، ولين الجانب وخفض الجناح، وحسن التأليف ، وإن دخل عليهم شيء من أذى الجاهلين، عليهم أن يصبروا، ويعرضوا، ويقولوا خيراً لأنهم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما) [4] .

---

[1] سورة الأعراف الآية (١٩٩) .
[2] سورة المائدة الآية (١٣) .
[3] الدعوة التامة ص ٩
[4] الإحياء ج٢ ص ٢٩٢

ويقول ابن تيمية(ولابد فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من الرفق ولا بد أن يكون الداعية صبوراً على الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يصبر ويحلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح،ويقل ابن تيمية ما قاله القاضي أبو ليلى(لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه،حليماً فيما يأمر به،حليماً فيما ينهى عنه)[1]

ويكفى الدعاة أن يتعنسوا من توجيهات القرآن الكريم المؤكدة نحو الحلم والعفو حيث قال تعالى:﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[2] .

٣ ـ التواضع :

والتواضع أحد الصفات الأساسية التى تساعد على المعاشرة الحسنة، لأن المتواضع يعيش مقدراً لنفسه وللناس، ومقدراً من الآخرين ، ومن هذا المنطلق لايبدو متعالياً قط، ولا يكون وضيعاً أبداً ، ويشعر أن المساواة الأصيلة هى الروح المسيطرة فيألف ويؤلف ويأنس ويؤتنس به .

ويستقر التواضع فى النفس بسبب يقينها بأنها والناس جميعاً من نفس واحدة، وما انقسمت إلى القبائل والشعوب إلا لأجل التعارف، واللقاء، والتآلف، حفاظاً على ما عليه الإحساس الواقعى بالأصل الواحد ، واتباعاً لتعاليم الرب الواحد الذى كفل للناس فرصة متكافئة فلا يتمايزون بخلقتهم، أو لونهم، أو ثقافتهم، وإنما يكون التمايز تابعاً للإيمان والعمل ، وحتى مع التميز بالإيمان والعمل فإن الواجب على المؤمن أن يتمسك بالتواضع حتى النهاية لما يحققه من فائدة ، أنظر ما قاله الله تعالى لتأصيل هذه الحقائق : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾[3] فالجميع من

---

[1] الحسبة فى الإسلام ص٢٨١ ، ٢٨٢ .

[2] سورة النور الآية (٢٢) .

[3] سورة الحجرات الآية (١٣) .

أصل واحد والتفرق للتعارف، والكريم هو التقى، والذى يحكم بالدرجة الصادقة هو الله العليم الخبير، أما هذا الذى يتعالى حتى ولو بتقواه فلا يعتد به لأنه زكى نفسه مخالفاً أمر الله القائل : ﴿ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾ [١] .

والداعية الذى جعل همه الدعوة إلى الله يجد نفسه ملتزماً بالتواضع، ليتمكن من الناس طريق الله الذى دعا إليه عباده الصالحين ليتحقق له كل ما وعد الله به ، من تمتع كامل بالدنيا، ومن تمتع عظيم بالأخرة فإن الواقع أن : ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [٢] ..

والتواضع يمكن صاحبه من الاستفادة بكل أيات الذكر، والكون، لأنها لن تصرفه عن فهمه لتواضعه كوعد الله القائل : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [٣] فبين أن عقول المتكبرين وحدهم هى التى لا تفهم ولا تعى، فيجادلون فى الحق بعد تبينه، ومهما عرضت لهم الآيات الواضحات كونية، أو قولية، لا يرونها، ذلك حالهم ، وحال المتكبرين دائما : ﴿ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ، وإنما فقدوا كل هذا لأنهم بالتكبر بعدوا عن رحمة الله وحبه ، إنه لا يحب المستكبرين وبفقدهم هذا الحب لا يجدون أى حب من الناس، لأن الملائكة تنادى أرواح البشر أن الله يبغض فلاناً فأبغضوه ، وسيجدون أنفسهم بعد ذلك فى عزلة من الناس ، وهذا مما لا يرضاه داعية لنفسه .

على الداعية أن يلتزم التواضع ليقرب من الناس،لأن دعوته فى حاجة إلى صلة مستمرة بهم ، وعليه أن يكون قريباً إلى قلوبهم وأرواحهم ، والتواضع هو ضمان ذلك كما بينته الحقائق الدينية التى عاشها النبى " ﷺ " تطبيقاً على نفسه، وتوجيهاً لمن بعده

---

[١] سورة النجم الآية (٣٢)

[٢] سورة القصص الآية (٨٣) .

[٣] سورة الأعراف الآية (١٤٦) .

من المؤمنين ، إقرأ هذا الأمر إلى رسوله " ﷺ " : ﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [1] والمس منه التوجيه الواجب إلى التواضع لأنه هذا الخفض يقربهم ، ويوجه عقولهم وأرواحهم ، وكان النبي " ﷺ " لا يتعالى على أحد من أصحابه بل يجلس معهم ويعرفهم أنه كأحدهم فى كافة شئون حياته ، وإذا ما مر بصبيان صغار وقف وسلم عليهم ، **فلقد مر أنس على صبيان فسلم عليهم وقال : كان النبي يفعله** [2] بل إنه يوضح لأصحابه تواضعه فيما قام به من عمل ، فيقول " ﷺ " (**ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم**)، فلما سأله جابر عن نفسه قال (**وهل من نبي إلا وقد رعاها**) [3] .

وعلى الدعاة أن يلتزموا بالتواضع الكامل حتى يتمكنوا من تأدية دورهم ويضربوا فى هذا المجال صوراً عملية كثيرة .

٣ ـ القناعة والزهد :

الزهد الصادق يتبعه قناعة بما أوتى ، وعفاف عما فى أيدى الناس ، ولا تقف النفس الكريمة بصاحبها عند الزهد، والقناعة، والعفاف ، بل إنها تطبعه بطابع السخى المعطى حين يجد الذى يعطيه غير منتظر علم أحد، أو شكره، لأنه أنفقه لوجه الله ، ولا ينتظر ثواباً إلا من الله ، وما ذلك إلا لإيمانه بحقائق القرآن الذى يتلوه ويرشده والتى منها : ﴿ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ [4] .

إن الداعية فى أمس الحاجة إلى نفس زاهدة تؤمن بالزهد وتعرف فضيلته وترى أن

---

[1] سورة الشعراء الآية (٢١٥) .

[2] رياض الصالحين ص ١٧٥ .

[3] صحيح البخارى ج٤ ص ١٩٦ ـ كتاب بدء الخلق ـ باب يعكفون على أصنام لهم

[4] سورة البقرة الآية (٢٧٢) .

(هذه الحياة الدنيا ليست دار التمتع الكلي ولكنها فترة مؤقتة تبنى عليها كل سعادة الآخرة) ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ [1] وبذلك فليس الهدف منها التلذذ من الشهوات والمطعم ، وليس هو شأن المؤمنين أبداً أما الكافرون فإنهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ ﴾ [2] وبهذا الزهد لا يكون المؤمن منعماً في تصرف ، وفي الوقت نفسه لا يحرم من الدنيا ﴿ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴾ ﴿ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ .

هذه الحقائق ترسخ في نفس الداعية فيعطي بلا حد ، ويعلم أن الله سيخلفه ويعوض عليه بالنجاح في دعوته .

٤ - الكرم والسخاء :

والكرم والسخاء صفة من أهم صفات الداعية حيث تقرب القلوب النافرة وتمهد العقول للطاعة ، ولذلك كان من أول الأوامر الأخلاقية للرسول " ﷺ " ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ﴾ [3] أي لا تعط مستكثراً ما أعطيت للناس فنجده " ﷺ " يعطي عطاء من لا يخشى فاقه ،وكان كما وصفه ابن عباس (**أجود الناس**) [4] ولم " ﷺ " يقل لا عن شيء **سئل فيه** [5] ولا يكفي في الكرم العطاء المادي وقت وجود المـــــــال فـ (**ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس**) [6] بل لا بد من نفس كريمة استجمعت كل خواص الكرم وأصالته في كافة حالاتها .

---

[1] سورة الشعراء الآية (٢١٥) .
[2] رياض الصالحين ص ١٧٤ .
[3] سورة المدثر الآية (٦) .
[4] صحيح مسلم ج٧ ص ٧٣ .
[5] صحيح مسلم ج٧ ص ٧٣ .
[6] صحيح البخاري ج ٨ ص ١١٨ .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يعلم المؤمنين الالتزام بمكارم الأخلاق ، غير عابئين بما يعترضهم من عقبات ويعد الكرم أحد الأسباب التي حببت الناس في رسول الله " ﷺ " ويقول علي : (كان رسول الله أجود الناس كفا) ، ومن المعروف أن الإنسان عبد الإحسان ولذلك يروى أن رجلاً أتى النبي " ﷺ " وسأله فأعطاه غنما بين جبلين فرجع إلى قومه مسلماً وهو يقول لهم (أسلموا فإن محمدا يعطي عطاء ما يخشى فيه الفاقه) [١]

" ثالثا "

صفات الريادة والتوجيه

والداعية لا يكتفى بالمودة مع الناس لأنه صاحب رسالة يعمل لنشرها فيهم ، ويهديهم بها ، وذلك لا يتأتى له إلا إذا تمتع بشخصية مؤثرة فيها قدرة الجذب النفسي ، ومنها يقبل التوجيه والريادة ، على أن هذه الشخصية لابد أن تمتلك مجموعة من الصفات ذات التأثير والريادة ، ومنها :

١ ـ المشاركة الوجدانية :

وهي صفة هامة للداعية ، تجعله يعيش حياة الناس ، ليشعر بشعورهم ، وينفعل مع آرائهم ، وحياتهم ، ويتداخل في تقاليدهم ، وكافة شئونهم بصدق وفهم ، وتمثل ، ويجب أن تأخذ هذه الصفة عنده شكلاً عاماً بمعنى تواجدها تلقائيا مع الجميع بلا تفرقة بين غني وفقير ، أو رئيس ومرءوس ، ورفيع أو وضيع لكي يصل بالدعوة إلى الجميع ، فإن المشاركة تضفي إحساساً عملياً له قوته في الوصل والتأثير ، ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هي الرباط الحريري الذي يصل القلب بالقلب ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح [٢] وهي التي تنشئ كل التصرفات الحسنة والسلوك القويم ، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية مؤكد بسبب خلوها من الزيف والتصنع ، ولأنها

---

[١] الشفا ج ١ ص ٢٣٨ .
[٢] الشخصية ص ٤٠

يظهر مع أول مقتضى ، ولكل أمر ، ولا تحتاج إلى عناء كبير لكي نعرف. وتدركه لملازمتها القول ، والسلوك ، والعمل .

والداعية بها ينتظره الناس ويقدمونه عليهم، فيأخذون رأيه، ويبتهجون بحديثه، ويجعلونه رائدهم وما استحق ذلك عندهم إلا بعد أن تأكدوا من الصور العملية لهذه الصفة ، فهو حبيب يتمنى الخير للجميع، كما يتمناه لنفسه، فيصل الرحم، ويكرم الجار، ويقري الضيف، ويخلص للجميع، ولا يترك أمراً فيه مصلحتهم إلا وحث عليه ويبعدهم عن سواه ، ودائماً تلقاه مهتماً بالخير والنفع، فيكرر النصيحة، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر ، وتعاونه مع الجميع يلمسه الجميع، في كثرة، ووضوح ، وهو في هذا لا ينتظر من الناس جزاء أو شكوراً ، وكل ما يتمناه أن يجعل الأفهام متفتحة لدعوة الله مقبلة على تدبرها واليقين بها .

والداعية يطبق أشكال هذه الصفة عن اقتناع بها، لأنها أوامر دينه إليه، وحياة رسوله " ﷺ " مع الناس ، وإذا كانت هذه مصادر دعوته فهو أحق الناس بتطبيقها .

إن الدروس المستفادة من فهمه لحقيقة الإنسانية، ودعوة الإسلام للتعارف تحتم المشاركة الصادقة، وجدانياً، وعقلياً، وحسياً،ليصنعوا جميعاً ما يفيدهم وينفعهم ، وآيات القرآن تؤكدها وتحث عليها ، أنظر قوله تعالى حينما يخاطب القوم بصيغة الجماعة فإنه لا يفرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين مؤمن ومؤمن ، فالخطاب واحد للجميع إذ ينادي ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾وهذا يعلم المشاركة بل إن القرآن يعلم الناس أن يكون دعاؤهم لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ ﴾وهو دعاء في سورة الفاتحة يقرأه المسلم كل يوم داعيا بصيغة الجماعة إيثاراً لغيره، وتبرئة لنفسه، من الأنانية،ولأنه شيء يحبه الله ورسوله ، حيث يقول تعالى : ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ﴾[١] ويقول إخباراً

---

[١] سورة محمد الآية (١٩)

عن سيدنا إبراهيم " عليه السلام " : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝ ﴾ [٢] وذلك ليس بدعا فإن القرآن يمتدح المؤمنين الأول، لأنهم تركوا أنانية الذات إلى حب الجميع حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقـولون : ﴿ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [١] و لم يكن بالقول فقط وإنما بالعمل كان إيثارهم كما يفيده قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [٢] فترى الأنصاري ساكن المدينة يحب المهاجر إليه من مكة، بكل صفاء، ويؤثره على نفسه خاصة ، وسبب ذلك أن وجداناتهم قد آمنت بهذه المشاركة عن اقتناع فتمكنوا بعد ذلك من تأسيس مجتمعهم على الحب، والخير، والمشاركة، وكل ما حرصوا عليه هو أن ينمحي الغل من قلوبهم وأن يوقفوا شح النفس ليصلوا إلى الفلاح ، وذلك درس للداعية .

أن الداعية ملتزم بأن يحسن صلته مع الجميع تنفيذاً لأمر الله القائـــــــل : ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ﴾ [٣] يبين الزمخشري في تفسيره هذه الطوائف فيذكر أن ذا القربى كل ما بينك وبينه قربى من أخ أو عم أو غيرهما ، والجار ذي القربى هو من قرب جواره ، والجار الجنب من بعد جواره ، وهو أجنبي ، والصاحب بالجنب الذي

---

[٢] سورة إبراهيم الآية (٤١)
[١] سورة الحشر الآية (١٠)
[٢] سورة الحشر الآية (٩)
[٣] سورة النساء الآية (٣٦)

صحبك فى أمر ما أو المرأة ، وابن السبيل المسافر المنقطع أو الضيف [1] ويجب أن تأخذ هذه الصلة الحسنة أشكالها المتعددة فهى على الخير والبر المأمور بهما فى قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ﴾ [2] وهى نصيحة خيرة، وتواص بها لأنها من صفاتهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [3] وهى أمر بالمعروف ونهى عن المنكر اللذان هما أساس خيريتهم كما أخبر الله : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [4] وسبب فلاحهم الذين أمروا به فى قوله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [5] .

ويجد الداعية أمامه كذلك صورة النبى " ﷺ " وتطبيقاته لهذه الصلة ، فلقد كان قبل البعثة كما وصفته زوجته خديجة (إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق) [6] وكان يشارك قومه أحداثهم الكبرى فساهم فى حرب الفجار، وحلف الفضول، وبناء الكعبة، وعاشر الرعاة والتجار، والأثرياء، والكبار، والصغار، وكان الجميع يذكرونه ويترددون إليه . فلما بعث عليه تضاعفت اهتماماته بالناس كما وصفه الله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [7] وكان يوالى الناس بالنصح والإرشاد قاصدا نجاتهم وسعادتهم ، وكان " ﷺ " يسبقهم فى كل أعمالهم ألا تراه فى يوم " بدر " يترك ابنته مريضة فى المدينة ويذهب إلى الحرب لا ليجلس فى العريش

---

[1] تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٢٦

[2] سورة المائدة الآية (٢)

[3] سورة العصر الآية (٣).

[4] سورة آل عمران الآية (١١٠)

[5] سورة آل عمران الآية (١٠٤) .

[6] صحيح البخارى ج ٩ ص ٣٨ كتاب التعبير

[7] سورة التوبة الآية (١٢٨) .

الذى بناه له الصحابة خلف الصفوف ، بل ليكون فى الصفوف، يرمى بالحصاء، ويناشد الله ، وينظم الصف حتى أشفق عليه الصديق أبو بكر " ﷺ " فقال له : بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعد وتنتهى المعركة ،ويأتيه خبر وفاة ابنته وهو عائد إلى المدينة .

وكان " ﷺ " يحاول دائماً مصلحة الناس ويتصرف وفق ذلك ، من ذلك ما ذكره " ﷺ " (يا سعد إنى لأعطى الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله فى النار)[1] فهو يعطى هذا إنقاذا له من النار ويترك غيره الأحب .

إنه " ﷺ " فى موالاته النصيحة،والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، قد ترك للمسلمين عموماً، وللدعاة على الخصوص ثروة طائلة تمدهم بالدين كله .

وعلى الجملة فإن هذه المشاركة بكل جوانبها ضرورية لمن وقف نفسه لدعوة الله حتى يأخذ الصدارة، ويتقدم الصفوف، ويكون ثقة القوم، وأملهم، ويبعد عن نقمة الحاقد ، وينجو من عداوات المعارضين .

٣ - القوة والشجاعة :

وهذه صفة أخرى تساعد على الثقة والقيادة وهى صفة تبنى على تقدير الشخص لنفسه وفهمه لواقع حياته وأتباعه لتعاليم دينه المؤكدة ، فبذلك يبعد تلقائياً عن الذل والضعف، وعن الخوف والاضطراب، لأنه يثق فى المفاهيم التالية : —

أولاً:المؤمن يجب أن يكتسب من إيمانه الثقة ويشعر بالتفضيل والكرامة لأنه بالإيمان يؤدى ما عليه ويترك ما عدا ذلك لله الذى يصرف كل شىء : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ ﴾[2] .

---

[1] صحيح مسلم ج١ ص ٩١ - كتاب الإيمان - باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه
[2] سورة الرعد الآية (٨) [3] سورة آل عمران الآية (١٧٥) .

ثانياً : الخلق كله بقبضة الخالق سبحانه وتعالى وبيده وحده النفع والضرر وكل الخلق خاضع له وما على المؤمن إلا أن يقصر خوفه على الله كما قال تعالى : ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

ثالثاً :الأجل والرزق محددان تماماً بحيث ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [١] ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [٥] وقد ثبت أن رزق الرجل يكتب بعد نفخ الروح في المضغة كما يكتب أجله وعمله [١] .

وما دامت هذه المفاهيم قد ثبتت عند الداعية فما عليه إلا أن يظهر العزة في كل حياته لأن ﴿ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٢] وهي عزة ناشئة من الإحساس بالكرامة التي أولاها الله للإنسان على العموم، وناشئة من لذة الإيمان وحلاوته عند المؤمن على الخصوص ، فإذا ما بعد الإنسان عن العزة فقد بعد عن الإيمان،ولا يقبل من المؤمن قط عذر إذا سار في مسلك ذليل فإنه بذلك يظلم نفسه وسوف يسأل ﴿ فِيمَ كُنتُمْ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا ﴾ [٣] فلن يقبل منه أنه كان ضعيفاً في بلده لأن الأرض كلها لله وهي واسعة ، وكان عليه أن يهاجر إلى مكان آمن فيه صيانة لكرامته وحماية لعزته التي يجب أن يتمسك بها بكل شدة ، ولن ينقص من قدره شيء ، وأن الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [٤] .

---

[١] سورة الأعراف الآية (٣٤) [٥] سورة هود الآية (٦)

[١] صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٩٢ - كتاب القدر

[٢] سورة المنافقون الآية (٨)

[٣] سورة النساء الآية (٩٧) .

[٤] سورة فاطر الآية (٢) .

وليس من العزة أن يظلم الإنسان غيره، أو يطغى عليه، لأن العزة خلق ممتاز يتمتع بها من يحافظ عليها لنفسه، ولغيره إنطلاقاً من فهمه لذاته، ولدينه، ولمحباه .

ومن مستلزمات هذه العزة أن يكون صاحبها شجاعاً، قوياً، فى شخصيته ورأيه لتكون خيرة فى ذاتها، ومقبولة من كافة العقول .

وقد أراد القرآن الكريم أن يبسط هذا المعنى فى الأسماع والعقول محتفلاً به وأكثر من وصف الله بالقوة ليكون ذلك إيماء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء ، وكذلك وصف بالقوة جبريل ورسله والمؤمنين حتى يتضح شرف القوة ورفعتها .

ومن القوة المطلوبة أن يملك الداعية القدرة على ضبط نفسه والسيطرة عليها بل إن ذلك هو كل القوة فى الواقع لأن النفس خيراً وشراً تتنوع بحسب قواها. وأحسن الناس من يحكم شهوته، وغضبه، فيعطى لنفسه العاقلة زمام أمره، ويتصرف بعيداً عن أى إنفعال يفسد عليه وجهته مهما كان حقاً .

يقول ابن مسكويه (*) : (شبه القدماء الإنسان وحاله مع الأنفس الثلاثة بإنسان راكب دابة قوية، ويقود كلباً ، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذى يروض دابته وكلبه ، فلا شك فى رغد عيشه وحسن أحواله ، وإن كانت البهيمة أو السبعية هى الغالبة ساءت الثلاثة) (١) ، ولذلك كانت وصية النبى " ﷺ " للصحابى الذى سأله النصيحة (لا تغضب) (٢) ليكون قوياً بحق ، فليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب (٣) .

ومن هنا يقول ابن المبارك أن المقصود من قوله تعالى : ﴿ وَجَٰهِدُواْ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ﴾ هو جهاد النفس (٤) ولذلك فالعزيز هو الذى يحكم نفسه ولا يجعلها

(*) يرى ابن مسكويه أن النفس الإنسانية لها ثلاث قوى أو هى أنواع ثلاثة بهيمية (شهوية) وغضبية (سبعية) وناطقة (عاقلة) وكل منها له قوته وتحاول التغلب على أختيها ، ويرى أن النفس الناطقة تترقى لأنها تقبل الأدب ، والبهيمية تحكم [illegible] لأنها لا [illegible] ، والإنسان [illegible] بالناطقة يشارك الملائكة ويباين البهائم

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٥٥

(٢) موطأ مالك ج ٤ ص ٤١ - ما جاء فى الغضب

(٣) موطأ مالك ج ٤ ص ٤٣ - ما جاء فى الغضب .

(٤) ذم الهوى ص ٤٠ .

تميل بالغضب الذى يفسد على الإنسان وجهته،ويحول بينه وبين الرشاد،ولذا كان من أهم صفات عباد الرحمن أنهم ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [١]

إن سيطرة العقل الهادئ تجعل الإنسان واقعياً فى الموقف فيبدى الحجة، ويظهر الرأى ، ويصل بالإقناع إلى ما يريد .

ومن هذه القوة إعلان الرأى فى ثبات لا يعرف التغير،أو التلون،بسبب محاباة أو تحامل،لأن هدفه نشر دعوته الحقه المؤيده بالدليل،وهى محفوظة لا تتغير،ولكنها تعبر وتتبلج وتعلى، فإظهارها على وجهتها وبشكل مرن هو المطلوب، مهما كان الحال أو الموقف أو القوم،ولا عليه ما دام يتجرد فى هدفه ويبعد عن الدعوة أى أثر شخصى محتمل ؛ وللداعية أسوة فى رسول الله " ﷺ " فلقد أعلن كلمة الله وهو وحده وسط قوم كافرين بها ومعارضين لها ، ومع ذلك لم يبال بأعمالهم ، لجأوا للتهديد والوعيد ، فرد عليهم قائلاً لعمه : (**لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه**) [٢] ، ولجأوا إلى محاولة إغرائه فكان ينتهز فرصة قربهم منه ويدعوهم إلى الله ، وقاطعوه وقومه فذهب إلى غيرهم من القبائل يدعوهم ؛ ولم يحدث أن غير الدعوة مع تغير الظروف وإختلافها ؛ بل كان العذاب الشديد يلحق به وببعض المسلمين،ومع ذلك كان يحث على الصبر وينتظر الأمل،ويواصل دعوته،لأنها الحق ولابد أن تعلن .

يقول الزمخشرى فى تفسيره : أن المعنى أن تجتهدوا فى إقامة العدل حتى لا تجوروا، وتقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها ؛ ولو كانت الشهادة على أنفسكم، أو آبائكم، أو أقاربكم ، ولا تمنع الشهادة بسبب فقر أو غنى) [٣]

وعلى الجملة فإن الداعية إذا جمع الصفات السابقة فإنه يكون قد وضع نفسه فى

---

[١] سورة الفرقان الآية (٦٣) .

[٢] سيرة النبى ج ١ ص ٢٧٨ .

[٣] تفسير الكشاف ج١ ص ٥٧٠ .

الطريق المستقيم لدعوته ، وحصن نفسه بأخلاق الألفة والريادة ولا عليه بعد ذلك إلا أن يملك أفقاً يمكنه من فهم الواقع ويستطيع به عرض دعوته على وجهها السليم .

الركيزة الرابعة

الملاءمة

بين الدعوة والواقع

مرت الدعوة في مكة بمراحل متعددة تدور بين السرية في الدعوة،والجهر الخاص، والجهر العام،وكان لكل مرحلة ظروفها الذي حتم صوراً معينة في أساليب ووسائل الدعوة .

وحين ننظر إلى الدعوة في العصر الحديث ، ونتأمل واقع العالم المعاصر نرى أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق ، أهمها :

أولاً : يموج العالم بموجات عديدة،ومتعارضة في المذهب، والفكر، والسلوك .

فمن الناحية الفكرية والمذهبية نرى في كل دين أقلية تلتزم به ، وأكثرية تدعيه وتطبق ما يعارضه، وتكتفي بمسميات لا مضمون لها .

والذين يتمسكون بدينهم منقسمون إلى جماعات مختلفة كل منها يدعي الحق لنفسه فقط ، ويرى أن ما عداه باطل ، ولو كان هذا الانقسام في الفروع لهان الأمر ، لكنه كثيراً ما يكون في الأصول مع أنها واحدة لا تتنوع .

ثانياً : تكتفي الدول الإسلامية برموز إسلامية على أساس أنها الإسلام فتحافظ على الشعائر الدينية كالصلاة ، والصوم ، والحج ، وتنظم الأحوال الشخصية كالزواج ، والطلاق ، والميراث وفق شرع الله تعالى ، وتترك ما عدا ذلك لقوانين البشر التي وضعها الناس لأنها تتصور أن تطبيق كافة أحكام الشريعة أمر مستحيل،أو يذهبون إلى عدم تقبل الناس لها .

ثالثا : سيطرت صورة الحياة الغربية القائمة على الفكر الوضعي على الاتجاهات الثقافية ، والفنية ، ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، وتقبل الجمهور ذلك وإن خالف تعاليم الإسلام مخالفة ظاهرة .

رابعا : تعمل أجهزة التوجيه ، والتثقيف بعيداً عن قيم الإسلام غالبا ، حيث ترى في أجهزة الإعلام الصور الخليعة ، والمسلسلات الهابطة ، والقصص والأفلام بمحتواها الضار ، ولذلك أثره السيء في التوجيه .

خامسا : برزت طبقات في المجتمع الإسلامي تنسلخ عن الإسلام باسم التنوير والتجديد ، وأصبح له صوت وأتباع ، وهي ترحب بالفكر الوضعي ، وتدافع عنه .

سادسا : تمكن الغرب المسيحي القوي ، والغني من فرض أنماطه الحياتية على العالم الإسلامي الضعيف . ولم يجد المسلمون أمامهم إلا الخضوع للقوة التي تملك المال ، والصوت ، وكل ما يحتاجه الضعفاء .

وكل مخلص للإسلام يجد نفسه أمام قوة ترقب عمله ، وتحاول هدمه بأساليبها ، ودهائها .

سابعا : يجد الدعاة أنفسهم تحت المراقبة الدقيقة لقوى العالم المختلفة ، حيث تحلل كلماتهم ، وتقرأ كتبهم ، وتتابع حركاتهم وأعمالهم ، بحيث لو رأوا خطرا في دعوتهم وعملهم ، فإن التصدي لهم يأتي سريعا تحت مسميات عديدة تجعلهم في مصاف الذين يعتدون على حرية الآخرين .

ثامنا : ألف العامة في المجتمع الإسلامي البعد عن تعاليم الإسلام ، وجهلوا الإسلام كله ، وصار علمهم بالأفلام ، والأغاني ، والأزياء ، والألعاب الرياضية هو اهتمامهم ، وهو ثقافتهم .

لقد رأيت شباب وجدتهم يعرفون أسماء ومراكز اللاعبين في الأندية الأوربية وغيرها ، وفي نفس الوقت لا يعرفون عن الإسلام إلا قليلاً .. ووجدتهم فخورين بهذه المعرفة ، غير عابئين بجهلهم أمور دينهم .

هذا هو الواقع ..

بينما الدعوة حقيقة ربانية ، حفظها الوحي ، وصانتها قلوب قلة مؤمنة ، وتحتاج إلى من يتحرك بها ، ويبلغها للناس بالحسنى وبصورة محببة ، وبمنهج يجعلها تفتح العقول والقلوب ، بعيداً عن التصادم ، والعنف ، والعدوان .

فهل يا ترى ؟!

يطبق الدعاة منهج المرحلة السرية بما فيها من التخير والانتقاء ، وترك العلن ، والاكتفاء بالاتصالات الفردية ، حتى لا يحدث تعارض ، ومخالفة .

أم يتبع الدعاة منهج الدعوة الجهرية الأولى بما فيها من الدعوة العلنية مع بقاء جمهور المسلمين في صمته ، كل في عمله ، لا يشعر بمسئوليته المباشرة تجاه الآخرين .

أم تتبع منهج الجهر العام ليقوم كل مسلم بإعلان الإسلام ، والدعوة إليه ، وتحمل مسئوليته تجاه دين الله تعالى .

إن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها بعض الناس ، لأنه تحتاج إلى دقة النظر ، والتأمل في النتائج ، وتحليل الموقف لتكون الدعوة إلى الله متلائمة مع الواقع ، وليتخذ الدعاة لكل حالة منهجها المناسب .

فهناك حالات تحتاج إلى السرية ، وأخرى يناسبها الجهر الخاص ، وثالثة تحتاج إلى الجهر العام .

والداعية هو صاحب القرار في ذلك ..

وليكن قرار الداعية واضحاً وهو يتخير الموضوع ، والوسيلة والأسلوب ..

فمن ناحية اختيار موضوع الدعوة عليه تحديد ما يريد وليركز على العقيدة لأنها أساس الدعوة ، وعليه أن يكون مع العقيدة ملتزماً بقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾[1]

---

[1] سورة العنكبوت الآية (٤٦) .

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [1] .

وحين يتكلم في العقيدة ، فإن من الأولى أن يبدأ بالأهم ثم المهم بعده ، على ضوء ما يراه مناسباً لديه ، ولمن يدعوهم .

إن غرس التوحيد في القلوب هو أساس العقيدة ، وبعده يأتي إثبات الرسالة وأركان العقيدة كلها .

وإذا ما اعتقد الإنسان أطاع كل ما يتفق مع عقيدته لأن أساس البناء هو العقيدة .

ولتكن الصورة البيانية الحسنى هي لباس العرض ، وأسلوب الدعوة ..

وعلى الداعية أن يدرك أن الدعوة السليمة لا تحتاج إلى السب واللعن ، وليس منها العدوان ، وسوء الخلق .. مع كافة المدعوين .

وحين يختار الوسيلة فعليه أن يجعلها مناسبة للناس ، فمع العلماء يكون الكتاب والمحاضرة والندوة ..

ومع متوسطي الثقافة تكون الصحيفة والبرامج التوجيهية ، ومع العامة يكون الجدل ، والحوار ، والمقارنة ... وهكذا .

ومع الأسلوب عليه أن يعود للقرآن الكريم يأخذ منه ، فلقد كان القرآن الكريم يخاطب بأسلوبه الكفار ، والمنافقين ، والمؤمنين ، ويناقش الملأ والفقراء ، ويتحدث إلى الرجال والنساء ، والكبار والصغار .. وهكذا .

ولذلك كانت الملاءمة بين الدعوة والواقع ضرورة أساسية لنجاح الدعوة .

إن العقيدة أساس البناء ، وغرسها في القلوب مهمة الدعاة...وليكن معلوما للجميع أن الشريعة تأتي تابعة للعقيدة الصحيحة بصورة تلقائية .

---

[1] سورة آل عمران الآية (٦٤)

الركيزة الخامسة

إدراك

مسئولية الدعوة

بمراجعة تاريخ الدعوات الإلهية منذ آدم " عليه السلام " إلى محمد " ﷺ " نلمس ضخامة الجهد المبذول ، والمعاناة التي بذلها الأنبياء لأداء الأمانة التي حملوها في سبيل الله تعالى .

ولذلك نشير إلى ضرورة إدراك هذه الحقيقة ليقوم الجميع بما يجب عليه إزاء الدعوة .

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى إخلاص المسلمين جميعاً ، وخير للدعوة أن تتكاتف الأمة كلها في هذا المجال .

لقد رأينا رسول الله " ﷺ " يقوم بالدعوة ، ويقوم معه كل من يدخل في الإسلام ، ولذلك أخذت الدعوة الصورة الجماعية منذ الجهر بها ، ولم يحدث مرة أن الرسول " ﷺ " كان في اتجاه ، وكان المسلمون في اتجاه آخر ، ورأينا ـ كذلك ـ المسلمين وهم يدعون إلى الله في صورة تقرب الناس إليهم ، وتعرفهم الإسلام برفق وهدوء ، وتدعو إلى الله بالحسنى والخلق الجميل .

ورأينا أصحاب رسول الله " ﷺ " رغم الضعف ، والقلة يقومون بالدعوة ويضيفون للإسلام أتباعاً ، مؤمنين ، صادقين ، فلقد أدخل مصعب بن عمير الإسلام في كل بيوت المدينة .. وعاش جعفر بن أبي طالب في الحبشة داعيا محبوبا بين خير المسلمين .

وليس من فقه الدعوة أن نخاطب الناس بما ينفرهم من دين الله تعالى ، فلقد علمنا الله أن نقول لأهل الكتاب ﴿ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ ﴾ ونقول لهم : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

وليس من فقه الدعوة أن يصطدم الدعاة مع المسئولين ، عن طريق التشهير ، ونشر النقد بصوت مسموع، لأن كثيراً من المسئولين يحتاجون إلى النصح الهادئ ، والكلمة الصادقة يسمعونها بخلق الإسلام ، وسلوك المؤمنين .

وليس من فقه الدعوة أن يتفرق الدعاة إلى شيع وفرق ، لأن ضرر هذا أكثر من نفعه ، وكيف يتصور الدعاة أنهم ينادون للتوحيد ، وهم يتقسمون حتى يخيل إلى الناس أن لكل جماعة دعوة ، وأن لكل فريق إله .

إن أصحاب الهوى والغرض أفسدوا ما بين الدعاة والحكام، فانقسم العالم الإسلامي على نفسه ، وأصبح صراعه مع ذاته، وخير للإسلام أن يكون الأمر على غير هذا النمط .

إن من فقه الدعوة أن يكون العلماء والأمراء معاً في طريق واحد ، لغاية واحدة ، وخاصة أنهم جميعاً في الأمة الإسلامية يعملون لله ورسوله .

وإني لعلى يقين من أن العلماء إذا تمكنوا من عرض الإسلام بصورته النقية ، الصحيحة ، بعيداً عن التشنجات المذهبية ، والعصبية الفكرية فإنهم سيحققون به ومعه نهضة إسلامية تفيد العالم كله .

إن ملامح الخطاب الديني الإسلامي يقوم على الأسس التالية : ــ

أولا : أن يكون محدد الموضوع ، واضح الهدف ، في إطار المشروعية الإسلامية .

ثانيا : الإلتزام بشرف الوسيلة ، وحسن الأسلوب ، وجمال الطلب .

ثالثا : مراعاة حق المخاطب في الفهم ، والمناقشة ، وحرية إتخاذ ما يرى .

رابعا : ضرورة الإلتزام بالمرجعية الإسلامية بمصادرها المعروفة في كل جوانب عملية الدعوة .

ولكل هذا كان إدراك مسئولية الدعوة ، والوقوف على أبعاد هذه المسئولية ضرورة هامة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

الركيزة السادسة
دور المرأة المسلمة
فى الدعوة

المرأة نصف المجتمع أكرمها الله تعالى ، وجعلها من الرجل، ومعه ﴿ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ﴾ فتحقق لها بالإسلام الحقوق التى كانت محرومة منها .

وقد كلف الله تعالى المرأة بالإسلام ، وحدد لها دورها فى إطار أسرة كريمة ، وفى حركة مجتمع طاهر ، ولعل ما نشير إليه هنا دورها فى حركة الدعوة إلى الله تعالى فالمرأة هى أم الرسول " ﷺ " ، وهى التى أرضعته ، ونشأته وأشرفت على تربيته .

وهى زوجة الرسول ، آمنت به ، وصدقت برسالته ، وأعنته بمالها ، ويسرت له الطريق بأمر الله تعالى فكانت خير عون على تبليغ الرسالة .

لقد كانت خديجة " رضى الله عنها " بأمر الله خير معين لرسول الله "ﷺ" تتبع خبره ، وتطمئن عليه ، وتسعى لتعرف حقيقة ما كان يراه الرسول " ﷺ " فى مبدأ بعثته " ﷺ " .

ولقد شاركت المرأة العربية فى مكة فى حركة الدعوة منذ البداية .. وها هى زوجة عمار ، تتحمل الأذى فى سبيل الله تعالى ، وتتقبل الموت راضية مرضية ، لتصير أول شهيدة فى الإسلام .

وهناك عدد من السابقات إلى الإسلام،منهن من هاجر إلى الحبشة ، ومنهن من هاجرت إلى المدينة ، ومنهن من بقيت صامدة فى مكة .

وقد اشتركت امرأتان في بيعة العقبة الثانية، وبايعتا رسول الله بيعة الحرب ، وصدقتا في بيعتيهما،فلقد سقطت أم عمارة جريحة في غزوة احد ،وفي جسدها اثنا عشر جرحا

وتلك إشارات تؤكد دور المرأة فى حركة الدعوة إلى الله تعالى،ويجب على المسلمين تنشئة بناتهم على الإيمان الصادق،وحب الدعوة إلى الله،ومقاومة الأمر

بالمعروف،والنهى عن المنكر لتكون المرأة هي المدرسة الصالحة لتخريج جيل صالح، مؤمن .

والمرأة فى العصر الحديث يمكنها أن تؤدى للدعوة خدمات جليلة عن طريق أبنائها وبناتها، ويمكن أن تحيط أسرتها بسياج يحميها من أى فساد فى الخلق والسلوك .

ويمكن للمرأة المسلمة أن تحول بيتها إلى مركز للإشعاع والخير لأولادها ولجاراتها ، وصديقاتها ، فتستفيد بأوقات الفراغ فى مدارسة فكرة دينية ، أو حفظ آية قرآنية ، أو قراءة حديث نبوى شريف .

إن المرأة المسلمة يمكنها عن طريق الاشتراك فى الجمعيات الخيرية ، والوطنية من تقديم الإسلام عملياً لأخواتها ، وبذلك تكون سبباً فى تعليم الإسلام للناس .

إن الفراغ عند المرأة كثير، وبدل أن يضيع فى متابعة الأفلام ، والمسلسلات ، والجلوس الطويل أمام التليفزيون يمكنها أن تحول بيتها إلى مدرسة صغيرة ، تتلى فيه آيات الله والحكمة ، وذلك فضل يوفق الله من يشاء من عباده له .

إن الإسلام لم يقف حائلاً أمام المرأة أبدا،فهى نصف المجتمع،وأمها،وأخواتها ، وبناتها ، وصديقاتها ، وجيرانها فى حاجة إليها .

ويوم أن تقوم المرأة المسلمة بواجبها فإنها تقدم عملاً عظيماً للمجتمع وللناس

ولم يبخل الإسلام على المرأة بعلم أو تعليم ، فطلبها العلم فريضة كطلب الرجل له ، وقيامها بالتدريس والدعوة أمر مقرر فى دين الله تعالى : وها هى السيدة عائشة " رضى الله عنها " تروى الأحاديث لأصحاب رسول الله " ﷺ " وأتباعه ، وكانت مصدر فتوى للمسلمين ، ولقد شاركت فى الحياة العامة،والأنشطة العملية .

ومن هنا نؤكد على ضرورة اشتراك المرأة المسلمة فى حركة الدعوة استنباطاً من سيرة رسول الله " ﷺ " وحركته بالدعوة إلى الله تعالى .

* * *

الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

وبعــد ،،،

فلقد انتهيت من كتابة المرحلة المكية ، ووقفت بها عند بدايات الهجرة لأنني أرى الهجرة بداية المرحلة المدنية .

وحاولت أن أكتب السيرة النبوية بالتفصيل لأعيش مع رسول الله " ﷺ " فى حياته وأوصافه ، وشمائله لأحقق أملاً عشته طويلاً، وعشت مع حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة وهو يتنقل بها بين القبائل والأماكن العديدة ، لأرى منهجية العمل لخدمة الإسلام ، ونفع الناس أجمعين .

ثم كانـــت أهم الركائز التى استنبطتها من السيرة النبوية ، والحركة بالدعوة خلال هذه الفترة .

وآملى ..

أن يكـــون كتابى هذا مفيداً فى السيرة والدعوة، ومرجعاً للمسلم العادى ، وللدارس المثقف ، والعالم المجتهد .

وأعتذر عن كل تقصير وقع منى لأن التقصير من لوازم أى عمل بشرى ..

وأســأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل خالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ، وأن يجعلــه لى فى الدنيا ذكرى ، وفى الآخرة نوراً وذخراً ، وأن ينفعنى به يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ..

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

المؤلف

فهرست الموضوعات



فهرس الموضوعات

الموضـــــــــــــوع	رقم الصفحـــــة

المبحث الثاني

ملاءمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام

الموضـــــــــــــــوع رقم الصفحـــة

المبحث الخامس

المبحث السادس

المبحث السابع

المبحث الثامن

المبحث التاسع

المقدمات العملية للبعثة النبوية

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــــــــــــــــوع رقم الصفحة

الموضـــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــــــوع	رقم الصفحـــة

الموضـــــــــــــــــــــوع	رقم الصفحة

الموضـــــــــــــــــوع	رقم الصفحة

* * *

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين